

الفتوحات الإلهية

أحمد بن محمد بن عجمية الحسيني

محقق

عبد الرحمن بن حسين محمود

عفا الله عنه



مكتبة النجف

ميراثي سيدنا الحسين - الأثر الشريف
م - ب - الفهرسة ١٣٢٩ هـ رقم ٥٦
٥٨٩٧٦٦١

الفتوحات الإلهية في شرح المباحث الأصلية

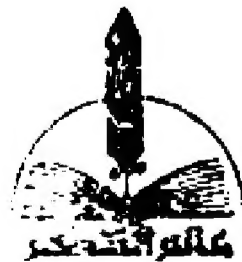
تأليف

أحمد بن محمد بن عجيبة أحمسي

راجعته وحققه وقدم له

خادم المسلمين

عبد الرحمن حسن محمود



ميدان سيدنا الحسين - الأزهر الشريف

هاتف ٩٣٦٦.٩

مُعْتَمِدَةٌ

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلّى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم

وبعد :

يقول رسول الله ﷺ في الحديث الذي رواه الديلمي في مسند الفردوس :

« الدنيا حرام على أهل الآخرة ، والآخرة حرام على أهل الدنيا ،
والدنيا والآخرة حرام على أهل الله .. »
(صدق رسول الله ﷺ)

المقصود من هذا الحديث - والله اعلم - ان راغب الدنيا لا يمكن ان
يكون راغبا في الآخر ، لأن زخرف الدنيا ويهرجها قد أعمى عين قلبه عن
رؤية الحقائق . فاصبح لا هم له إلا الجمع والمنع :

جمعها من حرام او حلال ، او منهما معا .

ومنعها عن مستحقها الذين فرض الله لهم فريضة في اموالهم .

فلذلك حرمت عليه الآخرة أي : الجنة ونعيمها وما فيها ، فلا يكون
من المكرمين .

واما أهل الآخرة ، فإنهم ابتغوا الاجر من الله ، وعملوا على رضا
ولم يكن دينهم ولا هجتيراهم إلا رضا الله تبارك وتعالى .

فلذلك هانت عليهم الدنيا بحذاقيها فباعوها ، واشتروا ما عند الله
من نعيم مقيم .

واما أهل الله ، فأولئك الذين لاشأن لهم بالدنيا ولا بالآخرة لأنهم
لحبوا الله تعالى وشغلوا به .

ورد ان عبد الله بن محمد سمع امرأة من المتعبدات تقول وهى تبكى
والدموع على خدها جارية :

« والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لاستريته
شوقا إلى الله تعالى وحبا للقاءه » .

قال : فقلت لها : فعلى ثقة انت من عمك ؟

قالت : لا ، ولكنى لحبى إياه وحسن ظنى به ، افتراه يعذبنى وأنا
أحبه ؟ « انتهى كلامها رضى الله عنها .

وقد اجاب على هذا السؤال رجل منهم ، التقى مع أحد العلماء فظن
العالم أن الرجل أحد المجاذيب الذين لا يدركون شيئا ، فأخذ يوبخه •
فقال له الصوفى : اتحفظ القرآن ؟ قال : نعم قال : أين تجد فيه أن الحبيب
لا يعذب حبيبه ، فوقف الرجل هنيهة ، ثم قال : لا أدري ، فقال له :

« ألم يقل الله تعالى » :

« وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ، قل فلم يعذبكم
بذنوبكم ، بل انتم بشر ممن خلق (١) » فبهت الرجل وذهب الى حال
سبيله ، وعرف ان القوم على صلة بالله .

• • •

ورد ان من اهل الجنة اناسا لو حجب الله عنهم طرفة عين لاستغاثوا
من الجنة ونعيمها كما يستغيث المستغيث من النار وعذابها .

وقال الثورى لرابعة العدوية : ما حقيقة إيمانك ؟

قالت : « ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا فى جنته فاكون كالأجير
السوء ، بل عبدته حبا له وشوقا إليه » .

تريد بالأجير السوء : الشخص الذى يستاجر لعمل ما • فإذا ما قضى
عمله طالب بالأجر • وهو لا يدري ايقبل صاحب العمل عمله هذا أم يرده
لعيب فيه ؟

وقد قال الإمام الشعراني رضى الله عنه ما معناه : إن الله سبحانه وتعالى شرط شرطا لقبول للعمل فقال : أنا لانضيع أجر من أحسن عملا (١) ولنا يحصى أنه أحسن العمل حتى يطلب الأجر .

وقال الإمام الغزالي عن السيدة رابعة لما قالت :
أحبك حبين ، حب الهوى وحبا لأنك أهل لذاكا

قال : لعلها أرادت بحب الهوى : حب الله لإحسانه إليها وانعامه عليها بحظوظ العاجلة . ويحبه لما هو أهل له : الحب لجماله وجلاله إذ انكشف لها .
وهو أعلا الحبين ولقواهما .

...

قال الفضيل بن عياض رحمه الله تعالى .

« العالم طبيب الدين ، والدنيا داء الدين ، فإذا كان الطبيب يجر الداء إلى نفسه فمتى يبرىء غيره ؟ »

في الواقع أن هذه الجملة « والدنيا داء الدين » هي عنصر التصوف الاصيل والاقوم ، ودائرة قطبه الأقخم إذ الدنيا والدين لا يجتمعان في قلب عبد أبداً . . . إما دنيا وإما دين . . . لا ثالث لهما .

ولذلك قال رسول الله ﷺ في ما رواه البيهقي في شعب الإيمان :
« حب الدنيا رأس كل خطيئة » يفيد أن حب الآخرة ورضى الله رأس كل حسنة ، إذ بضدها تتميز الأشياء .

وقوله ﷺ : « من أحب دنياه أضرب آخرته » إلى آخره واضح بين لا ينكره إلا من طمس على قلبه والعياذ بالله .

...

قوله تعالى - ويطعمون الطعام على حبه - اى على حب الله - على احد التفسيرين ، وذلك أعلى مراتب الايمان والعبودية لله رب العالمين .

والتفسير الآخر - على حب الطعام - لحاجتهم إليه ، وهو صحيح ايضا ، إذ فيه الايثار فى وقت الحاجة ، الذى عبر الله تعالى عنه بقوله جل شأنه :

- ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة -

ولما كان الايثار محبوبا لله تعالى عتّب الآية بقوله تبارك وتعالى :
- ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون - .

والشح مضاد لحب الله ، لأن الدنيا لاتنخلع من قلبه حتى يأكله القراب ويذوب فى القبر .

...

تقول السيدة عائشة بنت ابي عثمان رحمها الله تعالى :

« من تهاون بالعبيد فقللة معرفته بالسيد ، فمن احب الصانع احب صنيعه » .

وهذا الذى ذكرته هذه المرأة الصالحة له مغزاه الصحيح ، فالمسلم لا يبغض الا من يبغض الله تعالى .

ولم يدلك الله على انه يبغض شخصا بعينه ، إلا ماورد فى القرآن او صحيح السنة ، فانت مأمور بان تبغضهم باعيانهم ، لأن الله قال لك إنه يبغضهم ، والذى يبغضه الله هالك لا محالة .

وأما غير ذلك ، فعواقب الناس معلومة لله وحده ، مجهولة لكل الخلق

ولذلك انت مطالب بان تحب كل مسلم ، لأنه اسلم نفسه لله رب العالمين .

وان تبغض الكافر لكفره ، فإذا ما ذهب منه الكفر واسلم كان محبوبا لك .

وقد قيل « ابغض الصفة ولا تبغض الموصوف » فإن الموصوف بصفة الكفر والنفاق مثلا ربما زالت عنه هذه الصفة وختم له بالإيمان ، ولذلك غضب رسول الله ﷺ لما قتل أسامة بن زيد الرجل الذي أسلم أثناء الحرب وذلك لأن الصفة التي حورب من أجلها زالت عنه في ظاهر الأمر .

فابغض صفة الكفر وحاربه عليها ، وأحب صفة الإيمان وصادقه وأخه عليها .

واياك أيها العاقل أن تتكلم في عواقب الخلق وخواتيم أعمالهم فإن الكلام فيه مهلكة أي مهلكة .

ولذلك قال رسول الله ﷺ .

« من أحب الله ، وابغض الله ، وأعطى الله ، ومنع الله ، فقد استكمل الإيمان » .

(رواه أبو داود)

فقوله عليه الصلاة والسلام « الله » توجب على المسلم أن يكون فطرته كله مجردا لله وحسب ، وذلك هو قمة الاسلام والتصوف .

• • •

هذا الذي ذكرته لك أيها الأخ القارئ الكريم ، ليس هو أخلاطا من كلام شتى كما ستظن . ولكنه زهرات من بساتين قمة الاسلام « التصوف » وهو موضوع كتابنا الذي نقدم له .

هذه نتف من اخلاق القوم ، اخلاق اهل الحق رضى الله عنهم وارضاهم ، منها وعننا نعرف ان التصوف إن هو إلا السير على خطا رسول الله ﷺ .

- وعندما أقول لك « التصوف » لا أقصد هذا التهريج الذي تراه - وإنما أقصد سلوك اهل الحق العارفين بالله .

• • •

من قال : إن التصوف مجانف للإسلام فهو المجانف للحق ، لأن التصوف كله من أوله إلى آخره إن هو إلا التجرد لله في كل أعمالك وذلك قمة الاسلام .

لِذَا تَجَرَدْتَ فِي كُلِّ أَعْمَالِكَ لِلَّهِ ، فَانْتَصِفْ ، سِوَاءِ انْتَسَبْتَ
إِلَى طَرِيقٍ مُعَيَّنَةٍ أَمْ لَا .

وَعَلَى هَذَا الْأَسَاسِ يَجِبُ عَلَيْكَ إِلَّا تَبْغِضَ الصُّوفِيَّةَ فَتَبْغِضَ مَا يَحِبُّ
اللَّهُ وَرَسُولُهُ ، فَتَقَعُ فِي الشَّرَكِ .

• • •

قَالُوا إِنْ كَلِمَةُ « تَصَوَّفَ » لَمْ تَرُدْ فِي الْإِسْلَامِ :

رَغِمَ أَنْنَا نَقُولُ : إِنْ أَغْلِبَ الْمَسْمِيَّاتُ الْمَعْرُوفَةُ لَنَا الْآنَ كَعِلْمِ أَصُولِ
الْفَقْهِ وَعِلْمِ أَصُولِ الْحَدِيثِ ، وَمَصْطَلَحِ الْحَدِيثِ ، وَالْمَعْقُولَاتِ ، وَالْمَنْقُولَاتِ ،
وَمَا إِلَى ذَلِكَ مِنْ مَسْمِيَّاتٍ كَثِيرَةٍ لَمْ تَكُنْ فِي عَهْدِ نَزُولِ الرِّسَالَةِ ، وَلَكِنَّهَا
وُضِعَتْ فِيمَا بَعْدَ لِمَقْتَضِيَّاتِ الْحَالِ .

رَغِمَ هَذَا نَقُولُ : إِنْ التَّصَوُّفَ لَهُ أَصْلٌ كَبِيرٌ فِي الْإِسْلَامِ ، إِذْ كَانَ هُوَ
الْحَيَاةُ الْعَمَلِيَّةُ لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَأَصْحَابِهِ ، وَلَا يَنْكَرُ ذَلِكَ إِلَّا مَنْ عَمِيَ عَنِ
طَرِيقِ الْحَقِّ وَاتَّبَعَ طَرِيقَ الضَّلَالَةِ وَالْعِيَاذُ بِاللَّهِ .

وَقَدْ سَبَقَ أَنْ ذَكَرْتُ شَيْئًا مِنْ اخْتِلَافِ الْقَوْمِ ، وَقُلْتُ لَكُمْ إِنَّهُمْ سَارُوا عَلَى
أَثَرِ قَدَمِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ .

• • •

وَالْآنَ قَدْ أَنْ أَلَوَانُ لَأَنْ أَسْرِدُ عَلَيْكَ بَعْضَ شَيْءٍ مِنْ خَلْقِ أَصْحَابِ
رَسُولِ اللَّهِ ﷺ حَتَّى تَكُونَ عَلَى بَيِّنَةٍ مِنْ أَمْرِكَ .

(١) لَمَّا هَاجَرِ الْمُسْلِمُونَ مِنْ مَكَّةَ وَغَيْرِهَا إِلَى الْمَدِينَةِ الْمُشْرِفَةِ ، أَلَمْ
يَتْرَكُوا أَمْوَالَهُمْ وَدِيَارَهُمْ ، وَأَوْلَادَهُمْ وَأَحِبَّ شَيْءٍ إِلَيْهِمْ .

لَمْ فَعَلُوا ذَلِكَ ؟

أَلَمْ يَفْعَلُوهُ حُبًّا فِي اللَّهِ وَرَسُولِهِ .

هَلْ مِنَ الْمُنْكَرِينَ عَلَى التَّصَرُّفِ مِنْ يَفْعَلُ مِنْ ذَلِكَ مِنْ شَيْءٍ ؟ أَمْ
إِنَّهُمْ الْآنَ يَهَاجِرُونَ إِلَى مَوَاطِنِ الْأَمْوَالِ لِيَتَرَعَوْا مِنْ حَثَالَتِ الدُّنْيَا
وَمُسْتَنْقَعَاتِ الْبُتْرُولِ .

الذى يدعوا اليه التصوف : الهجرة لله إذا هاجرت ، لينتفع بك المسلمون ، « المسلم أينما وقع نفع » .

أما أن تهاجر لجمع المال وتزعم أنك مهاجر لله ، فلا ، والف لا .
لا يجتمعان فى قلب : حب الدنيا وحب الله .

اننى لا ادعوك لأن تهاجر وطنك وولدتك واهلك وتخرج منهم ،
فإن رسول الله ﷺ قال : « لا هجرة بعد فتح مكة » .
(رواه البخارى) .

ولكنى ادعوك لأن تكون هجرتك لله ... الله وحب ، وعندئذ
ستجد الدنيا بخذافيرها تحت قدميك .

يقول لك التصوف : اهجرا لول ماتهجرا : اخلاقك السوء ، فإذا فعلت
فإنك مهاجر .

ولذلك قالوا : إذا اردت أن تهجر احداً من المسلمين ، فاهجر أنت
اخلاقك السوء أولاً .

وأول خلق سوء يجب أن تهجره هو : هجر المسلم .

(٢) الانصار : لما ذهب إليهم المهاجرون ، ألم يشاركوهم اموالهم
وديارهم ، وحتى بلغ بهم الأمر أنهم كانوا إذا راوا رجلاً من المهاجرين غير
متزوج طلق احدهم إحدى نسائه ليتزوجها اخوه المهاجر .

اليس هذا الإيثار هو قمة الإسلام .

لمن هذه الهجرة وهذا الايثار ؟ اليس هو لله رب العالمين حبا فى ذات
الله .

كذلك الصوفية يفعلون . ، يحبون الله ، ويبغضون الله ، ويأمرون الله
وينهون الله ، ويمشون الله ، ويقفون الله ، وينامون لله ، ويستيقظون لله ،
ويسعون لقضاء حوائج المسلمين الله . ولا يسعون لقضاء شئىء فيه غضب
من الله أبداً .

نظر النبي ﷺ الى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به . فقال النبي ﷺ :

« انظروا الى هذا الرجل الذي قد نور الله قلبه ، لقد رأيت بين
أبوين يغذوانه بالطيب الطعام والشراب . فدعاه حب الله ورسوله الى
ما ترون »
(رواه أبو نعيم في الحلية)

فما لهؤلاء لا يكادون يفقهون حديثا .

• • •

قال رسول الله ﷺ في مارواه البيهقي في شعب الإيمان :

« أنزل الله جبريل في أحسن ما كان ياتيني في صورة ، فقال : ان
الله تعالى يقرئك السلام يا محمد ويقول لك :

إنى أوحيت الى الدنيا ان تمررى وتكدرى ، وتضيقي وتشددى على
أوليائى كى يحبوا لقائى ، فإنى خلقتها سجنأ لأوليائى وجنة لأعدائى » .

ومن ذلك قول النبي ﷺ :

« الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر »

رواه الإمام أحمد ، ومسلم ، والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة .
والطبرانى ، والحاكم عن مسلم ، والبزار عن عبد الله بن عمر رضى الله
عنهم جميعا

وقال رسول الله ﷺ :

« الدنيا سجن المؤمن وسنة الكافر ، فإذا فارق الدنيا فارق السجن والسنة »

(رواه الإمام أحمد ، والطبرانى ، وأبو نعيم في الحلية ، والحاكم) .

وروى « ابن لال » قول النبي ﷺ :

« الدنيا لا تصفو لمؤمن ، كيف وهى سجنه وبلاؤه » ٢١١

وهكذا وضعها التصوف - اى الدنيا - فى الموضع اللائق بها ، ففهم
لم يخلقوا لها ، وإنما خلقوا للعبادة تنفيذا لقوله تعالى : - وما خلقت الجن
والإنس إلا ليعبدون (١) .

...

الذين لا يحبون التصوف ووضعوا حوله الاقاويل الملفقة إنما فعلوا ذلك
لأن الدنيا ملكت عليهم كل شىء ، حتى كانت هى قلوبهم وافئدتهم : بها
يمشون ، ويجلسون ، ويقومون ، ويقعدون ، وفيها ينامون ، وعليها
يتكلمون .

ضربت عليهم اطنابها من كل وجه فاحبوها من سويداء قلوبهم ،
فكيف يترك الحبيب حبيبه ؟؟

ولكن الصوفية الملتزمين بسنة رسول الله ﷺ هربوا منها كما يهرب
الإنسان من النار ، وهم يملكونها ولا تملكهم ، وهى الصفة التى احبها
رسول الله ﷺ لأصحابه فى مثل قوله عليه الصلاة والسلام :

« كيف مكم إذا غدا أحدكم فى حلة وراح فى حلة ، ووضعت بين يديه
صحفة ورفعت أخرى ، ومترتم بيوتكم كما تستر الكعبة . انتم اليوم خير
منكم يومئذ »

(رواه الترمذى)

على اننا لانقول ابداً إن الدنيا هى المال والكسب والسعى على الرزق ،
وانما نقول : ان الدنيا هى الكسب الخبيث الذى قلنا عنه آنفاً : جمع
المال من غير حله ، وانفاقه على غير أهله . اللهم اجعلها فى أيدينا
ولا تجعلها فى قلوبنا .

...

أصول التصوف :

أصول التصوف خمسة :

(١) تقوى الله فى السر والعلن

(٢) اتباع السنة : قولاً وعملاً

(١) سورة الذاريات ، الآية : ٥٦

(٣) الاعراض عن الخلق

(٤) الرضا من الله بالقليل والكثير

(٥) الرجوع الى الله في الصرا، والضراء

التصوف والحديث الشريف :

قال الجنيد (سيد الطائفة) رحمه الله ورضي عنه :

« علمنا هذا مقبدا بالكتاب والسنة ، فمن لم يكتب الحديث ويجالس العلماء : لا يقتدي به في هذا الشأن » .

وقول إمام الصوفية أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه : لو غاب عن رسول الله ﷺ طرفة عين ما عدت نفسي من المسلمين : يفيد مما يفيد : أنه مراقب لرسول الله ﷺ في كل حركاته وسكناته ، وأنه لو لم يقتد في لحظة برسول الله ﷺ لكان كما قال : أي إنه في قلبه يقول : هذا أمر به رسول الله ﷺ وهذا لم يامر به رسول الله ﷺ . وهكذا هو مراقب لحركات رسول الله ﷺ في كل حياته .

يعنى انه يتصور امره ونهيه في كل حين .

على ان الصوفية الحق في رؤية رسول الله ﷺ بهذه الصفة اصناف :

منهم من يراه مباركا له ومحبا ، فهو يراه في المنام كثيرا ، ويكون دليله في طريقه الى الله .

ومنهم من يراه في عين قلبه ، لأن قلبه لا يغفل لحظة عن الصلاة والسلام عليه ﷺ .

وهكذا جل احوالهم مع الله ورسوله ﷺ ، ونسال الله ان يرزقنا حسن الادب .

التصوف واللغة

على ان اصل التصوف كلمة غير مجهولة لغة ، فمثلا :

(١) أخذ بصوف رقبتة وبصافها : بتجلده ، او بشعره المتدلى فى
قفاه او بقفاه جمعاء او اخذه قهرا اه قاموس .

فالصوفى يملك بدينه هكذا : يملك بصوف رقبة نفسه وياخذها قهرا
الى الله ويلزمها ذلك حتى تمرن وتصبح العبادة لها عادة محبوبة مالوفة .

(٢) صوف : أبوحى من العرب كانوا يخدمون الكعبة ويجيزون
الحجاج .

وكذلك الصوفى يخدم دينه ويجيز نفسه وغيره من عذاب الله تعالى .

(٣) قوم من افناء القبائل تجمعوا وتشابكوا كتشابك الصوف .

كذلك الصوفية يتشابكون قلبا وقالبا كتشابك الصوف .

(٤) صاف الكباش فهو صَوَف : اذا كبر صوفه وحماه من البرد والحر

كذلك الصوفى يحميه دينه من المعاصى والذنوب ، لانه تربي على
الحمية الدينية والعزة الإلهية .

(٥) صاف السهم : عدل

وكذلك الصوفى يعدل عن القبائح والذنوب

(٦) اصاف عنى وجهه : امال

وكذلك الصوفى يميل عن كل ما يغضب الله ورسوله صلى الله عليه وسلم .

(٧) اصاف الله عنى شره : اماله عنى

وكذلك الصوفى يصرف الله عنه كل سىء ويهيؤه لكل جميل

ويعصره عن الدنبا لأنه محبوب الله تعالى : لا يريد غير الله .

وفى بلاد الصعيد يستعملون كلمة « صاف القمح » إذا استوى استواء تاما وقارب السقوط .

وكذلك الصوفى يستوى قلبه من ذكر الله حتى لا يوجد فيه شيء غير الله والله تعالى اعلم .

التصوف الصحيح والادعاء

التصوف الحقيقى : التزام الطريق السوى على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ كما قلت لك واننا مطالبون أمام الله تعالى بدينه الذى شرعه لنا على لسان رسوله ﷺ ، ولن ينفعنا شيخ الطريقة اذا لم يكن هو نفسه ملتزما .

فياك يا اخى وادعياء سوء ، الذين لاهم لهم الا ملء بطونهم وكروشهم وحسب فإنهم هم الذين جلبوا علينا هذا العار والنكد ، وكانوا السبب فى طول الالسة بالباطل .

فحاول أيها المحب لدينك وعقيدتك ان تكون بعيدا عن الشبهات والاباطيل ، فإننا الآن فى ساحة الدنيا ومعناها ، وغدا فى ضيق الحشر وظلماته ، ولن ينجيك الا نور القرآن والاسلام والتدين الصحيح والمير على طريق الصوفية الاصلاء . ودع عنك مداخل سوء ومواقف البهتان .

ونعيدها مرة ومرة والى مرة : التصوف الصحيح هو : الاسلام ، فلا تشوه وجه اسلامك أيها الاخ الصوفى الاصيل .

هذا الكتاب الذى قدمنا له .

وهذا الكتاب الذى قدمنا له هو نبراس التصوف الصحيح الذى لاشك فيه بلذن الله تعالى .

والحق ، اننى مهما قلت لك عنه فلن أوفيه حقه لأنك ستري فيه

للكلام ببسط عن : المحبة والشوق ، والسلوك ، والانقياد ، والأخوة
والتلمذة الطيبة ، والعلم ، والعمل ، وما الى ذلك مما يطول الكلام عنه .

وأخيرا أقول لك ما قال الأول :

تمتع من شميم عرار نجد . . . فما بعد العشية من عرار

وه الحمد في الأولى والآخرة وله الكبرياء في السماوات والأرض

وصلى الله على صاحب الشفاعة العظمى والصغرى يوم القيامة
والعرض .

ورحم الله امرأ دعى لنا ولمؤلفه وقارئه ونشره وسامعه والمسلمين
جميعا بخير ، وجزاه الله عنا افضل الجزاء .

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده
« قرآن كريم ،

يقول العبد الفقير الى مولاه الغنى به عما سواه أحمد بن
محمد بن عجيبة الحسنى لطف الله به وحياء :

الحمد لله بجميع المحامد الأصلية: القديمة والفرعية ، فهو المحمود ، وهو الحامد ، لاختصاصه
بنهاية الأحدية ، الغنى الكريم . الماجد القديم ، الأزل بلا بداية ولا أولية ، الفرد
الصمد ، الواحد الباقي بلا نهاية ولا آخرية .

نحمده تعالى ونشكره على ما خوله وأولاه من أياديه الأبدية
ونستعينه سبحانه ونستنصره على سلوك طريق حضرته القدسية
ونشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، المنزه عن الشريك والغيرية ، المقدس عن
الحلول والاتحاد وثبوت السوية

ونشهد أن سيدنا ومولانا محمداً رسوله ومصطفاه ، المختص بالنزاهة الأصلية ، من
غير معاناة تخلية ولا تحلية ، صلى الله عليه وسلم ، وعلى آله وأصحابه وعترته وأحزابه ،
المنزهين عن الأخلاق الدنية ، الموصوفين بمحاسن الأخلاق السنية .

أما بعد كل شيء وقبله : فأعظم الوسائل إلى الله سلوك طريق الأدب والتربية ،
وأقرب ما يوصل العبد إلى مولاه صحبة العارفين ذوى الهمم العالية والتربية للنبوة ،
والتأديب بين يدي المشايخ : أهل النزاهة والتصفية ، على اختلاف مقاماتهم وأحوالهم من :
عباد ، وزهاد ، وفقراء ، وصوفية ، والبحث عن سيرهم وأحوالهم ، والتأديب بأدائهم
المرضية ، والتحقيق بأخلاقهم وشيمهم أزكية ، وأجل من يبحث عن سنتهم الدارسة وما ترم
السنية ، الفقيه الصوفى ابن البنا السرقسطى فى « مباحثه الأصلية » ، فله دره ، لقد حرر
فيه المعنى ، وبين فيه المبنى ، فبلغ فيه غاية القصد والمنى ، بلفظ مختصر بديع ، ونظم سلس
رائق رفيع ، بين فيه أصول الطريق ، وأظهر فيه معالم التحقيق ، فأردت بعون الله أن

أضع عليه شرحاً متوسطاً ، ليس بالطويل الممل ولا بالقصير المخجل . يبين المعنى ، ويحقق المبني ، حملني عليه أمر شيخنا العارف الواصل المحقق الكامل سيدي محمد بن أحمد البوزيدي الحسيني ، فأجبت رغبته ، وأسعفت طلبته ، عسى أن ينتفع به الخاص والعام ، فيكون معراجاً وسليماً لارتقاء درجة المعرفة على التمام ، وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب ، وحسبي الله ونعم الوكيل ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ، وصحبه وفتوحاته الإلهية في شرح المباحث الأصلية ، نسال الله تعالى أن يفتح على من كتبه أو طالع له أو حصله أو سمعه أو اعتقده أو انظر بما فيه ، فتحاً مبيناً ، ظاهراً وباطناً ، بمنه وكرمه وجهاه سيد الخلق سيدنا ومولانا محمد نبيه ووجهه آمين .

وهذا أو ان الشروع في انقصود ، مستمداً من بحر الكرم والجود ، صاحب المقام المحمود . والحوض المورد . واللواء المعقود . سيدنا ومولانا محمد المرسل إلى كل موجود . منبع العلوم والأنوار ، ومفتاح خزائن المواهب والأسرار .

فإن من جودك الدنيا وضررتها ومن علومك علم اللوح والقلم

فأفتح على العارفين من المواهب والأسرار ، لإلا رشحات من رشحات النبي المختار ؛ إذ منه انشقت الأسرار ، وانفلق الأنوار ، صلى الله عليه وعلى آله وأصحابه الطيبين الأبرار .

وبعد هذا ، فصاحب الكتاب هو : الشيخ الفقيه الصالح الولي للناس أبو العباس أحمد بن محمد بن يوسف النجيني ، المعروف بابن البنا والسرقي ، بضم القاف : نسبة إلى سرقسط ، بلدة بنخوم الجزيرة ، كان أصل نسبه منها ، ثم تقرر بفاس ، وبها توفي ، قال الشيخ زروق رحمه الله : لم أقف على تاريخ وفاته ، غير أن الظن الغالب أنه قريب العهد ، قال : ولم يكن مشهوراً بالعلم ، مع ماله فيه من القدم الراسخ الذي دل عليه كتابه ، فقد من عجائب مدينة فاس ، إذ كان من عامتها وألف ، كابن أبي زرعة صاحب التاريخ .

كذا ذكر لي بعض عدول بلدنا عن صاحب له عدل اه .

قلت : وكم من عارف كبير بقي تحت أستار الخمول ، حتى لقي الله تعالى ، بل كلما عظم قدر العارف عند الله ، خفي أمره على الناس ، لأن الكنوز لا تكون إلا مدفونة ، فإن ظهرت نهبت وتشقت أمرها وذهب سرها ، وابن البنا هذا غير صاحب الحساب ، فإنه ابن البنا الصوفي ، توفي بمراكش سنة إحدى وعشرين من القرن الثامن ، كما ذكره صاحب الجذوة ،

ثم ابتداء صاحب الكتاب كتابه بيسم الله تباركاً وامثالاً ، فقال :

بسم الإله في الأمور أبداً إذ هو غاية لها ومبدأ

قلت : مازالت أكابر الكتاب والمصنفين يبتدئون في أول كتبهم بيسم الله ، اقتداء بالكتاب العزيز ، فإن الصحابة أجمعت على افتتاح المصحف بيسم الله الرحمن الرحيم ، على اختلاف بينهم في كونها آية أو غير آية ، فذهب بعض الصحابة إلى أنها آية ، وبه أخذ الشافعي رضي الله عنه ومن تبعه . حتى أفتى بطلان صلاة من تركها ، وذهب آخرون إلى أنها غير آية ، وبه أخذ مالك ومن تبعه ، واحتج الشافعي بأن الصحابة من شدة تحفظهم وتحريمهم لا يدخلون في المصحف إلا ما هو منه ، واحتج مالك بقول كثير من الصحابة بمن صلى مع النبي صلى الله عليه وسلم ، قال : فكان يفتح الصلاة بالحمد لله رب العالمين ، ولم يقل بسم الله الرحمن الرحيم ، والخلاف المذكور في كتب الفقه .

وكان الإمام المازري يقرؤها سرّاً ، خروجاً من الخلاف ، وفي الحديث :

« كل أمر ذي بال لا يبدأ فيه بيسم الله الرحمن الرحيم فهو أقطع » ، وفي رواية « فهو أبر » ، وفي رواية « فهو أجزم »^(١) وحاصلها أنه مقطوع البركة محقوق من كل خير ، غير كامل حساً أو معنى ، وفي رواية « بذكر الله » فيعم البسملة وغيرها ، وبها جرى العمل ، وفي حديث آخر عنه صلى الله عليه وسلم قال : « من أراد أن يحيى سعيداً ويموت شهيداً فليقل عند ابتداء كل شيء بسم الله » ، وقوله « في الأمور » يتعلق بقوله أبداً بمعنى أشرع وأل ، عوض من المضاف ، أي أشرع في أمورى كلها مستميناً بالله إذا قلنا الاسم عين المسمى أو مقحم ، أو أشرع في الأمور التي أحاولها متبركاً بسم الله ، ولا شك أن من استعان بالله كان معاناً في جميع أموره ، ومن لم يستعن به كان مخذولاً في كل أموره . والله در اتقابل :

إذا لم يفتك الله فيما تريده فليس لمخلوق إليه سبيل

وإن هو لم يرشدك في كل مسلك ضللت ، ولو أن السماء دليل

ومن تبرك باسم الله كانت البركة مصحوبة معه ، فلا يلحقه نقص ولا خلل ،

(١) رواه عبد القادر الرهاوي في الأربعين .

وقوله إذ هو غاية لها ومبدأ ، تعاليل لاقتتاحه باسم الله ، أى إنما أبدى في أمورى بالله لأنه مظهرها أولاً ، ومبطنها ثانياً ، فظهورها منه ، وانتهاقها إليه ، ومبدؤها منه وغايتها إليه ، وإنما قدم الغاية مع تأخرها في الفعل ، للوزن ، ولما اختلفت روايات الحديث المتقدم ، فبعضها لا يبدأ فيه بيسم الله ، وفي بعضها لا يبدأ فيه بالحمد لله ، وفي بعضها زيادة ، ولا بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم^(١) ، جمع الشيخ بينها فبدأ بالرواية الثمانية فقال :

الحمد لله ولي الحمد هدى إلى الحق ونهج الرشاد

الحمد في اللغة هو : الوصف بالجميل على قصد التعظيم والتبجيل ، سواء تعلق بالفضائل ، وهى الأوصاف اللازمة ، أو بالفواضل ، وهى الأوصاف المتعدية والأفعال للسنية ، ولا بد أن يكون الباعث عليه أمراً اختيارياً ، وإلا كان مدحاً ، فالحمد يكون على الأوصاف الاختيارية أو مافى منها ، كالعلم والكرم والشجاعة ، سواء كان بالاختيار أو غيره ، والمدح يكون على الأوصاف اللازمة ، كحسن الخد ورشاقة القد ، سواء كان باللازمة أو غيرها ، والحاصل ، أن السبب الحامل على الحمد لا يكون إلا اختيارياً ، والسبب الحامل على المدح لا يكون إلا لازماً .

وأما الحمد في العرف ؛ فهو : فعل يشعر بتعظيم المنعم ، كان باللسان أو بالآركان ، أو بالجنان ، فورد الحمد في اللغة خاص ، وهو اللسان ، لأن الثناء لا يكون إلا باللسان ، ومتعلقه عام ، وهو النعمة وغيرها ، ومورد الحمد في العرف عام ، وهو اللسان وغيره ، ومتعلقه خاص ، وهو صدور النعمة من المحمود .

وأما الشكر في اللغة فهو : فعل ينبىء بتعظيم المنعم ، فهو مرادف للحمد العرفى لغة .

وأما الشكر في العرف ، فهو : صرف العبد جميع ما أنعم الله به عليه من : السمع ، والبصر ، وغيرها إلى ما خلق لأجله ، فهو أخص من الجميع .

(١) أخرجه الرهاوى في الأربعين عن أبي هريرة ، ونصه : وكل أمر ذى بال لا يبدأ فيه بحمد الله والصلاة على ، فهو أقطع أوتر محقق من كل بركة .

والكلام على الحمد والشكر يطول ، فلنقتصر على ما ذكرنا ، إذ ليس للفقيه (١) حاجة إلا في معرفة الشكر ، وأحسن ما قيل فيه قول إمام الطائفة ، أن لا يعصى الله بنعمه ، وإذا لم يعص بنعمه فقد صرفها في طاعته ، وقوله ، ولي الحمد ، أى متوليه وفاعله ، فهو الذى تولى حمد نفسه بنفسه ، إذ هو الذى بذاته عن أن يحتاج إلى من يحمده ، بل هو الحامد والمحمود ، إذ لا فاعل سواه ، وقيل ، وليه ، مستحقه ، وقوله ، هدى إلى الحق ، أى هوى خلقه إلى معرفة الحق من الباطل ؛ قال تعالى :

« فَذَلِكُمْ اللَّهُ رَبُّكُمْ الْحَقُّ ، فَإِذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » (٢) .

فكما تولى حمد نفسه بنفسه ، تولى هداية عباده إلى معرفته

أو تقول : كما حمد نفسه بنفسه ، عرف نفسه بنفسه ، ولذلك حذف مفعول « هدى » ، ليدل على العموم ، فيصدق بالشرعية والحقيقة ، أى هدى خلقه إلى الحق على صدقه بالشرعية ، أو هدى مظاهره وأنواره إلى الحق على صدقه بالحقيقة ، وهذا كقول الشترى :

أنتم دلتم عليكم منكم ولكم ديمومة عبّرت عن غامض الأزل

والنهج والمنهاج ، هو : الطريق الموصول إلى الحق ، والرشد هو : مصادفة الحق والصواب ، لأن الرشد بالضم ، والرشد بالفتح هو الصواب ، والصواب هو مصادفة عين الحق ، وكأنه قال : هدى خلقه إلى معرفته وإلى الطريق الموصلة إليه ، فقوم هدام إلى معرفته من غير سلوك طريق ، وهم المجاذيب ، سواء رجعوا للسلوك أم لا ، وهم الذين أشار إليهم بقوله « هدى إلى الحق » ، أى هدام إلى معرفة الحق ، وقوم هدام إلى طريق معرفته ، ثم عرفهم به ، وهم أهل السلوك أو لا ، ثم الجذب ثانياً ، وهم المشار إليهم بقوله « ونهج الرشد » ، أى هدام إلى طريق الصواب ، ثم فتح في وجوههم الباب ، فبلغوا مية الألباب ، والله أعلم بالحق والصواب .

ثم أشار إلى الرواية الثالثة في الحديث ، وهى : الأمر بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم في الابتداء ، فقال :

(١) أى الصوفى السالك على طريق الله .

(٢) سورة يونس : الآية : ٣٢ .

ثم صلاة الله والسلام على النبي ما انجلا الظلام

قلت : الصلاة من الله على حبيبه ، هي : محبته وعطفه عليه ، وتقريبه واجتباؤه إليه ، والسلام هو طيب تحية وإكرام ، وتتمام إحسان وإنعام .

والناس في الصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم على ثلاثة أقسام : قسم يصلون على صورته البشرية ، وهم أهل الدليل والبرهان ، فهم يشخصونها في قلوبهم في حال الصلاة عليه ، فإذا أكثروا من الصلاة بالحضور ثبتت الصورة الكريمة في قلوبهم ، فيرونه في المنام كثيراً ، وربما تتشكل روحه الكريمة على صورة جسده الطيب ، فيرونه يقظة

وقسم يصلون على روحه النورانية ، وهم أهل الشهود من السائرين ، فهم يصلون على نوره الغائض من الجبروت ، فيشاهدونه في غالب أوقاتهم على قدر حضورهم وشهودهم .

وقسم يصلون على نوره الأصلي ، الذي هو نور الأنوار ، وهم أهل الرسوخ والتحكين من أهل الشهود والعيان ، وهؤلاء لا يغيب عنهم النبي صلى الله عليه وسلم طرفة عين ، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : ولو غاب عن رسول الله صلى الله عليه وسلم طرفة عين ما أعددت نفسى من المسلمين ، إشارة إلى رسوخه وتمكنه في الحضرة ، ورجوعه إلى البقاء بشهود الواسطة ، وهؤلاء أفكارهم تجول في الملكوت ، وأرواحهم متصلة بالجبروت ، فقد اجتمع فيهم ما افترق في غيرهم ، كما قال عليه الصلاة والسلام : كل الصيد في جوف الفرا^(١) ، والفرا هو حمار الوحش ، وهو أسمن الصيد ، فمن ظفر به فكأنما ظفر بالصيد كله ، وكما قال الشاعر :

وليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وقوله : وما انجلا الظلام ، وما ظرفية ، أى مدة انجلاء الظلام حساً ومعنى ، وانجلاؤه إما بظهور النور الحسى على الظلة الحسية ، وهذا مستمر إلى يوم القيامة ، وإما بظهور نور الهداية على ظلة النورانية ، أو نور اليقظة على ظلة الغفلة ، أو نور شمس العرفان على

(١) قال في المقاصد الحسنة : رواه للرامهرهزى في الأمثال ، وعند العسكري قال : في

جوف ، أو جنب ، ، وله قصة طويلة فارجع إليه ص ٣٢٣ .

ظلة الاكوان ، أو نور الترقى في المواهب والاسرار على ما قبله من المقامات والأنوار ،
وهذا الأخير لا ينقطع أبداً ، وكلام الناظم مختل ، والله تعالى أعلم .
ثم شرع في المقصود فقال :

« يا سائلا عن سنن الفقير سأل ما عز عن التحرير »

قلت : السنن بالضم جمع سنة ، وهى الطريقة ، والسنن بالفتح مفرد ، بمعنى الطريق ،
ويصحان هنا ، والفقير فى الاصطلاح هو المتوجه إلى الحق على بساط الصدق
وقال سهل رضى الله عنه : الفقير الذى لا يملك ولا يملك (١) ولا يرى غير الوقت الذى
هو فيه ، وقال السهروردى : الفقر أساس التصوف ، وبه قوامه ، ونال غيره : الفقر
صفة مهجورة تنفر منه الطباع وتنفر منه النفوس ، وهو من الأسباب التى تجلس العبد بين
يدى الله على بساط الصفا

واختلف : هل الفقير أبلغ من الصوفى ، لأن الفقير من لم يبق فيه بقية ، بخلاف الصوفى ،
أو الصوفى أبلغ ، لأن الصوفى من صفت أحواله ولم يبق فيه كدر أصلا ، بخلاف الفقير .
والتحقيق أن الفقير هو : المتوجه إلى الله بأنوار التوجه ، وللصوفى له أنوار المواجهة ،
فالصوفى أبلغ من الفقير ، لأن الصوفى واصل ، والفقير راحل ، الصوفى صفت له
الغزول ، والفقير بين الطلوع والنزول ، الصوفى لا يرى فى الدارين غير الله ، ولا يشهد مع
الحق سواه ، قد سخر له كل شيء ، ولم يسخر هو لشيء ، يأخذ النصيب من كل شيء ، ولم
يأخذ منه النصيب شيئا ، إلى غير ذلك مما اشتمل عليه من الأوصاف الكاملة ، بخلاف
الفقير ، فهو فى طريق المجاهدة ، فنهاية الفقير بداية الصوفى ، والله تعالى أعلم .

وقيل : هما شيء واحد ، وهو ظاهر المصنف فى مواضع من هذا الكتاب ، وسنن
الفقير هى : طريقه التى يسلكها ، وآدابه التى يتأدب بها ، وعلى نسخة فتح السنين يكون
المعنى : يا سائلا عن طريق الفقير التى يسلكها حتى يصل إلى ربه ، ونسخة الضم أحسن ،
ويكون أشار بالسنن إلى شروط الفقير وآدابه ، لأنها من طريقه التى يسلكها ويمر عليها .
أما شروطه فثمانية : قصد صحيح : وصدق صريح ، وآداب مرضية ، وأحوال زكية ،
وحفظ الحرمات ، وحسن الخدمة ، ورفع الهمة . ونفوذ الزينة .

(١) أى هو الذى لا يملك شيئا ولا يملكه شيء .

وآدابه حسة : خلع العذار ، والنذل والانكسار ، والبذل والإبثار ، وصحبه العارفين
الأبرار ، وبذل المجهود في الطاعة والاذكار .

أما القصد الصحيح فهو : أن يكون مراده بالدخول في صحبة الشيخ : تحقيق العبودية ،
والقيام بوظائف الربوبية دون كرامات ولا تحصيل مقامات ، ولا إدراك درجات ، ولا
طالب حظوظ نفسانية .

وأما الصدق فالمراد به هنا التصديق بسر الخصوصية عند من يصحبه ، وهو أساس
الطريق ، فمن لا صدق له لا سير له ، ولو بقى في حوز الشيخ ألف عام ، فالصدق هو : معرفة
السر ، فكل واحد يعرف من سر الشيخ على قدر صدقه فيه ، وهو أيضاً الثمن الذي يتفق
به الفقير على روحه وقلبه وسره ، فمن لا صدق له في الشيخ لا يتفق من سره شيئاً ، وإليه
أشار الشيخ الشرقى رضي الله عنه بقوله :

من لا صدق ما عند باش يتفق من لا حق ما جلب أمارا يا بابا

وأما الآداب فهي مفتاح الباب ، فمن لا آداب له لا دخول له ، ومن أساء الآداب مع
الأحباب طرد إلى الباب ، ثم إلى سياسة الدواب .

وقد كان بعض الأولياء يأمر من يريد الدخول معه بصحبة أهل المخزن حتى يتأدب ،
وسأني الكلام على الآداب في محله إن شاء الله ، فمن لم يتأدب مع الشيوخ والإخوان لا تزيده
صحبتهم إلا الحرمان

وأما الأحوال الزكية فهي أن تكون موافقة للشريعة ، بحيث لا يؤذى أحداً من
الناس ، فالفقير الذي ليست له أحوال ، لا يباغ مقامات الرجال أو السير إلى حضرة القدوس
إلا بمخافة النفوس ، ولولا ميادين النفوس (أي محاربتها) ما تحقق سير السائرين ، فالمراد
بالأحوال أنها هي خرق عوائد النفس ؛ وتخریب ظاهرها بتعامل ما يسقط جاهها وعزها
من الأمور المباحة ، وهذه هي الأحوال المرضية الصافية ، وأما الأحوال التي تخالف
الشريعة ، وهي الأحوال الظلمانية ، فلا يتنور صاحبها ، بل لا تزيده إلا ظلمة ، فكما
لا يصح دفن الزرع في الأرض الرديئة ، كذلك لا يجوز الخول بحالة غير مرضية ،
فالأحوال الصافية هي التي لا ضرر فيها لأحد ، ولا تخالف أمر الشريعة .

وأما قصة لص الحمام ، فهي حال غالبية عليه ، لا يقاس عليها

وأما حفظ الحرمة فتصدق بحرمة الشيخ حاضراً ، أو غائباً ، حياً أو ميتاً ، فلا يجلس في موضع يذكر فيه بسوء أو ينتقص منه ، ويصدق بحرمة الإخوان ، فيتحمل أذاهم ، ويصبر على جفاهم ، ويعظم كبيرهم ، ويرحم صغيرهم ، فمن كسره الإخوان لا يجبره الشيخ ، ومن كسره الشيخ قد يجبره الإخوان ، ويصدق بحرمة جميع المسلمين ، وخصوصاً العلماء والصالحين ، فليحومهم سموم .

وقد قالوا : أركان التصوف : أربعة أشياء ، وهي : كف الأذى ، وحمل الجفا ، وشهود الصفا ، ورعى الدنيا بالقفا .

وأما حسن الخدمة ، فتصدق أيضاً بخدمة الشيخ ، وخدمة الإخوان ، وفي الحديث : سيد القوم خادمهم ،^(١) وتصدق بخدمة الحق ، وهي المقصود الأعظم .

وأما رفع الهمة فهو : أن لا يكون قصده طلب الدنيا والآخرة ، بل يكون قصده معرفة مولاه ، كما تقدم في القصد الصحيح ، وربما يغنى عنه

وأما نفوذ العزيمة فعناؤه : أن تكون عزمته دوام السير إلى تحقيق الوصول إلى معرفة مولاه ، لا قصد التبرك والحرمة ، وإذا عزم على شيء أنفذه

وأما خلع العذار ، فهو خلع الأوصاف المذمومة وإبدالها بالأوصاف المحمودة ، وقيل : هو خلع لباس العز والاشتهار ، وإبداله بلباس الذل والانكسار .

وقيل : هو خلع الرجل من نعل الكونين ، فيرجع إلى رفع الهمة

وانعذار في اللغة هو : ما يزين به وجه الفرس ، ففي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم :

(١) رواء أبو عبد الرحمن السلمي في آداب الصحبة ، عن عقبة بن عامر مرفوعاً ، والخطيب ، وأبو نعيم في الحلية في ترجمة إبراهيم بن أدهم ، والديلمي في مسنده ، وعده ابن دريد في المجتبى أنه من الأقوال التي تفرد بها النبي صلى الله عليه وسلم .

والفقر أزين بالعبء من العذار الجيد على خد الفرس ، ذكره التجيبي (١) .

وأما الذل والانكسار فهو الخضوع لله ، ولا يتحقق إلا بالخضوع لعباد الله ، فلا يتحقق ذل الفقير حتى يظهر بين أبناء جنسه

والحاصل : أنه لا بد من الذل : قلباً وقالباً ، كما قال ابن الفارض :

تذل لمن تهوى فليس الهوى سهل إذا رضى المحبوب : صح لك الوصل
وقال آخر :

وما رمت الدخول عليه حتى حلت محلة العبد الذليل
وأغضيت الجفون على قذاها وصنت النفس عن قال وقيل

وأما البذل والإيثار فرجعه إلى سخاوة النفس ، وهو شرط في الفقير ، فقد قالوا :
« من أقبح القبيح ، صوفي شحيح ، وعلامة خروج الدنيا من القلب : بذلها عند الوجد ،
والصبر عنها عند الفقد

والزهد عند المحققين : إذا وجدوا آثروا ، وإذا فقدوا شكروا

وأما صحبة العارفين فهي من الأمور المؤكدة ، وذكرها مع الشروط أليق ، فالمرء
على دين خليله (٢) ، وفي الحكم : لا تصحب من لا ينهضك حاله ، ولا يدلك على الله مقاله ،
وليست طريق السلوك بطريق العزلة ، بل هي طريق الصحبة والاجتماع والاستماع
والاتباع ، « فالجمع رحمة والفرقة عذاب » (٣) وفي الحديث :

(١) ورواه الطبراني عن شداد بن أوس ، وابن عدي في الكامل ، ومحمد بن عدي ،
في « شرف الفقر » . بلفظ « الفقر أزين بالمؤمن ، بدل « بالعبد » .

(٢) هذا لفظ حديث شريف بقيته : « ... فليظن أحدكم من يخال ، رواه أبو داود ،
والترمذي وحسنه ، والطيايلى ، والبيهقي ، والقضاعي ، والعسكري .

(٣) « الجماعة رحمة ، والفرقة عذاب » ، هذا لفظ حديث شريف ، رواه عبد الله بن أحمد
في زوائد المسند ، ولفظه : « من لم يشكر القليل لم يشكر الكثير ، ومن لم يشكر الناس لم يشكر
الله ، والتحدث بنعمة الله شكر ، وتركها كفر ، والجماعة رحمة والفرقة عذاب » .

« يد الله مع الجماعة »^(١) ،

أى الدالين على الله - أو ما يقرب إلى الله

وأما بذل الجهود في تعمير الأوقات في الطاعات والأذكار ، فهذا هو المقصود من الطريق ، والأهم عند أهل التحقيق ، فكل ساعة تأتي على الفتي لا يذكر الله فيها كانت عليه حسرة في الدنيا والآخرة ، فأوقات الفقير دائرة بين ذكر ، أو مذاكرة ، أو فكرة : أو نظرة .

أو تقول: الفقير ليس له فكرة ولا هدره^(٢) إلا في الحضرة ، أو ما يوصل للحضرة ، وما سوى هذا بطلالة وفترة ، وبالله التوفيق . وقوله : « سألت ماعز ، أى غلب وامتنع تحريره ، أى فتحه واستخراج المقصود منه ، وإنما امتنع تحريره لما دخله من التخليط الذى أحقه به أهل التوسم في هذه الأزمنة ، مع خفاء مراده ومداركة ، لأن هذا العلم ليس هو لقلقة اللسان . وإنما هو أذواق ووجدان ؛ فن سأل تحريره بعبارة اللسان فقد سأل عن شيء عزيز الإتيان ، ممنوع البيان ، وسيأتى الكلام عليه عند قوله « إياك أن تظمع أن تحوزه من دفتر أو شعر أو أرجوزة ، ثم بين وجه عزته ، فقال :

إن الذى سألت عنه مات وصار بعد أعظما رفات
فطمست أعلامه تحقيقاً فلم يجد بعد لها طريقاً

يعنى أن الطريق الذى سأل عنه السائل مات بموت أهله ، واندرس خبره ، وصار كأنه شخص مات ورمم ، وصار عظاماً رفانا ، وفي الحديث :

« إن الله لا يقبض العلم انتزاعاً ينتزعه من الناس ، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالم اتخذ الناس رؤوساً جهالاً ففسلوا ، فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا »^(٣) .

(١) ورد هذا الحديث بألفاظ كثيرة منها ما رواه الترمذى : يد الله على الجماعة ، اتبعوا السواد الأعظم ، فإنه من شد شد في النار ، ومنها ما في الطبراني : يد الله على الجماعة ، فإذا لشد منهم اختطفته الشياطين ، وهذا الحديث الذى ذكره الشيخ رواه الطبراني أيضاً مرفوعاً ، وتامه « ... فإن الشيطان مع من فارق الجماعة يركض » .

(٢) الهدرة : الصوت ، تقول : هدر الحمار : صوت .

(٣) رواه البخارى عن عبد الله بن عمرو بن العاص ، ورواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله ،

ولا فرق بين العلم الظاهر والباطن في كونه يذهب بذهاب أهله

وقوله : فطمست أعلامه ، أى ما يدل عليه ويوصل إلى تحصيله ، فأعلام الشيء ما دل على وجوده ، ومنه سمي الكون عالماً ، لدلالته على صناعته ، فكأن علم التصوف قد طمست طريقه الموصلة إلى تحقيقه ، فلم تبق له طريق توصل إليه ، وهذا معنى قوله : فلم تجد بعد ، أى بعد طمس أعلامه ، لها ، أى لتلك الأعلام والآثار التي توصل إليه وطريقاً ، لتسلكها حتى تبلغك إلى تحقيق ما سألت عنه .

ومضمن كلامه : ان الصوفية المحققين السالكين على منهاج المتقدمين قد قلوا جداً ، حتى كأن علومهم ماتت وبليت ، وصارت رمياً ، وطرقهم قد طمست ، وأذواقهم قد اندرست ، ولم يبق على منهاجهم إلا القليل ، ومثل ما قاله الناظم قاله من قبله ، فني كل عصر يقول أهله : قد ذهب التصوف ، وذهب أهله ، لما يرون ما انكب عليه الجاهلون وما استجلبه المدعون .

قال الجنيد رضى الله عنه : علمنا هذا الذي نتكلم فيه قد طوى بساطه منذ عشرين سنة ، وإنما نتكلم في حواشيه .

وكان أيضاً يقول : قد كنت أجالس قوماً سنين يتحاورون في علوم لا أفهمها ولا أدرى ماهي ، وما بليت بالإنكار قط ، كنت أتقبلها وأحبها من غير أن أعرفها .

وكان أيضاً يقول : كنا تجارى مع إخواننا قديماً في علوم كثيرة ما نعرفها في وقتنا هذا ، ولا سألنى عنها أحد ، وهذا باب كأنه أغلق وردم اهـ

وقال في : قوت القلوب ، : قال بعض علمائنا : أنا أعرف المتقدمين سبعين علماً كانوا يتحاورونها ويتعارفونها في هذا العلم ، لم يبق منها اليوم علم واحد ، قال : وأعرف في زماننا هذا علوماً كثيرة من : الأباطيل ، والغرور ، والدعوى ، قد ظهرت وسميت علوماً ، ثم قال : وكان إمامنا سهل يقول : بعد سنة ثلاثمائة لا يحل أن يتكلم بعلمنا هذا . يعنى لقلة أهله ، لأنه يحدث قوم يستمعون الخلف ويتزينون بالكلام ، تكون مواجيدهم ، لباسهم ، ومعبودهم بطونهم ، وحليتهم كلامهم .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري رضى الله عنه في صدر رسالته : واعدوا رحمكم الله ان المحققين من هذه الطائفة انقرض أكثرهم . ولم يبق في زماننا من هذه الطائفة إلا أنرهم ،

وفي معناه قيل :

لا والذي حجت قريش بيته مستقبلين الركن من بطحائها
ما أبصرت عيني خيام قبيلة إلا بكيت أحبتي بفنائها
أما الخيام فإنها كخيامهم وترى نساء الحى غير نساها

قال ابن العربي الحاتمي رضي الله عنه : « قال هذا في زمانه حيث أدرك من تزييا بزي القوم وخالفهم في باطنه ، وأما اليوم فلا خيام ولا نساء ، ثم قال الأستاذ رحمه الله : حصلت الفترة في الطريقة ؟ لا ، بل قد اندرست الطريقة بالحقيقة ، مضت الشيوخ الذين كان لهم اهتداء ، وظل الشباب الذين لا لهم بسمتهم وسيرتهم اقتداء ، زال الورع وطوى بساطه ، وقوى الطمع واشتد رباطه ، وارتحل عن القلوب حرمة الشريعة . فعدوا قلة المبالة أوثق ذريعة ، رفضوا التمييز بين الحلال والحرام ، ودانوا بترك الاحترام ، وطرح الاحتشام ، واستخفوا بأداء العبادة ، واستهانوا بالصوم والصلاة ، وركضوا في ميادين الغفلات ، وركنوا إلى اتباع الشهوات ، وقلة المبالة ، إلى آخر كلامه .

وكذلك قال أبو مدين في رائيته رضي الله عنه :

واعلم بأن طريق القوم دارسة وحال من يدعيها اليوم كيف ترى (١) ،

وكذلك قال شيخ شيوخنا سيدي علي الجمل رضي الله عنه : من تونس إلى وادنون ، لا تجد من يتكلم في هذا العلم : إلا رجلا أو رجلين ، كناية عن قلة وجود المحققين ، ولا يدل هذا على انقطاعهم ، ففي كل زمان رجال يرحم الله بهم عباده . فالمدد المعلوم لا ينقطع حتى ينقطع الدين .

قال في لطائف المنن : « سئل بعض العارفين عن أولياء العدد : أينقصون في زمن ؟ . فقال : لو نقص منهم واحد ما أرسست السماء قطرها ، ولا أبرزت الأرض نباتها وفساد الوقت : لا يكون بذهاب أعدادهم ، ولا بنقص أمدادهم ، ولكن إذا فسد الوقت كان مراد الله وقوع اختفائهم مع وجود بقائهم ، فإذا كان أهل الزمان معرضين عن الله عز وجل ، مؤثرين لما سوى الله ، لا تنجح ، أى لا تنجح ، فيهم الموعظة ، ولا تميالهم إلى الله التذكرة ، لم يكونوا أهلا لظهور أولياء الله فيهم .

(١) فكيف ، لو رأى أدياء النصارى اليوم ... لا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم ،

وحسبنا الله ونعم الوكيل ؟

ولذلك قالوا : أولياء الله عرائس ، ولا يرى العرائس المجرمون ، ثم قال : وقد قال صلى الله عليه وسلم :

« إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأى برأيه : فعليك بخويصة نفسك » (١) :

فسمعوا وصية رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فآثروا الخفاء ، بل آثروا الله لهم ، مع أنه لا بد أن يكون منهم في الوقت أئمة ظاهرون قائمون بالحجة ، سالكون المحجة ؛ لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق ، لا يضرهم من نوافهم إلى قيام الساعة » (٢) .

وقد قال على كرم الله وجهه في مخاطبته لسكيل بن زياد : « اللهم لا تخل الأرض من قائم لك بحجتك ، أولئك الأفلون عدداً ، الأعظمون عند الله قدراً ، قلوبهم معلقة بالحل الأعلى : أولئك خلفاء الله في عبادته وبلاده . آه . آه . واشوقاه إلى رؤيتهم ، اه »

وروى الإمام الرباني محمد بن علي الترمذي ، يرفعه إلى ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« أمتي كالطير لا يدري أوله خير أم آخره » (٣)

(١) عن أبي أمية الشعباني قال : سألت أبا ثعلبة الخشني قال : قلت : يا أبا ثعلبة كيف تقول في هذه الآية - عليكم أنفسكم - قال : أما والله لقد سألت عنها خبيراً - سألت عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال :

« اتسمروا بالمعروف ، وانتهوا عن المنكر ، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً ، وهوى متبعاً ، ودنيا مؤثرة ، وإعجاب كل ذي رأى برأيه ، فعليك بنفسك ؛ ودع عنك أمر العوام ؛ فإن من ورائكم أيام الصبر : الصبر فيهن مثل القبض على الجمر ؛ للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلاً يعملون مثل عمله ، رواه ابن ماجه ، والترمذي وحسنه ، وأبو داود ، وزاد فيه : « قيل : يا رسول الله أجر خمسين رجلاً منا أو منهم ؟ » قال : بل أجر خمسين منكم » .

(٢) رواه مسلم ، والترمذي ، وابن ماجه ، وأحمد ، والبيهقي ، وابن حبان ، وأبو داود ، والحاكم بالفاظ مختلفة ، والمعنى واحد .

(٣) ورواه أيضاً الإمام أحمد ، والترمذي عن أنس بلفظ : « أمتي أمة مباركة ، لا يدري أولها خير أم آخرها ، ورواه ابن عساكر .

وروى أيضاً يرفعه إلى أبي الدرداء ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير أمتي أولها وآخرها ، وفي وسطها الكدر (١) »

قلت : وقد ظهرت هذه الطائفة ، أعني الصوفية المحققين ، في زماننا هذا وانتشرت معي والحمد لله انتشاراً كثيراً منذ قدم شيخ شيخنا مع شيخه إلى « بنى زروال » ففاض بحرهما ، ثم انتشر في البلاد ، فلا نجد مدينة ولا قبيلة إلا وفيها عارفون وأولياء محققون ، إلا قليلاً من بعد منهم ، فقد جددوا الطريقة بعد دروسها وأشرقت على يديهما شموس الحقيقة بعد خرودها ، وكثر الملهج بذكر الله ، وانقلب كل العباد إلى الله ، لجزائهما الله عن المسلمين خيراً ، فقد صدق الله بهذه الطائفة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « خير أمتي أولها وآخرها »

وفي حديث آخر : « مثل أمتي مثل حديقة قد قام عليها صاحبها ، فاجتنب رايها وهيا مسالكها ، وحلاني سعدتها ، فأطعمته عاماً فوجاً ، ثم عاماً فوجاً ؛ فعدل آخرها طعماً يكون أجودها قنواناً ؛ وأطولها شمراناً » ، والذي يمشى بالحق ليجدن ابن مريم من أمتي ، خلفاً من حواريه .»

قلت : قال شيخ شيخنا المجذوب : على مائتا تقوم الساعة ، وذكر سيدي علي : في كتابه أن رجلاً سأل سيدي العربي بن عبيد الله فقال له : يا سيدي طريقكم هذه لا نعرفها ؛ فأى طريق هي ؟ ! فقال له : يا ولدي طريقنا هذه هي التي كان عليها رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه : ازهد في الدنيا ، والانقطاع إلى الله ، وعليها تقوم الساعة اهـ

فتحقق أنها هي التي يمد عيسى بن مريم منها خلفاً من حواريه ، والله أعلم .

ثم بين الشيخ ما ينبغي من طريق القوم بعد اندراسها فقال :

وذاك ما تتبعه ونقف	إلا رسوماً ربما لم تعف
ما السر والمعنى سوى القطان	وهبك أن تظفر بالأوطان

قلت : الرسوم والحدود هي أمارات وعلامات تدل على حقائق الأشياء ومعانيها ، وعفا المكان : اندرس وتعطل ، وعفا الشيء : ذهب ، وقد يطلق على الزيادة والكثرة ، كقوله تعالى : **حَتَّىٰ عَافُوا** ، (١) ومعنى **عَفَى** : تبع وذهب ، هنا بمعنى : أجل وقدر ، فهي للتعبير ، واللاوطنان : محل السكنى ، والقطان ، بضم القاف جمع قاطن ، بمعنى ساكن ، والمعنى : إن علم التصوف ومعانيه وأذواقه قد ذهب بذهاب أهله ، واندرس وخفي ، وما بقي إلا رسوم وعلامات في كتبهم تدل على سيرهم وأخلاقهم ، فربما لم تعف ولم تذهب ، وهذه الرسوم التي لم تعف هي ما كانوا عليه من المجاهدة والمكابدة والمشاهدة ، وما انصفوا به من محاسن الاخلاق ومكارم الشيم ، وما شاهدوه من الكرامات والخوارق ، وما نطقوا به من جواهر الحكم ، وما استخرجته أفكارهم من بواقيت العلوم ومخازن الفهوم ، فهذه الأمور قد دوت في الكتب ، فلما ماتوا بقيت في أيدي الناس ، فهي التي يتبعها الناس ويسلكون على طريقها ، وليس السر في مشاهدة سيرهم ومحاسنهم ، ولا في سماع كلامهم وعلومهم ، وإنما السر ما كان في بواطنهم ، وما اشتملت عليه قلوبهم وأسرارهم ، فلا يؤخذ إلا منهم في حال حياتهم ، فلو كان التصوف يؤخذ من الكتب لاختص به أرباب الأموال والعلماء أهل الظاهر ، ولكن التصوف إنما هو أذواق ، لا يؤخذ إلا من أهل الأذواق ، وهبك ، أي صير نفسك وقدرها أنها ظفرت باللاوطنان : وهي محاسنهم ومآثرهم التي كانوا عليها وسكنوا فيها ، ثم رحلوا عنها وتركوها : ما السر والمعنى إلا في صحبتهم والاختذ عنهم واقتباس النور الذي كان في باطنهم ، وقد ذهب ذلك بذهابهم ، إلا من أسعده الله ببقاء من أخذ ذلك منهم في حياتهم ، وهذا قد ظفر باللاوطنان والسكان . ولا تخلو الأرض من هذا النوع كما تقدم . بخلاف من طمع أن يأخذ ذلك من كتبهم : فإنه ظفر باللاوطنان وفاته صحبة السكان . وما زالت العامة تقول : **السر في السكان** ، أي دون المسكن ؛ وقال الشاعر :

أمر على الديار ديار ليلي أقبل ذا الجدار وذا الجدارا
وما حب الديار شغف قلبي ولا يكن حب من سكن الديارا

وقال آخر :

فما المنازل لولا أن تحل بها ؟ وما الديار ؟ وما الأطلال والخيم ؟
لولاك ما شاقني ربع ولا إطلال ولا سعت بي إلى نحو الحمى قدم

وقال آخر : وإنما يتنافس بالأوطان من لا عشق عنده في السكان ، أو لم يظفر بصحبة القطان .

فلا يتأنس بكتب القوم ويقنع بذلك إلا من لم يذق شيئاً من أذواقهم ، ولا نهض للالتحاق بهم ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر استصعاب ما سئل عنه من سنن الفقير لغرابتها في زمنه ، فقال :

وهذه مسألة معتاصه لم يجد الخبر لها خلاصه
لأنها مسألة غريبه حقيقة الجواب عنها ريبه
وقلّ ما تلقى لها ماعدا بل منكراً أو ناقداً أو جاحداً

قلت : الاعتياص من العصيان . واعتناص الشيء : إذا عصى ولم ينقد ، والخبر بكسر الحاء وفتحها هو : العالم التحرير ، وخلاصة الشيء تخليصه وتحريره ، والريبة والريب هو : الشك ، يعني ، أن هذه المسئلة وهي طريق الصوفية الذوقية مسئلة معتاصه . أي عويصة التحرير يصعب تخليصها على العالم للتحرير ، لأنه إن عبر عنها بعبارة اللسان فاته الذوق والوجدان وإن أشار إليها بالتلويح لا يفهمها أهل التصريح ، فصعب أمرها على كل حال ، إلا على من أسعده الله بصحبة الرجال أهل الهمة والتريية والحال ، فيعبرون عنها بالمقال ، ثم ينهضون إليها بالذوق والحال . وأما من لم يصحب الرجال ، فلا يطمع أن يناها بالمقال ؛ لأنها مسئلة غريبة وأهلها غرباء ، فلا يأوى الغريب إلا إلى الغريب ولا يفهم حال الغريب إلا مثله . وإذا كانت مسئلة غريبة فتحقق الجواب عنها ريبة ، أي فيه شك وريبة لمن عبر عنها من غير ذوق ولا وجدان ، وأيضاً حقيقتها بعيدة عن مدارك العقول القياسية والنقول المليية .

وقه در ابن الفارض حيث يقول :

ولا تلك بمن طيشته طروسه بحيث استقلت عقله واستقرت
فثم وراء القل علم يدق عن مدارك غايات العقول السليمة
تلقيته مني ؛ وعنى أخذته ونفسي كانت من عطائي عدى

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : وإن من العلم كهيئة المكنون ، لا يعلمه إلا

العلماء بالله ، فإذا نطقوا به ، لا ينكره إلا أهل الغربة بالله (١) . قال بعضهم هي أسرار الله يديها إلى أمناء أوليائه وسادات النبلاء من غير سماع ولا دراسة ، وهي من الأسرار التي لم يطلع عليها إلا الخواص . فإذا سمعها العوام أنكروها . ومن جهل شيئاً عاداه ، ومن يكن ذا فم مريض يجد مرارة للماء الزلال .

ويرحم الله للبوصيري حيث يقول :

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد ونكر القم طعم الماء من سقم

وقال مشايخ الطريقة : المنكر كالعين : ينكر شهوة الجماع ، والمزكوم : ينكر رائحة المسك الأذفر ، والمحموم : ينكر حلاوة السكر .

وفي مثلهم قال الشاعر :

وكم عائب ليلي ولم يروجهها فقال له الحرمان : حسبك ما فاتنا

وأيضاً هذه المسئلة إذا نظرت إليها من حيث العلم والتحقيق احتاجت إلى وجوب البحث والتدقيق ، وإذا نظرت إليها من حيث الحال ، وجدتها مبنية على التسليم والتسديق ، فإن أخذت بالأول ظهر لك من وجوه الإنكار ما لا يخفاء فيه ، مع ابتنائها على أصل لا تعرفه ، وإن نظرت إلى الآخر ظهر لك من موجبات التسليم ما يقتضي لك عدم الكلام بالكلية ، فلا وجه لاستخلاص الخلاصة إلا بمعرفة مبدأ الأمور ومنتهائها ، وقد ذكر منه جملة فيما يأتي .

وأما كونها مسئلة غريبة فإنها غير مألوفة للنفوس ولا متداولة بين الناس ، ولا معروفة الحقيقة في الجملة ، فلذلك اعتقدها المعتقد من غير معرفة أصل ، وأقبل المنتسب إليها على أي وجه كان ، وانتقدها المنتقد وشانها (٢) ولم يعرف ما انتقد وشان ، فادعاه من ليس من أهلها .

(١) ونص الحديث الذي بأيدينا : «إن من العلم كثرة المكنون ، لا يعلمه إلا أهل المعرفة بالله تعالى ، فإذا نطقوا به لم يجهله إلا أهل الاغترار بالله تعالى ، فلا تحقروا عالماً آتاه الله تعالى علماً منه . فإن الله عز وجل لم يحقره إذ آتاه إياه ، رواه أبو عبد الرحمن السلمي في الأربعين في التصوف ، عن أبي هريرة . (٢) من الشين .

وأدخل عليها ما ليس من شأنها : كل ذلك بسبب الجهل بها والحرص على الانتساب إليها ،
وهظمت في النفوس لما تقرر من جلالاتها ، والله تعالى أعلم . (قاله الشيخ زروق رضى
الله عنه) .

وإنما كان الجواب عنها ريبة لأن المقام قد يعبر عنه المستشرف عليه والواصل إليه ،
ولا يفرق بينهما إلا ذو بصيرة . فهذه المسألة قد يعبر عنها من وصل إليها وذاقها ، وقد
يعبر عنها من استشرف عليها بالعلم ، فلا يخلو الجواب عن ريبة ، هل صدر من صاحب
ذوق وصاحب حال ؟ لكن كلام العارف لا ينحني على أهل الفن أبداً ، ولا تخلو الأرض
من قائم لله بحجته

فأقاله الناظم ليس على عمومه ، فقد يتحقق الجواب عنها من العارفين ، ولا ريبة فيه ،
ولا شبهة ، والله تعالى أعلم

ولما كان من كتم للعلم مذموماً وبلجام من النار ملجوماً (١) خاف الشيخ أن يخطر
في سلك من كتم علماً ، فأجاب السائل بما هو في ذوقه حاصل ، فمن شاء فليؤمن ومن شاء
فليكفر ، ولذلك قال :

وإذ تهديت إلى الصواب ولم يكن بد من الجواب
فهو على الجملة والتفصيل منحصر في خمسة فصول

قلت : تهديت إلى كذا وتهديت إليه واحد ، ومعناه : سلكت الطريق إلى الوصول
إليه ، ومنه قوله تعالى : آمَنَ لَا يَمْدِي (٢) - على قراءة ورش ، والصواب : الحق البين .
والبد : الفرار والهروب ، ويقال : لا بد أن تفعل : أى لا فرار لك ولا هروب من الفعل ،
أو لا محالة منه (قاله في القاموس) بمعناه ، و الجملة : ما كان مجموعاً ، و التفصيل : ما كان
مفروقاً ، و الفصول : جمع فصل . وهو للقطعة من الكلام ، وهو في كلام الناظم بدل من
خمة بالتوين ، لا مضاف ، لإخلاله بالوزن

(١) لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من كتم علماً عن أهله ألجم يوم القيامة لجأماً
من نار ، رواه ابن عدى عن ابن مسعود .

(٢) سورة يونس : ٢٥

يقول رحمه الله : وأنت أيها السائل حين امتديت إلى الصواب بتوجهك إلى طلب الوصول إلى رب الأرباب فسألت عن تبيين الطريق والوصول إلى عين التحقيق ، لزمني أن أجيبك ، ولم يكن لي بد ولا مهرب من الجواب ، لأن الله تعالى أخذ على العلماء أن لا يكتموا العلم ، فقال تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا ، (١) - الآية ، وقال تعالى : « لَنُذَبِّحَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا نَكْتُمُ رُتْبَهُ » (٢) ولقوله عليه الصلاة والسلام :

« من سئل عن علم نافع فكتمه ألجمه الله بلجام من النار » (٣) ، وهذا لمن كتمه مع توفر للشروط ، وهو استحقاق ذلك وأهليته ، فإن لم تتوفر للشروط فلا يجب إظهاره ، لاسيما علم السر ، وقد اختلف المشايخ : هل لا يبذل عليهم إلا لأهله ، وهو مذهب أبي الحسن النوري ، أو يبذل لأهله ولغير أهله ، والعلم أحمى جانباً من أن يصل إلى غير أهله ، وهذا مذهب إمام الطائفة أبي القاسم الجنيد رضي الله عنه ، إذ قيل له : كم تنادي على الله بين يدي العامة ؟ فقال له : لكنني أنادي على العامة بين يدي الله تعالى اهـ

قلت : وفي كلامه رضي الله عنه إلغاز وتستر ، ومعناه : لكنني أنادي على عامة من حضرتي من مظاهر الحق بين يدي الله .

قلت : ومن سلك مذهب الجنيد : شيخ أسيادنا سيدي علي العمري رضي الله عنه ، حتى كان يسمى في زمانه : المبذر . ولذلك تجد أهل قاص - كثيراً منهم - يخوض في علم الحقيقة من غير عمل ولا ذوق ، وأخذ الجمهور بمذهب أبي الحسن النوري ، فكانوا لا يشكمون في الحقيقة وعلم السر إلا مع أهله ، في موضع خال ، وربما سدوا الأبواب : غيرة منهم على الربوبية أن يبذل وينادي عليه بلسان الاشتهار ، وفي الحكم عبارتهم إما لفيضان وجد أو قصد هداية مرید ، فالأول معذور لتلبية وجده ، والثاني مأمور لهدايته من هو أهله ، والله تعالى أعلم

(١) سورة البقرة . الآية : ١٥٩

(٢) سورة آل عمران . الآية : ١٨٧

(٣) رواه ابن ماجه عن أبي هريرة بلفظ « من كتم علماً نافعاً ، إلى آخره ، وروى إلا

أحمد والحاكم عن أبي هريرة : « من سئل عن علم نافع فكتمه ألجم بلجام من النار يوم القيامة » .

ثم ذكر برنامج الكتاب ، وأنه محصور في خمسة فصول ، فيبينها بقوله :

أولها في أصله ، والثاني	في فضله على مدى الأزمان
وثالث الفصول في أحكامه	وحين يستوى على أقدامه
والرابع الرد على من رده	وليس يدري شأنه وقصده
وخامس يعلم كيف صيرا	حتى غدا بين الأنام منكرا

قلت : أصل الشيء : قاعدته وأساسه التي يبنى عليها ، ومدى الشيء : غايته ونهايته .

يقول رحمه الله : قد ذكرت في هذا الكتاب من مبادئ علم التصوف أربعة أمور ،

وهي موضوعه ، وواضعه ، وفضيلته ، وقائده

أما الموضوع والواضع فيؤخذان من ذكر أصله

وأما فضيلته وثمرته فتؤخذ من ذكر فضله ، فإن فضيلة الشيء لا تكمل إلا بحصول

ثمرته ، وبقي من المبادئ ستة بمجموعها عشرة ، وهي جارية في كل فن من فنون العلم ، فالخذاق

من أهل العلم يقدمون ذكرها قبل الشروع في ذلك الفن ، وقد نظمها بعضهم ، فقال :

الحمد والموضوع ، ثم الواضع	والاسم الاستعداد حكم الشارع
تصور المسائل ، الفضيلة	ورتبة ، فائدة جلييلة
حتى على طالب علم أن يحيط	بفهم ذي العشرة ، ميزها ينفيط
يعلمها قبل الشروع في الطلب	لكي يكون مبصراً بما طلب

وقد ذكرتها بتمامها في أول شرحنا على الحكم فلينظره من أرادها ، والمراد بالأحكام

ما يلزم المرید من الآداب في معاملته وتصرفاته ، وقد حصرها في تسعة على ما يأتي إن شاء الله .

وقوله : « وحين يستوى على أقدامه ، معناه : أنه ذكر في ذلك الفصل أحكام التصوف ،

وآدابه من أوله إلى نهايته ؛ فإذا عرف ذلك فقد علم التصوف ، « ونهض على أقدامه ،

كتابة عن معرفته .

وقوله : « وخامس إلى آخره ، يعني أنه ذكر في الفصل الخامس : كيف تغير التصوف

حتى صار منكراً بين الناس بعد أن كان مروفاً مشهوراً .

وباقى الكلام واضح ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر تسمية الكتاب ، لأنها من مقدماته ، ومن الأمور المهمة ، فقال :

وبعد ما فصلته فصولاً	وعادبت حبليها موصولاً
سميتها المباحث الأصلية	عن جملة الطريقة الصوفية

قلت : « والبت ، بالمشاة : القطع وفي الحديث ، المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى (١) » أى المنقطع ، وهو هنا استعارة لتفرق المسائل قبل جمعها في هذا الكتاب ، ويؤخذ منه أن تسمية الكتاب مؤخرة عن كمال التأليف ، أو يكون جمعها في ذهنه وعزم على تأليفها ، والمباحث ، جمع مبحث ، وهو : ما يبحث عنه أو فيه ، فهو اسم مكان ، لأن كاتبه جعله محلاً للبحث والتفتيش عن أحوال الصوفية وسيرهم .

يقول رحمه الله : وبعد ما فصلت هذا الكتاب فصولاً خمسة ، وصار جعل تلك الفصول بعد قطعه موصولاً ، بحيث نظمت جواهره في سلك عقده ، فصارت جواهر فصوله ، ويوافقت تراجمه موصولة في سلك واحد ، سمينه حينئذ ، المباحث الأصلية ، لأنها تبحث عن أصول الطريقة وتحقق مبناها ، وهذه الطريقة هي : طريقة الصوفية ، وهي : الموضوعات لكيفية تهذيب القلوب وتصفيتها من الرذائل وتحليتها بالفضائل ، لتتأهل بذلك لمعرفة الحق تعالى المعرفة الحقيقية ، التي هي معرفة للعيان بطريق الذوق والوجدان .

واختلف في اشتقاق التصوف على أقوال كثيرة أحسنها : أنه من الصفا ، لأن مداره على التصفية ، وإليه أشار بعضهم بقوله :

تخالف الناس في الصوفي واختلفوا وكلهم قال قولاً غير معرووف
ولست أمنع هذا الإسم غير فتي صافي فصوفي ، حتى سمي الصوفي

قال أبو حمزة البغدادي : علامة الصوفي الصادق أن يفتقر بعد الغنى ، ويذل بعد العز ، ويخفى بعد الشهرة ، وعلامة الصوفي الكذاب : أن يستغنى بعد الفقر ، ويعز بعد الذل ، ويشهر بعد الخفاء .

وقال بعضهم : لا بد للصوفي أن يتحقق بمعاني حروفه ، فالصاد صفاءه ، والواو وفاؤه ، والفاء فناؤه ، والياء يقينه ، وكذلك الفقير يتحقق بمعاني حروفه ، فالفاء فناؤه ، والياء قربه ، والياء يقينه ، والراء رحمته ورأفته ، وباقه للتوفيق .

ثم دعا لمن قرأ كتابه أو طالعاه ، أو شرحه ، أو اعتدكه له ، فقال :

فحي يا رب امرئاً حياها وزكه يوماً متى زكاها

(١) بهذا اللفظ رواه البزار، والحاكم، والبيهقي في السنن، وفي لفظ: «إن هذا الدين متين، فأوغل فيه برفق، فإن المنبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى» وله ألفاظ أخرى، انظر المقاصد الحسنة للسخاوي .

قلت ، التحية ، في الأصل دعاء بطول الحياة ، كانت العرب إذا لقوا كبيراً قالوا :
أطال الله حياتك وأبقاك الله ، أو أطال عمرك ، ثم انتقل إلى السلام ، وهو تحية أهل
الإسلام ، وهو أيضاً تحية أهل الجنة ، والتزكية : التطهير ، أو التسمية والترفع

يقول رحمه الله : اللهم حي ، أي سلم أمراً حياً كتابنا بالقبول والتعظيم والترفع ،
وطهره من دنس الذنوب ودرن الميوب وغبش الحس وغين الاغيار وظلمة الاكوان ،
بتجدد ذلك التطهير من مازكى كتابنا بقوله أو العمل بما فيه أو الثناء عليه ، أو البحث
عن معانيه

وقد كان للشيخ الثباع يربى أصحابه بهذا الكتاب
وكان الغزواني يربى أصحابه بالشريحية ، يعنى ، الرائية ، .
ولكن المباحث أفيد لأهل القلوب ، والله تعالى أعلم
ثم شرح في المقصود فقال رحمه الله :

الفصل الأول في أصله

قلت : ذكر أصله من جهتين : من جهة الذوق والوجدان ، ومن جهة دليل الشرع والبرهان ، حتى لا يجد المنكر له مقالا ، ولا الطاعن فيه مساعا ، وقدم الأول فقال :

واعلم بأن هذه الطريقة بحث عن التحقيق للحقيقة

قلت : والبحث ، هو : التفتيش ، يقال : بحث عن كذا : فحصر عنه ، وبحث في الأرض : أخرج ترابها ، والتحقيق : إدراك الشيء من أصله ، والحقيقة : ذات الشيء وأصله ، وحقيقة الإنسان : ماهيته ومادته

وأما في اصطلاح للصوفية فهي : كشف رداء الصون عن مظهر الكون ، فيبقى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل ، وهي عندهم نتيجة للتصفية التي هي الطريقة : والطريقة : نتيجة الشريعة ، فالشريعة هي : إصلاح الجوارح الظاهرة ، وهي تدفع إلى الطريقة التي هي إصلاح السرائر الباطنة ، وهي أيضا تدفع إلى الحقيقة التي هي كشف الحجاب ومشاهدة الأجباب من داخل الحجاب ، فالشريعة أن تعبده ، والطريقة أن تفصده ، والحقيقة أن تشهده

يقول رضى الله عنه : واعلم بأن هذه الطريقة التي سألت عنها : وهي : طريقة الصوفية هي بحث وتفتيش عن تحقيق الحقيقة وإدراكها : ذوقا وحالا ، واللام في الحقيقة ، لام التعدية ، كقوله هذا تحقيق لهذا ، أى تحقيقه في الحقيقة ، وما أنا أقدم لك مقدمة يسهل بها فهم ما يذكره الناظم في هذا الأصل ، فنقول وبالله التوفيق ، ومن الله الإمداد والتسديد :

اعلم أن الحق جل جلاله واحد في ملكه ، لا شريك معه ولا ضده ولا ندله ، كان ولا شيء معه ، وهو الآن على ما كان عليه ، كان في أزل أزليته لطيفا خفيا ، حكما قديرا لطيفا لا يدرك ، خفيا لا يعرف ، قائما بذاته ، متصفا بمعاني أسمائه وصفاته ، فأراد سبحانه أن يعرف بذاته ، وأن يظهر أثر أسمائه وصفاته ، فأظهر قبضة من نوره اللطيف ، فتكشفت بقدرة ليتيا بها التعريف ، ثم تنوعت على عدد أسمائه وصفاته ، فلما ظهرت تلك القبضة التورية تجلى فيها باسمه الباطن ، فبطنت في ظهورها ، وكنت في مظاهرها ، فالأشياء كلها مظاهر للحق ، لكن لا بد للحسناء من قباب ، والشمس من سحاب ، فنسجت تلك الخمرة

اللطيفة الازلية بقدرتها رداء ، واكتت بحكمتها إزاراً ، فقالت : والمظلمة إزارى والكبرياء رداً فن نازعنى واحداً منهما قصته ،^(١) ثم اختلفت تلك الحكمة في نسجها وظرفها ، فنها ما رق غزله ولطف نسجه ، فكان فيه النور قريباً من الظهور ، ومنها ما غلظ غزله وكثف نسجه ، غنى للنور لأجل غلظ الستور ، ثم إن الذى رق غزله ولطف نسجه منه ماهو نور محض ، وهم للثلاثكة ، ومنه ماهو نور وظلة ، وغلب عليه النور ، وهم بنو آدم . ومنه ماهو نور وظلة وغلب عليه ظهور الظلمة ، وهى اجنادات ومالا يعقل من الحيوانات ، ونعى بالنور للمعنى ، وبالظلمة ، الحس ، فالكون كله باطنه نور وظاهره ظلمة ، باطنه قدرة وظاهره حكمة ، باطنه لطيف ، وظاهره كئيف ، وإليه أشار صاحب المينية بقوله :

وما للكون فى التمثال إلا كثلجة وأنت لها الماء الذى هو نابع

ثم إن الحق سبحانه خص مظهر هذا الأدنى بخصائص لم تكن لغيره

منها : أن جعل روحه اللطيفة النورانية فى قالب كئيف ، ليتأتى له منه غاية لتصرف

ومنها : أن جعل ذلك القالب فى أحسن تقويم ، وأبدع فيه من بدائع حكمته وعجائب

صنعتة ما يليق بقدرة السميع العليم

ومنها : أنه جعله حاكماً على المظاهر كلها ، مالكا لها بأسرها ، خليفة عن الله فيها ، ثم فتح له

من قنون العلوم ومخازن المفهوم ما لم يفتحه على غيره بما هو معلوم ، وقال تعالى - إني جاعل فى الأرض خليفة - وقال فى تلك الخليفة - وعلم آدم الاسماء كلها -

ومنها أن أعطاه سبحانه وتعالى سبعا من الصفات تشبه صفات المعانى الازلية ، إلا أنها

ضعفت بإحاطة للقهرية ، وهى : القدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، فحصل له بهذا أنموذج وشبه بالصمدانية الربانية .

ومنها : أنه سبحانه جعله لسنة الوجود ، يحاكي بصورته كل موجود ، فإن عرف الحق

كان الوجود نسخة منه ، وإلى بعض هذه المعانى أشار بقوله :

وهذه حقيقة الإنسان حيث لها أنموذج ربانو

(١) وفى رواية : والكبرياء رداً فن نازعنى رداً قصته ، رواه الحاكم عن أبى هريرة ،

وفى رواية : والكبرياء رداً والمظلمة إزارى فن نازعنى واحداً منها قذفته فى النار ، رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه)

قلت : حقيقة الإنسان هي روحانية ، وهي لطيفة نورانية لاهوتية جبروتية ، ثم احتجبت ببشرية كثيفة ناسوتية ، فسبحان من ستر السر الخصوصية بظهور وصف البشرية ، وظهر بإظهار الربوبية في مظاهر العبودية

والأنموذج ، قال في القاموس : والأنموذج بالفتح : الشبه ، وبالهمز : الحن ، وفي نسخ الناظم كلها بالهمز ، فانظره مع ما قال في القاموس ، وفي بعض النسخ : إذ كان في المندرج الرباني ، وسيأتي معناه ، فالنموذج هو الشبه ، وهذا الشبه الذي حازه الإنسان دون غيره هو انصافه بشبه أوسان الحق سبحانه ، حيث جعل الله فيه : قدرة ، وإرادة ، وعلماً ، وحياة ، وسمعاً ، وبصراً ، وكلاماً ، وجعله نسخة من الوجود بأسره ، وخليفة عن الله حكمه : ينصرف في الأشياء باختياره في ظاهر أمره ، ولذلك ورد في الحديث :

« إن الله خلق آدم على صورته ، (١) »

وفي رواية على « صورة الرحمن » ، ومعناه خلق آدم وأعطاه من الصفات ما يشبه صفات الرحمن ، وهي صفات المعاني والمعنوية ، وخصه أيضاً بجعله خزانة أسائر أسمائه ، ففي الآدي تسعة وتسعون اسماً ، كلها كامنة في سره ، ثم يظهر على ظاهره ما سبق له في علم الغيب ، فالبعض يظهر عليه اسمه الكريم ، والبعض اسمه الرحيم والبعض اسمه الحليم والبعض اسمه المنتقم ، والبعض اسمه المتكبر ، والبعض اسمه : القهار ، والبعض اسمه : القابض ، والبعض اسمه : الباسط ، وقد يتعاقب عليه أسماء كثيرة في وقت واحد ، وإذا فني عن حبه وغاب عن نفسه ظهرت عليه أنوار الألوهية ، فينطق بالانانية غلبة ووجداً ، وبهذا قتل العلاج .

وقد ورد الترغيب في التخلق بأخلاق الرحمن ، قال صلى الله عليه وسلم : « تخلقوا بأخلاق الرحمن ، (٢) »

(١) متفق عليه ، ورواه الإمام أحمد ، والحديث طويل وفي تفسيره كلام كثير ، وكلام الصوفية فيه كلام لإشارات .

(٢) وفي حديث آخر : « إن لله تعالى ثلاثمائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة » ، رواه الطبراني في الأوسط عن أنس .

ورغب في الصيام لما فيه من شبه الصمدانية ، وقد رغب أيضاً في التقرب إليه سبحانه حتى يكون سمعه وبصره ويده ورجله ، ومعناه تغيبه عن صفة الحدوث بشهود أنوار القدم وفي ذلك يتحقق له هذا النموذج الصمداني

وفي الحكم : « وصولك إلى الله وصولك إلى العلم به ، وإلا لجل ربنا أن يتصل بشيء أو يتصل به شيء ، وسيأتي الكلام إن شاء الله على هذا المعنى عند قول الشيخ :

متى ارتقيت عن قبيل الحس أدركت في نفسك معنى النفس
يا من على القشر غدا يحوم حتى عن اللب : متى تصوم ؟

إلى آخر الآيات ، وعلى النسخة الثانية « فالمندرج الرباني ، هو : السر المكون الذي برزت منه الروح ، وفنعت في هذا الجسم ، وهي الخمرة الصافية ، أي هذه حقيقة الإنسان حين كان في جملة السر الرباني المندرج في الخمرة الأزلية ، وفي بعض أدعية الشاذلي : « وادرج أسمائي تحت أسمائك ، وصفاتي تحت صفاتك ، وأفعالي تحت أفعالك ، : درج للسلامة وإسقاط الملامة ، والله تعالى أعلم .

ثم بين أن حقيقة الإنسان وسره سر من أسرار الله ، لا يجوز أن يوضع في الكتب على وجه التصريح ، وإنما يذكر على وجه الإشارة والتلويح ، وعلمنا كله إشارة ، فقال :

ووضعه في الكتب لا يجوز بل هو كنز في النهى مكنوز
إياك أن تطمع أن تحوزه من دفتر أو شعر أو أرجوزه

قلت : النهى جمع نهي ، وهو اسم للعقل ، والدفتر : اسم للكتاب ، وقال في الغاموس : الدفتر ، وقد تكسر الدال : جماعة الصحف المضمومة ، والجمع . دفاتر ، والشعر : كلام موزون ، والأرجوزة بمعنى القصيدة . وهي ذات أبيات

يقول رضي الله . وضع هذا السر وهو النموذج الرباني الذي اختص به الإنسان في الكتب لا يجوز إذا كان ذلك على وجه التصريح ، وإنما منع وضعه في الكتب لأمرين . أحدهما أن العبارة لا تقوم به ، لأن علم الإشارة مهما صار عبارة خفي ، وقد يؤدي التعبير عنه لتكفير القائل وتبديعه وتفسيره ، وربما أدى لتلفه ، كما قال بعضهم :

فمن فهم الإشارة فليصنها وإلا سوف يقتل باللسان
كحلج الحبة إذ تبدت له شمس الحقيقة بالنداني

وقال زين العابدين رضى الله عنه :

يا رب جوهر علم لو أبوح به لقبل لى أنت بمن يعبد الوثنا
ولا ستمحل رجال مسلمون دى يرون أقبح ما يأتونه حسا

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه :

وفى السر أسرار دقاق لطيفة تراق دمانا جهرة لو بها بحنا

الامر الثانى : أن وضع ذلك فى الكتب يؤدى لابتذاله وإظهاره ، مع عدم استيفاء المراد منه ، فيكون قطعاً للريد عن التحقق به ، وموجباً لوجود الحيرة فيه ، ولا يفهمه فى الحقيقة إلا من اطلع عليه وعرف معناه ، كحال الطرب فى السماع ، لا يتأثر به إلا من عنده ذوق وخبرة ، ثم ذكر أن هذا السر كنز مدفون فى صدف مكنون ، لا يسه إلا المطهرون . بقوله « بل هو كنز مكنوز » أى مدفون وفى النهى ، : أى العقول السكاملة والقلوب الصافية ، ومن كملها وحررتها كتبها للأمراء ، كما قال بعضهم : « قلوب الأحرار قبور الأسرار » ، وقال آخر :

لا يكتم السر إلا من به ثقة قالسـر عند خيار الناس مكتوم
وقال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

ادفن سرى ودكوا فى الأرض سبعين قاما
وخل الخلاق بشكوا إلى يوم القيام

ثم حذر من أن نطمع أن تحوز هذا السر من كتب القوم ، أو من أشعارهم أو من قصائدهم ، لأنه أذواق ، لا يؤخذ من الأوراق ، وإنما يؤخذ من صحبة أهل الأذواق ، بل لا تزيد مطامعة الأوراق إلا تفتيراً وتعطيلاً .

علم الأذواق لا يؤخذ من الأوراق ، قالوا : وحقائق المعارف منطبعة فى الأرواح من يوم الميثاق ، فلذلك قامت بها الحجة فيما لا يزال ، فوصول العبد إلى ما عنده منها بواسطة أمداد النجلى ، لا لأمر زائد على ذلك .

قال بعض المشايخ : إياك وطلب الدليل من خارج ، فتفتقر إلى الممارج ، واطلب الحق من ذاتك لذاتك ، تجد الحق أقرب إليك من ذاتك

وقال في الحكم : « نور مستودع في القلوب ، مدده للنور الوارد من خزائن الغيوب ، .
وقال في موضع آخر : « أشهدك من قبل أن استشهدك ، فطقت بإلهيته الظواهر ،
وتحقق بأحدثه القلوب والسرائر ، وما هو إلا كما قال الحق سبحانه في شأن الإخلاص
« هو سر من أسرارى أودعته قلب من أحببت من عبادى ، لا يطلع عليه ملك فيكتبه ولا
شيطان فيفسده (١) » ، وكذلك سر الربوبية الذى أودعه الله في الإنسان ، لا يعلم حقيقته على
الكمال إلا هو سبحانه ، وإذا كان كذلك فالتعليم والتعلم لا يفيد ، وإنما يفيد للتعرض
لنفحات الحق بشواهد الصدق : قولاً وعملاً وحالاً ، ومن عمل بما علم أورثه الله علم ما لم
يعلم (٢) ، وكان علمه من ربه لقلبه ، وهو أتم للعلوم وأجلها ، فافهم واطلب الشيء منك
إليك (منى على دارت كشوى) .

قال بعضهم : علينا لا يؤخذ بالقياس ، ولا بالفهم وقوة الذكاء والاقتباس ، بل هو
تمكن من الحق ، يكشف عن القلب قناعه ، ونور منه ينبسط في عوالم الحقيقة شعاعه ،
حتى يصير الغيب في معد العيان ، ولا يفتقر المشكل لشيء من البيان ، بل لو كشف الغطاء
ما ازداد صاحبه يقيناً ، وإليه الإشارة بقوله عليه الصلاة والسلام « لم يفتكم أبو بكر بكثرة
صلاة ولا صيام ، ولكن بشيء وقر في صدره » (٣) . ومع هذا فالشيء الموقور في صدره
معلوم الأصل ، الذى هو التحقيق في اليقين ، والإيمان إلى حد المواجهة والعيان ، قاله الشيخ
ذروق رضى الله عنه .

ثم بين قدر ما يعرفه الإنسان من السر بالوصف ، فقال :

وإنما تعرف منه وصفاً لست تراه ، وهو ليس يخفى

قلت : لما نبي معرفة النموذج الرباني الذى خص به الإنسان من الكتب ، ذكر هنا
مقدار ما تعرفه بأنعت من الكتب ، فقال : « وإنما تعرف من ذلك النموذج ، وهو سر
الربوبية المندرج في الخثرة الأزلية ، وصفاً ظاهراً ، يقال باللسان ولا يرى بالعيان ، لأنه إنما
يدرك بالبصيرة ، فإن كنت من أهل البصيرة أدركته بالذوق والوجدان ، وإن لم تكن

(١) رواه العراقي في جزء من مسلات القزويني عن حذيفة ، ورواه القشيري في رسالته

(٢) هذا لفظ حديث شريف رواه أبو نعيم في الحلية من حديث أنس .

(٣) ذكره بمعناه في الرياض النضرة في مناقب العشرة .

من أهل البصيرة ، لحظ رأسك لأهل البصيرة حتى تذوق ماذا أقروا أو تموت ، فالمعرفة التي تكتسبها من الدفاتر أو الأشعار أو الأراجيز اذ لك الوصف است تراها بعينك ، فإذا قال لك الشاعر مثلاً :

. ألا كل شيء ما خلا الله باطل .

. أو ما في الكون غيركم .

لا تعرف ذلك ولا تدركه بعقلك ؛ مع كونه ظاهر لا يخفى ، لكن لا يدركه إلا أهل الأذواق ، أهل البصائر النافذة ، لا أهل العقول المقيدة بالخيالات الوهمية ، فإن هذا أمر خارج عن مدارك العقول ، ولا يحيط بكنهه العلم المنقول .

قوله : « است تراه وهو ليس يخفى » ؛ أى لست تراه ببصرك الحسى ، لما كساه من رداء للغزة وحجاب الحكمة ، وهو : ليس يخفى على أهل البصيرة للنافذة ، فليست تراه لأنه باطن ؛ وهو ليس يخفى لأنه ظاهر . فاسمه للباطن يقتضى أن لا تدركه الأبصار ؛ واسمه الظاهر يقتضى انطواء ما سواه من الأغيار ، وانفراده بالوجود وظهور الأنوار ، وفي ذلك قال بعض العارفين :

أقد ظهرت فلا تخفى على أحد إلا على أكده لا يبصر القمر
لكن بطنى بما أظهرت محتجباً وكيف يعرف من بالغة استترا

وفي الحكم : « أظهر كل شيء بأنه الباطن ، وطوى وجود كل شيء بأنه الظاهر ، فاسمه الباطن يقتضى ظهور الأشياء ليكون باطناً بالنسبة إلى ظهورها .

واسمه الظاهر : يقتضى بطون الأشياء وانطواءها ؛ إذ لا ظاهر سواه لما يقتضيه الحصر الذى فى الآية الكريمة . وهذا من عجائب الربوبية التى بهرت العقول ، وحيرت الأذهان ، بحيث صار ظاهراً فى حال بطونه ، باطناً فى حال ظهوره ، ظاهراً باعتبار قدرته باطناً باعتبار حكمته . والله تعالى أعلم .

ثم ذكر المصنف أنه شرح لك من ذلك الوصف البعض بقدر ما يفهمه عقلك ، قال :

وما أنا أشرح منه البعض بقدر ما تفهمه فلترض

أى تنبه لما أقول لك بعد . فأننا أشرح لك بعض ذلك السر بقدر ما تفهمه ويدركه عقلك . فلتفتح بذلك ولترض به ، إذ لا يمكن شرح الكل ، لأنه من السر المكنون الذى لا يحيط به إلاّ علام الغيوب ، وأيضاً إذا عبرت لك عن كنه السر تعرضت للهلاك ، وقد قال تعالى -
 « وَلَا تَقْسُؤْا أَنفُسَكُمْ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَءِىماً » (١) - ثم ذكر ذلك البعض الذى وعد به ، فقال :

فهذه الحقيقة النفسية مرصولة بالحضرة القدسية
 وإنما يعوقها الموضوع ومن هنا يبدأ الطلوع

قلت : المراد بالحقيقة النفسية هو : الروح اللطيفة السارية فى الاشباح الكثيفة القائمة بها ، والحضرة القدسية هى العظمة الأزلية القديمة اللطيفة الخفية المعبر عنها بعالم الجبروت ، وهى التى فرها ابن الفارض فى خمرته حيث قال رضى الله عنه وأرضاه :

يقولون لى صفها فأت بوصفها خير : أجل عندى بأوصافها علم
 صفاء ولا ماء ، ولطف ولا هوى ونور ولا نار ، وروح ولا جسم
 تقدم كل الكائنات حديثها قديماً ، ولا شكل هناك ولا رسم ،
 وقامت بها الاشياء ثم لحكمة بها احتجبت عن كل من لا له فهم

فالاشياء التى قامت بالخمرة الأزلية هى : الموضوعات التى تكشفت وظهرت ، فقد وضعها الله أوانى حاملة للمعاني ؛ ومنها أشباح بنى آدم ، فإنها موضوعات للسر الربانى ، الذى هو الروح ، والروح متصلة بتلك الخمرة الأزلية ، وإنما يعوقها ويمنعها من اللحوق بأصلها ، هذا الموضوع الذى وضعه الله لها وأسكنها فيه ، فهو كيف ، وهى لطيفة ، فمن غلبت كثافته على لطافته ؛ أو تقول : بشريته على روحانيته ،بقى دائماً مسجوناً بمحيطاته ، محصوراً فى هيكل ذاته ، ومن غلبت لطافته على كثافته ، أو تقول : روحانيته على بشريته اتصلت بروحه بالحضرة القدسية ، ورجعت إلى أصلها ، فلم يحجبها عن أصلها أرض ولا سماء ، ولا عرش ولا كرسي حتى قال بعضهم : « العرش والكرسي مندقان فى ترسي ، وقال آخر : « لو أن العرش ، فى زاوية من زوايا قلب العارف ما أحس به . وفى الحكيم العطائية : « الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب ، مسجون بمحيطاته ، محصور فى هيكل ذاته ، مفهومه إذا فتحت له ميادين الغيوب لم يحصره هيكل ولا كون ، بل يترقى إلى فضاء الشهود ، وتتصل روحه بالملك المعبود ،

اتصالا يعرفه أهل الأخواق ، وينكره أهل الأوراق ؛ وقد ضرب عز الدين ابن عبد السلام مثلا ربما يزيل ذلك الإشكال ؛ ويوضح لك المثال إن لم تذق مذاقت الرجال .

قال في حل رموزه وفتح كنوزه ، فاعلم أن القلب غيب ؛ والرب غيب ، فاطلع الغيب على الغيب ؛ فكان اطلاعه نزولا لا حلولا ؛ واعلم أن لطيفة ذلك : أن القلب خلق كامل الوصف ؛ فله وجهان : ظاهر وباطن ؛ فظاهره ترابي أرضي ؛ مظلم طبيعي جثامي ، وباطنه سماوي علوي ، نوراني روحاني ، فكثافة ظاهره لمباشرة القوى الطبيعية البشرية ، واطافة باطنه لمواجهة الملكوتيات العلية الربانية الروحانية ، فلي قدر مواجهته لها ومقابلته إياها انعكست عليه أشعة أنوارها ، وتجلت لأسراره بأسرارها ، فشاهدها بالأنوار التي فاغنت عليه ؛ وأدركها بالأسرار التي أبدتها إليه ، وهذا معنى العكس والمقابلة ؛ فهو يشهد جمالية محبوبه في مرآة قلبه من غير حذر ولا تحيز ، ولا حلول ، ولا انفصال ولا اتصال ؛ فهو في المثال كمرآة لها وجهان : ظاهرها كثيف مظلم ، وباطنها لطيف مضيء ، فلو قابلها من الكائنات ماقابلها من صغير أو كبير أرتته بمثلا فيها مع صغر جرمها وكبر المرتى فيها ، ولو كان جملا أوجبلا أرتته بكل أجزائه فيها من غير حلول فيها ، ولا اتصال بها ، ولا تحيز في شيء منها ، فكذلك الحق سبحانه وتعالى : إذا تجلى على قلب عبده المؤمن يشاهده بعين قلبه ، ويمتليه ببصر بصيرته من غير حلول ولا تحيز ، ولا اتصال ولا انفصال .
وأوضح من هذا المثال ما أشرحه في هذه الآيات :

ولما تجلى من أحب تكريما	وأشهدني ذاك الجنب المعظما
تعرف لي حتى تيقنت أنني	أراه بعيني جهرة ، لا توهمها
وفي كل حال أجتليه ولم يزل	على طور قلبي حيث كنت مكلما
وما هو في وصلي يتصل ولا	بمنفصل عني ، وحاشاه منهما ؛
وما يقدر مثلي أن يحيط بمثله	وأين الثرى من طلعة البدر ، إنما
أشاهده في صفوسرى فأجتلى	كلا : تعالى عزه أف يقسا
كما أن بدر التم يظهر وجهه	بصفو غدير ، وهو في أفق السما

واعلم أن هذه الخصوصية إنما هي لابن آدم دون الملك ، وإنما كان كذلك لما ذكرنا أن الآدى مخلوق من العالمين : اللطيف والكثيف ، فينزل القلب فيه بمنزلة المرآة في لطفها

وكثافتها ، ولذلك انطبع فيها ما يقابلها من المرئيات ، ولا كذلك الملك ، فإنه مخلوق من لطيف فقط ، وهو كله نور يشف ظاهره وباطنه ، فهو كازجاجة الشفافة ، نورها خارق ، فلا يتمثل فيها ما يقابلها لعدم التكثيف الذي يعكس ما يقابلها إليها ، فهذا سر العكس والمقابلة ، انتهى كلامه رضى الله عنه .

ومن هنا يبدأ الطلوع ، وحاصله : أن الآدمي كالمرآة التي من خلفها للطلاء وهو الدهن الذي يجعل فيه ، والملائكة كالمرآة التي لا طلاء خلفها ، لكن الملائكة فيهم الخواهر والعوام وفيهم العارفون وغيرهم ، والله تعالى أعلم .

وقوله : « ومن هنا يبدأ الطلوع » : الإشارة تعود إلى الموضوع الذي جعله الله محلا للروح ومستقرا لها في هذا العالم السفلي ، أي ومن هذا المحل السفلي الذي تقررت فيه الروح يبدأ طلوعها وعروجها إلى محلها الأصلي ، الذي هو عالم الملكوت أو الجبروت ، وطلوعها بقدر تخليها عن هذا الوطن وغيبتها عنه ، فبقدر ما تغيب عن موضوعها تفارقه ، وتخرج عنه إلى أصلها ، وبقدر ما تتعلق به وترتحن معه تستقر فيه وتسجن في هيكله .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضى الله عنه : « أيها الشائق إلى سبيل نجاته ، التائق إلى حضرة حياته ، أقلل النظر إلى ظاهرك إن أردت فتح باطنك لأسرار ملكوت ربك » .

وفي بعض الكتب المنزلة يقول الله تعالى : « عبادي إنما منحتك صفاتي لتعرفني بها ، فإن ادعيتها سلبتك الولاية ، ولم أسلبك صفاتي ، يا عبادي أنت صفتي ، فارجع إلى أرجع إليك ، يا عبادي فيك العلوم باب مفتاحه أنا ، وفيك للجهل باب مفتاحه أنت ، فأقصد أي البابين شئت ، يا عبادي قربي منك بقدر بعدك عن نفسك ، وبعدي عنك بقدر قربك من نفسك ، فقد عرفتك الطريق ، فترك نفسك تصل إلى في خطوة واحدة ، يا عبادي كل ما جمعك على فهو مني ، وكل ما فرقك عني فهو منك ، فجاهد نفسك تصل إلى ، وإني لفتي عن العالمين ، ثم قال : « يا عبادي إن منحني نفسك رددتها إليك راضية مرضية ، وإن تركتها عندك فهو أعظم بلية فهي أعدى الأعداء إليك ، فجاهد ما نعد بالفوائد إليك » .

وكان شيخنا رضى الله عنه يقول : إن شئت أن أقسم لكم : أنه لا يدخل عالم الملكوت من في قلبه علاقة .

وقال الشنري رضى الله عنه : ليس يدرك وصالي كل من فيه بقيا .

وقد أوضح الناظم هذا ، يعنى فيما يأتى حيث قال :

لم يتصل بالعالم الروحاني من عمره على الفضول عانى
ليس يرى من المعاني دان من قلبه فى عالم الأبدان
والبيت الآخر : تفسير لما ذكره هنا بقوله ، ومن هنا يبتدأ الطلوع ، ويأتى زيادة بيان
وتوضيح عند شرحها إن شاء الله ، والله تعالى أعلم .
ثم بين كيف كان اتصال الروح بالحضرة فقال :

فلم تول كل نفوس الأحياء علامة دراكه للأشياء
ولمّا تعوقها الأبدان والآفئ للزغ والشيطان
فكل من أذاقهم جهاده أظهر للقاعد خرق العاده

الزغ هو : النخس والتحريك ، نزغ للشيطان : أى نخسه وحركه ، والآفئ للزغ هى :
التي تحرك صاحبها للمعاصى والشهوات ، والنفس ، والعقل ، والقلب ، والروح ، والسر : شئ
واحد عند محققى للصوفية ، وما ثم إلا اللطيفة الربانية حين اشتبكت بهذا البدن وسجنت
فى هذا الهيكل : اختلفت تسميتها باعتبار تطورها وترقيها ، فادامت مظلمة بالشهوات والمعاصى
سميت نفساً ، فإذا انزعجت وانعقلت عن المعاصى سميت عقلاً ، فإذا سكنت إلى الطاعة لكنها
تقلب فى التدبير والاختيار والاهتمام بأمر البدن سميت قلباً ، فإذا اطمأنت بالله وسكنت
إليه ، وفتحت بصيرتها بشهود نور أصلها سميت روحاً ، فإذا تصفت من الخس وصارت
معنى محضاً سميت سراً ، وهذا كان أصلها سرّاً من أسرار الله ، قال تعالى : **« قُلِ الرُّوحُ**
مِنْ أَمْرِ رَبِّى » (١) أى سر من أسرار الله ، فكانت فى الأصل علامة لما كان وما يكون ، دراكه
وقائق الأشياء على ما هى عليه ، ولما أدخلها الحق فى هذا الهيكل الكثيف إظهاراً لحكمته ،
وإعلاماً بعظمه قدرته ، وإشعاراً ببهريته انحجبت عن أصلها وغاب عنها ذلك العلم والإدراك
ونسيت معاهدها ومعالها اشتغالا بتدبير هذا الهيكل الطينى ، فهو يميل بها إلى أصله ، ويغلبها
إلى أرض الشهوات التى نشأ بالحكمة منها ، وهى تمسك إلى أصلها وتمن إلى وكرها ، فإذا

طاوت وررفت إلى وكرها وجدت قفص البدن محيطا بها . فربما شطحت ورقصت من وراه أودية العز والكبرياء .

وفي ذلك يقول الشيخ أبو مدين رضى الله عنه :

يحركنا ذكر الأحاديث عنكم	ولولا هواكم في الحشا ماتحركنا
فقل للذي ينهى عن الوجد أهله	إذا لم تذق معنا شراب الهوى دعنا
إذا اهتزت الأرواح شوقا إلى اللقاء	نعم ترقص الأشباح يا جامل المعنى
أما تنظر الطير المقفص يافنى	إذا ذكر الأوطان حن إلى المعنى
يفرج بالتغريد ما بفؤاده	فيطرب أرباب العقول إذا غنى
وبرقص في الأقفاص شوقا إلى اللقاء	فتضطرب الأعضاء في الحس والمعنى
كذلك أرواح المحبين يافنى	تهزها الأشواق للعالم الأسنى
أنزما بالصبر وهى مشوقة	وهل يستطيع الصبر من شاهد المعنى

إلى آخر كلامه

ثم أعلم أن تطورات الروح من : النفس ، والعقل ، والقلب ، والروح ، والسر : كل طور له حد ينتهى إليه في العلم والإدراك ، أما النفس لحد علمها وإدراكها زينة ظاهر السكون اغترارا بمتعة ظاهره ، وغفلة عن عبء باطنه ، واشتغالا بمحاو ظها وهواها ، وأما العقل لحد علمه وإدراكه افتقار الصنعة إلى صانعها ، فهو يقرر الصنعة ويردها إلى صانعها ، معقولا عن غير ذلك ، وأما القلب في علمه وإدراكه التوجه إلى خالقه بترك الأغبار وطلب الأنوار فقد انطلق من العقال وشد في طلب مولاه الرحال .

وأما الروح : لحد علمها وإدراكها مواجهة أنوار الملكوت ، طالبة أسرار الجبروت ، قد استراحت من تعب السير ، لكنها لم تتمكن من السر ، وأما السر لحد إدراكه أسرار الجبروت ، قد نفذت البصيرة من الوقوف مع أنوار الملكوت ، وهذا منتهى السير ، قال تعالى : «وَأَنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ الْمُنْتَهَىٰ» (١) .

خوفي هذا المقام قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه :

ولو عاينت عينك يوم تزلزلت أرض النفوس ودكت الأجيال
لرايت شمس الحق يسطع نورها يوم التزلزل ، والرجال رجال
قال : « والارض ، : أرض النفوس ، والجبال ، جبال العقل »
أى لو غبت عن نفسك ولم تقف مع عقلك لرأيت أنوار ربك .

قوله : وإنما تعوقها الأبدان أى يمنعها من الرجوع إلى أصلها فتسكون علامة دراكة الأشياء
كما كانت فى أصلها ، الأبدان التى هى كالأقفاس لها حصرا ، وكالقمص والأودية لها سورا ،
وإنما منعها البدن من الرجوع إلى أصلها ، لأنه ظلماتى طينى صلصالى ، لا يميل بطبعه إلا لأصله
من الشهوات الجسائية ، مأكلا ومشربا وملبسا ، وكلما تعمق فى ذلك تكثفت بشريته ،
وقويت دائرة حسه ، فعظم حجاب الروح ، وتوغلت فى هذا القفص ، وكذلك النفس التزائفة
المحركة إلى الحظوظ الذميمة ، كحب العلو والجاه والمدح والثناء ، وحب الدنيا والنساء وغير
ذلك مما يستتبع هذا من : الكبر ، والحسد ، والبغض ، والغضب ، والقلق ، والخذل ،
وخوف الفقر ، وهم الرزق ، وحب الأغنياء : طعما وحرصا ، واحتقار الفقراء ، وغير
ذلك من عيوبها ، هى التى حجبت الروح ومنعتها من العروج إلى وطنها ، ولدوا هذه
الأمراض وضع علم التصوف ، وكذلك الشيطان بوسوسته وزغته وتزيينه ، لأنه حواري
فيزين لها الكفر ، ثم المعاصى ، ثم التثبط عن الطاعات ثم إدخال الرياء فيها ، ثم العجب
إذا تخلصت من هذه العوائق رجعت إلى أصلها من علم الحقائق ، وإلى ذلك أشار بقوله :

فكل من أذاقهم جهاده أظهر للقاعد خرق العادة

لجهاد البدن بقطع مواده ، من : تقليل الطعام ، والشراب ، واللباس ، والنم ، فلا يأكل
ولا يشرب ، إلا ليتقوى على طاعة الله ؛ ولا يلبس إلا ما يحفظ به البدن ، لأنه معرفة سره
ولا ينام إلا ما يرد به العقل والنشاط لطاعة الله ، وكذلك لا ينقل قدميه إلا حيث يرب
ثواب الله ولا يجلس إلا حيث يأمن غالبا من معصية الله ، ولا يصحب إلا من يستعين
على طاعة الله ، ولا يتبع إلا من يتحقق وصلته بالله ، فيكون فى كل حال عاملا لله ، بالله
وجهاد النفس بقطع ما لوقاتها . ويحرق عوائدها بتحليلها ما تكره ، وإبعادها عما تحب
وأعظمها ثلاث : حب الجاه ، وحب الدنيا ، وحب النساء ، وجهاد الشيطان بالاشتغال

والغيبه عنه ، فعداوة العدو حقاً هي اشتغالك بمحبة الحبيب حقاً قال تعالى : **إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ**
لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا ، (١) - يعني ، وأنا لكم حبيب فاتخذوني حبيباً
لكم عداوة عدوكم .

وبقي من العوائق : للناس ، فإنهم أكبر العوائق وأقبح القواطع لمن وقف معهم واشتغل
بتقابلتهم ، وأما من غاب عن حسهم وغرق فيهم ، فقد صاروا له عوناً على الترقى إلى معرفة
خالقهم ، وإلى هذا المعنى أشار شيخ شيوخنا المجذوب رضي الله عنه بقوله :

الخلق نوار وأنا رعبيت فيهم هم الحجب الأكبر والمدخل فيهم

وقال في الحكم : إنما أجرى الأذى عليهم كي لا تكون ساكناً لإيهم ، أراد أن يزجرك
عن كل شيء ، حتى لا تكون ساكناً إلى شيء ، وقال في شأن الشيطان والنفس : إذا علت
أن الشيطان لا يغفل عنك ، فلا تغفل أنت عن ناصيتك بيده ، إنما جعلك عدواً ليحوشك به
إليه ، وحرك عليك النفس ليديم إقبالك عليه ، .

فتحصل أن هذه العوائق الأربعة ، إنما هي عوائق لمن وقف معها وحجب بها ، وأما
من لم يقف معها ، فإنما هي في حقه معونات وموصلات ، حركتهم إلى الله ، ودفعتهم إلى حضرته
وبها ثبتت خصوصيتهم وتحقق سيرهم ، لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ، فبجنان
من جمع بين الضدين ، شيء واحد حبيب من وجهه عدو من وجهه ، وفي الحقيقة مائمه إلا الحبيب
أوقف على بابه حراساً ليظهر الصادق في محبته من الكاذب فيها ، والله عليم حكيم .

وقوله : **أظهر للقاعد خرق العادة** ، يعني أن من نهض إلى مجاهدة هذه الثلاث أو الأربع
قد يكرمه الله بظهور الكرامات وخرق للعادات ، إما حسية أو معنوية ، فيظهر عليه بحسب
كل مقام خارق يليق به على قدر حاله ، فمن مجاهدة البدن تظهر الكرامات الحسية ، أما من
جهة العبادة الحسية كحلالة الطاعات ولذيق المناجاة لقوله صلى الله عليه وسلم : **من غص**
بصره شرزقه عباده يحد لذتها (٢) ، وإما من جهة خرق المادة الحسية كالشي على الماء ، والطيوان
في الهواء ، وطى الأرض ، وتسخير السباع ، وجلب الطعام والماء من النيب ، وغير ذلك .

(١) سورة فاطر : الآية : ٦

(٢) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : **النظرة سهم مسموم من سهام إبليس لئن الله**
فإن تركها خوفاً من الله آتاه الله عز وجل إيماناً يحد حلاوته في قلبه .
رواه الحاكم وصححه إسناده من حديث حذيفة .

ومن مجاهدة النفس : تظهر الكرامات المعنوية ، من : فهم العلوم ، واتساع الفهم . وتحقيق اليقين ، وشهود رب العالمين ، وتسخير الفرس ، وقهرها ، وظهور الجلالة والمهابة إلى الخلق ، لحديث : « إنما يرحم الله من عباده الرحماء » (١) .

وقوله عليه الصلاة والسلام « من خاف من الله خافه كل شيء » (٢) ، الحديث ، ونحو ذلك . ومن مجاهدة النفس والشیطان تظهر الكرامات الحقيقية بالكفاية ، والهداية ، والحفظ من الضلال والغواية ، لقوله تعالى .

« إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » (٣) ، وقوله .

« لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ » (٤) .

ثم بين أهل هذه الخوارق ، فقال .

وهي من النفوس في كيون كما يكون الحب في الغصون

قلت : السكون هو : الخفاء والتستر ، والضمير في « وهي » يعود على ما تضمنه قوله « خرق للعادة » من العلوم والإدراكات والخوارق والكرامات ، يعني : أن العلوم والإدراكات والافتقار على خرق العادات . هي كامنة خفية في النفوس ، أي الأرواح ، لأن الأرواح أصلها قبضة من نور الجبروت ، فهي : عالة ، قادرة ، مريدة ، سمیعة ، بصيرة ، متكلمة ، بحيث سجنّت في هذه الهياكل الكثيفة كمن فيها ذلك السر وخفي ، ولم يظهر منه إلا نموذج ضئيف ، فسمع العبد وبصره وكلامه وعلمه وقدرته وإرادته وحياته : بقية من تلك الصفات ظهرت على العبد واستتر أصلها في النفوس ، كاستتار الحب والثمار في الغصون ، حين تكون

(١) رواه الطبرانی في الأوسط عن جریر ، وفي حديث آخر : « الراحون يرحمهم الرحمن ، ارجوا من في الأرض يرحمكم من في السماء » رواه الإمام أحمد ، والترمذی ، والحاك عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما .

(٢) ولفظ الحديث الشريف : « من خاف الله خافه كل شيء » ، ومن خاف غير الله خرفه الله من كل شيء ، رواه أبو الشيخ في كتاب « الثواب » ، من حديث أبي أمامة ، وابن أبي الدنيا في كتاب « الخائفين » .

(٣) سورة الإسراء ، الآية : ٦٥

(٤) الآية : ٩٩ من سورة النحل .

عالية من الثمار ، فإذا نزل المطر وأرعد الرعد أخرجت أوراقها وأزهارها وثمارها ،
ولكى هذا أشار بقوله :

حتى إذا أرعدت الرعود وانسكب الغيث ولان العود
وجال في أغصانها الرياح فنسجها يرتقب اللقاح

قلت : السكب هو : الصب ، يقال : انسكبت الدموع والمطر : انصب ، والإلقاح هو حمل
الأشجار بالثمار ، وألقحت النخل ثمارها إذا حملت به ، واللقاح بالفتح كسحاب ما يعلق
على النخل من طلع الذكر ، والمناسب في البيت أن يكون الإلقاح بالهمز مصدراً وهو الحمل
بالثمر ، وما ذكره هنا كله استعارة ، فالمراد بالعود بجاهدة الجوارح الظاهرة في خدمة
الشريعة ، ككثرة الذكر ، والصلاة ، والصيام ، والسير ، والجوع ، وغير ذلك من بجاهدة
الحس ، وأوكدها : الذكر والصمت ، والعزلة .

ولقد سمعت شيخ شيخنا مولاي العربي رضى الله عنه يقول : بقيت أربع سنين قائماً في الاسم
لا أقر عنه ، لا ليلاً ولا نهاراً ، حتى كان البدن كله يهتز به وحده ، فإذا قبضت على إحدى
رجلي اهتزت الأخرى ، فهكذا ينبغي ذكر الله ، والقناء فيه ، والمراد بانسكاب الغيث :
نزول الأحوال والواردات على القلوب من شوق مقلق أو خوف مزعج ، ووصول أثرها
إلى الباطن من : الشفقة ، والرحمة ، والحلم ، والصبر ، والزهد ، والورع ، والتوكل ، والرضى
والتسليم ، والمحبة ، والطمأنينة ، والمراقبة والسكرم ، والسخاء ، وغير ذلك من الأخلاق
المحمودة التي تلين الطباع وتمسك الأخلاق ، وهو المراد بقوله : ولان العود ، فكما أن العود
يلين بمرىء الماء فيه ، كذلك القلب يلين بمرىء الحال الناشئ عن العلم .

والمراد بجولان الرياح : النفحات التي تهب على القلوب من حضرة علام الغيوب ، بصحبة
العارفين ، والحك معهم (١) ، وفي حكمة لقمان عليه السلام كان يقول لولده : يا ولدى جالس العلماء
وزاحمهم بركبتك ، فإن الله ينبت الحكمة في القلوب بصحبتهم كما تنبت الحبة في الأرض
الطيبة ، والمراد بالعلماء : العلماء بالله ، فإن صحبتهم تلقح العلوم والمعارف والأسرار في القلوب
كما تلقح الرياح الثمار في الأشجار ، قال تعالى : « وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَافِحٍ » (٢)
قبل تلقح الأشجار وقيل تلقح الأمطار في السحاب ، ثم تصبه حيث أراد الكريم
الوهاب ، وهذا معنى قوله : هنالك ينتظر الإلقاح ، أى إلقاح العلوم والمعارف في القلوب ،
ولأجل هذا المعنى قال بعض العارفين : والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح .

(١) الحك هنا : الاحتكاك .

(٢) الآية ٢٢ من سورة الحجر .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : المراد بالعود المواعظ المذكرات ، ونزول غيث
الواردات ، المينة لأفنان شجرة القلب ، وجولان رياح الأحوال المتوجهة منها في نواحي
القلب ، حتى يسرى ذلك للجوارح فتأثر به ، قال الله تعالى : **وَاللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ
الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِي تَقْشِرُ عَنْهُمْ غُيُوبَهُمْ** الذين يخشون
رَبَّهُمْ ثم **تَلِينُ جُلُودُهُمْ** وقد لو بهم إلى ذكر الله ذلك هدى الله
يهدي به من يشاء ، (١) .

وما شرحت به أنسب لطريق التربية ، والله تعالى أعلم .

وقد ضرب في القوت مثلاً لهذا السر السكامن في النفوس بالزبد السكامن في اللبن ، فإذا
ضرب بالمخض خرج زبد ، ثم إذا ذوب صار ممناً صافياً ثم بين الناظم ما يكون بعد الإلقاح
من بدايته إلى نهايته فقال :

فَـعَـنـدَـما أـزـهـرت الأـغـصـان وَاـعـتـدَل الرِّـيـع وَالزَّـمـانَ
يَـكـوْن إِذْ ذَاكَ أَوَّانَ الْعَقْد وَانْتَضَمَ الْأَغْصَانُ نَظْمَ عَقْدٍ
حَتَّى إِذَا أَيْنَعَ لِلْعَيْنِ وَأَمِنَتْ جَوَانِحُ الزَّمَانِ
بَاكِرَهَا زَارِعَهَا وَالْفَارِسَ يَقْطِفُهَا أَوَّالَ غَيْرِ مِنْهَا آيَسَ

قلت : العقد الأول بفتح العين ، وهو عقد الثمار من الأزهار ، والعقد الثاني بكسر العين
وهو : سلك الجوهر المنظوم .

يقول رضى عنه : فإذا جالت رياح الهداية ، وهب نسيم الولاية ، وجال في أغصان
الأبدان ، ثم سرى إلى سويداء الجنان ، ألفت فيه أزهار الحكم ، وفنونا من نوار العلوم ،
وفتقت أكام الفهوم مختلفة الألوان - صنوان وغير صنوان ، يسقى بماء واحد ، فعندما أزهت
أغصان الجوارح للظاهرة بالأعمال والعوالم الباطنية بالأحوال ، واعتدل ربيع الشريعة بإظهار
زهر جماله في رياض الملكوت ، مع زمان هيجان بحر الحقيقة في حياض الجبروت - مرج
للبحرين يلتقيان بينهما برزخ لا يبغيان - فعند ذلك يكمل عقد معرفة الشهود والعيان ، وتنظم
استقامة الجوارح في مقام الإسلام والإيمان ، نزولا إلى بستان سماء الحقوق أو أرض الحظوظ
بعد الإذن والتسكين ، وبالعناية لذلك العارف ملحوظ ، لحينئذ يحقق بكمال العبودية ، ويقوم
بوظائف الربوبية ، لا يحجبه فرقه عن جمعه ، ولا جمعه عن فرقه ، قد اعتدل فيه الميزان :
يعطى كل ذي حق حقه ، ويوفى كل ذي قسط قسطه ، فإذا ظهرت عليه آثار العناية ،

ولاحت له أسرار الولاية تعجبت للناس من أحواله ، وما خصه الله به من عظيم نواله ،
فن معتقد وناقذ ، ومن مسلم وحاسد ، يريد أن يشاركه في مقامه بدعوى اللسان ، ومن ادعى
بما ليس فيه فضحته شواهد الامتحان ، كما أبان ذلك كله الناظم حيث قال :

فأى من مر بها ماء وأبصر اظلال والأفياء
ونزه الأبصار والعيونا حيث رأى الأنهار والعيونا
واشم منها الروح والريحانا وظل في بهجتها حيرانا
فقال : نحن إذا سواء فعندها يجمعنا المساء

قلت : المساء هو آخر النهار : من الزوال إلى الغروب . والفىء : الظل إذا أخذ في الزيادة
فهو باعتبار ما قبله من عطف الخاص على العام ، والروح قال في القاموس : الروح بالفتح
الراحة والرحمة ، ونسيم الريح اهـ ، والمناسب هنا هو الأخير ، وقال في تفسير الريحان : نبت
طيب الرائحة ، أو كل نبت كذلك ، أو أطرافه أو ورقه ، والولد ، والرزق اهـ والمناسب
هو : النبت ، على حذف مضاف ، أى واشتم من تلك الأغصان نسيماً طيباً ، ورائحة
تلك الرياحين .

يقول رحمه الله ورضى عنه : فأى شخص من البطالين مر في بساتين العارفين ورياض
الواصلين في وقت زوالهم واعتدالهم وعند زيادة ظلال أنوارهم وعلومهم ، فأبصر ظلال
أنوارهم قد ظهرت على وجوههم من أثر خشوعهم أو بهجة سرورهم ، كما قال :

إن عرفان ذى الجلال لعز وضياء وبهجة وسرور
وعلى العارفين أيضاً بهاء وعليهم من المحبة نور
فهنيئاً لمن عرفك إلهى هو والله دهره مسرور

ونزه أبصاره في أنهار علومهم الزاخرة ، وفي عيون حكهم الناضرة ، واشتم منها نسيم
القرب والوصال ، حين قرب من جنة الجمال ، وريحان السكال ، فبقى سائر نهاره في بهجة زهرتها
ونضرتها حيران ، فاستغرب ما اتحفهم به مولاهم المنان ، بعد ما كانوا مثله في النقصان ، وغاية
الجهالة والخذلان ، فلما علم بأحوالهم وتحقق بعظيم نوالهم ، ترمى بالدعوى على مقامهم ،
فقال هانحن معكم سواء ، فنشترك معكم في تلك البساتين عند المساء ، فما دام نهار البسط

والجمال استنوا جميعاً بلسان المقال ، فإذا جن ليل القبض والجلال ، ظهرت الجبناء من الأبطال ، وتميزت السمات من الرجال (١) :

سوف ترى إذا انجلى الغبار أفرس تحتك أم حمار ؟

وفي الأمثال بلسان الحال : إن شجرة التمر تصاعدت مع النخلة ، وقالت : لاني شجرة مثلك ، فقالت النخلة : ستعلم الشجرة منا عند هبوب رياح الحريف .

وكذلك المدعون للخصومية بالتشبه بأهل الطريق إذا اختبرهم الحق تعالى وعبرهم بمحك التحقيق ، فأرسل عليهم قاصفاً من رياح الفتن ، وضربهم بزلازل المحن ، إما في المال أو في البدن ، فكسوا على أعقابهم مدبرين ، وشهدوا على أنفسهم أنهم كانوا كاذبين ، خسروا الدنيا والآخرة ، ذلك هو الخسران المبين .

قال في التنوير : وإنما يفتضح المدعون بزوال الأحوال وعزولهم عن مراتب الإزوال ، هنالك يبدو العوار وتنتمك الاستار ، فكم من مدع الغنى باقعه وإنما غناه بطاعته ، أو بنوره أو بفتح ، وكم من مدع العز باقعه ، وإنما عزه بنسبته وصولاته على الخلق ، معتمداً على ما ثبت عندهم من معرفته ، فكأن عبد الله لا عبد العلة ، فكما كان لك رباً ولا علة ، فكأن عبد الله ولا علة ، لتكون كما كان لك ، ثم تهم حال المدعين وما آل إليه أمرهم حين ظهر عوارهم وانكسفت أنوارهم ، واشتدت عليهم ظلة أغيارهم ، فقال :

حتى إذا هجمه الظلام	واحتوشته الوحش والهوام
ولم يجد للعوز من أسباب	أقام حيران أمام الباب
فقبل من الباب ؟ قال : طارق	فقبل كلا ، لا ، ولكن سارق

قلت : هجم عليه هجوماً : دخل بفتنة ، قاله في القاموس ؛ وضنه الناظم معنى جن : أى جنه وغطاه ، ولذلك عداه بنفسه ، واحتوش القوم الصيد : نفروه ، ومعناه هنا خوفه وأفزعه والوحش حيوان البر ، والهوام ، بشد الميم : حشرات الأرض ، والطارق : الآتي بالليل ، وكلا : حرف زجر وردع .

يقول رضى الله عنه : إن ذلك المدعى الذى تراعى على مراتب الرجال ، بمجرد التشدد والمقال وادعى الوصول إلى مقام الراحة والجمال ، قبل أن يتأدب بصدمات الجلال لما هجم عليه ليل القبض والجلال ، وغربت عنه شمس نهار البسط والجمال افتضح ، وتبين أنه دجال

(١) مقصود العبارة : يظهر من البطل الحقيقى ، ومن الجبان ، أى يتميز هذا من ذاك إذ يعرف كل شيء من ضده . والله تعالى أعلم .

خافزته وحوش للشكوك والخواطر ، وأحاطت به هوام جرائمه الصغائر والكبائر ، فهي تلذذه وتلسمه كلسع العقارب والزناير ، فلما لم يجد منها مأسكا ولا مهرباً التجأ إلى باب الأكار ، فأقام خلف الباب حيران ، يريد أن يضوه معهم إلى حصون ماشيدوه خلف بساتين العرفان ، من غير أن يحيط رأسه إلى تقبيل أقدام الرجال ، ولا أن يسمح بنفسه في عز ولا جاه ولا مال ، فنادوه بأفصح لسان الحال : أيها الطارق لباب الرجال ، ماذا تريد وأنت على هذا الحال ؟ فقال : هذا طارق يريد الدخول إلى حضرة المحبة والوصول ، فقالوا له : كلا ، ليس حالك حال الطارق ، ولكنك متطفل سارق فإذا انكسر وذل نفسه قال مطلبه وحصل أنسه وإن بقي على ماهو عليه كان عاقبته الحرمان .

أو يقول : حتى إذا هجم (على (١) هذا المدعى المتكبر ظلام الجهل والغفلة واحتوشته وحوش المساوي والعيوب ، وأحاطت به هوام المعاصي والذنوب ، ولم يجد للفوز والخلاص منهما سبيلاً أقام خلف باب العارفين ، يستمطر الرحمة والعفو من رب العالمين ، في حال الدهش والحيرة ؛ ينتظر من سعة كرمهم لحظة أو نظرة ، مع ماهو عليه من زى أهل الغفلة والفترة . فقالوا له : من هذا الذي وقف بالباب يريد الدخول مع الأحباب من غير أن يفرخه بالتراب ؟ فقال : طارق يريد الوصول ، فقالوا : لا سبيل لل طارق إلى الدخول .

وإنما سمي المدعى : سارقاً لأنه يسرق كلام القوم وينسبه لنفسه . أو يدعيه حالاً ومقاماً وليس له في ذلك إلا التطفل عليهم دون ذوق ولا وجدان ، فإذا أراد الله به خيراً ألقى في قلبه الصدق والتصديق وذل وانكسر لأهل التحقيق . فوقف بياهم منكسراً . وإلى ما عندهم من المعارف والأنوار مفتقراً . لأنهم باب الله الأعظم ، كما نبه على ذلك الناظم رحمه الله ، حيث قال :

فقال : مهلا صاحب الجنات لحائر قد ضل في الفلاة

فقبل : هلا كنت ذا بستان ؟ فقال : كنت قاعداً ووان

فقال : يا قوم ألا تشرون ؟ قالوا : جهلت نحن النشرون

قلت : المهل ، هو التأخر والتأني ، وهو مصدر حذف عامله ؛ أي أمهلني مهلا ، وضل

تلف ، والفلاة هو : الموضع القفر الخالي من العماره ، والوانى هو : المتأخر والمتهمل .

يقول رضى الله عنه : إن ذلك المدعى المتطفل لما عرف الحق وأمله ، وتحقق عيبه

وجعله ، أقر بكمال أهل الكمال ، وعرف مقالات الرجال ، لحين طرق الباب ؛ وطرده من

(١) في الأصل : هجم هذا ، فوضعنا (على) لإصلاح سياق الكلام .

ذلك الجناب تهمة له ، أنه لم يلق السلاح ، ولم ينزع عن فعالة اقبحاح . قال لهم ، مهلا على يا أصحاب الجنات ، هنيئاً لكم بما أسلفتم في الأيام الخاليات . ألا ترقوا الحار قد ضل في الفلاة واستوحشته هوام الذنوب والسيئات . ولسعة حيات الخطوظ والشهوات . وللهفته عقارب الشكوك والخطوات ؛ فقالوا : أين كنت وقت ربح السموم وبرد الليالي ؟ حين غرست الرجال أشجار المعارف لخت ثمار المعاني ؟ قال : كنت عند كانون كسل وثار البطالة قاعداً ووانى .

فقالوا له : لا تظن أن بساين المعارف رخيصة . كل معشوق غال . ماجنيت ثمار المعارف إلا ببرد الليالي .

فقال : يا قوم أنتم أهل الكرم والجود . ألا تبيعوا لي شيئاً من ثماركم المنضود ، وتأوونى إلى سعة ظلكم الممدود ؟

قالوا له : جهات ثمن ثمارنا المحمود . فلا تناله ولو بذلت فيه نفس المجهود . فليس ينال بالدرهم والفلوس ، وإنما ينال ببذل الأرواح والنفوس . كما نبه عليه الناظم بقوله :

فهذه فواكه المعارف لم تشر بالتالد او باطارف
ما نالها ذو العين والفلوس وإنما تباع بالنفوس

قلت : التالد هو المال الذى تنج عندك وطال في ملكك ، قال في القاموس : التالد كصاحب والتلد بالفتح والضم والتحريك والتلاد والإتلاد والتلد : ما ولد عندك من مالك . والطارف : الحادث من المال : أى الذى تجدد ملكه ، ضد التالد ، يقول رضى الله عنه : فواكه المعارف ، وأذواق الواجدين . وأنوار الزاحلين والواصلين لا تال ولا تشتري بالأموال القديمة ولا الحادثة ولا بالكسب والاكتساب . وإنما هي فضل من الكريم الوهاب يخص بها من يشاء بأسباب وبغير أسباب ، وفاعل السبب هو فاعل المسبب . من تمام نعمته عليك أن خلق فيك ونسب إليك ، فثبوت الخصوصية إنما هو منح إلهية ومواهد اختصاصية ما نالها صاحب الدراهم والفلوس ، إنما تنال ببذل المهج والنفوس . يغيب أولاً عن فلسه وجنسه ثم يغنى عن وجوده ونفسه ، ثم يغنى عن فوائده ويبقى ببقائه ، وما ثم في ذلك كله إلا فضل ربه وعظيم عطائه ، وأنشدوا :

قد كنت أحسب أن وصلك بشترى بنفائس الأموال والأرباح

وظننت جهلا أن حبك هين	تفنى عليه كرائم الأرواح
حتى رأيتك تجتبي وتخص من	تختاره باطائف الإمداح
فعلت أنك لا تنال بحيلة	فلويت رأسى تحت طي جناحي
وجعلت في عش الغرام إقامتى	فيه غدوى دائما ورواحى

ومنى بيع النفوس ، هو أن لا يبقى لها حظ ولا لحظ ، إذ المزمع يشغله الشناء على الله ، عن أن يكون لنفسه شاكراً ، ويشغله حقوق الله عن أن يكون لحظوظه ذاكراً ، وذلك لا يكون مع وجود القيض ، مع التأخر والتشهير ، وكل البقاء في عين الفناء المطلق ، وقد تضمن ذلك قوله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمْ الْجَنَّةُ » (١) الآية ، إذ المبيع لا يبقى لبائعه حق فيه ولا حظ ، ولا تدبير مع مشتريه ، ولالسبة له في وجوده مع مالكه ، وإنما جاء سياق الآية بذلك لإظهار الرحمة ، وتبيين الكرامة وتنميعة للنعمة ، إذ لا رحمة ولا نعمة أعظم من إكرام السيد عبده بإظهار للنسبة له في وجوده بوجوده ، مع عزله عن وجوده وموجوده بطريق الرحمة والكرامة ، لا بطريق القهر والقوة ، والله تعالى أعلم . (قاله الشيخ زروق رضى الله عنه) .

ولما كانت جنة الزخارف مشتملة على بساتين وأنهار ، وعيون وقصور وحور ، شبهت الصوفية بما جتته المعارف ، فجعلوا فيها بساتين الأسرار والأنوار التي هي محل نزهة الأرواح ، وجعلوا فيها أنهار العلوم وعيون الحكم ، وقصور الحضرة ، وحور سكنى المعرفة وبحائر تفكك البسط والجمال ، واجتناء فواكه الأحوال ، وطرق مقامات الإنزال ، فقد ذكر الناظم ما يتعلق بالبساتين والأنهار والعيون ، وتكلم على ما بقي من القصور والبحار ، فقال :

وقيل : ليست هذه المناصر	مأوى لكل قاعد وقاصر
وقيل : ليست هذه البحائر	لبحائر ضل فظل حائر

قلت : المقاصر : جمع مقصورة ، والمقصورة هي الدار الواسعة المحيطة ، قاله في القاموس ، والبحائر جمع بحيرة وهي المقنات .

يقول رضى الله عنه : ليس للسكنى في قصور الحضرة والإقامة في دار المعرفة حاصل لكل قاعد بطل ، ولا لكل مقصر كسلان ، وليس التفكك من بحائر البسط والجمال لمن

كان في حيرة وضلال وأقام في تلفه راضيا بذلك الحال ، وإنما نالها أهل الجهد والاجتهاد ، وبصحة الأفراد السالكين على منهاج الحق والسداد ، وفي ذلك قيل :

الأنس باقه لا يحويه بطلال ولا يحوزه في الحال عتال
والأنسون رجال كلهم نجب وكلهم صفوة الله عمال

ولا يمكن السكنى في قصور المعارف ، والتفكك من بحائر الأذواق ، إلا بإفراد الوجهة للواحد الخلاق ، فيجعل الهموم هما واحداً ، والقصد قصداً واحداً ، والمحبة محبة واحدة ، ولتقلب مفرداً لله ، فبذلك ينال التقرب من الله ، ويسكن في حضرة الله . وفي الحديث : « من جعل الهموم هما واحداً كفاه الله هم دنياه » (١)

قلت : وجعل جنة المعارف مأواه ، وفي حضرة القدس منقلبه ومشواه .

قيل للجنيد رضى الله عنه : كيف السبيل إلى الانقطاع إلى الله تعالى ، قال : بتوبة تزيل الإصرار ، وخوف يزيل التسويف ، ورجاء يبعث على مسالك العمل ، وإهانة النفس بقربها من الأجل ومعدتها من الأمل .

قيل له : بم يصل العبد إلى هذا ؟ قال : بقلب مفرد ، فيه توحيد مجرد .

قال الشيخ زروق : وهذا الأمر لا سبيل إليه سوى الضراعة لمن بيده القلوب وعنده مفاتيح الأمور .

ثم نبه على أن ما قدم من العبارة ليس المقصود منها ظاهرها ، وإنما هو إشارة ، كما قال بعضهم : علنا كله إشارة ، فقال :

فافهم فتحت هذه العبارة إشارة وأيمها إشارة

قلت : فليس المقصود من ذكر الرعود ، والغيث وزهر الأغصان . واعتدال الزمان ، ولا من ذكر الظلال والأفياء ، والانهيار ، والعيون ، والروح ، والريحان ، والطارق والسارق ، والبتان ، ما يفهم من ظاهر العبارة ، وإنما ذلك إلغاز وإشارة ، فتحت كل عبارة إشارة

(١) وفي رواية : « من جعل الهموم هما واحداً (هم المعاد وملافة الله) كفاه الله سائر همومه ، ومن تشعبت به الهموم من أحوال الدنيا ، لم يبال الله في أى أوديتها هلك ، رواه ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود .

دقيقة ومعان رقيقة ، وقد تقدم التنبيه على ذلك كله في محله ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

ثم ذكر أصل التصوف من جهة دليل الشرع ، فقال :

ولنرجع الآن لباقي الفصل إذ في تمامه ثبوت الأصل

قلت : الفصل معقود لثبوت أصل التصوف ، فذكر أصله من جهة الذوق والوجدان ، وبقي ثبوته من طريق الشرع ، وبه تمام ثبوت أصله على الكمال ، فأشار إليه بقوله :

ف قادة الصوفي أهل الصفه في زمن الرسول فاعلم وصفه
وهم ضياف الله والإسلام وجلساء سيد الأنام

قلت : القادة ، والقدرة ، ما اقتديت به ، واتبعث طريقته .

يقول رضى الله عنه : فتنبوع الصوفية ، وقدوتهم في طريق التجريد وترك الأسباب والانقطاع إلى رب الأرباب ، هم أهل للصفة (موضع بناء عليه الصلاة والسلام في طرف مسجده لفقراء أصحابه) كانوا يجتمعون فيه : إذا كثروا بلغوا أربعمائة . وإذا قلوا كانوا ثمانين أو سبعين ، وبه سموا الصوفية (على قول) وكانوا يعرفون بضياف الله ، وضياف الإسلام ، آثروا التجريد للعبادة ؛ وبجالة سيد المرسلين ، وفيهم نزل قوله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي - (١) كما يأتي ، فأقرهم عليه الصلاة والسلام على التجريد وترك الأسباب ، حيث علم منهم عدم التشوف للأسباب ، والرضى بما قسم الله لهم ، وبما يواجههم به سبحانه من سعة أو ضيق ، ومن تشوف منهم أمره بالأسباب ، مثل حكيم بن حزام رضى الله عنه ، فإنه سأله فأعطاه ثم سأله فأعطاه ثم سأله فأعطاه ، ثم قال له يا حكيم إن هذا المال خضرة حلوة فمن أخذه بسخاوة نفس بورك له فيه ، ومن أخذه بإشراف نفس لم يبارك له فيه ، وكان كالذى يأكل ولا يشبع ، ثم قال له : لأن يأخذ أحدكم حبله فيحتطب خيره له من أن يسأل رجلاً أعطاه أو منعه ، (٢) الحديث ، فدل عليه الصلاة والسلام على التسبب لما تشوفت نفسه للأسباب ، بدلا عن المسئلة ، إذ هي آخر كسب المؤمن ،

(١) سورة الأنعام ، الآية : ٥٢

(٢) رواه أحمد ، والترمذى ، والنسائى بالفاظ متقاربة .

بخلاف غيره ، إذ لم يتشوف ، ولذلك قال الخواص رضى الله عنه : مادامت الأسباب في النفس قائمة ، فالتسبب أولى ، والأكل بكسب أحل له ، لأن القعود عن المكاسب لا يصلح لمن لم يستغن عن التكليف .

ثم وصف حالهم ليقنّدي بهم ، فقال :

كانوا على التجريد عاملين وعن سوى الرحمن معرضين

قلت : التجريد هو : التعرية عن الشيء ، يقال : فلان جرد ثوبه : أزاله ، وجردت الجلد : أزلت شعره ، هذا باعتبار اللغة .

وأما عند الصوفية فهو على ثلاثة أقسام : تجريد الظاهر فقط ، أو الباطن فقط ، أوهما معاً ، فتجريد الظاهر هو : ترك الأسباب الدنيوية وخرق العوائد النفسانية الجسدية ، والتجريد الباطني هو : ترك الملائق النفسانية والعوائق الوهمية ، وتجريدهما معاً هو : ترك الملائق الباطنية والعوائد الجسدية .

أو نقول : تجريد الظاهر هو : ترك كل ما يشغل الجوارح عن طاعة الله ، وتجريد الباطن هو : ترك كل ما يشغل القلب عن الحضور مع الله ، وتجريدهما هو : إفراد القلب والقلب لله ، والتجريد الكامل في الظاهر هو : ترك الأسباب ، وتعرية البدن من معتاد الثياب ، وفي الباطن هو تجريد القلب من كل وصف ذميم ، وتحليته بكل وصف كريم ، فأشار الذاظم إلى الأول وهو : تجريد الظاهر بقوله « كانوا » أي أهل الصفة وعلى التجريد ، الظاهر عاملين ، ورفعوا همّهم إلى رب العالمين ، فقتنوا بما تيسر من القوت ، وما يستر العورة من الثياب ، منها ما يبلغ الركبة ، ومنها دون ذلك ، كانوا يقولون للنساء في الصلاة : لا ترفعن رءوسكن حتى يستوى الرجال قعوداً ، خشية أن يرين عورة أهل الصفة من قصر الثياب ، ومنهم من لبس إهاب كبش : أي جلده ، وهو مصعب بن عمير ، فلما رآه عليه الصلاة والسلام : بكى وقال : « انظروا إلى هذا الذي نور الله قلبه فقد رأيتكم بمكة بين أبيه يختال في حلة قد اشترىته له لو اغتربها : أتى درهم فما زال به حب الله ورسوله حتى صيره إلى ما ترون ، رواه البيهقي كما في المنذرى ، ورواه في كتاب الزهد عن الترمذي أيضاً ، فهذه كانت أحوال أهل الصفة ، خيار هذه الأمة ، وهذه كانت سمة نبينا صلى الله عليه وسلم .

فقد دخل سيدنا عمر رضى الله عنه عليه صلى الله عليه وسلم فرأى الشريط قد أثر

في جنبه صلى الله عليه وسلم ، فبكى عمر رضى الله عنه لما رأى - كما في البخارى - ومات عليه الصلاة والسلام ودرعه مرهونة عند يهودى واليوم صار هذا بدعة عند الناس ، وصار الناس في لباس وتكبير العائم وجمع المال سنة ، فإن الله وإنا إليه راجعون ، وبرحم الله القائل .

يا حبي الله ما للناس أكره
سموا طريق أول التوفيق صعلكة
قد أنكروا الزهد والتجريد والورع
وسنة لقبوا الأهواء والبدعا

و . سنة ، مفعول مقدم للقبوا .

وقول الباطم ، وعن سوى الرحمن معرضين ، أى وكانوا عن سوى الرحمن معرضين ، لا يلتفتون إليه ، ولا يتعلقون به ، اكتفاء بالله واستغناء بعلمه رضى الله عنهم ونفعنا بهم ، ثم أشار إلى الثانى وهو التجريد الباطنى ، فقال :

تخلقوا بخلق النبي يدعون بالغداة والعشي

قلت : تخلق بكذا : تطيع به ، والخلق بضمين : السجية والطبع .

يقول رضى الله عنه : إن أهل الصفة رضى الله عنهم ، تخلقوا بخلق النبي صلى الله عليه وسلم ، يعنى قاربوا من خلقه عليه الصلاة والسلام ، وإلا فلا يمكن التخلق بخلق الله عليه الصلاة والسلام على الوفاء والتمام ، كيف والله تعالى يقول - وإنك لعل خلق عظيم - (١) فقد حاز عليه الصلاة والسلام مراتب الكمال على الوفاء والتمام ، حتى قالت عائشة رضى الله عنها : كان خلقه القرآن ، واحتشمت أن تقول : كان خلق الرحمن ، أدبا مع الحضرة ، ووقوفاً مع الحكمة ، فذكرت ما يليق بأداب العبودية ، واحتشمت من أخلاق الربوبية ، فقد أعطى عليه الصلاة والسلام الغاية من : الزهد ، والورع والخوف ، والرجاء ، والصبر والتوكل ، والتسليم ، والمحبة ، والرحمة ، والشفقة ، والحلم ، والكرم ، والشجاعة ، وكامل العقل ، وتمام المعرفة ، إلى ما لا يحصى ؛ وكان أهل الصفة أشبه الناس به في هذه الأخلاق .

وقوله - يدعون ربهم - أشار به إلى قوله تعالى في حقهم لرسوله صلى الله عليه وسلم - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم - (٢)

(١) سورة القلم ، الآية : ٤

(٢) سورة الكهف ، الآية : ٢٨

وسبب نزول الآية أن الكفار قالوا ، لا نرضى أن نجالسك مع هؤلاء ، فأراد عليه الصلاة والسلام أن يجعل لهم مجلسا يخصهم به ، ثم يجالس الفقراء بعد ذلك ، فنزلت الآية .

قال بعضهم : هو أمر إرشاد وتزكية ، ونهى تنبيه وترقية ، ليكون محجة لقوم ؛ وحجج على قوم ، وهذا كنهى للبار عن العقوق ، وأمره بالبر ، ليكون أثبت وأوفى وأتم في الحجة . وإظهاراً لتشريف قدر هذه الجماعة ، ومأم عليه من محامد الخلال ، وإلا فهو عليه الصلاة والسلام ، لا يعمل إلا ذلك قبل الأمر وبعده . ثم ما وصفهم به مولا من الدعاء بالقدار والعشئ غير معلل بعله سوى إرادة وجهه الكريم ، أى معرفة ذاته المقدسة . لا يرجون على ثواب ولا جزاء ولا قصور ، ولا حور ، وهذا كله تحققت الصوفية رضى الله عنهم ، كما فهموا ذلك من أخلاق نبيهم صلى الله عليه وسلم . وما كان يدل عليه ، وإلى ذلك أشار بقوله :

قد فهموا مقتضيات الشرع فصيروا الفرق لعين الجمع

قلت : مقتضى الشئ ، مطلوبه ، واقتضى دينه : طلبه والشرع ، والشرعة ، بالكسر : ما شرعه الله لعباده من الأحكام . والفرق عند الصوفية ، هو : شهود حق بلا خاق ، وجمع الجمع هو : شهود خلق بحق .

الفرق شريعة ، والجمع حقيقة ، الفرق شهود الحكمة ، والجمع شهود القدرة ، وجمع الجمع : شهود حكمة وقدرة .

يقول رضى الله عنه فى وصف أهل للصفة: إنهم تركوا الدنيا لأهلها ، وانقطعوا إلى الله بالكلية ، وقد فهموا ذلك من مطلوبات الشرع ومقتضياته ، إذ قد سمعوا كلام ربهم وأحاديث نبيهم صلى الله عليه وسلم فى ذم الدنيا والاشتغال بها ، ومدح التفرغ للعبادة والاجتهاد فيها ، وما أعد الله فيها للزاهدين والقانتين ، فتركوا الأسباب التى هى شريعة الضعفاء ، وتمسكوا بالتجريد الذى هو شريعة الأقوياء . وحقيقة الأصفياء ، فصيروا الفرق الذى هو الاشتغال بالأسباب لعين الجمع ، الذى هو الاشتغال بمسبب الأسباب . فالنظر للأسباب فرق . والنظر لمسبب الأسباب جمع . وهذا كقول الشيخ أبى العباس رضى الله عنه : للناس أسباب^(١) وسببنا الإيمان والتقوى . قال الله تعالى - ولو أن أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ، ولكن كذبوا -^(٢) فقتضى الشرع للبعد

أن يكذب جامعاً بين حقيقة وشريعة . أعنى شريعة الخواص التي هي لب الشريعة . لا شريعة العوام التي هي القشر ، وإذا كان جامعاً ، فيكون في ظاهره تمثلاً لأمره ، وفي باطنه مسائل لقهره بدعوه لكونه لا يرى الأمر إلا منه وله . ويقوم بواجبات وقته لكونه مطلوباً بوظائف حكمته . عاملاً بقوله - إياك نعبد وإياك نستعين - فإياك نعبد فرق - وإياك نستعين - جمع ، وشهود الجمع في عين الفرق ، هو جمع الجمع ، وهو الصراط المستقيم الذي طلب الهداية إليه . وبالله التوفيق ، فهو الهادي إلى سواء الطريق .

ولما ذكر أن أهل الصفة صيروا الفرق عين الجمع ، ذكر ما يترب عليه من الخروج عن كل شيء . ، والفني بالله في كل شيء . فقال :

قد خرجوا لله عما اكتسبوا فكل صوفي إليهم ينسب

قلت : لا شك أن أهل الصفة رضى الله عنهم كانت لهم أموال وعبيد وإماء وديار وعقار وأهل وعيال ، فلما هاجروا إلى الله ورسوله ، خرجوا عن ذلك كله ، وتركوه لله . فانتقلوا إلى المدينة ليس معهم شيء . فبني لهم عليه الصلاة والسلام صفة في طرف المسجد فنزلوا فيها : يصلون بالليل ويصومون بالنهار ، ويجاهدون مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في أول الجيش ، فقتل أكثرهم في الجهاد ، ومن بقي منهم بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءته الدنيا .

فمنهم من لم يقبلها ولم يأخذ منها شيئاً ، كأبي ذر ، وأبي الدرداء ، وأبي عبيدة ، ومعاذ وغيرهم من لا يحصى .

وهنهم من أخذها بالله ، ودفعها لله ، فكان فيها كالأمة ينظر العزل من مولاه ، يقوم فيها بواجب الحقوق دون تقصير ، ولا تعريض على مخلوق . وكذلك كانت الصوفية المحققون لا يملكون مع سيدهم شيئاً ولا يملكون شيئاً .

وقد سأل بعض الفقهاء أبا بكر الشبلي رحمه الله اختباراً له في العلم . فقال : يا أبا بكر : كم في خمس من الإبل ، فقال : أما الواجب فثاة ، وأما عندنا فكلها لله ، قال : وما دليلك قال : أبو بكر حين خرج عن ماله كله لله ورسوله ، فمن خرج عن ماله كله فأمامه أبو بكر ومن خرج عن بعض وترك بعضاً فأمامه هو رضى الله عنه ، ومن أعطى الله ومنع الله ، كان أمامه عثمان رضى الله عنه ، ومن ترك الدنيا لأهلها فأمامه على رضى الله عنه ، وكل علم

لا يدل على ترك الدنيا ، فليس بعلم اه .

وقوله : فكل صوفي إليهم ينسب ، يعنى أن كل من اتصف بأوصافهم من الخروج عما كسب لله ، أو أحذه بالله وأعطاه لله فهو منسوب إليهم ، فيقال له صوفي ، إما نسبة إلى الصفة على غير قياس ، وإما لأنه صفت أحواله كما تقدم في الاشتقاق .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : كل من اتصف بأوصافهم فهو منسوب إليهم ، سواء كان غنياً أو فقيراً ، لأن الله عز وجل لم يمدحهم بالعدم ، وإنما مدحهم بكونهم يدعونه بالغنى والعشى يريدون وجهه ، فمن اتصف بهذا كان على طريقته : غنياً كان أو فقيراً ، ودليل ذلك أنه كان منهم بعد ذلك : الأمير ، والفقير ، والمتسبب ، والمتجرد ، ولم ينقل ذلك وصفهم عما كانوا موصوفين به ، ولا نقصهم عما هم فيه من العمل بالحق والحقيقة ، بل شكروا على الدنيا حين وجدت ، كما صبروا عنها حين فقدت ، فكانوا لمولاهم في الحالتين ، ومن كان بهذه الصفة فهو تابع لهم ، فاعرف ذلك .

وإذا كان أمر النصوص حال أهل الصفة . فهو أمر ثابت عن الشارع بتقريره . ولم يبق البحث إلا في التسمية ، وهو أمر اصطلاحى لا مدخل للإنكار فيه ، إذ هي من عوارض الالفاظ ، والله تعالى أعلم اه .

وقوله : « إن هو ، يشير إلى أن القياس أن يقال فيه : الصنى ، بالشدة ، لكن كثيراً ما يأتي النسب على غير قياس ، وهذا منه ، ثم بين أن طريق التصوف ليس محدثاً ، بل هو حقرر من الشارع ، فقال :

إذن فشان القوم ليس محدثاً بل كان أحوى فوجدناه غثا

قلت : الأحوى : النبات الضارب للسواد من شدة الخضرة ، قاله في القاموس ، والغثاء هو : نبات اليابس الهشيم .

يقول رضى الله عنه : إذا تقرر ما تقدم من حال أهل الصفة ، وما كانوا عليه من التجريد وقد أقرهم النبي صلى الله عليه وسلم على ما كانوا عليه ، فليس شأن الصوفية محدثاً ، بل هو أمر شرعى ، إذ لا يقرر عليه الصلاة والسلام إلا ما هو مباح أو مطلوب ، وكيف يكون محدثاً ومدار الشريعة عليه ، إذ هو لبها وصفاتها ، إذ مقصود النصوص تصفية البواطن حتى يكون العبد على حالة رضاها الله ورسوله ظاهراً وباطناً ، وإذا كان أمره هكذا ، فكل علم يتوقف عليه إما من باب الشرط أو الكمال ، إذ مداره على صدق التوجه إلى الله

تعالى من حيث يرضى بما يرضى ، فكل علم لا يصحبه صدق التوجه إلى الله ، فليس بشيء .
 إذ الإخلاص شرط في الجميع ، وأيضاً مقام التصوف هو مقام الإحسان الذي فسرهُ رسول
 الله صلى الله عليه وسلم بقوله : أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك ، (١) وذلك
 لا يصح بدون ما تقع به العبودية والتعبد من عقائد الإيمان وأعمال الإسلام ، فهما ظاهره
 وهو باطنهما ، فلا قيام لهما إلا به ، ولا صحة له بدونهما . فهو كالروح ، وهما كالجسد ،
 فالروح لا تقوم بغير جسد ، والجسد لا يقوم بغير روح ، ولذلك قال مالك رضي الله عنه :
 من تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن تصوف ولم يتفقه فقد تزندق . ومن تفقه وتصوف
 فقد تحقق ، قالفه من غير تصوف جسد بلا روح ، والميت لا عبرة به ، والتصوف من
 غير فقه ما يلزم الإنسان في نفسه لا يصح ، إذ لا يدخل للحقيقة إلا من باب الشريعة ، وإلا
 فهي زندقة ، فالتكلم في أحكام الإسلام يسمى فقيهاً ، والتكلم في أحكام الإيمان يسمى
 أصولياً ، والتكلم في أحكام الإحسان يسمى صوفياً ، ويسمى علمه تصوفاً ، فغاية التصوف
 ومداره : تفسير مقام الإحسان ، لأنه دال بأواه على خشية الله ، وبأوسطه على معاملته ،
 وبآخره على معرفته .

أوتقول : مداره على مراقبة بعد مشاهدة ، أو مشاهدة بعد مراقبة ، وهو مقام
 الإحسان .

وأما إنكار بعض الناس هذا اللفظ ، بأنه لم يسمع في صدر الصحابة والتابعين ، فهو
 مردود ، إذ كثير من الاصطلاحات أحدثت بعد زمان الصحابة ، واستعملت ولم ينكر ،
 كالنحو ، واللغة ، والمنطق .

وأيضاً قد ذكر التجيبي : أنه سمع في صدر السلف ، فقد قال الحسن البصري رضي الله
 عنه : لقيت صوفياً في الطواف ، فأعطيته شيئاً ولم يقبله . والحسن من كبار التابعين ، أدرك
 كثيراً من الصحابة ، فهو حجة على استعمال هذا الاسم في زمانه ، والله تعالى أعلم .

وقوله : بل كان أحوى فوجدناه غثاً ، يعني أن التصوف كان في الصدر الأول غثاً
 طرياً جديداً ، لقربه من نور النبي صلى الله عليه وسلم ، فكان أنزل شيء منه ينهض صاحبه ،
 ثم طال أمره وقل وجوده ، فوجدناه غثاً : يابساً متشهماً ، لكنه يصلح للرعي ، كالاول ،

(١) رواه البخاري ، ومسلم ، وأغاب كتب السنة ، وهو حديث جبريل المشهور .

مع أفضلية الاول ، يعنى أن حقائقه لم تتغير ، وإن تغيرت أعيانه ، فالعمل به لم ينقطع ،
لكنه صار غريبا وأهله غرباء ، وقد قال عليه الصلاة والسلام ، طوبى للغرباء ،^(١) وإذا
تقرر أن حقائقه لم تتغير وجب العمل به كما أبان ذلك بقوله :

فاسلك طريق القوم تلقى بمنه إذ الكتاب قيده والسنة

قلت : « اليمن ، هو البركة والخير ، يشير إلى أن طريق القوم ميمونة مباركة ، فكل من
سلكها بالصدق والمحبة ، والجد والاجتهاد : وجد بركتها ويمناها ، وبركتها هي ثمرتها ،
وثمرتها : ما ينتج منها من مكارم الاخلاق ومعرفة الخلاق ، وقيل : ثمرتها سخاوة النفوس
وسلامة الصدور ، وحسن الخلق .

وقوله : « إذ الكتاب قيده والسنة » أشار به إلى قول الجنيد رضى الله عنه : علنا
هذا مقيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يسمع الحديث ويجالس الفقهاء ، ويأخذ أدبه عن
التأديين أفسد من اتبعه .

وقال سهل بن عبد الله : بنيت أصولنا على ستة أشياء : كتاب الله ، وسنة رسول الله
صلى الله عليه وسلم ، وأكل الحلال ، وكف الأذى ، واجتناب الآثام ، والتوبة ،
وأداء الحقوق .

وقال أبو عثمان الخيري رضى الله عنه : من أمر السنة على نفسه قولا وفعلًا : نطق
بالحكمة ، ومن أمر الهوى على نفسه قولا وفعلًا نطق بالبدعة اهـ .

وقال أبو القاسم النمر اباذى رضى الله عنه : أصل التصوف : ملازمة الكتاب والسنة ،
وترك الأهواء والبدع ، وتعظيم حرمان المشايخ ، ورؤية أعذار الخلائق ، والمداومة على
الأوراد ، وترك الرخص والتأويلات .

قلت : حرر أبو إسحاق الشاطبي هذه المسئلة - حسبما نقله في « المدة » - فرأينا نقله بطوله ،
لما فيه من الفوائد . . فقال رضى الله عنه :

« كل ما عمل به المتصوفة المعبرون في هذا الشأن ، يعنى كالجنيد وأمثاله لا يخلو : إما أن

(١) ومن ألفاظه : « طوبى للغرباء : أناس صالحون قليل في أناس سوء كثير : من
يعصيهم أكثر ممن يطيعهم ، رواه الإمام أحمد عن عبد الله بن عمرو بن العاص .

يكون بما ثبت له أصل في الشريعة ، فهم خلفاؤه ، كما أن من الصحابة والتابعين خلفاء بذلك ، وإن لم يكن له أصل في الشريعة فلا عمل عليه ، لأن السنة حجة على جميع الأمة ، وليس حمل أحد حجة على السنة ، لأن السنة معصومة من الخطأ ، وصاحبها معصوم ، وسائر الأمة لم تثبت لهم عصمة أصلاً ، إلا مع اجتماعهم خاصة ، وإذا اجتمعوا : تضمن إجماعهم دليلاً شرعياً ، فالصوفية كغيرهم ممن لم تثبت لهم العصمة ، ويجوز عليهم : الخطأ ، والنسيان ، والمعصية ، كبيرها ، وصغيرها ، والبدعة : محرمها ومكروهها ، وكذلك قال العلماء : كل كلام منه مقبول ومردود ، إلا ما كان من النبي عليه الصلاة والسلام .

قال : وقد قرر القديري رحمه الله ذلك أحسن تقرير ، قال : « هل يكون الولي معصوما ؟ قال : أما وجوباً كما يكون في الأنبياء فلا ، وأما أن يكون محفوظاً حتى لا يصر على الذنوب وإن حصلت منه هفوات أو زلات أو آفات فلا يتمتع ذلك في وصفهم . »

قال : وقد قيل للجنيدي : العارف يزني ، فأطرق رأسه ملياً ، ثم رفع رأسه ، وقال - وكان أمر الله قدرا مقدورا (١) .

قال : فهذا كلام المصنف ، فكما يجوز على غيرهم المعاصي والابتداع وغيره ، كذلك يجوز عليهم البدع ، فالواجب علينا أن نقف مع الاقتداء بمن يتمتع عليه الخطأ ، ونقف عن الاقتداء بمن يجوز عليه إذا ظهر في الاقتداء به إشكال ، بل يعرض ما جاء عن الأمة على الكتاب والسنة فاقبلناه قبلناه ، وما لم يقبلناه تركناه ، وما علينا إذا قام لنا الدليل على اتباع أقوال الصوفية وأعمالهم إلا بعد عرضها على الكتاب والسنة ، وبذلك وصي شيوخهم ، وأن ما جاء به صاحب الوجد والنوق من العلوم والأحوال والفهوم يعرض على الكتاب والسنة ، فإن قبلناه ، وإلا لم يصح .

ثم قال : إذا نظرت في رسومهم التي حدودها ، وأعمالهم التي امتازوا بها عن غيرهم بحسب تحمين الظن والتماس أحسن المخرج ، ولم تعرف له مخرجا ، فالواجب التوقف عن الاقتداء والعمل ، وإن كانوا من جنس من يقتدى بهم ، لا ردأ له ولا اعتراضاً عليه ، بل لأننا لم نفهم وجه رجوعه إلى القواعد الشرعية كما فهمنا غيره .

ثم قال - بعد كلام - فوجب بحسب الجريان على رأيهم في السفوك أن لا نعمل بما رسموه

وبما فيه معارضة لأدلة الشرع ، ونكون في ذلك متبعين لأنوارهم ، ومهتدين بأنوارهم ،
خلافاً لمن يعرض عن الأدلة ويصمم على تقليدهم فيما لا يصح تقليدهم فيه على مذهبهم ، فالأدلة
الشرعية ، والأنظار الفقهية : ورسوم للصوفية تذهمه وترده ، وتحمده من تحمري واحناط
وتوقف عن الاشتباه ، واستبرأ لدينه وعرضه ، انتهى كلامه .

هذا آخر فصل أصله عقلاً ونقلاً .

وموضوع هذا العلم : الذات العلية ، لأنه يبحث عنها باعتبار معرفتها : ذاتاً وصفياً
وأسماء : تعلقاً وتخلفاً وتحققاً .

وواضحه الرسول صلى الله عليه وسلم وحياً وإلهاماً .

وحده : صدق التوجه إلى الله تعالى من حيث يرضى ، بما يرضى .

واستمداده من الكتاب والسنة ، وإلهامات الصالحين ، وفتوحات العارفين .

واسمه : التصوف ، وتقدم اشتقاقه واستعماله .

وثمرته : تصفية البواطن بالتخلية والتعزية : تهيأ لواردات الأنوار الإلهية
والفتوحات الربانية .

وقد وقع في بعض نسخ الناظم هنا زيادة أبيات تضمنت هذه المعاني ، لكن لم توجد
في جل النسخ ، وليس عليها رونق ولا طلاوة مثل ما للناظم . ولا أظنها إلا زيادة من بعد
الكتاب . والله تعالى أعلم .

وأما فضيلته فأشار إليها في هذا الفصل بقوله :

الفصل الثاني في فضله

اعلم أن شرف الشيء وفضيلته ، إما أن تثبت بالعقل أو بالنقل لو بظهور ثمرته في الخارج ، وقد اجتمعت هذه الأمور في علم التصوف على الكمال :

أما ثبوت شرفه بالعقل ، فلا شك أن الشيء يشرف بشرف موضوعه وواضعه ، وقد تقدم: أن موضوع هذا العلم ، الذات العلية ، وهي أشرف وأفضل على الإطلاق ، وواضعه الرسول عليه الصلاة والسلام ، وهو أفضل الخلق بالإجماع ، وأيضاً العقل السليم : يستحسن الكمالات ، ولا شك أن التصوف ما وضع إلا لتحقيق الكمالات : علماً ، وعملاً ، وحالاً ، فهو موضوع لتكميل العقائد وتطهير النفوس وتحسين الأخلاق .

وأما ثبوت شرفه بالنقل ، فلا شك أن الكتاب والسنة وإجماع الأمة وردت بمدح جزئياته ومسانئه ، كالتوبة ، والتقوى ، والاستقامة . والصدق ، والإخلاص ، والطمأنينة ، والزهد ، والورع ، والتوكل ، والرضى ، والتسليم ، والمحبة ، والمراقبة ، والمشاهدة ، وغير ذلك من مسائله .

وقال الجنيد رضي الله عنه : لو نعلم أن تحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذي نتكلم فيه مع أصحابنا لسعيت إليه ما تبلغ إليه اللطى ، وفي رواية : ولو حبوا .

وقال الشيخ الصقلي رضي الله عنه في كتابه المسمى : بأنوار القلوب في العلم الموهوب ، : كل من صدق بهذا العلم فهو من الخاصة ، وكل من فهمه ، فهو من خاصة الخاصة ، وكل من عبر عنه وتكلم فيه فهو النجم الذي لا يدرك والبحر الذي لا يرتقى اه .

وما من علم إلا وقد يستغنى عنه في وقت ما ، إلا علم التصوف ، فلا يستغنى عنه أحد في وقت من الأوقات .

وأما شرفه باعتبار ظهور ثمراته ، فهو الذي تكلم عليه الناظم في هذا الفصل ، وحصره في ستة أمور :

الأول : ما ظهر على أهله من شدة الاقتداء وقوة الاتباع .

الثاني : ما ظهر عليهم من وفاق مذهبهم ، وحسم الخلاف والتزاع بينهم .

الثالث : ما ظهر عليهم من الكرامات الحسية والمعنوية .

الرابع : مآظهر عليهم من تطهير جوارحهم من الذنوب ، ونفوسهم من العيوب في الغالب
الخامس : مآظهر عليهم من تحقيق عقائد الإيمان ، وترقيهم فيها إلى مقام الإحسان ، مع صحة
آلية والثقة برب العالمين .

السادس : ما كوشفوا به من العالم الروحاني ، وما ترقوا إليه من عالم الملكوت ، وحضرة
الجبوت ، وهذا مضمن هذا الفصل ، فأشار إلى الأول بقوله :

حجة من يرجع الصوفية على سوام حجة قوية

قلت : وإنما كانت حجة من يرجع الصوفية على غيرهم حجة قوية ، لأنهم أحرزوا
الكالات : عقداً وعملاً ، وحالاً ، أما اعتقادهم فترقوا فيه إلى الشهود والعيان ، وأما عملهم
فهم يأخذون بالأحسن والأحوط ، فهم الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه .
وأما حالهم فهي : ربانية ذوقية ، فهم على بينة من ربهم .

ثم ذكر ترجيحهم وشرفهم باعتبار مآظهر عليهم من ثمرات عليهم ، وهي ستة كما تقدم -
فأشار إلى الأول ، وهي شدة الاقتداء والمتابعة فقال :

هم أتبع الناس لحبر الناس من سائر الأنام والآناس

قلت : الآناس ، والآناس : شيء واحد ، وهم الناس ؛ سموا الآناس ، لغلبة النوم لهم ؛
وسموا الناس ، لأنس بعضهم ببعض .

يقول رضى الله عنه : وهم أى الصوفية أتبع الناس ، وأكثرهم اقتداء بسيد الناس ﷺ
فدل ذلك على أنهم أحب المخلق إلى الله .

قال تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فأتبعوني بحببكم (١) الله - وقال رسول الله ﷺ :
لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من نفسه ، وماله ، وولده ، والناس أجمعين (٢) ،
وعلاوة المحبة الاتباع .

وقال بعضهم : التصوف ذكر مع اجتماع ، ووجد مع استماع ، وعمل مع اتباع .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ٣١

(٢) رواه أحمد ، والبيهقي ، والنسائي ، وابن ماجه : عن أنس .

ثم ذكر وجه كونهم أشد الناس اتباعا ، فقال :

تبعه العالم في الأقوال والعابد الناسك في الأفعال
وفيهما الصوفي في السياق لكنه قد زاد بالأخلاق

قلت : الناس ثلاثة : عالم ، وعابد ، وعارف صوفي ، وكلهم قد أخذوا حظا من الوراثة النبوية ، فالعالم ورث أقواله عليه الصلاة والسلام تعلما وتعلما ، بشرط إخلاصه ، وإلا خرج من الوراثة بالكلية ، إذ الأعمال بلا إخلاص ، أشباح بلا أرواح ؛ ومن ورث من أبيه جارية ميتة ، فليس بوارث ، والعابد ورث أفعاله عليه الصلاة والسلام ، من : صيام وقيام ، ومجاهدة ظاهرة ، فقد قام عليه الصلاة والسلام حتى تورمت قدماه ، وكان يصوم كثيرا ، ويفطر كذلك ، والصوفي العارف ورث الجميع ، فتأخذ في بدايته ما يحتاج إليه من العلم ، وقد يتبحر فيه ، ثم ينتقل إلى العمل على أكمل حال ، ثم زاد عليهما بوراثة الأخلاق التي كان عليها باطنه صلى الله عليه وسلم من : زهد ، وورع ، وخوف ، ورجاء ، وصبر ، وحلم ، وكرم ، وشجاعة ، وقناعة ، وتواضع ، وتوكل ، ومحبة ، ومعرفة ، وغير ذلك مما يطول ذكره ، ولذلك قال سهل رضي الله عنه : الصوفي : من صفا من الكدر ، وامتلأ من الفكر ، وانقطع إلى الله دون البشر ، واستوى عنده المال والمدر .

وقد خص الله رسول الله صلى الله عليه وسلم بخصائص لم يشاركه أحد فيها ، فكان له القوة في الجهتين ، فمن نظر في عبادته وجدته لا يطاق ، ومن نظر في أخلاقه الباطنة وجدته لا يدرك ، ومن نظر في معرفته وجدته لا يلحق ، ولا يقرب أحد حول حماه ، فكان عليه الصلاة والسلام على مقام : لا يدرك ، ولا يلحق ، ولا يعرف .

وانظر قول الشيخ القطب ابن ميثاق رضي الله عنه : « وفيه ارتقت الحقائق وتنزلت علوم آدم فأعجز الخلائق ، وله تضاعف الفهوم فلم يدركه منا سابق ولا لاحق ، وإن ينال أحد من العلماء والعباد والصوفية من علمه عليه الصلاة والسلام أو عمله أو خلقه إلا رشفة أو رشة ، والله در البوصيري في بردة المديح ، حيث يقول :

وكلهم من رسول الله ملتصق غرقا من البحر أو رشفا من الهم
وواقفون لديه عند حدم من نقطة العلم أو من شكلة الحركم

ثم ذكر الأمر الثاني ، وهو : اتفاق مذهبهم ، واتحاد غاية طريقهم .

ثم بعثين تقوم الحجة وأنهم قطعا على المحجة
مذاهب الناس على اختلاف ومذهب القوم على اتلاف
وما أتوا فيه بخرق العادة إذ لم تكن لمن سواهم عادة

قلت : الحجة هي الدليل والبرهان ، والمحجة هي الطريق المستقيم ، والاتلاف هو الاتفاق
يقول رضى الله عنه : ثم تقوم الحجة الدالة على أنهم على المحجة والطريق المستقيم
بعثين : أحدهما أن مذاهب الناس على اختلاف كثير . فقد كانت مذاهب الفقهاء في الفروع
اثني عشر مذهباً ، ثم تفرقت في أربعة .

كانت مذاهب القراء خمسة وعشرين رواية ، ثم تفرقت في عشرة ، وكانت مذاهب
النحاة على مذهبين ، بصرى ، وكوفى ، بخلاف مذهب الصوفية ، فهي متفقة في المقصد والعمل
وإن اختلفت المسالك ، فهي راجعة إلى صدق التوجه إلى الله تعالى من حيث يرضى بما يرضى
وعبارة كل واحد على قدر ما نال منه ، إذ كل عبارة فيه إنما هي مخبرة عن صدق توجه
صاحبها : وكل من له نصيب من صدق التوجه : له نصيب من التصوف ، وإذا كان توجهه
برضاه الحق ، ومن حيث يرضاه ، وإلا فهو زنديق ، واسم التصوف عليه لا حقيقة له ،
فلذلك قيل : من تصوف ولم يتفقه فقد تزندق ، ومن تفقه ولم يتصوف فقد تفسق ، ومن
جمع بينهما فقد تحقق ، وإنما تزندق الأول لرفضه الحكمة والأحكام ، وتفسق الثاني لخلوه
من صدق التوجه فيما هو فيه ، وتحقق الثالث لقيامه بكل في محله ، فرجع كلام الصوفية في
كل باب لأحوالهم ، وإلا فلا تنافي بين أقوالهم لمن تأملها ، وذلك خلاف مذهب غيرهم ،
والوجه فيه أن الحق واحد وطريقه واحدة ، وإن اختلفت مسالكها ، فأنهاية واحدة ،
والذوق واحد ، وفي معنى ذلك قال قائلهم :

الطرق شتى وطريق الحق مفردة والسالكون طريق الحق أفراد
لا يعرفون ولا تلك مقاصدهم فهم على مهل يمشون قصاد
ولناس في غفلة عما يراد بهم فجلهم عن طريق الحق حياء

فإن قلت : قد ورد مدح الاختلاف ودم الاتفاق فقد ورد في بعض الآثار

و اختلاف أمتي رحمة^(١) - وقال بعضهم : مادامت الصوفية بخير ماتتافروا ، فإذا انتفخوا فلا خير فيهم .

قلت : أما مدح الاختلاف فهو محمول على الاختلاف في الفروع ، كالختلاف الأئمة في المذاهب ، فإن في ذلك توسعة على الأمة ، إذ كل من تمسك بمذهب فهو ناج ، مالم يتبع الرخص ، وكذلك اختلاف الروايات في القراءة ، فهي توسعة أيضاً على القاريء ، بخلاف الاختلاف في الأصول ، فهو مذموم ، كالختلاف القدرية والجبرية والحشوية وغير ذلك من الاختلاف في التوحيد ، ومذهب الصوفية هو الاتفاق في الأصول والفروع .

أما الأصول فنهايتهم الشهود والعيان ، وهم متفقون فيه ، لأنه أمر ذوقي لا يختلف . وأما الفروع فهم يأخذون بالأحوط ، والأكابر منهم يخرجون عن التقليد ، ويتمسكون بالكتاب والسنة في نفسه ، وإن كان جلهم قلنوا في الفروع ، فكان الجنيء على مذهب أبي ثور ، والثبلي : مالكيًا ، والجيلاني ، حنبليًا ، إلى غير ذلك .

وأما قول من قال : مادامت الصوفية بخير ما اختلفوا ، فإرادته اختلاف تنبيه وإرشاد فكل واحد يرشد صاحبه وينبهه إذا رأى فيه نقصاً وعبثاً ، فإذا انتفخوا وسكتوا على عيوبهم فلا خير فيهم ، وقد يحمل ذلك على حال مذاكراتهم في العلوم ، فقد قالوا فيهم : ألسنتهم حادة ، وقلوبهم سالمة ، ولا شك أن حال المذاكرة لا ينبغي فيها التسليم في كل شيء ، إذ لا يخرج العلوم إلا بالحك والبحث والتفتيش .

قال بعضهم ، نحن في حال المذاكرة بحال من قال : حكي لي نزل لك ، لا بحال من قال : سفيج لي : نسل لك ، هكذا سمعنا من شيخ شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه ، وكان يقول لي : لا تسل لنا في حال المذاكرة ، وكان أيضاً يقول : المستحي ، والمتكبر ، والخواف ، لا يأخذ من طريقتنا شيئاً ، والله تعالى أعلم .

وأما الأمر الثاني الذي نقوم به الحجة فهو خرق العادة التي ظهرت على أيديهم ، وتسمى الكرامة ، وقد تقدم تنويعها إلى حسية ومعنوية ، وأن الاعتبار في الكرامة المعنوية ، وهي الاستقامة ، وأما الكرامة الحسية فإن صحبتها الإستقامة فهي كرامة شاهدة على صدق صاحبها مع الله ، وإن لم تصحبها استقامة ، فهي : استدراج ومكر .

(١) رواه نصر المقدسي في كتابه الحجة ، والبيهقي في الرسالة الأشعرية .

قال بعضهم : خرق العادة كرامة للمبتدع ، والمبتدع هو المفروق في الدنيا وأشغاله إلى عنقه ، ولو كثرت صلاته وصيامه .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : إنما هما كرامتان جامعتان محيطتان : كرامة الإيمان بمزيد الإيقان وشهود العيان ، وكرامة العمل على السنة والمتابعة وترك الدعاوى والمخادعة ، فمن أعطيهما ثم جعل يشناق إلى غيرهما فهو مفتر كذاب ، أو ذو خطأ في العلم والعمل بالصواب ، كمن أكرم بشهود الملك على الرضى ، ثم جعل يشناق إلى سياسة اللواب وخلع المرضى .

وكرامة الأولياء قد بلغت مبلغ التواتر ، فلا تحتاج إلى داليل ، والله تعالى أعلم .
ثم أشار إلى الأمر الرابع ، وهو تطهير جوارحهم من الذنوب ، وقلوبهم من العيوب فقال :
قد رفضوا الآثام والعيوب وطهروا الأبدان والقلوب

قلت : لاشك أن الصوفية رضى الله عنهم قد رفضوا الذنوب ، أى نبذوها وراء ظهورهم ورفضوا العيوب ، أى : طهروا قلوبهم منها ، وسبب تطهيرهم من الذنوب والعيوب تطهيرهم من أصلها ورأسها .

أما أصلها ، فالتخلطة مع الغافلين الجاهلين ، فمن خالط العوام وظن أنه ينجو من الآثام فقد رام المحال ، كمن خلط الحطب مع النار ؛ وظن أنه ينجو من الاحتراق .
وأما رأسها فحب الدنيا الساكن في القلوب .

ففي الحديث : حب الدنيا رأس كل خطيئة ، رواه البيهقي في الشعب من مراسيل الحسن (١) .
وقيل هو : من كلام مالك بن دينار (٢) .

وقيل : من كلام سيدنا عيسى عليه السلام (٣) .

وقيل : من كلام على كرم الله وجهه (٤) .

وعده بعضهم في الموضوعات ، ورده ابن حجر ، فالحق تعالى أعلم .

وعلى كل حال فهو كلام صحيح في المعنى مجرب مذوق فمن طهر قلبه من حب الدنيا ورياستها ومالها واعتزل عن الحمد فالتألب سلامة قلبه من العيوب ، وطهارة جوارحه من الذنوب ، وما تشعبت عيوب القلوب إلا منها ، إذ عليها يقع الحسد والبغض والغل والخصام والفجور ، وبها يقع الكبر ، وحب الرياسة ، والتفاق ، والتصنع للخلق ، وبها أيضاً يقع :

(١) وإسناده حسن ، ورواه البيهقي أيضاً في الزهد . (٢) ابن أبي الدنيا في مكاييد الشيطان .

(٣) أبو نعيم في الحلية في ترجمة الثوري . (٤) الديلمي في مسنده بلا إسناد .

للبخل ، وللشح ، والجبن ، وغير ذلك من العيوب ، وكذلك الذنوب ، كالكذب والإيمان الفاجرة ، وسوء الخلق وغير ذلك (١) . ورحم الله الإمام الشافعى رضى الله عنه حيث قال :

ومن يذوق الدنيا فإن طعمتها وسبق إلى عذابها وعذابها
فلم أرها إلا غرورا وباطلا كما لاح في ظهر القفلة سراها
وما هي إلا جيفة مستحيلة عليها كلاب همهن اجتذابها
فإن تجتنبها عشت سلا لأهلها وإن تجتذب بها فاهتك كلابها
فطوبى لنفس أوطنت قمر بيتها مغلفة الأبواب مرخى حجابها

وقوله : وطهروا الأبدان والقلوب ، تفسير لما قبله على طريق اللفظ ، والمعنى وطهروا الأبدان من الآثام والذنوب ، وطهروا القلوب من المساوىء ، والعيوب ، فلما حصل لهم هذا التطهير المجيد لاح لهم فر التوحيد ، فأسلموا الأمر إلى مولاهم ورجعوا إلى من قد تولاهم هملا بقوله تعالى : **وَمَنْ يُسْلِمْ فَإِنَّ إِلَهَهُ إِلَهُهُ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ وَالْهَافِيَةِ الْأُمُورِ** ، (٢) . فلما تحققوا بذلك وقفوا في رياض الإحسان ، وأشرقت عليهم شمس العرفان ، وأضاءت لهم أنوار المواجهة والعيان . هذه المنازل الثلاث هي التي ينزلها المريد ويرتحل عنها .

منزل الإسلام ، وهو محل تطهير الجوارح الظاهرة من الذنوب وتحليتها بطاعة علام الغيوب .

ومنزل الإيمان ، وهو محل تطهير القلوب من المساوىء والعيوب ، وتحليتها بمقامات اليقين ، لتنهياً لحل معرفة رب العالمين .

ومنزل الإحسان ، وهو محل الشهود والعيان .

قال بعض العارفين رضى الله عنه : من بلغ إلى حقيقة الإسلام لم يقدر أن يفتر عن العمل ، ومن بلغ إلى حقيقة الإيمان لم يقدر أن يلتفت إلى العمل ، ومن بلغ إلى حقيقة الإحسان لم يقدر أن يلتفت إلى أحد سوى الله تعالى ، وإلى هذه المراتب أشار بقوله :
وبلغوا حقيقة الإيمان وانتهجوا مناهج الإحسان

(١) وما يؤيد الحديث السابق ما رواه الديلمى عن أبي هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : **« أعظم آفات أمتي : حبهم الدنيا ، وجمعهم الدنيا ، والدراهم ، لاخير في كثير من جمعها ، إلا من سلطة الله على ما كتبها في الحق »** .

(٢) سورة لقمان : الآية : ٢٢

قلت : وهذا هو الأمر الخامس الذى ظهر به شرف أهل التصوف وفضيلتهم ، وأنهم بلغوا إلى حقيقة الإيمان وصريحه ، بتحقيق دعائمه وأركانه ، التى من جماتها الإيمان بالقدر : خيره وشره ، حلوه ومره ، فقد استوى عندهم وقت الخير ووقت الشر ، ووقت الحلو مع وقت المر . قد استوى عندهم الذل والعز ؛ والذم والمدح ، والمنع والعطاء ؛ والتبضع واليسط وغير ذلك من اختلاف الآثار وتفاوت الأَطوار ، وذلك لأجل ما حصل لهم من مقام الرضى والتسليم ، وكمال المعرفة وخلوص اليقين .

وقوله . وانهجوا مناهج الإحسان ، أى سلكوا طريق الإحسان الموصلة إلى الشهود والعبان ، ولذلك افتقروا إلى دليل يكون عارفاً بالمنازل والمراحل ، قد سلك الطريق وعرفها حتى يوصلهم إلى مطلوبهم ، ويقول لهم ها أنتم وربكم ، وسيأتى الكلام عليه إن شاء الله . ثم أشار إلى الأمر السادس ، وهو ترقيعهم من عالم الملك إلى عالم الملكوت ، أو تقول من عالم الأشباح إلى عالم الأرواح ، فقال :

وعادوا مراتب الوجود كلام والوالد والمولود
واستشعروا شيئاً سوى الأبدان يدعونه بالعالم الروحاني

قلت مراتب الوجود هى : العوالم الثلاثة : الملك ، والملكوت ، والجبروت ، وذلك أن الوجود له ثلاثة اعتبارات .

وجود أصلى أزلى ، وهو الذى لم يدخل عالم التكوين ، ويسمى عالم الأمر ، وعالم الغيب ، وهو المسمى بعالم الجبروت .

وجود فرعى ، وهو النور المتدفق من بحر الجبروت ، وهو كل ما دخل عالم التكوين : لطيفاً كان أو كثيفاً ، ويسمى عالم الشهادة وعالم الخلق ، وهو المسمى : بعالم الملكوت لمن غرق فيه وجمعه بأصله .

وجود وهمى ، وهو محل ظهور التصرفات الإلهية ، ومقتضى الأسماء الجلالية والجمالية ويسمى عالم الحكمة ؛ وهو عالم الملك .

وقال بعضهم : العوالم أربعة : عالم الشهادة ، وعالم الغيب ، وعالم الملكوت ، وعالم الجبروت فالأول كالكشاف المحرسة ، والثانى كالطائف الغيبية ، كالجن والملائكة والأرواح ، وهذا كاه داخل فى عالم الملك ، والثالث وهو عالم الملكوت ، هو جمع هذه الأشياء ، وضما

إلى أصلها ، وتحقيق الشهود فيها ، والرابع الذى هو الجبروت ، هو العظمة الأصلية الطيفة الأزلية قبل ظهورها ، وفي هذه المراتب يقع الترقى للساكنين ، فيترقون من عالم الملك الذى هو وهمى ظلمانى حسى ، إلى عالم الملكوت الذى هو نورانى ملكوتى ، ثم يترقون إلى عالم الجبروت الذى هو أصل أزلى ، فإذا ضموا الأصول إلى الفروع صار الجميع جبروتاً ، وهذا هو العالم الروحانى الذى أشار إليه بقوله « واستشعروا شيئاً سوى الأبدان » .

وقوله « كالآدم » الخ يعنى أنهم عرفوا مراتب الوجود الثلاث ، وفرقوا بين : الملك والملكوت ، والجبروت ، تفريقاً ضرورياً كما يفرق الرجل بين ولده ، وأمه ، وأبيه ، ويحتمل أن يكون التشبيه من حيث الإيجاد والظهور ، فإن عالم الجبروت سبب في ظهور عالم الملكوت « فهو أشبه شئ بالولد » ، وعالم الملكوت هو محل استقرار الصفات ، كالقدرة والإرادة ، والعلم ، والحياة ، التى هى سبب في إظهار آثارها لعالم الملك ، فهو أشبه بالأم في تربية الولد قبل الظهور وبعده ، وعالم الملك هو محل ظهور للتصرفات الإلهية وآثار للقدرة الأزلية ، فهو أشبه شئ بالولد لظهوره بينهما ، وربما يلوح حديث - الخلق عيال الله وأحب الخلق إلى الله أنفعهم لعياله - رواه أبو يعلى ، والبزار ، عن أنس ولفظه « الخلق كلهم عيال الله ، وأحبهم إلى الله أحبهم وأنفعهم لعياله (١) » ، والله تعالى أعلم بالصواب .

وقوله « واستشعروا شيئاً سوى الأبدان » الخ .

أعلم أن عالم الأشباح هو عالم الملك ، وعالم الأرواح هو عالم الملكوت ، ومحلها واحد ، إذ ليس لنا إلا وجود واحد ، لكن النظرة تختلف باختلاف الترقى في المعرفة ، فإدام العبد مسجوناً بمحيطات حسه ، محصوراً في هيكل نفسه ، فهو مقيم في عالم الأشباح ، محصور في عالم الملك ، لم تفتح له ميادين الغيوب ، لم يفرق بين روحانية وبشرية ، ولا بين حسه ومعناه فإذا فتح الله بصيرته وغاب عن حسه ونفسه ، وقلبه وجنسه ، رأى نور الملكوت قد قاض من بحر الجبروت ، لحجب شهود ذلك النور عن ظلمة الحس ، وعن رؤية الكون ، بشهود الكون ، فالكون أصله كله نور ، وإنما حجب ظهور الحكمة فيه ، فن رأى الكون ولم يشهد النور فيه أو قبله أو معه ، فقد أعوزه وجود الأنوار وحجبت عنه شمس المعارف بحسب الآثار ، فإذا ضم النور إلى أصله صار الجميع نوراً واحداً ، وهو نور الجبروت .

أوسر اللاهوت ، فقد علمت أن الملك ، والملكوت ، والجبروت ، محلها واحد ، وكذلك عالم الأشباح وعالم الأرواح ، محلها واحد ، فأهل الحجاب لا يرون إلا عالم الأشباح ،

وأهل العرفان ، وهم أهل مقام الإحسان لا يرون إلا عالم الأرواح ، مع أن المحل واحد لكن لما راق حجابهم ، وتلطفت بشرتهم ، استشعروا شيئاً زائداً على عالم الأشباح ، وهو عالم الأرواح ، ويسمى عالم المعاني - والعالم الروحاني ، وسيأتي الكلام عليه إن شاء الله عند قوله :

لم يتصل بالعالم الروحاني من عمره على الفضول عاني
وعند قوله :

مهما تعدت عن الأجسام أبصرت نور الحق ذا ابتسام
والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى أن هذه المعاني لا تدرك بالعقول ، وإنما هي أذواق يلغز إليها بإشارات المقول ، فقال :

ثم أمام العالم المعقول معارف تلغز في المنقول

قلت : أعلم إن النفس ، والعقل ، والروح ، والسر ، كل واحد منها له حد ينتهي إليه في العلم والإدراك ، على ما يأتي بيانه إن شاء الله عند قوله :

يا جاهلاً أقصى الكمال وقفاً على عقول ومهما لا يخفى

فشهود أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، وهي علوم المعارف ، أمر خارج عن مدارك العقول ، فهو أمام العالم المعقول ، أي وراءه وقدامه : لا مطمع له في إدراكه ، وقد تقدم قول ابن الفارض .

فثم وراء النقل علم يذوق عن مدارك غايات العقول السليمة

وقال أبو العباس رضي الله عنه :

فلو عاينت عيناك يوم تزلزلت أرض النفوس ودكت الأجيال

لأريت شمس الحق يسطع نورها يوم التزلزل ، والرجال رجال

قال : والأرض : أرض النفوس ، والجبال : جبال العقل .

وقال بعضهم في تفسير قوله تعالى - فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا - أى تجلى للجبل العقلي جعله دكا أى مضمحلاً - وخر موسى^(١) صمقاً - أى زال وجوده بوجود خالقه، والمتجلى فيه. والخاصل : أن شمس العرفان لا تدرك بعقل ولا حدس ولا برهان ، وإنما تدرك ببسج النفوس وبذل الأرواح ، وبالحروج عما تعده النفوس وتحيط به العقول ، فإذا صح منك هذا الخروج ، أدركت أنوار الملكوت متصلة ببحر الجبروت وصرت لا يحجبك عن الله أرض ولا سماء ، ولا عرش ولا كرسي ، ولا أفلاك ولا أملاك ، وصرت أنت قطب الوجود تدوره بيدك كيف شئت ، خليفة الله في أرضه ، ونقطة دائرة كونه ، والله ذو الفضل العظيم وإلى هذه المعارف أشار بقوله :

ثم أمام العالم المعقول معارف تلغز في المنقول

وأشار بقوله « تلغز » الخ إلى أن هذه المعاني ليست صريحة في كلام الله ، وإنما هي من باب الإشارة واللغز ، وكذلك قيل في قوله تعالى - إذا زلزلت الأرض زلزالها - أى أرض النفوس ، وأخرجت الأرض أثقالها - أى ما فيها من العلوم والحكم والأسرار - وقال الإنسان - متعجباً من حال تلك النفس - ما لها . يومئذ تحدث أخبارها^(٢) - تظهر أسرارها ومواهبها ، وهذه كلها إشارات وألغاز ، وكذلك قوله صلى الله عليه وسلم في تفسير الإحسان : أن تعبد كأنك تراه فإن لم تكن ، وقف بعضهم هنا وجعل « تراه » جواباً^(٣) ، أى فإن تحقق زوالك ، ولم تكن شيئاً تراه ، وهذه الأمور كلها إلغازات وإشارات لا يسلمها أهل الظاهر ، وإنما ينوقها أهل الباطن ، ويلغزون بينهم بها ، وقد قالوا : علنا كله إشارة ، فإذا صار عبارة خفية ، ثم إن هذه الأمور إنما هي كشوفات تشرق على الأرواح والأسرار ، تكون لوائح ثم لوامع ، ثم يتصل الشروق ، ويدوم النور ، حتى يقع الرسوخ والتمكين ؛ وإلى ذلك أشار بقوله :

وعلموا أن لهم تمكيناً يرقى بهم مرقى المسكافينا

قلت قد علموا أن دوام السير قطعاً يؤدي إلى الوصول ، وحال التلوين لا يد يوصل إلى التمكن ، فإذا ترقوا إلى مقام التمكن فقد وصلوا إلى مقام لو كشف الغطاء ما ازدادوا يقيناً

(١) سورة الأعراف ، الآية : ١٤٣ (٢) سورة الزلزلة : الآيات : ١ - ٤

(٣) فيه خروج على قواعد اللغة وأساليب النحو ، ورسول الله صلى الله عليه وسلم أعلم الناس بالعربية . وهذا للتأويل فيه تكلف وتعمير على أفهام الناس ، وقوله عليه الصلاة والسلام فصل لا التواء فيه إذ لم يأت عليه الصلاة والسلام ليخاطب الناس بالألغاز والمعاني ، وإنما جاء بها بوضاء نقية .

بل قد انكشف الغطاء ، لكن مراتب الكشف لا نهاية لها ، - وقل رب زدني علماً (١) -
علموا بمقام التمكين ، علموا أن لهم موانع تمنعهم من الوصول إليه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

ثم رأوا أن دون ذلك مانع كدقر نيط عليه طابع
فالقوم حين علموا بذلك وميزوا القطاع والأشراكا
سلوا من العزم لهم قواضب فأنبت كل قاطع وحاجب
فاحتزموا للطنم والنزال وابتدروا ميادين القتال

قلت الدفر: الكتاب ، وأراد به هنا الحرز والتميمة ، ونيط : أي ألف ، وغشى الطابع
بفتح الباء كالأقالب والكاغد والخاتم ، والعالم والنايل والطابق ، وألغاظ آخر نبط
خمسة وعشرين كلمة ، كلها بفتح عين الكلمة ، نظمها ابن مالك ، والأشراك جمع شرك وم
الشبكة ، والقواضب ، جمع قاضب ، وهو السيف الصارم ، والنزال هو : شدة الحرب ، وذلك
أن العرب إذا اشتد بينهم الحرب نزلوا عن خيولهم ليقاتلوا بالسيوف ، والميادين مجال الحرب
استعير هنا لمجاهدة النفوس ومحاربتها .

يقول رضى الله عنه : إن للقوم لما شعروا بالحقيقة كامنة في نفوسهم ، وكوشفوا بها
علموا أنهم إن تمكنوا من الوصول إليها والرسوخ فيها حصل لهم كشف الغطاء ، وارتفع
الحجب عن قلوبهم ، فكانوا على بينة من ربهم ، ثم رأوا أن مقام التمكين دونه موانع
وقواطع ، تمنعهم من الوصول إلى ذلك المقام ، وهذه الموانع هي التي غطت القلوب وغلت
وحجبت الأرواح عن الكشف عن أصلها ، فصار القلب والروح كحُرُز مكتوب : لفه
غشاء وطبع عليه طابع ، فلا يظهر مافي باطنه حتى يخرق ذلك الطابع والغشاء الذي غطى
عليه ، وهذا الطابع الذي جعله الله بحكمته وعدله حاجباً للقلوب عن أسرار الصيوب ، هو
الطبيعة ، وهي شهوات النفوس ودعوائدها التي امتزجت معها ، وعجنت بطيئتها في أصل النفس
وهي التي ذكرها الله تعالى بقوله - زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين (٢) -
فاشتغلت الروح بتدبير هذا البدن لجهلها ، فصرفت همها لمأكله ومشربه وملبسه ومساكنه
ومنكحه ، وما يتبع ذلك من الشواغل والشواغب ، فعميت عن أصلها ، ومنعت من شهود
أنوار ربها ، إلا من أسعده الله بولايته ، وسبقت له سابقة عنايته ، فلما علم القوم

(١) سورة طه ، الآية : ١٤

(٢) آل عمران ، الآية : ١٤

القواطع التي قطعتم عن الوصول إلى رجب ، وميزوا هذه القطاع والشبكات التي حبستهم في قيودها ، وهي علائق الدنيا وعوائقها ، سلو من مهمم العالية سيوفا ، وعزموا على قطع تلك العلائق ، ورفضوا تلك الشهوات ، فلما علقوا مهمم بالله ، وانقطعوا بكليتهم إليه ، انقطعت تلك العلائق ، وارتفعت تلك الحجب ، فاحتزموا وشرعوا الطعن في تلك العلائق ، ونزلوا لمحاربة النفوس وردها إلى حضرة الملك القدوس ، حتى ألقت السلاح ، وأذنت لطاعة الكريم الفتح :

قال بعضهم : انتهى سير الطالبين إلى الظفر بنفوسهم ، فإن ظفروا بها وصلوا ، وهذه مسابقة كلام الناظم ، وفيه تقديم وتأخير ، فإن قطع العلائق ورفع الحجب مؤخران عن محاربة النفوس ، فقول الناظم : فأنبت كل قاطع وحاجب ، مرتب على ما بعده من الطعن والنزال ، وابتدأ بمبادئ القتال ، والامر قريب .
ولو قال لكل قاطع وحاجب بلام التثنية كان أحسن ، والله تعالى أعلم .

ثم بين بعض تلك القواطع ، فقال :

وعلموا أن ليس شيء قاطع كبدن كاس وبطن شابع

قلت : يعني أنهم تحققوا أن أعظم القواطع هو الاشتغال بهم الظهر والبطن ، فمن أراد الله تعالى أن يتركه محجوبا بنفسه يشغل قلبه بتزيين الملابس ونمسين المأكول ، وهذا هو الذي حجب جل الناس ، فمن قنع من اللباس بما يستر العورة من خسين اللباس ، وقنع من الطعام بما يسد الجوع من مطلق الطعام ، كان قلبه بمحوم مع الله ، إن توجه بهمة إلى الله ، ومن كان معه ما يدخل بطنه ، كان قيمته ما يخرج منها ، وفي الحديث .

« من ترك ثوب جمال وهو قادر عليه ألبه الله حلة الكرامة يوم القيمة »^(١) ، وقال أيضا صلى الله عليه وسلم .

« إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم فضيقوا مسالكه »^(٢) بالجوع .

(١) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ترك زينة الله ووضع ثيابا حسنة تواضع الله وابتغاء لمرضاته كان حقا على الله أن يدخر له عبقري الجنة ، رواه أبو سعيد المالبني في مسند تصوفية ، وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس .
(٢) رواه أحمد ، والبيهقي ، وأبو داود ، وابن ماجه .

والمقصود من ذلك كله صرف الشواغب التي تحجب عن الله ، سواء كانت من قبل اللباس أو الطعام أو غيرهما ، ولذلك عم الناظم في البيت الذي بعد هذا ، حيث قال :

ونظروا الحجاب في البواطن فوجدوه في النفوس كامن
فعملوا على جهاد النفس حتى أزالوا ما بها من لبس

قلت : هذا الحجاب الذي هو كامن في النفوس ، هو حب الهوى ، ومرجعه إلى حب الهوى .

فنه : ما يكون متعلقاً بالظواهر ، كحب المال وتزيين الملابس والمآكل والمراكب والمناكب

ومنه ما يكون متعلقاً بالبواطن ، كحب الخصوصية ، وطلب الكرامة ، وحب المدح والثناء ، وحب الرياسة والظهور ، وما ينشأ عن ذلك من الحسد ، والكبر ، والغفل ، والفتور والغضب ، والقلق ، والحرص ، والطمع ، وغير ذلك من العيوب الباطنية ، فكل من جاهد نفسه في التخلية من هذه المساويء ، والتخلية بأضدادها ، من : التواضع ، والخول ، وسلامة الصدر ، وسخاوة النفس والحلم ، والنأى ، والصبر والرضى ، والتسليم ، وغير ذلك من الأخلاق الحميدة زال عن نفسه حجاب النفس والتخليط ، واكتسب لباس الصفا والوقار ، فسكان من المقربين الذين يشربون من عين التسليم المختوم ، ويمزج لغيره من أهل اللبس والتخليط فن صفاصني له ومن خلط كدر عليه ، فن شرب اليوم كأس محبة المولى صافياً من الهوى : شرب عين التسليم صافياً ، ومن مزج اليوم بمحبة الهوى ، شرب مع العوام من السلسيل ، ولا حظ له عند الملك الجليل .

قال أبو طالب المكي رضى الله عنه : واضر ما ابتلى به العبد في دينه ، وأشد ما يحجب ضعف يقينه ، لما وعد بالغيث أو توعد عليه .

قال (١) : وقوة اليقين أصل كل عمل صالح .

وقد أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى مجاهدة النفوس وتصنيفتها بقوله عليه الصلاة والسلام : « المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمؤمن من أمانه لباس على دماهم وأموالهم ، والمهاجر من هاجر ماله عن الله عنه ، والمجاهد من جاهد

(١) أي أبو طالب المكي .

نفسه وهو اهـ (١) وقال أيضا عليه الصلاة والسلام : ليس الشديد بالصرعة ، إنما الشديد الذي يملك نفسه عند الغضب (٢) ، وفي معناه قيل :

ليس الشجاع الذي يحمي فريسته يوم الزحام ونار الحرب تشتعل

لكن من غض طرفاً أو تقي قدما عن المحارم ذاك الفارس البطل

وفي الخبر : جثتم من الجهاد الأصغر إلى الجهاد الأكبر (٣) ، يعني جهاد النفس .

قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه ، في شأن النفس : هي التي لم تقدروا عليها قد أحاط الله بها وفي الحكم :

لو كنت لاتصل إليه إلا بعد محو مساويك وترك دعاويك ، لاتصل إليه أبداً ، ولكن إذا أراد أن يوصلك إليه غطى وصفك بوصفه ، ونعتك بنعته ، فوصلك بما منه إليك لا بما منك إليه .

ثم أشار لاختلاف الفرق في المجاهدة ، فقال :

والقوم في مذا على فرقين وحكمهم فيه على ضربين

ففرقة طريقهم مبنية على العقائد وحسن النية

قالوا : فالنفس كالمرآة ينطبع الماضي بها والآت

ولنما يعوقها أشياء ترك المحاذاة أو الصداء

قالوا : وإن العين قد تغور ولنما يخرجها الخفير

قلت أشار إلى أن الناس في الوصول إلى الله تعالى على فرقتين : الفرقة الأولى : نظروا

(١) : المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، رواه مسلم عن جابر و : المؤمن من أمنه الناس على دعائهم وأموالهم ، رواه أحمد والترمذي والحاكم ، والنسائي ، وابن حبان والطبراني ، و : المهاجر من هجر ما نهى الله عنه ، رواه البخاري وأبو داود والنسائي . و المجاهد من جاهد نفسه في الله ، رواه الترمذي وابن حبان ، واللفظ الذي ذكره الشيخ رحمه الله روته أغلب كتب السنة .

(٢) رواه أحمد ، والبيهقي عن أبي هريرة .

(٣) رواه البيهقي في الزهد من حديث جابر .

إلى أصل الروح وما كانت عليه من الصفاء والجلال، كالمرآة الصقيلة، ينطبع فيها كل ما يقابلها من الماضي والآتي .

لكن لما اتصل بهذا البدن انطبع فيها : صور الأكوان، وغش الحس، فحجبت عن أصلها .

أمران أحدهما : ترك المحاذاة (أى القرب والاتصال بالحضرة) باشتغالها بالغفلة .
يعنى : أن الروح لما تركت القرب إلى الله ، ولم تصرف وجهتها بالكلية إليه تدنست وحجبت عن أصلها .

فلو اشتغلت بذكر الله على السوام ، وفيت عن غيره على الالتام ، لانصقلت مرآتها ، وتجلت فيها حقائق الأشياء : ماضية وآتية .

وفى الحديث : « إن القلوب لتصدأ كما يصدأ الحديد ، وإن الإيمان ليخلق (أى يبلى) كما يخلق الثوب الجديد (١) » .

وفى حديث آخر : لكل شيء مصقلة ، ومصقلة القلوب ذكر الله (٢) .

وهذا الذكر الذى يصقل القلوب ، لا بد أن يكون ذكراً واحداً ، بقلب واحد ، وهم واحد ، وإلا فلا يجدى شيئاً .

الامر الثماني الذى يعوق الروح عن أصلها : الصدأ الذى ينطبع فيها ، وهى صور الأكوان التى تنطبع فى القلب حين يتعلق بها : اعتقاداً ، أو استناداً ، أو اهتماماً .

وفى الحكم : « كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة فى مرآته ؟ أم كيف يرحل إلى الله وهو مكبل بشهواته ؟ أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله ، وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟ أم كيف يرجوا أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته » .

(١) ويقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الإيمان ليخلق فى جوف أحدكم كما يخلق الثوب ، فاسألوا الله أن يمدد الإيمان فى قلوبكم » (رواه الطبرانى ، والحاكم عن عبد الله ابن عمرو بن العاص) .

(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : « إن لكل شيء مصقالة ، وإن مصقالة القلوب ذكر الله ، وما من شيء أنهى من عذاب الله من ذكر الله ، قالوا : ولا الجهاد فى سبيل الله ؟ قال : ولا الجهاد فى سبيل الله ، إلا أن يضرب بسيفه حتى ينقطع » (رواه ابن أبى الدنيا ، والبيهقى) .

وقال بعض الحكماء : لا تطمع أن تصفو وبك عيب ، ولا تطمع أن تنجو وعليك ذنب
وقالوا أيضاً : إن السر الذي منا كان في النفوس ، هو كماء العيون ، إذا غفل عن تخيلها
وتحريرتها : غار ، وتغطى بالتراب ، فلا يخرجها إلا الحفير عليه بالنفوس ، كذلك من الحقيقة
كان ظاهراً في الأرواح حين كانت طاهرة من دنس الحس ، أرأيت يوم الميثاق : كلها
عرفت الحق وأقرت به ، فلما اتصلت بهذا القالب الحسى الكثيف ، وتراكمت عليها ظلمة
الغفلات والشهوات والعوائد وألفت هذا العالم الحسى ، وركنت إليه : حجبت عن ذلك
السر ، فلا يخرجها إلا الحفير عليه بفتوس المجاهدة والرياضة ، واجتماع القلب بالله ، والمؤانسة
به ، ذكراً أو فكرة أو نظرة ، وإلا غار السر وغاب وذهب كالسراب .

قيل للجنيـد : كيف الطريق إلى الحقيقة ؟ قال : بتوبة تزيل الإصرار ، وخوف يقطع
التسوية ، ورجاء يبعث على مسالك العمل ، وإهانة للنفس بقربها من الآجل وبعدها من
الآمل ، فقل له : بماذا يصل إلى هذا ؟ فقال : بقلب مفرد ، فيه توحيد مجرد .

ثم بين كيفية العلاج في ردها إلى أصلها فقال :

وأجمعوا أن علاج الأصل	أقرب للبرء معاً والنيل
فإليه أبداً نشير	هو علاج النفس والتطهير

قلت : العلاج : محاولة لإبراء (١) الداء بالسواء لتذهب العلة ، ولا يتجح في الغالب إلا بعد
معرفة العلة وسببها ، والمراد بالأصل : هو علاج الروح ، والنيل هو : التحصيل .

يقول رضى الله عنه : أجمع الصوفية أن علاج الروح وتل شفاؤها من مرضها : أقرب
من علاج البدن وشفاؤه إذا تمكن منه الداء .

قلت : وهو كذلك بلا شك ، فقد رأيت كثيراً من المرضى : أعنى مرض البشرى ،
يدفع أموالاً عريضة ، ويحتسى أزماناً طويلة ، ولا تقطع علته ، ولقد رأيت كثيراً ممن كان
مرضى الروح بالمعاصى والذنوب والشكوك ، والخواطر ، حين أقام الله إلى الطبيب شفاء
الله في أقرب مدة وأقل حية .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وأصل كل داء جسماني إنما هو فساد المزاج إلى أن
يصير فله وانفعاله على غير المجرى الطبيعي ، وأصل كل داء قلبي : إنما هو فساد المقصد الذي

(١) وضعناها لإصلاح الكلام فإنها ليست بالأصل الذي راجعنا عليه ، والله أعلم .

عنوانه : الرضى عن النفس ، حتى يصير فعلها وانفعالها على غير المجرى الشرعى والتحقيق ، بل على وفق الهوى والادوهم الباطلة التى شأنها : ضعف اليقين ، ورقة الديانة ، وتفصيل ذلك بطول ، وسيأتى منه إن شاء الله تعالى فى باب التربية .

وقوله : « فإل إليه أبدأ نشير » هو : تمريض بعلاج الاصل المتقدم ، يعنى : أن هذا العلاج الذى نشير إليه هو علاج النفس من : غفلاتها ، وشكوكها ، وخواطرها ، واهتمامها بالرزق ، وأمر الخلق ، وتديبرها ، واختيارها ، وإنكارها ، وجهلها ، وسوء أدبها ، فإذا برئت من هذه الأمراض ، وتظهرت من هذه الاخلاق صلحت للحضرة ، وامتعت بالنظرة فى سرور ونصرة .

ثم ذكر استمرار هذه الطريقة إلى انقراض الدنيا فقال :

وهذه طريقة الإشراف كانت وتبقى ما الوجود باقى

قلت : ذكر أن هذه الطريقة التى ذكرها فى هذه الأبيات تسمى : طريق الإشراف ، وتسمى أيضاً طريق الجلاء والتصفية ، لأنها مبنية على تصفية القلوب والسرائر ، بتخليتها من الرذائل ، وتخليتها بالفضائل ، فإذا تخلت من الأغيار والآكدار ، أشرقت عليها شمس المعارف والأسرار ، فرغ قلبك من الأغيار ، تملأه بالمعارف والأسرار ، ثم ذكر أن هذه الطريقة لا تنقطع مادام الوجود باقياً ، لقوله عليه الصلاة والسلام :

« لا تزال طائفة من أمتى ظاهرين على الحق حتى يأتى أمر الله وهم ظاهرون (١) » .

والتحقيق أن هذه الطائفة هى مؤلفة من العارفين بالله ، والعلماء للعاملين الناصحين . والمجاهدين فى سبيل رب العالمين ، فلا تخلو الأرض من قائم بحجة الله ظاهرة وباطنة .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه فى « قوله كانت وتبقى » يعنى أنها لا ترتفع أبداً ، لكنها تارة تجرى بإصطلاح الخلوات والتربيات ونحوها ، وتارة يحفظ الأصول فقط ، وتارة يحفظ الحرمة ، وتارة بعلو الهمة وقوة الحزم والعزم ، وتارة بمجرد التلقى والإلقاء ، وهذه الأمور لا تزول أبداً أبدين ، غير أن الاصطلاح قد انقرض فى هذه الأزمنة ، وارتفع إنتاجه حسبما دلت عليه العلامات ، ويشهد به الاستقراء .

(١) رواه البخارى . ومسلم ، والإمام أحمد عن معاوية ، وابن ماجه عن أبى هريرة ، ومسلم والترمذى وابن ماجه ، عن أبى هريرة ، والحديث ألفاظ أخرى ورواة آخرون كلها تدور على هذا المعنى .

قال بعض مشايخنا رضى الله عنه : ارتفعت التربية بالاصطلاح في سنة ٨٢٤ هـ أربع وعشرين وثمانمائة ولم تبق إلا الإفادة بالهمة والحال فعليكم بالكتاب والسنة من غير زيادة ولا نقصان ، يعنى الجادة مع التزام الصدق ، والله ولى التوفيق .

قلت : وبعض مشايخه الذى ذكر هو : الحضرى .

وفيما قاله نظر من وجهين : أحدهما أن الاستقراء الذى ذكره متعذر فى جميع أقطار الأرض ، وشيوخ التربية الغالب عليهم الخفاء ، لأنهم كئوز لا يظن بهم إلا من أسعده الله .

والثانى : أن دائرة الاولياء لا تنقطع أبداً ، من : أقطاب ، وأبدال ، وأوتاد ، حسبما ذكره غير واحد ، وبلوغه إلى مقام القطبانية لا يكون من غير تربية أبداً .

فإن قلت : يكفى فيه الهمة والحال ، قلنا : لا نسلم ذلك ، لأن تربية الهمة والحال دون اصطلاح المقال ، لا يترقى صاحبها من مقام إلى مقام ، ولا من حال إلى حال ، فلا يخرج من السلوك إلى الفناء ، ولا من الفناء إلى البقاء ، إلا بتربية المقال ، وهى الاصطلاح ، وإن أراد بالاصطلاح : الخلوة ، وترتيب الأوراد ، فلا نسلم أيضاً أنه انقطع ، إذ من بلغ إلى درجة التربية يربى كيف شاء ، فمن تصلح به الخلوة رباه بها ، ومن تصلح به الخلطة رباه بها ، فشيوخ التربية لا ينقطع أبداً عن تربية الهمة والحال والمقال والاصطلاح ، وإذا كان الحضرى تكلم على ما ظهر له فى زمانه ، فلا يلزم عمومها فيما بعده . قال الله تعالى - ويخلق ما لا تعلمون - (١) .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى عنه ، فى قوله تعالى - ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها - (٢) قال : ما نذهب بولى نأت بخير منه أو مثله ، وكلامه عام فى كل زمان وعصر ، وقال عليه الصلاة والسلام : أمتى كالمطر لا يدرى أوله خير أم آخره ، (٣)

(١) سورة النحل الآية : ٨

(٢) سورة البقرة الآية : ١٠٦ ، وما قاله الشيخ من باب الإشارة والاستثناس وليس تفسيراً لها . والله تعالى أعلم بأسرار كتابه .

(٣) وفى لفظ آخر رواه ابن عساكر مرسل : أمتى أمة مباركة لا يدرى خير أولها أو آخرها .

وقال: «خير أمتي أولها وآخرها وفيها بينهما الكدر» (١) وفي حديث آخر قال عليه الصلاة والسلام لأصحابه الكرام: «إذا لقيتم إخواني فاقروهم مني السلام؟ قيل من إخوانك يا رسول الله؟ نحن إخوانك، فقال: أنتم أنصاري وأصحابي»، إخواني قوم يأتون من بدي يؤمنون بي ولم يروني، للعامل منهم أجر سبعين، قالوا: يا رسول الله أجر سبعين منا أو منهم؟ قال: بل أجر سبعين منكم، قيل: لماذا يا رسول الله؟ قال: لأنكم وجدتم على الخير أعواناً وهم لا يمدون عليه أعواناً» (٢).

والحاصل أن نور النبوة في الزيادة لا في النقصان، وقد وجد بعد الحضرة، وفي زمانه رجال اتفق الناس على تربيتهم، كالغزواني، والتليدي، والمبطي، والمجذوب، والشرقي وسيدى يوسف الفاسي، وسيدى عبد الرحمن الفاسي، وسيدى محمد بن عبد الله، وغيرهم ممن لا يحصى، فإنكار كمال هؤلاء وتربيتهم: مكابرة وخذلان وإعياذ بالله من الطعن في أولياء الله.

وقد أدركنا - والحمد لله - في زماننا هذا رجالاً قد توفر فيهم شروط التربية على الكمال ذورمة وحال ومقال: طارفين، راسخين كاملين، تخرج على أيديهم خلق كثير، وانتفع بهم جم غفير، ولكن من كان خفاشاً لا يستطيع أن يبصر شعاع النور؛ ويرحم الله للبوصيري حيث قال:

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر النعم طعم الماء من سقم
وقال آخر:

وكم عائب ليلي ولم ير وجهها فقال له الحرمان: حسبك ما فات
ثم ذكر الطريق الثانية فقال:

وفرقة قالت بأن العلماء من خارج بالا كتاب اسمها

(١) ورواه الحكيم عن أبي البرداء بلفظ: «خير أمتي أولها وآخرها؛ وفي وسطها الكدر».

(٢) هذا من ناحية الأجر فقط، أما شرف الصحبة وملازمة النبي صلى الله عليه وسلم فذلك هو الفضل الذي لا ولن يصل إليه أحد، اقرأ قوله تعالى: «محمد رسول الله والذين معه، إلى آخر سورة الفتح»، وقف أيها المسلم عند حد الأدب، ولا تخرق أسوار اختيار الله لهم لصحبة نبيه صلى الله عليه وسلم على أن الصحابة رضى الله عنهم هم أجرم وأجر كل مسلم عمل بعدهم بعملهم إلى يوم القيامة، والحديث صحيح وله معنى دقيق، فقلبه.

وشرطوا للعلوم في اصطلاحه	إذ لا غنى للباب عن مفتاحه
فليس للطامع فيه مطمع	مالم تسكن فيه علوم أربع
وهي علوم : الذات، والصفات	والفقه ، والحديث، والحالات
وهذه طريقة البرهان	وهي لكل حازم يقظان

قلت : حاصل هذه الطريقة أنها شرطت إصلاح الظاهر أولاً وعلاجه ، وعلاجه قبل علاج الباطن ، فقلت : إن اكتاب العلم من خارج أسمى ، أى أرفع وأعظم ، لأنه دواء وشفاء للعلل الظاهرة ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « للعلم إمام والعمل تابعة ، وأول الحديث قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تعلموا العلم ، فإن تعلمه خشية ، وطلبه عبادة ، ومذاكرته تسبيح ، والبحث فيه جهاد ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قرابة ، لأنه معالم الحلال والحرام ، ومنار سبل أهل الجنة ، وهو الأئیس في الوحشة ، والصاحب في الغربة ، والمحدث في الخلوة ، والدليل على السراء والضراء ، والسلاح على الأعداء ، والزين عند الإخلاء ، يرفع الله به أفواما فيجعلهم في الخير قادة وأئمة ، تقص آثارهم ، ويقتدى بأفعالهم ، وينتهى إلى رأيهم ، ترغب الملائكة في خلتهم ، وبأجنحتهم تمسحهم ، يستغفر لهم كل رطب ويابس ، وحيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، لأن العلم حياة القلوب من الجهل ، ومصابيح الأبصار من الظلم ، يبلغ العبد بالعلم منازل الأخيار والدرجات العلى في الدنيا والآخرة ، والتفكر فيه يعدل الصيام ، ومدارسته تعدل القيام ، به توصل الأرحام ، وبه يعرف الحلال والحرام ، وهو إمام العمل ، والعمل تابعة ، يلهمه السعداء ، ويحرمه الأشقياء ، اه ذكر المنذرى .

فشرطت هذه الفرقة الثانية تحصيل العلم للظاهر لأنه مفتاح العلم الباطن ، لأن الشريعة باب والحقيقة بيت ، ولا مدخل للبيت إلا من بابه ، قال تعالى - وأتوا البيوت من أبوابها - (١) فعلم الشريعة مفتاح لعلم الحقيقة ، ومن أتى الباب بلا مفتاح لا يطمع في دخوله فلا يطمع أحد في علم الحقيقة والاطلاع على السر إلا بعد تحصيل أربعة علوم :

علم الذات العالية ، ويكفيه أن يعتقد فيها أنها موجودة قديمة ، باقية ، منزهة ، عن النقائص ، متصفة بصفات الكمالات .

وعلم الصفات ، ويكفيه أن يعتقد أن الذات العالية متصفة بالقدره ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام .

وإن زاد براهينها من الكتاب والسنة ، فهو كمال ، وإن أسعده الله بقاء شيخ كامل رقام إلى علم الأذواق ، وصار توحيده في معد الشهود والعيان .

العلم الثالث : علم الفقه ، ويكفيه ما يتقن به طاعته ، وصلاته ، وصيامه ، وإن كان له مال تعلم ما يجب عليه فيه ، ولا يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه .

العلم الرابع : علم الأحوال ، والمقامات ، والمنازلات ، ومخادع النفوس ، ومكايدها ، وما يجري مجرى ذلك من آداب ومعاملات ، وهذا الذي يختص به أهل هذا الفن .

وللناس فيه طريقان :

طريق رؤية الحق من أول قدم ، والعمل على ذلك بالانحياش إليه ، وهو طريق الشاذلية ومن نحأ نحوهم .

وطريق رؤية النفس واطلاع الحق عليها والعمل على ذلك ، وهي طريق الغزالي ومن جرى مجراه ، وكل منهما مستند حديث : « أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك » (١) فتمسكت الشاذلية بصدر الحديث والغزالية بآخره .

وقوله : « فهذه طريقة البرهان » ، يعني أن هذه الطريقة تسمى طريقة البرهان ، لأنه طريقة الترقية ، لأنها أولاً تستدل بالآثر على الماثر ، ثم ترتقى إلى معرفة العيان ، بخلاف الطريقة الأولى ، إنما اشتغلت بتصفية الروح ، فإذا تصفت وتطهرت زال عنها الحجاب

قلت : وطريق الشاذلية الحقيقية من تأملها وجدها جمعت بين الطريقين : طريق الإشراف وطريق البرهان ، لأن أشيائها الكمل يدلون أولاً على إلتقان الشريعة ، والقضاء في العمل بها ، ثم على إلتقان علم للطريقة ، ثم على الحقيقة .

قلت : وأنا ، عبد الله ، كنت إذا لقنت أحداً الورد : علمته ما يلزمه من إلتقان طهارته

(١) هذا الحديث ذكرته كل كتب السنة تقريباً ، وهو الحديث الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم : « ... هذا جبريل أنا كم يعلمكم دينكم ، وقد سبق الإشارة إليه ص ٥٣ »

الصغرى والكبرى ، وعلمته التيمم وإتقان الصلاة وإذا كان أمياً علمته ما يلزمه من عقائد التوحيد إجمالاً ، فأصحابنا كلهم والحمد لله على بصيرة في دينهم ، مع ما زادهم الله تعالى من التنوير والأذواق ، وهى طريق الإرشاد ، فأصغرهم ينظر نجباء طلبة العلم الظاهر ، حسباً مستغربيناه من أحوالهم ، وما اطلعنا عليه من أسرارهم ، والحمد لله رب العالمين .

قوله : وهى لكل حازم يقظان ، يعنى أن هذه الطريقة اتى جمعت بين العلم الظاهر والباطن ، لكل حازم مشمر فى تحصيل دينه ، يقظان ، أى متنبه من غفلاته ، قد أتى البيت من بابه ، وحصل الأمر بشروطه وأسبابه ، فليس لاحد فيه مطعن ، ولا لإخلاله فيه مدخل ، لكن لا يدرك هذه الطريقة على الكمال إلا أخول الرجال ، وبالله التوفيق .
ثم وصف الصوفى وحاله وشأنه فقال :

ونسبوا الصوفى للكمال	وضربوا معناه فى المثال
فهو كالمسوا فى العلو	ثم كمثل الأرض فى الدنو
ثم كمثل النار فى الضياء	ثم كمثل الماء فى الإرواء
فهو إذاً للكانات حاصر	إذ صار فى معناه كالناصر

قلت : لا شك أن الصوفى المحقق قد حاز مرتبة الكمال على التمام ، فما من مرتبة إلا حازها وأشرفها :

فأخذ من مقام الإسلام كمالاً للتقوى والاستقامة على التمام .

وأخذ من مقام الإيمان تمام الطمأنينة وكمال الإيقان .

وأخذ من مقام الإحسان : أعلى المراتب ، وهى الشهود والعيان .

وقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود

والعيان .

وأخذ أهل الظاهر من الأعمال - أعمال الجوارح الظاهرة .

وأخذ الصوفى أعمال القلوب الباطنة ، والذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال

من أعمال الجوارح ، كما قاله الشيخ ابن عباد وغيره .

وفى الحديث : تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة ، (١) .

وعبادة القلوب هى : الفكرة والظرة ، والرضى بما يبرز من عنصر القدرة ، فعباد

العارفين كلها مضعفة إما بسبعين أو بألف أو بأكثر ، ولذلك قال الشيخ أبو العباس المرسى .

(١) وفى مسند الفردوس بلفظ : ثمانين سنة .

رضى الله عنه : أرقاها كلها ليلة القدر : يعنى كلها خير من ألف شهر من عبادة العامة ، وفى
عذلك قال الشاعر :

كل وقت من حبيبى قدره كالف حجة

أى سنة .

وفى الحكم (ما قل عمل برز من قلب زاهد ، ولا كثر عمل برز من قلب راغب)
وقال عبد الله بن مسعود رضى الله عنه : ركعتان من عالم زاهد ، خير وأحب إلى الله
من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبداً .

وهذه المراتب موجودة فى الصوفى الكامل على التمام .

وقد ضربوا له المثال بالعناصر الأربعة التى قامت بها الموجودات الحسية باعتبار العادة ،
وهى : الهواء ، والثرى (أى التراب) والماء ، والنار ، وتسمى الطبائع الأربعة ، وقد نظمها
ابن سينا الحكيم ، فقال :

وقول بقراط بها صحيح نار وماء وثرى وريح

واراد بالريح الهواء .

فالصوفى قد اجتمعت فيه العناصر الأربعة ، فهو كالهواء فى رفع الهمة وعلو القدر ، وأيضاً
الهواء حار رطب ، فهو معتدل محيط بالابدان ، به يقع كمالها ونقصها ، والصوفى : معتدل
فى حركاته من غير إفراط ولا تفريط ، بل متوسط فى كل شىء ، وخير الأمور أوسطها ،
وبحسب هذا جميع الوجرد ، يأنس به ويرجع إليه ، ويقع له منه الفعل والانفعال بإذن
الله سبحانه ، مع ارتفاعه عن أبناء جنسه فى عين بحالته لهم ، كما ارتفع الهواء عن التراب
والماء مع مخالطته لهما ، وهو أيضاً كالارض فى الدنو والتواضع ، والسهولة ، يناله البر
والفاجر ، والصغير والكبير ، كما أن الارض يطأها البر والفاجر ، والصغير والكبير .

وقال بعض أشياخنا : نحن كالرفاق ، أى الطرق ، يمر علينا البر والفاجر ، والطائع والمعاصى
ولا نفرق بينهم ، وأيضاً طبع الارض بارد يابس ، فبرودتها يقع لها الملاسة ، إذ لو كانت
حارة والهواء حاراً لاحترق ما عليها ، وبسبب يوستها يقع لها المماسه ، والصوفى كذلك ،
لبرودة حركانه وليونتها يلابسه الخلق وينتفعون به ، ولوقوفه مع الحق وصلابته فيه صح له

المصطفى ، فيكون له قلب مثل الأرض يطرح عليه كل قبيح ، ولا يخرج منه إلا كل طبع .
وكما زيد في زبلها زيد في خيرها .

وكذلك الصوفي كلما زدت في البحث معه زادك فائدة وحكمة .

وقد قال سيدنا عيسى عليه السلام لأصحابه أين نبت الحبة ؟ قالوا : في الأرض قال ؟
فكذلك الحكمة ، لا تنبت إلا في قلب كالأرض ، وقال سهل رضى الله عنه : طريقنا
هذه لا تصلح إلا لأقوام كنت بأرواحهم المزابل ، وهو أيضا كالنار في إحراق الأوصاف
المحيطة النسيمة ، وفي اقتباس الأنوار واشتعال مصابيح القلوب ، وأيضا طبع النار حار
بابس ، مضمون محرق ، كذلك الصوفي لا يفارقه الحرارة الباطنية ، وهي قوته وسنانه الناشئة
عن شهود حريته الباطنية ، ويحرق كل ما والاه من أوصاف نفسه ، ويرى ما وراه من
المعارف وحقائق الوجود ، وهو أيضا كالماء في الإرواء وإزالة عطش الجهل ، وحرارة
النمب الناشئة عن وجود الحجاب ، وأيضا طبع الماء بارد وطيب ، والصوفي كذلك ، فن
برودته لا ينتصر لنفسه ، ومن رطوبته لا يتكبر على غيره ، مع إروائه من احتاج إليه ،
وهذه العناصر الأربع هي التي اجتمع منها وجود العالم باعتبار الحكمة ؛ وهي أركانه فالصوفي
كلية العالم بمكانه ومبانيه ، ولذلك قال فيه بعضهم : للصوفي من لا يعرف في الدارين أحداً
غير الله ، ولا يشهد مع الله سواه ، قد سخر له كل شيء ، ولم يسخر هو لشيء ، وسلط على
كل شيء ، ولم يسلط عليه شيء ، فأخذ النصيب من كل شيء ولم يأخذ النصيب منه شيئاً ،
يصفو به كدر كل شيء ، ولا يكدر صفوه شيء ، قد شغله واحد عن كل شيء ، وكفاه واحد
من كل شيء ، ثم كل ما بقى من فضله إجمالاً فقال :

وفضله أشهر من أن يحملا وقد ذكرنا منه نزرأ بحملا
وفي بيان أصله دليل يعلم منه الشان والتفضيل

قلت : أشار رحمه الله إلى أن فضل التصوف مشهور ، وشهرته أعظم من أن يحمله أحد
وقد ذكر من فضله نزرأ : أي شيئاً قليلاً بحملا غير مفصل ، إذ تفصيله يؤدي إلى التطويل
الملل ، وفي بيان أصله الذي ذكره في الفصل الأول دليل على تعظيم شأنه وتفضيله على
سائر العلوم .

قلت . ولم نسمع أحداً قط طعن في علم التصوف أو عابه أو نقصه ، بل القلوب كلها
مجهولة على حبه ومدحه ، وإنما وقع الإنكار على أهله والمنتسبين إليه : إما غيرة عليه أن

يدخل فيه من ليس منه ، وهذا معذور وإما حسدا لأهله ، وهذا هالك مشبور ، والاول على خطر ، فإن المنكر على المنتسبين كمن يدخل يده في الغيران فيدخل يده في الغار ، الاول والثاني ، فيقول : لا شيء ثم يدخل يده في غار آخر فيصادف حية تلسعه ، فيهلك من ساعته ، وإذا فاتته بركة الاعتقاد ، فأقل أحواله ترك الانتقاد ، ولذلك قال الشاذلي : تسليم طريقتنا ولأية ، واعتقادها عناية .

وقالوا أيضاً : التسليم ولأية ، والاعتقاد عناية ، والانتقاد جناية .

وقد يكون الإنكار من عدم للفهم وقلة الإدراك ، ويرحم الله القائل :

وكم من عائب قولا صحيحاً وأفته من الفهم السقيم

وسياتي بقية الكلام في الفصل الرابع إن شاء الله ، في الرد على من أنكره .

ثم ذكر الناظم هنا أحكامه فقال :

الفصل الثالث في أحكامه ، وهي تسعة

قلت : المراد بأحكامه : ما يحكم به على المريد ، وما يلزمه من الآداب ، وما يكون عليه امره من أعمال وأحوال ، وصرها في تسعة .

الأول : في حكم الشيخ وما يترتب عليه .

الثاني : في حكم الاجتماع .

الثالث : في حكم لباس

الرابع : في حكم الأكل .

الخامس : في آداب الاجتماع .

السادس : في حكم السماع .

السابع : في حكم السفر وآدابه .

الثامن : في حكم السؤال وأسبابه .

التاسع : في حكم التربية وتدريب المريد إلى أوان ترشيده .

واعلم أن مذهب الصوفية : الأخذ بالآحسن في كل شيء ، عملاً بقوله تعالى - فبشر
لذ الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه -

وأحسن المذاهب في الاعتقاد مذهب السلف ، من اعتقاد التنزيه ، ونفي التشبيه ،
ومرض التشابه ، والوقوف مع ما ورد كما ورد ، مالم يحتاج إلى تفيد ، فيقيد بما ينفي
فيه من غير زائد ، وهذا تمكنت الصوفية في بدايتهم .

وقد يظلمهم الله تعالى على أسرار من مكنون عليه ، فنوسع لهم دائرة العلوم وتحل
أقيود التشابه ، فيظلمون على أسرار تكشف بها غوامض التشابه ، ولذلك قال ابن
كثير رحمه الله : التشابه ما استأثر الله ببلده ، وقد يطلع عليه بعض أصفياه ، وهم
مخزون في العلم يقولون أولاً - آمنا به كل من عند ربنا - ثم يظلمهم الله على أسرار فيه
لذلك عليه . ولهذا توسعوا في العبارة حتى أنكرت عليهم ، فوجب التحفظ ، فلا يتكلم
العلم إلا مع أهله ، شفقة على الضعفاء ، وحماية من سوء الظن بأهله ، ولما في بعضه من

سقوط الحرمة ، فوجب تجنبه أبداً وإن فهم على الصواب ، مع حسن الظن بقائله ، أصل المذهب حسن الظن حتى يأتي المناقض ، وحرمة التبرئة واجبة الحفظ في الآثم كوجوبها في المعاني والأفعال .

وأحسن المذاهب في الأحكام مذهب الفقهاء المرجوح إليهم ، كالأئمة الأربعة ، فالتزم بمذهب واحد أجمع للحقيقة ، وأقرب للتبصر وأدعى لتحقيق وأسهل تناولاً ، وعلى درج سلفنا وأشياخنا ، فكان الجنيد : «توريباً» والشبل : مالكيًا ، وأهماسي شافعيًا والحريري : حنفيًا ، والجيلاني : حنبليًا ، والشاذلي وشيخه : مالكيين ، لكن لا يذمن لمن تخرج في العلم من الصوفية أن يرضى بريقة التقليد ، ويتجبد على قول إمامه من غير يعرف أصله ، بل ينبغي له أن يأخذ الأحكام من أصولها ، ويعلم مأخذها وحللها .

وقد قال بعضهم : قف حيث وقفوا ، ثم سر .

وقال آخر : من أخذ عنه من خصوص كان نوره وفتحته منهم ، ومن أخذ من خصوص الكتاب ولسنة كان نوره وفتحته منهما ، وعلى قدرهما .

وقال في القواعد : التقليد أخذ القول من غير استناد لعلامة في القائل ، ولا وجه المقول ، وهو مذموم مطلقاً لاستهزاء صاحبه بدينه (٢) .

والاقتداء : الاستناد في أخذ القول لديانة صاحبه وحله ، وهذه رتبة أهل المذهب أئمتها ، وإطلاق التقليد عليها مجاز .

والتبصر : أخذ القول بدليله الخاص من غير استبداد بالنظر والإعمال لقول ، ولا اختراع لقول من نفسك ، وهي رتبة مشايخ المذهب وأجاويد طلبة العلم .

والاجتهاد : اقتراح الأحكام من أدلتها دون مبالاة بقائل ، ثم إن لم يعتبر أصل المثبت فمطلق ، وإلا فقيّد .

وأحسن المذاهب في فضائل الأفعال : مذهب الحديثين ، إذ لا يأخذون إلا بما

(١) منبعا للإمام الثوري رضي الله عنه .

(٢) هذا ليس على إطلاقه ، وإنما هو خاص بأهل العناية من العلماء ، وأما لا فيكفيهم التقليد في المذهب ، وذلك في الطريق والفقه وخيره ، والله تعالى أعلم .

أو تأرب الصحيح ، فلا يأخذون بموضوع ولا بما قوى ضعفه ، وقد حذروا من تتبع الفضائل وتبعية الرعائب ، كصلاة الأيام والليالي ، وغير ذلك .

قلت : وحسب المرید الصادق من النوافل ما يحفظ قرضه من الخلل ، فإن قوى جمع قلبه حتى أمن من الخواطر كفته الصلوات الخمس ، مع حمارة وقته بذكر مفرد ، أو فكرة أو نظرة ، أو مذاكرة ، أو ما يلزمه من ضروريته ، فهذه عبارة العارفين والصادقين من المریدین ، مع الزهد التام ، والتفرغ التام ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر ما بدأ به من النسخة الأحكام فقال :

الأول : في حكم الشيخ والمشيخة ، ومعنى الشيخ .

قلت : جعل هذه الثلاثة في حكم واحد لقرب بعضها من بعض .

فالأول في حكم الشيخ : يعني هل هو شرط صحة ، أو شرط كمال .

والثاني : في حكم المشيخة ، أي حكمة الشيخوخة ، وما يراد بها ،

والثالث : في معنى الشيخ ، يعني المعنى الذي يكون بها شيخا ، ويصح الاقتداء به ، وهو

أن يكون جامعا بين حقيقة وشريعة ، بين جذب وسلوك ، ماهراً بطل النفوس ومخادعها ، والله تعالى أعلم .

ثم شرح في شرح الأمر الأول ، وهو : حكم الشيخ فقال :

ولأنما القوم مسافرون	لحضرة الحق وظاعفون
فافتقروا فيه إلى دليل	ذی بصر بالصير والمقيل
قد سلك الطريق ثم عاد	ليخبر القوم بما استفاد

قلت : السفر إلى الله بجاز ، عبارة عن قطع العلائق ، وعن الخروج عن الشهوات ، والميوائد ، ليتصل بالأنوار والحقائق ، وهي المعبر عنها بحضرة الحق .

وإن شئت قلت : السفر هنا عبارة عن الانتقال من المقامات ، والإخوال في أخرى ، كالانتقال من مقام الإسلام إلى الإيمان ، ثم من مقام الإيمان إلى الإحسان .

أو عبارة عن الانتقال من شهود عالم الملك إلى عالم الملكوت ، ومن الملكوت إلى الجبروت ، أو من عالم الحس إلى عالم المعنى ، أو من شهود الـكون إلى شهود المـكون ،

أو من عالم الشهادة إلى عالم الغيب ، أو من السلوك إلى الجذب ، ثم من الجذب إلى السلوك
أو من توحيد الأفعال إلى توحيد الصفات ، ثم إلى توحيد الذات ، ولا يتحقق السفر
يظهر السير إلا بمحاربة النفوس ومخالفتها في عوائدها وقبيح مألوفاتها وشهواتها ، فلم
مباشرين النفوس ما تحقق سير السائرين ، إذ لا سير ولا سلوك إلا فيها ، ولا جذب ولا أم
إلا عنها ، ولذلك قال بعض المحققين ، لا يصح أن يقال في الأنبياء عليهم الصلاة : سالكون
ولا مجذوبون ، لأن الجذب لا يكون إلا عن نفس ، والسلوك لا يكون إلا في قطع عقباتها
وهم عليهم الصلاة والسلام مطهرون من آثار النفوس بأول قدم ، فهم مقيمون في بساط
الحضرة قديماً وحديثاً ، وقوله : للحضرة الحق ، يعني دائرة ولايته ، وهي عكوف القلب
في شهود الرب ، بحيث يفتى من لم يكن ، ويبقى من لم يزل .

أو تقول : الحضرة عبارة عن كشف رداء الصون عن أصل نور الكون ، فتلوح أنوار
القدم على صفحات المدم ، فيتلاشى الحادث ويبقى القديم ، وهذا الظاعن هو المرتحل
وهو المسافر .

وقد ضرب الساحلي مثلاً للمعنى المعنوي ، الذي يوصل إلى الحضرة ، وجاصله باختصار
أن مثل الحضرة كلاك كبير ظهر بالشرق مثلاً ، وأرسل رسلاً يعرفون به ويشوقون الناس
إلى حضرة ، بذكر محاسنه ومكارمه ، فمن الناس من أعرض عن طاعته وهم الكفار مثلاً
ومن الناس من أذهن وأطاع وعجز عن السير إليه : إما لثقله أو لضعف عفته ، وهم عوا
المسلمين الذين يؤمنون بالغيب ، ومن الناس من تشوق إلى السير إليه وبذل مهجته وروحه
في الوصول إليه ، فقالت له الرسل أو من قاب عنهم : ها نحن نسير بك ونعرفك الطريق .
ثم إن الملك بنى دياراً في الطريق ينزلونها ، وجعل فيها : مياهاً ، ورياضاً ، وأزهاراً ، وكل
منزل ما بعده أعظم منه ، فإذا سارت الرسل أو نوابهم بالناس ، ونزلوا في بعض تلك
المنازل ، أراد بعضهم أن يسكن فيها ويقيم ثم ، فيقول له الرسول : المطلوب أمامك ، فا
زالوا يحلون بهم من مرحل إلى مرحل ، ومن مقام إلى مقام ، حتى يشرفوا بهم على
الملك ، فإذا شاهدوا الملك على نعت الرضى والتكريم ، كان ذلك مقامهم ومسكنهم ، انتهى .

ذكرته بالمعنى لطول العهد به .

وقال ابن عطاء الله في الحكم في هذا المعنى ، فالعاقل من كان بما هو أبقي أفرح منه بما

هو يفتنى ، قد أشرق نوره وظهرت تباشيره ، فصدف عن هذه الدار منفضيا ، وأعرض عنها موليا ، فلم يتخذها وطنا ، ولا جعلها مسكنا ، بل أنهض الهمة عنها إلى الله ، وصار به مستمينا في القدوم عليه ، فما زالت مطية عزمه لا يقر قرارها دائما بتسيارها ، إلى أن أنانخت بمحضرة القدس وبساط الانس ، في محل المفاتيحة والمواجهة ، والمجالسة والمحادثة ، والمشاهدة والمطالعة ، فصارت الحضرة معشش قلوبهم ، إليها يأوون ، وفيها يسكنون الخ .

وقوله : فانتقروا فيه إلى دليل ، يعنى أن من تشوف إلى الحضرة لا بد له من دليل يئله عليها ، ويملك به طريقها .

قال في شرح الشريشية ، : اعلم أن سلوك الطريق ، وخصوصاً لمريد الكشف والتحقيق ، لا يكون من غير التزام الطاعة والانقياد لشيخ محقق مرشد ، لأن الطريق عويص ، وأدنى زوال يقع عن المحجة يؤدي إلى مواضع في غاية البعد عن المقصود .

قال الشيخ أبو الحسن الششتري رضى الله عنه : ولا بد أن يتحكم لمن يأمره وينهاه ، ويصبره فإن الطريق عويص : قليل خطاره ، كثير قطاعه ، وقد يظن السالك أنه على جادته وهو قد ولى ظهره لموضع توجه منه ، فإنه إذا خرج منه أنملة فقد خرج وانقطع ، وانصرف سيره على أشعة تلك الانملة ، فإنه طريق دقيق ، ونفس متصرفة في البدن ، وهى الراحلة عنه ، وعادة مألوفة ، وشيطان هذا الطريق فقيه بمقاماته ونوازلها .

قال أبو عمرو الزجاجى رضى الله عنه : لو أن رجلاً كشف له عن الغيب ، ولا يكون له أستاذ لا يجيئه منه شيء .

وقال إبراهيم بن شيان رضى الله عنه : لو أن رجلاً جمع العلوم كلها ، وصحب طوائف الناس لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة ، من شيخ ، أو إمام ، أو مؤدب ناصح ، ومن لم يأخذ أدبه عن أمر له يريه عيوب أعماله ودعوات نفسه ، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات .

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : من لم يأخذ أدبه من المتأدين : أفسد من يتبعه .

وقال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : كل من لا يكون له في هذا الطريق شيخ لا يفرح به ، ولو كان وافر العقل منقاد النفس ، واقتصر على ما يلقى إليه شيخ للتعليم فقط ، لا يكمل كمال من تقيّد بالشيخ المربى ، لأن النفس أبدأ كثيفة الحجاب ، عظيمة

الاشراك (١)، فلا بد من بقاء شيء من الرعونات فيها ، ولا يزول عنها ذلك بالكلية إلا بالانقياد للخير ، والدخول تحت الحكم والقهر ، حسبما ذكر الشيخ أبو عبد الله بن عباد رضي الله عنه .

وكذلك لو كان سبقت له من الله عليه ، وأخذ الحق إليه ، وجذبه إلى حضرة ، لا يؤهل للشيخة ، ولو بلغ ما بلغ .

وقال في لطائف المتن : من لم يكن له أستاذ يصله بسلسلة الاتباع ، ويكشف له عن قلبه القناع ، فهو في هذا الشأن لقيط : لا أب له ، دعي : لا نسب له ، فإن يكن له نور ، فالغالب غلبة الحال عليه ، والغالب عليه وقوفه مع ما يرد من الله إليه ، لم ترضه سياسة للتأديب والتهذيب ، ولم يقده زمام التربية والتدريب .

وقال الشيخ أبو عثمان الفرعاني رحمه الله : « المجذوب : المتدارك الراجع من عالم الحق إلى عالم الخلق ، لا يكمل ولا يصلح للاقتداء ، إذا لم يكن له مرشد يهديه إلى دقائق المقامات ، وإن كان على بينة من ربه وبصيرة في سلوكه ، فإن في المقامات الإسلامية الإيمانية دقائق لا تدرك إلا من حيث الخفية ، والاطلاع عليها متوقف على اطلاع من اطلع عليها بنظر خلقته ، فلا يكتفي بالبيئة الحقيقة التي للمجذوب ، فكان محتاجا إلى المرشد .

وكلام الشيوخ في الحضر على اتخاذ الشيخ الرباني ، والتحذير من ضده كثير .
وروى عن أبي يزيد أنه قال : من لم يكن له أستاذ فإمائه الشيطان .

وقال الشيخ أبو علي السفاق : الشجرة إذا نبتت بنفسها من غير غارم ، فإنها تورق ولا ثمر .

قال القشيري : وهو كما قال ، ويجوز أن ثمر كالأشجار التي في الأودية والجبال ، ولكن لا يكون لفاكهتها طعم ، فأكهة للبساتين والفرس إذا نقل من موضع لآخر ، يكون أحسن وأكثر ثمرة ، لدخول التصرف فيه ، ثم قال : سمعت كثيرا من المشايخ يقول : من لم ير منفلحا لا يفلح .

وقد وقعت مشاجرة ومناظرة في آخر المائة الثامنة بين قراء الأندلس ، حتى تضاربوا

(١) الاشراك : جمع شرك (بفتح الشين والراء) وهو ما ينصب للصيد .

بالجمال ، وذلك : هل يكتفى بمشاهدة الرسوم ، ومطالعة الكتب في طريق الصوفية ، أهل التوحيد النورق والمعرفة الحقيقية الوجدانية ، أم لابد من الشيخ ؟! فكتبوا للبلاد ، فأجاب فيها كل أحد على قدر نظره : كالشيخ أبي عبد الله ابن عباد رضى الله عنه ، وكالشيخ أبي عبد الله ابن خلدون رحمه الله ، وأفرد لهذه المسئلة تاليفاً ، وقد ذكر حاصل ذلك الشيخ زروق في «عدته»^(١) ، فقال بعد كلام : وقد تشاجر فقراء الأندلس من المتأخرين في الاكتفاء بالكتب من المشايخ ، فكتبوا للبلاد ، فكل أجاب على حسب فتحه .

وجملة الأجوبة دائرة على ثلاثة :

أولها : النظر للمشايخ ، فشيخ التعليم تكفى عنه الكتب للبيب حاذق . يعرف موارد العلم .
وشيخ الترية تكفى عنه الصحبة لدين عاقل ناصح .
قال شارح «بداية السلوك» : وقال أن يوجد لعلبة الهوى .

وشيخ الترقية : يكفى عنه الفناء والتبرك ، وأخذ كل ذلك من وجه واحد ، يعنى أن أخذ ذلك عن الشيخ في الأوجه الثلاثة أتم للنجاح وأبلغ للبراد .
الثانى : النظر لحال الطالب ، فالبليد لابد من شيخ يريه ، والبيب تكفى الكتب في تربيته ، لكنه لا يسلم من دعوة نفسه ، وإن وصل لا ابتلاء العبد برؤية نفسه .

الثالث : النظر للمجاهدات ، فمجاهدة التقوى لا تحتاج إلى شيخ إبانها وعمومها ، والاستقامة تحتاج لشيخ في بيان الأصلح منها ، وقد يكتفى عنه اللبيب بالكتب ، ومجاهدة الكشف ، والترقية لابد فيها من شيخ يرجع إليه في فتوحها ، كرجوعه عليه للصلاة والسلام في مرضه على ورقة بن نوفل لعلبه بأخبار النبوة ، ومبادئ ظهورها حين فاجأ الحق ، وهذه الطريقة قريبة من الأولى والسنة معها ، والله تعالى أعلم . انتهى

قلت : وهذا الجواب الأخير أقرب للصواب ، والله تعالى أعلم .

وقوله : «خوبصر بالسير والمقيل» ، إشارته إلى شروط الشيخ ، وأنه لابد أن يكون بصيراً بأحوال السير ، فيسير كل واحد على قدر طاقته وجهده ، فليس القوى كالضعيف ، وليس الراكب كالراجل ، وليس سير الصديق كالصديق ، وليس الصادق كالمتردد ، وليس المتردد كالمتكرر ، فيحمل الصديق من المجاهدة والمخرب والاذكار مالا يحمل الصادق ،

(١) «عدة المرید الصادق» .

ويعمل الصادق من ذلك ما لا يحمل المتردد ، ويحتال على المنكر بالسياسة حتى يربط له الصدق . وهكذا يسير مع كل واحد من القاصدين .

قال بعض المحققين : المرید علی قسمین : مراد حقیقی ، ومجازی .

فالمرید الحقیقی ، هو من کملت فیہ أهلیة الإرادة ، فصمم عزمه من أول مرة علی الانزله بصحبة الشیخ ، والتحكم فی نفسه ، وعمل علی علی معانقة الأهوال ، وتحمل الأثقال ، ومفارقة الأشكال ، ومعالجة الأخلاق ، وممارسة المشاق ، وتحمل المصاعب وركوب المتاعب .

والمرید المجازی ، هو : الذی لیس قصده إلا الدخول مع القوم ، والتزیه بزهم والانزله فی سلك عقدهم ، والتکثیر لسوادهم ، وهذا لا یلزم بشروط الصحیة ، وإنما یؤثر بلزوم حدود الشرع ومخالطة الطائفة حتی تشملهم برکتهم ، وینظر إلى أحوالهم وسیرهم ، فیسلك مسلكهم ، ویزهل لما أهلوا له .

وقوله : « قد سلك الطريق » ، ثم عاد ، أشار به إلى أن الشیخ لا بد أن یكون سلك طریق للسلوك ، ثم خاض بحار الجذب ، ثم رجع إلى السلوك ، فلا یصلح للتزیه سالك محض ، ولا بجذب محض ، وإنما یصلح من تقدمه سلوك ثم تداركه الجذب ، أو تقدمه جذب ، ثم رجع للسلوك ، والأول أكمل . وقبیل : الثاني أكمل ، وكلاهما یصلحان للتزیه دون ما قبلهما .

أما السالك المحض ، وهو الظاهری ، فلأنه لا یخلو من بقية فیہ من هذا العالم : أعنی عالم الأشباح ، والمسکاتب عبد ما بقى علیه درهم^(١) والعبد المملوك لا یمكنه للتصرف فی نفسه فكیف یتصرف فی غیره .

وأما المجنوب قبل أن یرجع إلى البقاء ، أعنی قبل أن یرجع من عالم الحق الذی هو عالم القدرة ، وارتفاع الوسائط وخرق حجاب الأسباب إلى عالم الخلق ، الذی هو عالم الحکمة ، وتحقیق الوسائط والأسباب ، وإلى الاشتغال بالسلوك والتحقق بالمقامات ، فهو أيضاً غیر

(١) هذا لفظ حدیث شریف صحیح رواه أبو داود ، والبیهقی عن عبادة بن عمر بن ابن العاص ، ذكره الشیخ استطراداً .

مؤهل للشيخة والافتداء به ، لاشتغاله بحاله عن حال غيره ، وعدم تحققه بالمقامات ، إلا أنه يرى من هو دونه إلى بلوغ مقامه ، وقد يتمكنان معاً : إن كان الأول مقتدياً بشيخ يسيره ، و الله تعالى أعلم .

وقوله : وليخبر القوم بما استفاد ، المراد بالقوم : المريدون ، يخبرهم بما استفاده من علوم الآفوان وأنوار الشهود ، ولذلك قالوا : لا بد للشيخ أن يكون له علم صحيح ، وذوق صريح ، وهمة عالية ، وحالة مرضية ، وسيأتي الكلام على بقية شروطه إن شاء الله .

ثم تم أحوال الشيخ ومعارفه فقال :

وجاب منها الوهد والآ كما وراض منها الرمل والرغاما

قلت : أصل وجاب ، في اللغة بمعنى : نقب وقطع . قال تعالى - الذين جابوا الصخر بالواد (١) - أي نقبوها واتخذوا فيها بيوتاً ، وأطلقه الناظم هنا على الدخول والسلوك ، و الوهد ، المكان المنخفض ، والآ كام ، : المكان المرتفع ، جمع أكمة ، وهو التل ، والتل هو جبل صغير ، وراض ، المكان : اختبره وعرف مافيه ، والرمل بالراء : معلوم ، والمراد هنا : الرقيق الذي يمنع من سرعه السير ، والرغام ، : الغراب ، والمراد هنا الصلب اليابس .

يقول رضي الله عنه : إن شيخ التربية يكون قد سلك من طريق القوم ما كان منها منخفضاً ، كالحول ، والذل ، والعزلة ، والفاقة ، وذاق حلاوة ذلك ، ومرارته ، وعرف منافعه ودسائسه ، فيسير غيره فيها كما سار هو ، وعرف أيضاً ما كان منها مرتفعاً كالظهور والعز ، والخلطة ، والغنى ، فيكون قد سلك ذلك وعرف ضرره ونفعه ، وذاق حلاوته ومرارته ، فيسير فيه كما سار هو ، لكن الناس مختلفون ، فكم من واحد تأنس بالحول والعزلة ، فترك نفسه لذلك ويشق عليه ظهوره وخلطته ، قالوا جب على الشيخ إخراجهم من ذلك ، فيأمره بالخلطة والظهور ، إذ لا تموت النفس إلا بما يشغل عليها ، وكم من واحد كان مبتلى بالظهور ، والعز ، والغنى ، والخلطة ، قالوا جب إخراجهم من ذلك كله الأمر بضده .

قال في شرح «الرائية الشريشية» : وإذا أردت الخروج من العلائق ، فأولها : الخروج من المال ، فإن ذلك الذي يميل به عن الحق ، فلم يوجد مريد دخل في هذا الأمر ومعه

حلاقة من الدنيا ، إلا جبرته تلك للعلاقة عن قريب إلى مامنه خرج ، فإذا خرج من المال ، فالواجب عليه الخروج من الجاه ، فإن ملاحظة الجاه مقطعة عظيمة ، وما لم يستوصد المريد قبول الخلق وردهم ، لا يجيء منه شيء ، بل أضر الأشياء أنه ملاحظة الناس له بين التظيم والتبرك به لإفلاس الناس من هذا الحديث ، وهو بعد لم يصح عقده بينه وبين الله تعالى ، لخروجه من الجاه واجب عليه ، لأن ذلك سم قاتل له ، فإذا خرج به من ماله وجاهه ، فيجب أن يصح عقده بينه وبين الله تعالى ، لإيضاف شيعته في كل ما يشهد به طلبه ، فإن الخلاف للمريد في ابتداء أمره عظيم الضرر ، لأن ابتداء حاله دليل على جميع عمره انتهى .

قوله : « وراض منها الرمل والרגاما ، ينى : أن الشيخ يكون قد اختبر الطريق : صعبا وسهلها فيظر في حال المريد ، فمن كان قويا حمله على الصعبة ، ليطوى عنه مسافة البعد ، ومن كان ضعيفا حمله على السهلة ، لئلا ينثره » (١) فخرج من حيث جاء ، فالرمل الرقيق يصب السهل فيه ، بخلاف الرغام الصلب ، فإنه يسهل فيه السير ، فكفى به الناظم عن مشاق النفس ، وما يخفف عليها ، ولا شك أن الطريق إذا كانت قريبة مختصرة لا تجمدا إلا صعبة متعبة ، وإذا كانت طويلة مملوكة : لا تجمدا إلا طويلة بعيدة ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

رجال فيها وانحاضاديا وسار كل فدفه وواديا

قلت : الفدفد : المكان الغليظ ، ذو حياء ، قاله ابن الأنباري ، وقال أبو زيد : الفدفد : الموضع الذي فيه غلظ وارتفاع ، والوادي مملوم ، وجمه ، أودية ، وهو واضح المياه .

يقول رضي الله عنه : يشترط في الشيخ أن يكون ماهرا بالطريق ، قد جال فيها مرارا ، قد راح فيها آخر النهار وضدا فيها أول النهار ، وكفى بها عن علم البدايات والنهايات ، فيكون عالما بها ، يربى به المريد في بدايته وفي نهايته ، فلكل واحد حكم يخصه ، فعلى البدايات حمل الجوارح ، وحمل النهايات عمل القلوب ، ويكون أيضا قد سلك مسالك الجمال والجلال ، فالجمال محل العلو والظهور ، كالدفد ، والجلال محل الانخفاض والخنو ، كالأودية ، وفيه إشارة إلى أن شرب المريد من منهل الجلال أكثر من شربه من محل الجمال ، لأن الأودية الغالب فيها وجود الماء ، بخلاف الفدفد ، والله تعالى أعلم .

(١) نثر الجرح : امتلا قيعا وصديدا .

ثم قال :

وہلم الخوف والمأمونا وعرف الانهار والعيونا

قلت : يعنى أن الشيخ يكون عالما بالمكان المخوف والمأمون ، والمكان الجذب الذى لا ماء فيه ، والمكان الذى فيه الماء ، فيكون علاما بالأمور التى يخاف على المريد فيها قيامه بالبعد عنها كالركون إلى العز والتعظيم ، أو إلى الدنيا والميل إلى شئ منها ومن أسبابها ومخالطة أهلها ومهاج حديثها ، وكان سيدنا عيسى عليه السلام يقول : لا تهالسوا الموتى فتموت قلوبكم ، وكصحة علماء الفروع المتحمدين على ظاهر الشريعة ، لأنهم يزعمون أن السنة محصورة فيما علموا منها ، وكخالطة القراء الدامنين ، والمتفكرة الجاهلين ، فهؤلاء كلهم فناء ، يخاف على المريد في محبتهم .

والموضع المأمون هو : ازهد في الدنيا والبعث منها ، ومن أهلها .

وفي الحديث : « ازهد في الدنيا يحبك الله ، وازهد فيما أبدى الناس يحبك الناس (١) » .

وفي حديث آخر : ازهد يريح بدنه وقلبه في الدنيا والآخرة (٢) .

وقيل لأبي الحسن : ما أرى الناس يعظمونك ، وإيس لك كبير عمل ، قال بسنة واحدة أقرضها الله على عباده ، تمسكت بها .

قيل : وما هي ؟ قال : الإعراض عنكم وعن دنياكم .

ومن المواضع المأمونة : صحة الصوفية من المريدن والعارفين ، والميل إلى الفاقة ، والفتاة من الدنيا ، والعزلة ، والصمت ، والموضع الذى لا ماء فيه ، وهو محل الجذب ، وهو الوطن الذى تنكث فيه الشبهات والموائد ، ويجد فيه المريد راحته وجماله ، ويظهر فيه عزه وجله ، فهذا الوطن إن طال فيه إقامته قحط قلبه ، ومنع من مدد الزيادة .

قال في الحكم : « إن أردت بسط المواهب عليك صحح الفقر والفاقة لديك ، ربما نجد من المريد في الفاقة مالا تجده في الصوم والصلاة ، ولذلك كانت الفاقة أسياد المريدن ، لأنها سلم ومعراج للرسوخ والتمكين ومقامات البقين .

(١) رواه ابن ماجه ، والطبراني ، والحاكم ، والبيهقي في شعب الإيمان عن سهل بن سعد .

(٢) ويقرب منه قول النبي صلى الله عليه وسلم :

« من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه وأنطلق بها لسانه ، وعرفه داء الدنيا ودواءها ، وأخرجها منها سالما إلى دار السلام » رواه ابن أبي الدنيا في كتاب « ذم الدنيا » .

وقد قال بعضهم : « بقدر الامتحان يكون الامتكان ، واختبار الباقي يقطع الباقي ، وكل محنة تزيد مكنة ، والموضع الذي فيه المباه من عيون وأنهار هو ما قلته آنفاً من مواطن الشدة كالفاقة وكل ما ينقص على النفس ويؤلمها ، فالأنهار ، هي : علوم الطريقة ، والعيون هي : أسرار الحقيقة .

أو نقول : الأنهار ، هي : العلوم ، والعيون هي : الأذواق ، فلا بد للشيخ أن يكون عارفاً بالعلوم التي يحتاج إليها ، ويذوق أسرار الأحوال والمقامات ، والله تعالى أعلم ، ثم قال :

قد قطع اليباء والمفاوز وارتاد كل حابس وحاجز

قلت . « اليباء ، هي الصحراء ، والمفاوز ، جمع مفازة ، وهي : المسافة البعيدة ، وارتاد ، أي اختبر البلد ، وعرف ما يصلح وما لا يصلح .

فالرائد هو . الذي يتقدم أمام القوم ليختبر لهم البلد الذي يصلح للنزول ، والحابس هو الذي يحبسك عن بلوغ المراد ، والحاجز هو الذي يحجز بينك وبين مرادك .

يقول رضي الله عنه : إن الشيخ لا بد أن يكون قطع مهامه النفوس ، وجال في ميدان محاربتها في قطع شهواتها وعوائدها ، وما تنجح إليه من دعوتها وهالوفاتها ، وقطع أيضاً مفاوز البعد الذي بينها وبين خالقها انشأ عن وهمها وجهلها ، وذلك بقطع ركونها إلى الكرامات وخوارق المعادات ، أو طلب الخصوصية أو غير ذلك من الحروف القاطعة عن مقام الإخلاص ، والالحوق بخواص الخواص ، ويكون أيضاً اخبر وعرف كل ما يحبس عن السير من الوقوف مع المقامات والقناعة بظهور الكرامات .

وفي الحكم : « ما أرادت همه عارف أن تقف مع ما كثف لها إلا ونادته هوائف الحقيقة : الذي تطلب أمامك ، ولا تبرجت ظواهر المكونات إلا ونادته حقائقها : إنما نحن فتنة فلا تكفر ، وعرف أيضاً ما يحجز ويمنع من الوصول إلى صريح العرفان ، على وفق المشاهدة والعيان ، وهو أمران . إما الملل من المجاهدة وآسير والركون إلى الراحة والكسل ، وإما الاستغناء عن الشيخ والخروج عنه قبل الترشيد ، فإن ذلك يحجز بينه وبين التحقيق ، ويخرجه عن سواء الطريق ، ويرجع إلى مقام العدم ، نستل الله السلامة من الساب بعد العطاء . آمين .

ثم قال :

وحل في منازل المناهل وكل شرب كان فيه ناهل

المناهل : جمع منهل ، وهو : الموضع الذي ينزله الركب ، بشرط أن يكون فيه الماء والاخاذ ، والناهل هو للشارب .

يقول رضى الله عنه : يسترط في الشيخ أن يكون حل في منازل الساترين ، وهى مقامات الينين ، بحيث سلكها وعرفها : ذوقاً وحالاً ومقاماً ، كتصحيح التوبة بشروطها وأركانها ، وتحقيق الورع والزهد ، والخوف والرجاء ، والتوكل والصبر ، والرضى والتسليم ، والمجة والمراقبة ، والمجاهدة ، وحصل له الفرق بين الروحانية والبشرية ، والسلوك والجذب والبقاء والبقاء ، وأحكم أحكام التخلية والتحلية وكل شرب ، من مشارب اللقوم ، وأذواقها ، كان فيه ناهلاً وشارباً ، فإذا حصل هذه المراتب ، وذاق هذه الأذواق : استحق أن يكون شيخاً مريباً ، كما أشار إليه بقوله :

فعد ما قام بهذا الخطب قالوا جميعاً : أنت شيخ الركب

قلت : الخطب ، هو الشأن ، يعنى فعند ما قام بهذا الخطب الجسيم ، وتحقيق فيه هذا الدر العظيم ، استحق التقديم للتربية والترقية ، وقالوا له : أنت شيخ الركب ، حيث سلكت المنازل وعرفت المناهل ، وحققت الطريق ، ووصلت إلى معالم التحقيق وعلت الخوف والمأمون والمجذب منها ، وما اشتمل على أنهار وعيون ، فقد شهدت لك الأرواح بالتقديم والأمرار بالتعظيم ، وقد أشار الشريشى إلى شروط الشيخ ، فقال :

ولشيخ آيات إذا لم تكن له فاهو إلا في لبالي الهوى يسرى
إذا لم يكن علم لديه بظاهر ولا باطن ، فاضرب به لجج البحر

قال علم الظاهر هو : علم الشريعة ، والعلم الباطن هو : علم الطريقة والحقيقة ، فإذا لم يحصل شيئاً من هذين العليين ، ثم ادعى مرتبة الشيخوخة ، فأخرجه من سفينة دائرة الشيخوخة وألقه في لجج بحر النفاق .

قال صاحب العوارف : ومن شرائط أهل الولاية أن يكون عالماً بالأوامر الشرعية ، طاملاً بها ، واقفاً على آداب الطريقة ، وسالكاً فيها ، وكاملاً في عرفان الحقيقة وواصلها إليها ، وغلباً لجميع ذلك ، حتى يتم له السلوك ويشرف بعالم الوصال ، فاقه الله أيها الطالب ، الحذر من حجة الأشرار ، فإنهم قطاع الطريق واعتصموا بجبل القرآن والأحاديث النبوية .
وقال أبو الحسن الششتري رضى الله عنه : لا يقتدى في طريقنا هذه بظاهر ولا بباطن ،

وإنما يقتدى بمن جمع بينهما مع الزهد الظاهر والإيثار والورع والعلم بالتنازلات والأحوال والمقامات والخواطر .

وقال الجنيد رضى الله عنه : « من لا يكتب الحديث ، ويحفظ القرآن لا يقتدى به في هذا الأمر ، فيجب على المريد ألا يقتدى إلا بالعالم المتجرد عن الدنيا العامل بما يعلم . ثم قل . ولا يتخيل لطالب هذا الأمر أنه يبلغه بذكائه أو ينظر في كتب الصوفية أو الحكماء ويعمل ويجهتد ويصلى . لا والله ما الأمر هين .

واعلم أن ما شوطه للشيخ الشريشى في شيخ القروية من العلم الظاهر والباطن صحيح .

أما العلم للظاهر ، فالمطلوب منه تحصيل ما يحتاج إليه في نفسه فقط ، ويحتاج إليه المريد في حال سيره ، وهو القدر الذى لا بد منه من أحكام : الطهارة ، والصلاة ، ونحو ذلك ، إذ كثير من العلوم الظاهرة لا مدخل لها في السير والسلوك إلى ملك الملوك ، كالديانة ، والحدود ، والطلاق ، والعناق ، وإلا لزم الخط من رتبة كثير من لحول الطريق وأعلام الوجود ، والتحقيق ، فقد كان كثير منهم متضلعين بعلوم الشريعة ، وكثير منهم ليس عنده إلا ما يخصه من الذى لا بد منه .

قلت إذا عرفت هذا عرفت بطلان قول من قال : إن شيخ القروية لا بد أن يكون جامعاً للعلوم كلها ، بحيث لو انقطعت العلوم كلها لأحيائها ، كيف وقد وجد كثير من اتفق الناس على تربيته وهو أعمى :

قال في العوارف : لما قال أبو يزيد البسطامى رضى الله عنه . صحبت أبا على المستدى (بالسين) ، فكنت ألقنه ما يقيم به فرغه ، وهو يعطى التوحيد والحقائق صرفاً .
ومن المعلوم أن الشيخ ابن عباد رضى الله عنه لم يفتح له إلا هلى يد رجل أعمى . وكذلك الغزالي .

ومن المعلوم أن الغزوانى لم تكن له يد في العلم الظاهر ، فكان إذا جأته فتياً في علوم للقوم أرسل بها لتلميذه الهبطى .

وكذلك شيخ شيوخنا . سيدنا عبد الرحمن المجذوب ، لم يكن له معرفة بالعلم الظاهر ، وكثير من الأولياء الأكابر كانوا أميين ، وفي أسرار الولاية راسخين .

وأما العلم الباطن فالمطلوب فيه التبحر التام ، إذ المقصود بالذات في الشيخ للمصطلح عليه عند القوم هو هذا العلم ، لأن المريد إنما يطلب الشيخ يسلكه ويمله علم الطريقة والحقيقة ، ليكون عنده علم تام بآله ، وصفاته ، وأسمائه ، ومتعلقاتها ، وأحكامها ، وخصائصها ، وفوائدها وحكمها ، وأسرارها ، وعلم تام بآفات الطريق ومكاييد النفس والشيطان ، وطرق المواجه ، وتحقيق المقامات ، قد حصل له ذلك على سبيل الذوق والوجدان ، بحيث إذا استنبر عن آفات الطريق وعلاماته ، وعن حقيقة المقصد ينبر بحقيقة الأمر على ما هو عليه وحصلت له مع ذلك قوة وتمكن من رفع الموانع ، وقطع العلائق الظاهرة والباطنة ، وبصيرة نافذة ينظر بها في قابلية المريدين والسترشدين ، واستعداداتهم يحمل كل أحد على ما كلة قابليته ، ويصين له طريقاً قريباً ينفى منها إلى ربه (قاله القاسي) .

وقال الساحل : من الشروط التي لا بد منها في الشيخ أن يكون عنده من الكتاب والسنة ما يقيم به ما لا بد منه في الرسوم الشرعية ، وما يبنى عليه وظائف سلوكه ، وإذا انضاف إلى ما يفتح الله به عليه من الحكمة في باطنه ، فإنه يكون له في ذلك نور يمشى به في الناس ، ويهديه إلى فهم خطابات الكتاب والسنة ، إلى آخر كلامه .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه كل شيخ لم تصل إليك الفوائد منه من وراء حجاب ، فليس بشيخ .

قلت : ولعله يشير إلى أن الشيخ الكامل يمد تلميذه ولو كان بعيداً عنه في الحس .

وقال أيضاً : والله إنني لأوصل الرجل إلى الله من نفسي واحد .

وقال : الشيخ أبو العباس رضي الله عنه : والله ما بيني وبين الرجل إلا أن أنظر إليه وقد أغنيته .

قلت : وقد لقينا والحمد لله في زماننا هذا من يقنى بالنظر ، صحبناهم وعرفناهم على قدم الشاذلي ، والمرسي رضي الله عن جميعهم ، وخرطنا في سلكهم آمين .

ثم إذا توفرت فيه شروط الشيخوخة لزم اتباعه في طريق الخصوص ، وإلى ذلك أشار بقوله :

وأحدقوا من حوله يمشون وكلهم إليه يوزعون

قلت : أحقق القوم بالشيء : داروا به ، ويوزعون ، أي يضمون ويمشون

يقول رضى الله عنه : لما تحقق الناس بوجود شرط الشيخوخة في هذا الولي ، واطلموا على وجود السر عنده أحققوا به وداروا من خلفه ، يقتدون به ويبتدون بهديه ، ويمشون على سنته ، وكلهم يضمون إليه ويقربون من حضرته ، لعل تفحات نهب من ناحيته فإن الله رجلاً من نظروا إليه سعد سعادة لا يشقى بعدها أبداً ، وهم العارفون بالله .

وقال في العوارف : إن نظر العلماء الراسخين والرجال البالغين تزيان نافع ، ينظر أحدهم إلى الرجل الصادق فيستشقق بنفوذ يصيرته ، حسن استعداد الصادق واستمهاله مواهب الله تعالى الخاصة ، فيقع في قلبه محبة الصادق المريد ، وينظر إليه نظرة محبة عن بصيرة ، وهم من جنود الله تعالى ، فيكسبون بنظرهم أحوالاً سنية ، ويهبون آثاراً مرضية ، وماذا ينكر المنكر من قدرة الله سبحانه وتعالى ، وكما جعل في بعض الأفاعي من الخاصة إذ نظر إلى الإنسان يهلكه بنظره ، هو قادر بأن يجعل في بعض خواص عباده أنه إذا نظر إلى طالب صادق يكسبه حالاً وحياة . اهـ .

وقال في لطائف المنن : إنما يكون الاقتداء بولي ذلك الله عليه ، وأطلعك على ما أودعه من الخصوصية لديه ، فطوى عنك شهود بشرته في وجود خصوصيته ، فألقيت إليه القياد فسلك بك سبيل الرشاد ، يعرفك برحومات نفسك وكائناتها ودفائنها ، ويدلك على الجمع على الله والفرار عما سوى الله ، ويسايرك في طريقك حتى تصل إلى الله : يوقفك على إساءة نفسك ، ويعرفك بإحسان الله إليك ، فيفيدك معرفة إساءة نفسك : الهرب منها ، وعدم الركون إليها ، ويفيدك العلم بإحسان الله إليك الإقبال عليه والقيام بالشكر إليه ، والسوام على ممر الساعات بين يديه .

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه .

الشيخ : من شهدت له ذاك بالتقديم ، وسرك بالتعظيم .

الشيخ من هذبك بأخلاقه وأدبك بإطراقه ، وأغار باطلك بإشراقه .

الشيخ : من جمعك في حضوره وحفظك في منفيه .

وقال أيضاً (في لطائف المنن) : ليس شيخك من أخذت عنه .

وليس شيخك من واجهتك عبارته إنما شيخك الذي سرت فيك إشارته .

وليس شيخك من دعاك إلى الباب ، إنما شيخك من رفع يديك وبينه الحجاب .

وليس شيخك من واجهك مقاله ، إنما شيخك من نهض بك حاله .

شيخك هو : الذي أخرجك من سجن الهوى ، ودخل بك على المولى .

شيخك هو : الذي مازال يملو مرآة قلبك ، حتى تجلت فيه أنوار ربك ، نهض بك إلى الله ، فنهضت إليه ، وسار بك حتى وصلت إليه ، ولا زال محاذيا لك حتى ألقاك بين يديه ، فزج بك في نور الحضرة ، وقال : ها أنت وربك .

هناك عمل الولاية من الله ، وهواطن الأمداد من الله ، وبساط التلقى من الله .

ثم ذكر كيفية تسييره للمريدين . فقال :

فرتب القوم على مراتب ما بين ماش : راجل وراكب

قلت : ينبغي للشيخ أن يكون ماهراً بالمسير ، عارفاً بأحوال السائرين ، فيرتب القوم على مراتب ، فمن كان ضعيفاً في السير غالباً من الحال الحاملة له : جعله في وسط الركب يمشي خلف من سبقه ، ويسيره من خلفه ، ومن كان قوياً في سيره يحمله على نهيب حاله ، قدمه مع المتقدمين ، يسير خلفه المتوسطون والمتأخرون .

وقال الشيخ ذروق رضى الله عنه : الماشى عبارة عن صاحب الأفعال والحركات الجسمانية ، والراكب : إشارة إلى المحمول بحال أو عمل أو ذكر أو فكر ، توجه له على بساط معرفة ، وإنما يفعل بهم ذلك ، لأن قوة النفس معينة لصاحبها على مراده ، والله تعالى ينفع العبد بنيه على قدر همته ، فلذلك تجد الممالك واحداً ، والفتح مختلفاً - تسقى بماء واحد ، وتفضل بعضها على بعض في الأكل - هذا في شأن الأشجار النابتة ، فكيف بالحقائق العرفانية ، وما يجب أحد قط ولياً إلا قال منه ما تقضى همة فإن وافقت نيته همته حصل الانتظام ، وإلا وقع الاختلاف .

قلت : يعنى أن نية المريد : إن وافقت همة شيخه ، وقع الانتظام في سلك الشيخ ولحق به : وإن كانت نية المريد مخالفة لهمة الشيخ بأن تكون نية المريد التبرك فقط ، أو دخل معه على حرف من الحروف . . . همة الشيخ فيه الوصول ، فانه يقع الاختلاف ، ولا ينال

منه الامانوى ، إلا إن سبقت له من لاقه سابقة ، فلا بد أن تهضه همة الشيخ إلى ما سبقت له ، واقه تعالى أعلم .

ثم إن دوام السير يوجب الملل ، فلا بد لاستعمال ما يوجب الراحة ، ليحصل النشاط . فقد قال عليه الصلاة والسلام : « أروحوا القلوب : ساعة بساعة » (١) ، وقال ابن مسعود رضي الله عنه : « إن هذه القلوب تمل كما تمل الأبدان ، فابتغوا إليها طرائف الحكمة ،

وإلى ذلك أشار الناظم بقوله :

وحيث كنت نجب الأبدان قال : أحدها يا حادي الأظمان
فن هنا بلقب القوم الأبدان حادٍ لأجل حدوده الرجالا

قلت : الكل هو العباد ، وعبد كل : أى ثقل ، وكلت الأبدان : هيئت ، والنجب جـ نجيب ، وهى لانة الجيدة ، وحدا - محذوا - محذوا بمعنى : غنى بالإيل لسيورها ، فهو حاد ، أى متن ، والأظمان : جمع ظمينة ، وهى الناقة المرحلة ، وتطلق على المرأة الرابكة عليها مجازاً ، والتقيب هو : إحداث اسم يضر بالمدح أو الذم ، وقد نهى الله تعالى عن القب المشعر بالذم ، فقال - ولا تباذروا بها الألقاب (٢) - وأطلقه الناظم هنا على مجرد التسمية ، أى : وممرا القوال الذى يغنى حادياً لأجل حدوده بالرجال السائرين ، وحقه أن يقول حادياً لأنه منصوب ، لكنه جرى على لغة حسن يقدر الإهراق كله فى المنقوص .

يقول رضى الله عنه : وحيث دار السير ، وحصل الملل ، وكلت الأبدان فى الخدمة أو القلوب فى الفكرة ، أو الأرواح فى النظرة ، أو الأسرار فى العكوف فى الحضرة ، وبخيف عليها حصول الفترة ، قال الشيخ ، أو نائبه ، لمن يحسن الغناء : أحد هذه القلوب أيا الحادى ، وذكرها معاهدا الأصلية ، ومواطنها القدسية ، فيغنى بما يليق بكل واحد فى عمله ، ولهذا المعنى اتخذوا قوالاً فى حلقة الذكر ، لأنه بهيج وينشط ، ويحسن أيضاً به تمام الذكر خشية أن يكون حصل شيء من الملل ، فيروح بذلك .

والحاصل أن من سياسة الشيوخ إعانة النفوس بما يقتضيه حالها على ما هو المراد منها ،

(١) رواه أبو داود فى مراسيله - وأبو بكر بن المقرئ فى فوائده والنضاهى عن أن

يلفظ : « أروحوا القلوب ساعة فساعة » .

(٢) سورة النجم الآية : ١١ .

ثم إن الطباع مختلفة وأحوال السالكين مفترقة ، فمنهم من تفتش قواه بالمعارف والعلوم ، فيذكر له منها ما يقوى حاله بوجه يشوق ولا يشوش .
ومنهم من ينتعش حاله بالتذكير والوعظ ، فيكون تذكيره عوناً له على سلوكه ، ورضاً لمخته .

ومنهم من ينتعش قواه بالمذاكرة في العلوم واستخراج دقائق المفهوم ، فيكون ذلك منفضاً له في حاله ، فيؤتي كل أحد بما ينفعه ، وإليه تشير الآية الكريمة ، وهي قوله تعالى - ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتى هي أحسن (١) - فأهل الصدق يكفى فيهم الدعاء إلى الله بالحكمة ، وهي المهمة للقوية .

وأهل الاعتقاد والتسليم يكفى فيهم الدعاء بالموعظة الحسنة .

وأهل الانتقاد يجادلهم بالتى هي أحسن ، فإن سبقت لهم سابقة نفهم التذكير ، وإلا فإنما أنت نذير .

ومن الناس أيضاً من ينتفع بالحكايات وذكر الكرامات .

ومنهم من يتأثر بالشعر والسماع .

ومنهم من يتأثر بنغم الآلات وآلات الطرب .

ومنهم من يتأثر بسماع الزمارة والكبر ، ومنهم من يتأثر بسماع الطنبور والبندير وغير ذلك من آلات اللهو .

وفي ذلك يقول الشاذلى رضى الله عنه فيما نسب له :

ومنا من يهيم على سماع ببندير وهود وقرطار

ومنا من يهيم على علوم وقرآن وذكر وافتكار

قال بعض الحكماء : من سار الى الله بطبعه كان وصوله أقرب إليه من طبعه ، ومن سار الى الله بالبعد من طبعه كان وصوله على قدر بعده من طبعه ، وذلك يقتضى له الاستهلاك قبل الوصول ، فلا يتنعم برؤية الحق إلا في آخر نفس من وجوده ، إن وجد ، وإلا فهو بعيد في دهواه ، ومحجوب برؤية نفسه .

قلت : وطريق الشاذلية من سار الى الله بطبعه ، فكان وصولها أقرب إليهم من طبعهم ، لأنهم بنوا أصولهم وطريقهم على رؤية الحق والفناء فيه بأول قدم ، حسبما استقرى من

أحوالهم ، فهم يتنعمون برؤية الحق في أول قدم . ولذلك قال القطب ابن مشيش رضي الله عنه : « من ذلك على الدنيا فقد غشك ، ومن ذلك على العمل فقد أنعبك ، ومن ذلك على الله فقد نصحك ، فالدلالة على الله هي الفناء فيه والانحياش ، والغيبة هما سواء ، وعلى هذا ينز الشاذلية طريقهم ، حققنا الله بمعرفةتهم . آمين .

ثم بين حقيقة هذا السفر فقال :

والسفر المذكور بالقلوب والشيخ في منزلة الطبيب

قلت: السفر هنا هو سفر القلوب إلى حضرة علام الغيوب ، وهو من أربعة مواطن إلى أربعة مواطن :

يسافر أولاً من موطن للذنوب والغفلة إلى موطن التوبة واليقظة .

ويسافر ثانياً من موطن الحرص على الدنيا والانكباب عليها إلى موطن الزهد فيها والغنية عنها .

ويسافر ثالثاً من موطن مساوى النفوس وعيوب القلوب إلى موطن التخلية منها والتولية بأضدادها .

كما قال في الحكم : اخرج من أوصاف بشرية من كل وصف مناقض لعبوديتك ، لتكون لنداء الحق جيباً ، ومن حضرته قريباً .

ويسافر رابعاً من عالم الملك إلى شهود عالم الملكوت ، ثم إلى شهود الجبروت ، أو من عالم الحس إلى عالم المعنى ، أو من عالم الأشباح إلى شهود عالم الأرواح ، أو من شهود الكون إلى شهود المكون .

وهذا السفر إنما هو معنوي ، كناية عن مجاهدة للنفس ومحاربتها في ردها عن عوائدها ومألوفاتها ، وفي تخليتها من الرذائل ، وتخليتها بالفضائل .

وفي الحكم : لولا ميادين النفوس ما تحقق سير السائرين ، لا مسافة بينك وبينه ، حتى تطلوها رحلتك ، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك .

وقال أيضاً : كيف يشرق قلب صور الأكوان منطبعة في مرآته ؟ أم كيف يرسل إلى الله وهو مكبل بشهوته ، إلى آخره .

وكما أن الشيخ بمنزلة شيخ الركب في معرفة الطريق ، هو أيضاً بمثابة الطبيب للذنوب ،

فهو طبيب القلوب بما علم وعرف من أحوالها ، وعالج من أمراضها ، ربما شاهد وذاق من
أموارها وأسرارها .

وقد أشار للفضيل رضى الله عنه إلى هذا حيث قال : للعالم طبيب الدين ، والدنيا دله
بالدين ، فإذا كان للطبيب يجر الداء إلى نفسه فتي يبرىء غيره ، وأنشدوا :
وغير تقي يأمر الناس بالتقى طبيب يداوى الناس وهو عليل

وقال آخر :

يا أيها الرجل المعلم غيره	حسبنا نفسك كان ذا التعليم
قصص الدواء لدى السقام وذى الضنا	ومن الضنى وجواه أنت سقيم
وأراك تلقح بالرشاد عقولنا	نصحاً وأنت من الرشاد عديم
أبدأ بنفسك فأنها عن غيها	فإذا انتهت عنه ، فأنت حكيم
فهنالك يقبل إن وعظت ويقتدى	بالقول منك وينفع التعليم
لأنه من خلق وتأتى مثله	مار عليك إذا فعلت عظيم

ولما كان علم الطب مركباً من علم وعمل ، هو صنعة للعقاقير ، أشار الناظم إلى بعض
ذلك بقوله :

يعلم منها الفث والسمينا ويدرك الصلب معاً واللينا
قلت : الفث اللحم الهزال ، وهو ضد السمين ، والصلب هو الشديد اليوسة ، وهو
ضد اللين .

يقول رضى الله عنه : إذا كان الشيخ بمنزلة الطبيب ، فلا بد أن يكون له اطلاع على
القلوب ، واستشراف على النفوس يعلم ما كان منها غثاً ضعيفاً من العلم والعمل والحال ، خالياً
من اللين ، خراباً من النور ، فيعامله معاملة الجائع الهزال ، فيعطيه من الأذكار ما يقويه
على حاله ، ومن الأعمال ما يغنيه عن أشكاله ، ويمد باطنه من مدد الهمة ما يسد به قعره
ويجبر به كسرته .

ويعلم أيضاً ما كان منها سمينا بلم أو عمل حال ، أو بنور يقين أو معرفة أو غير ذلك ،
فيعامله بالترقية والتربية اللاتقة به ، وإذا كان سمته مفرطاً رده إلى الوسط ، بغير الأمور
أوسطها .

وقد رد رسول الله ﷺ عبد الله بن عمرو بن العاص عن صيام الدهر وقيام الليل :
لكنه خلبت عليه القوة فتمسك بذلك ، ثم ندم .

ويكون أيضاً حال هذا الشيخ الطيب يدرك القلب الصلب ، وهو القاسى من كثرة
الذنوب والغفلة ، فيحمله على التوبة ، ويوقظه من الغفلة ، ويأمره بما يلين قلبه ، كالصيام
ومحبة الفقراء وقيام آخر الليل ، وغير ذلك مما يزيل علة وقساوته .

ويدرك القلب اللين بالخشوع والخضوع ، فيأمره بالترقى إلى مقام الإحسان ، ويطوى
عنه مسافة أعمال الجوارح ، من أعمال أهل الإسلام والإيمان ، وهكذا يعامل كل قلب
بما يناسبه .

قال فى العوارف : ينبغي للشيخ أن يتفرس فى المريد ويعامله على حسب صلاحته
واستعداده ، ثم قال : ينبغي للشيخ أن يعتبر حال المريد ، ويتفرس فيه بنور الإيمان وقوة
العلم والمعرفة ، فمن المریدین من يصلح للتعبد المحض ، وأعمال القوال وطريق الأبرار ،
ومن المریدین من يكون مستعداً صالحاً للقرب وسلوك طريق المقرين المرادين بعمامة
القلوب والمعاملات السنية ، ولكل من الأبرار والمقرين نهايات وبدائيات ، فيكون للشيخ
صاحب الإشراف على البسواطن ، يعرف كل شخص وما يصلح له ، ومن العجب أن
الصحراوي يعرف الأرضين والفرس ، ويعلم كل فرس وأرضه ، وكل صاحب صنعة يعلم
منافع صنعته ومضارها ، حتى المرأة تعرف قطنها وما يتأتى منه من النول : دقته وغلظه ،
ولا يعلم الشيخ حال المريد وما يصلح له .

وكان رسول الله ﷺ يكلم الناس على قدر عقولهم ، ويأمر كل شخص بما يصلح .
فمنهم من أمره بالإتفاق .

ومنهم من أمره بالإمساك .

ومنهم من أمره بالكسب .

ومنهم من أقره على ترك الكسب ، كأصحاب الصفة ، فكان رسول الله ﷺ يعرف
أوضاع الناس وما يصلح لكل أحد .

فأما فى رتبة الدعوة فكان يعمم الدعوة ، لأنه مبعوث لإثبات الحجة وإيضاح المحجة ،
يدعوا على الإطلاق ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره .

ثم نعم أوصاف الطبيب ، وهو العلم والعدل ؛ فقال :

ويعلم البسيط والمركباً وما بدا منها عليه واختبأ
والطبع والمزاج والتركيبا والكون والتحليل والقرطيا

قلت : البسيط هو المفرد الذي لم يتركب من جواهر ، والمركب ضده ، وبدا الشيء ظهر ، واختبأ (بالباء) : بمعنى استتر ، ومنه الخبء في قوله تعالى - يخرج الخبء في السموات (١) - أي المستتر والمخفى فيها ، والطبع ما جبل عليه الإنسان من خوف أو شجاعة أو بخل أو كرم ، أو غير ذلك .

والمزاج : ما ركب منه بدنه كالحرارة ، والبرودة ؛ واليبوسة ، والرطوبة ، وغير ذلك .
والتركيب : إضافة الشيء إلى غيره كتركيب العقاقير والأدوية .
والكون : ما كان عليه الجسم من صحة أو مرض .

والتحليل : هو تذويب ما نجمد ، كتحليل ما انعقد في جوف الإنسان من الطل بهواء ونحوه .

والقرطيب : تليين ما صلب ويابس .

يقول رضى الله عنه : لا بد للشبح أن يكون ماهراً بأحوال القلوب ، عارفاً بملها ، عالماً بعلاجها ، يعلم ما كان منها بسيطاً : أى مفرداً من حب الأشياء ، ليس فيه إلا قصد واحد ، وهم واحد ، ومحبة واحدة ، وهو الذى أشار إليه الجنيد رضى الله عنه حين قالوا له : كيف يصل العبد إلى التحقيق ؟ فقال : بقلب مفرد ، فيه توحيد مجرد ، بعد تحصيل أمور ذكرها قبل ، فهذا القلب سهل العلاج قريب الصحة ، لأن المرض إذا كان مفرداً قرب علاجه ، وهذا القلب حين سلم من تشعب الهوم ، ولم يبق له إلا هم واحد ، لم يبق فيه إلا مرض واحد ، وهو حجاب الهم ، فعلاجه في ترقينه ورفع حجابيه ، بخلاف القلب الذى تشعبت فيه الهوم ، فهو أصعب في العلاج لتركيب أمراضه وتراكب علاجه ، وهو المراد بالمركب .

وقد قال بعضهم : القلب كالعدة ، والمعدة بيت الداء ، فإذا كثرت عليها الأخطار مرضت وفسدت ؛ وعلاجها الحمية من الأخطار ، وكذلك القلب إذا كثرت عليه هموم والخواطر ، فسدت فكرته ، وانطمست مرآة بصيرته ، وإذا قلت منه الهموم والخواطر ، سلت فكرته ، وانصقلت مرآته .

وفي الحديث عنه عليه السلام : « من جعل الهموم هماً واحداً كفاه الله هم دنياه ، ومن تشعبت به الهموم لم يبال به الله في أى أودية الدنيا هلك » (١) .

وعلاج هذا بالعزلة والصمت ، وإخراج الدنيا من يده ، إلا قدر ضرورته .

ويحتمل أن يريد بالبسيط والمركب : نفس العيوب التى هى مرض القلب ، فيعلم القلب الذى مرضه بسيط ، وهو الذى فيه مرض واحد ، والقلب الذى مرضه مركب ، وهو الذى كثرت عليه وأمراضه ، فيعالج كل واحد على قدر علته وأمراضه ، ويدل على هذا الاحتمال قوله : « وما بدا منها عليه واختبأ » ، فإن المراد به المرض الظاهر ، كعاصى الجوارح للظاهرة ، والمرض الخفى كعاصى القلوب للباطنة ، وهى أصعب فى العلاج كالربا ، والعجب ، والكبر ، وحب الجاه ، والرياسة ، والمدح ، وغير ذلك من الأمراض .

وفي الحكم : حظ النفس فى المعصية ظاهر جلى ، وحظها فى الطاعة باطن خفى ، ومداراة ما يخفى صعب علاجه .

وقال أيضاً : تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال .

وقال أيضاً : لا يخرج للصهوة من القلب إلا خوف مزعج أو شوق مقلق ؛ فمداراة الأمراض الظاهرة التزام التوبة والتقوى والاستقامة ؛ فإن صعبت عليه فيلزم صحة الشئ ومدائمة الجلوس بين يديه ، أو تكرار الحجى إليه ، فإن نظر الشيخ تزياتى ، فإن صعب ولم يشف من مرضه فليعلم أن صدقه ضئيف ، أو شيخه ضئيف ، فإن الشيخ إذا كان له قوة

(١) رواه ابن ماجه عن عبد الله بن مسعود . ولفظه — كما فى الفتح الكبير —

« جعل الهموم هماً واحداً : هم المعاد : كفاه الله سائر همومه ، ومن تشعبت به الهموم »

١ . الداء الذى يهلك به الإنسان . أه دنا هلك .

يمشي به في الناس جامعاً بين جذب وسلوك ، لا يمكن أن يصحبه العليل بالصدق ولم يشف من ساعته .

وقد قالوا : سيدى ابن سيدى هو : الذى يحمل عنى قيودى .

وقال شيخ شيوخنا سيدى العربى بن عبد الله : طريقنا كالسكين الماضية ، ياتينا الرجل مكبلاً بشهوته فنقطع يده من ساعة ، فكل من صحب شيخاً بالصدق ولم ينفك عنه كبل المعاصى ، فلينظر شيخاً آخر ، والله تعالى أعلم .

والفرق بين الاحتمالين : أن الأول جمل البسيط والمركب من صفة القلب ، والثانى جعله من صفة المرض ، وهو أليق بما بعده ، ويعلم أيضاً هذا الشيخ الطيب : طبع المرید ، وما جبل عليه من قبض أو بسط ، أو شح أو كرم ، أو سخاء أو خوف ، أو شجاعة ، أو غير ذلك من الطبايع ، فيعالجه بما يصلح لطبيعته ، فإن كان متقبضاً أمره بشيء من البسط ، وإن كان بخيلاً أمره بالبذل والإيثار ، وهكذا يقابل الأشياء بأضدادها ، ويعلم أيضاً مزاج المرید ، هل هو بارد الهمة ، قليل الطلب أو هو حار متعطش ، السخانة غالبية عليه ، أو هو معتدل ، فإن رآه بارداً أمره بصحبة الفقراء والحك مهم ، أو دوام صحبته وإن رآه حاراً متعطشاً أمره بالقصد والتوسط في الخدمة ، لقوله عليه الصلاة والسلام :

« اكفروا من العمل ما تطيقون ، فإن الله لا يمل حتى تهلكوا » (١) . وقال أيضاً **ﷺ** : « لا يكن أحدكم كالنبت ، لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » (٢) .

وإن رآه معتدلاً سيره كذلك ، ويعلم أيضاً كيفية تركيب العقاقير والأغذية ، فمن رآه يلبق به ذكروا حد : لقته له بسيطاً ، ومن رآه يلبق به ذكران أو ثلاثة ، لقته كذلك ، ومن رآه يصلح للفكرة ، أمره بها ، ومن رآه يصلح للفكرة والنظرة ركبها له ، وكذلك

(١) ولفظ الحديث كاملاً : « اكفروا من العمل ما تطيقون فإن الله لا يمل حتى تهلكوا » ، فإن أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل ، رواه الإمام أحمد وأبو داود والنسائي عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاهما .

(٢) هذا معنى حديث شريف لفظه : « إن هذا الدين متين ، فأوغل فيه برفق ، فإن النبت لا أرضاً قطع ولا ظهراً أبقى » ، رواه البزار عن جابر .

الذكر مع الفكرة بركبها لمن يقدر عليهما ، وهكذا ، ويعلم أيضاً كون القلب : هل هو سليم أو سقيم ، وهل هو أهل للخدمة أو للعبه ، فإن القلب الذي لا يطيق أنوار المعرفة لا يصلح صاحبه إلا اشتغاله بالخدمة ، ويعلم أيضاً تحليل العامل الجامدة ، وتذويبها ، كمن تمكنت فيه الرياسة والجاه ، فلا يحللها إلا الخراب الكبير واذل الكبير ، وكل ما يسقط من أعين الناس ، وكذلك من تمكن فيه حب الدنيا وجمعها ، لا يحلله إلا الزهد الكبير ، وكذلك من تمكن فيه الشح والبخل ، لا يحلله إلا العطاء والبذل ، وهكذا .

ويعلم أيضاً ترطيب العسل اليابسة كقسوة ، وغفلة ، وجمود العين ، وقبض النفس ، فيأمره بما يعالج كل داء على حدته ، فالقسوة تذهب بالذكر والنلاوة والتدبر والصيام والتضرع آخر الليل ، وقس على هذا ، والغفلة تذهب بملزمة الذكر ، ومراقبة الوقت ، وجمود العين تنفع فيه المواءمة والزواج ، وقبض النفس تنفع فيه مذاكرة ما يقوى الرجاء ويوجب الفرح ، وهكذا .

وهذا الذي قلته ليس هو عين الدواء وحده ، إنما نبهنا على الأصل المهم ، ولينص مالم يقل ، ثم كل أحوال الشيخ الماهر ، فقال :

قد أحكم التشريع والمفاصل وصار علم الطب فيه حاصل

قلت : علم التشريع هو : علم الطب ، وسمى علم التشريع لأنه ينرح بواطن الحيوانات ويعلم دواخلها وأسباب عللها وصحتها ، وفسادها ، ويعرف طبائعها وأمزجتها ، فهو يشرح ذلك شرحاً بالتجربة والاطلاع ، حتى إن أطباء المعجم يشقون على جوف الميت وينظرون علته ، التي أعضلتهم فيها لجونها بالأمور المحللة ، حتى تنحل ، يعرفوا كيفية علاجها في غيره .

وعلم المفاصل هو : ما يتعلق بعلاج الجوارح الظاهرة ، كالوجع الذي يكون في مفاصل الأيدي ، والرجلين وسائر الجوارح .

وقد قيل : إن في الإنسان ثلاثمائة وستة وستين مفصلاً ، على عدد أيام السنة ، كل مفصل قائم بحكمة الله وقدرته ، نصفها متحرك ونصفها ساكن ، فإذا سكن المتحرك أو تحرك

وعلم الطب هو : العلم بالطبيعات السبعة ، والضروريات الستة ، والأمور الخارجة عنها وهي ثلاثة ، والعلم بخواص العشب وتركيب الأغذية والمقافير .

يقول رضى الله عنه : يشترط في الشيخ أن يكون قد أحكم علم تشريح القلوب ؛ وأطلع على أسباب فسادها وصلاحيها وصحتها وسقمها ، طارفاً بعلاج أمراضها وعملها ؛ علم ذلك بصحة نافذة ومكاشفة غيبية قد عالج نفسه وطهرها ، وطهر قلبه من صدد الحس وصفا مرآته من صور الأكوان ، فإذا كان فعل ذلك ، فإن قلبه يصير كازجاجة الصافية ، فينطبع فيه بواطن المریدین ، فيعالجهم بما يتجلى فيه من أمورهم ، بإذن الله .

يقع الشفاء بمجرد المواجهة والمقابلة ، وهذا الذي شهدناه من أشياخنا ، ولذلك قال بعضهم : إن تربية الشاذلية إنما هي بالهمة والحال ، يعني أن الغالب فيها نهوض الهمة والحال أكثر من نهوض الاصطلاح والمقال ، وإلا فالجميع موجود والمحدث . هذا معنى كلامه ، والله تعالى أعلم .

ويشترط فيه أيضاً أن يكون أحكم علم المفاصل ، ويعنى به ما يتعلق بإصلاح الجوارح الظاهرة ، فيكون جامعاً بين علم الشريعة وعلم الحقيقة ، وقد تقدم أنه إنما يحتاج منها لما يلزمه في خاصة نفسه ، أو ما يتوقف السير عليه من إتيان ما كلف به الإنسان ، (راجع ما تقدم) .

ويشترط فيه أيضاً أن يكون علم الطب (أى طب القلوب) صار حالاً فيه راسخاً في معرفته ؛ فقد شفا الله على يديه خلقاً كثيراً ، وجما غفيراً .

وأما من لم يعرف بالتدري والشفاء ، ففيه غرر ، وفي صحبته خطر .

قال الإمام أبو حامد رضى الله عنه : وكما أن معيار الدواء مأخوذ من معيار العلة ، حتى إن الطبيب لا يعالج العليل ما لم يعرف أن العلة من حرارة أو برودة ، فإن كانت من حرارة فيعرف درجتها ، هل هي ضعيفة أو قوية ، فإذا عرف النفط إلى أحوال البدن ، وأحوال الزمن ، وصناعة المريض ، وسائر أحواله ، فيعالج بحسبها ، فكذلك الشيخ المتبوع الذي يطب نفوس المریدین ويعالج قلوب المسترشدين ، ينبغي ألا يهجم بالرياضة والتكاليف في فن مخصوص وطريق مخصوص ، ما لم يعرف أقهم خلا وأراضهم .

وكما أن الطبيب لو عالج جميع المرضى بعلاج واحد ، أقتل أكثرهم ، فكذلك الشيخ ،

قلت : فينبغي للشيخ أن يتفرس بصيرته في حال المريدين ، فمن رآه يصالح للتجريد لقوة يقينه أو خفة مؤوته ، جرده ومن رآه لا يصلح له تركه في الأسباب ، ومن كان أهلاً للخبرة ألبسه إماماً ، ومن كان غير أهل لها : تركه في لباسه ؟ ومن كان أهلاً للعزلة أمره بها ، ومن كان قد استأنس بها أمره بالخلطة لقوة حاله ، ومن كان ذا جاه ورياسة أمره بالخرابيه والسؤال (١) ونحوه ، ومن كان خاملاً أمره بما يليق به ، وهكذا ، والله تعالى أعلم .

ثم تم أحوال الشيخ فقال :

وكان عشاباً وصيدلاني قدحا وكحّالاً ومارستاني

قلت : العشاب هو الذي يعرف أعيان المشب ومناضها وخواصها ، وهو من شأن الاطبة ، والصيدلاني هو : الذي يعرف أنواع العطرية التي تتركب منها العقاقير : منسوب إلى صيدلة وهو : الطير ، قاله في القاموس .

والقدح وهو : إخراج الماء للفاسد من العين ، ويقال للفاعل : قداح ، والكحال هو الذي يعرف أدوية العين ويعالجها بأنواع الكحل ، والمارستاني هو الذي جمع أنواع الطب فيعالج أنواع المرض في أشخاص مختلفة ، والمارستان : دار كبيرة معدة للمرضى ، والقائم عليها يسمى المارستاني ، ولا يكون إلا ماهراً باطب ، عالماً بأنواعه ، وقد أخبرني من أتق به أن الروم عديم مارستاني كبير ، وعليه طبيب ماهر ، يداوى كل من يأتيه ، ولهذا المارستان عديم أحباس عظيمة ، يقوم بها على المرضى ، والمراد هنا هو طب القلوب .

يقول رضى الله عنه : يشترط في طبيب القلوب ما يشترط في طبيب الأبدان ، فيشترط فيه أن يكون عارفاً بتركيب أدوية القلوب وأشربتها ، وأغذية الأرواح واسقيتها ، عالماً بمنافع الأذكار وأذواقها ، ونتائج الأفكار ومعارفها ، فالأذكى كالأغذية للقلوب ، والعلوم كالأشربة لها ، والمذاكرة كالأغذية للأرواح ، والفكرة والظرة كالأشربة لها . وصحبة العارفين والجلوس بين أيديهم فيه مدد كبير للقلوب والأرواح والأسرار ، هو غذاؤهم وشرابهم ، وفيه دواؤهم وشفائهم . كل على قدر صدقه ومحبه ، وعلى قدر مقامه ومرتبته — قد علم كل أناس مشربهم — قال محي الدين بن عربي رضى الله عنه : ومن لم يكن الطبيب يميز أعيان الأعشاب والعقاقير ، عارفاً بتركيب الأدوية فإنه مهلك للمريض وإيان العلم من غير العين لا يفيد ، فلا بد من عين اليقين ، ألا ترى لو كان المشاب غرض في إهلاك المريض ،

فإذا وصف الطبيب الدواء من جهة كونه علماً به ، وهو لا يعرف شخص الدواء ، وقلد المشاب في ذلك فأعطاه المشاب ما فيه هلاك العلبل ، وهو يقول : هذا مطلوبك ليسقيه الطبيب للمريض فيهلك ، فانه لا يداوى إلا بما يعرف شخصه وعينه ، فكذلك الشيخ إذا لم يكن صاحب ذوق ، وأخذ الطريق من الكتب لا من أفواه الرجال ، وقصد يربى المريدين طالباً الرياسة ، فانه يهلك من تبهه ، لانه لا يعرف مورد الطالب ولا مصدره ، فلا بد أن يكون عند الشيخ دين الأنبياء ، وتدير الأطباء ، وسياسة الملوك ، وحينئذ يتصل له : أسناد ، وقوله ، قدحا ، حتى حذف مضاف ، أى ذا قدح أو يكون مصدراً بمعنى اسم الفاعل ، حالا ، أى قدحا ، كقوالك جاء زيد ركضاً أى راكضاً ، والمراد أن الشيخ لا بد أن يكون عارفاً بأدوية مرض البصيرة ، فإن كانت فاسدة بشك ، أو كفر ، أو نفق قدح عليها وأخرج ما فيها من فساد الإيمان (١) وأبدلها بالطمأنينة وصریح الإيقان ، وهذا الدواء يكون لأهل النور الكبير ، والعناية السكينة ، الذين يغنون بالنظرة ، وإن كانت صحيحة الناظر ؛ إلا أنها مدودة بمرض الحس والوهم ، أو مغموسة بالحرص والجزع والهلح ، وعلامة ذلك اجتهد صاحبها فيما ضمن له ، وتقصيره فيما طلب منه ، عاجلها له بكحل توحيد الأبدال ، حتى يتيقن أن الذى انفرد بالحق والتصوير ، هو الذى انفرد بالحكم والتدبير ، وأر اذى غرس الشجرة هو ساقها ، وأنائم عاينها فيذهب عنه الهم والجزع ، والخوف ، والهلح ، والحرص ، والطمع ، ويصير قلبه وثقاً بولاه ، غنياً به عما سواه وإذا فتحت البصيرة وظهر لها شمع النور حتى أبصرت قرب الحق منها إلا أنها لضعفها لا تستطيع مقاومة شهود النور ، كحلها بكحل توحيد الصفات ، فإذا فتحت عينها وقويت على شهود النور المحيط بها ، لسكنها لم يقو نورها حتى تهمل بالنور المحيط بها ، كحلها بكحل توحيد الذات ، فبصل نورها بنور الجبروت ، فلا تشهد إلا النور ، لحينئذ يكمل شفاؤها وينجح درأؤها ، وهذا شرح قول ابن عطاء الله ، شمع البصيرة يشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحق البصيرة يشهدك وجوده ؛ لعدمك ولا وجودك ، كراثة ولا شيء منه ، وهو الآن على ما عليه كان ، (٢) .

وقوله : وما سنأق : أراد أن الشيخ لا بد أن يكون جامعاً لعلوم المامالة ، عارفاً بأدوية

(١) أى يخرج ما يفده .

(٢) هذا لفظ حديث شريف صحيح .

الأمراض على اختلاف أنواعها وأصنافها قد قدمه أهل وقته ، وشهد له بذلك أهل فنه .
وهذا قد لا يشترط لتلبة الخفاء على أهل هذا الفن ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر ما بقي من أحوال الشيخ فقال :

أمر في الأعراض والأخلاق من أسقلا جالينوس أو بقراط

قلت : الأمر في الشيء هو : التوسع في علمه ، والماهر هو : الواسع العلم ، وفي الحديث
« الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة (١) » ، أي الواسع في حفظه أو علمه ، والأعراض
جمع عرض ، وهو ما يعرض للبدن من : أسقام ، وأوجاع ، وحرارة ، وبرودة ، وما يبدل
على وجود المرض ، هذا في علم الطب ، وهو عند المتكلمين أهم من هذا ، والأخلاق
ما اجتمع في المعدة من العمل المتضادة الناشئة عن اختلاط الأغذية المختلفة ، وأسقلا جالينوس ،
(ينتج الحمزة وسكون السين وفتح القاف ولام مفتوحة بمدودة وجيم مفتوحة بمدودة ولام
مفتوحة وياء ساكنة ثم نون مضمومة بمدودة ثم نين ساكنة) اسم حكيم من اليونان ، وكذلك
بقراط (بضم الباء وسكون القاف) فيلسوف حكيم ، وكانا ماهرين بعلم الطب ، و « أمر »
اسم تفضيل مطوف على خبر كان منصوباً ، وأر بمعنى الواو .

يقول رضي الله عنه : يكون هذا الشيخ أمر في علم القلوب من هذين الطبيبين الحكيمين
وأراد بالأعراض كل ما يعرض للريد في حال سلوكه من القواطم والشواغل ، كبله
للرياسة والجاه ، وتقدمه للراتب قبل كفافه ، وكميله للدنيا واشتغاله بالأسباب قبل ترشيدته ،
وكال بقائه ، وغير ذلك مما يقطع عن الخير .

وأراد بالأخلاق : الخواطر الرديئة والمقاصد الدنيئة ، فيكون الشيخ عارفاً بالخواطر
النفسانية والشيطانية ، والملكية ، والربانية ، ويكون أيضاً عارفاً بالمقاصد الدنية والدنية
والهمم العالية والسفلية ، فيعالجه من الأخلاق بجمع قلبه على الله ، والغيبة عما سواه ،
وبالفناء التام وتفرغ القلب على الدوام ، ويعالجه من المقاصد الدنية كحب الحظوظ وطلب
الحروف ، بالدلالة على تحقيق المبرودية ، والقيام بوظائف الربوبية الذي هو مطلب العارفين ،
والله تعالى أعلم .

(١) ولفظه كاملاً : « الماهر بالقرآن مع السفرة الكرام البررة » ، والذي يقرؤه ويتتبعه

وإذا تكاملت في الشيخ هذه الخصال : صح أن يقصده الرجال لشفاء ما فيهم من العلل ،
كما أبان ذلك بقوله :

فمعد ما صح له التحصيل بممه السقيم والعليل
فكان يبريهم من الأمراض والساخط القلب يعود راض

قلت : يريد فمعد ما صح له تحصيل هذه الخصال على التمام والكمال ، قصده السقيم ،
وهو الذي خف مرضه ، والعليل وهو الذي : تاهت علته ، وقيل هما سواء ، فيكون من
صنف التفسير ، فكان يبريهم من أمراض القلوب ، وأعظمها هم الرزق وخوف الخلق ، ثم
التدبير والاختيار ، ثم النضب والقنط عند نزول الأقدار ، فيعالجه بجمته ونور بصيره ،
وبلاحظته بنظرته حتى يمتلئ قلبه بنور اليقين ، فيستقي باقه عن كل ما سواه ، وتشرق عليه
أنوار التوحيد ، فيستريح من كد التدبير والاختيار ، فيبتذل بذوق حلاوة الإيمان ،
فيرضى عن الله في كل حال وأران .

وقد قال عليه الصلاة والسلام : ذاق طعم الإيمان من رضى باقه رباً ، وبالإسلام ديناً
وبمحمد رسولاً (١) .

قاز في التنوير : فمن رضى باقه رباً استسلم له ، ومن رضى بمحمد ﷺ رسولاً اتبعه ،
ومن رضى بالإسلام ديناً عمل به .

قلت : ولا شك أن القلب إذا كان عليل لا يذوق حلاوة الإيمان ، ولا يجد الطاعة
ولا للناجاة لذة ، فممه السقيم لا يجد للطعام ولا للشراب لذة ، فإذا صح القلب ذاق حلاوة
الإيمان ، ومن أركانه الإيمان بالتقدير : خيره وشره ، حلوه ومره ، فيستحلي ما يبرز من
عصر القدرة كيفما كان ، إذ كل ذلك من عند الحبيب ، وقه در القاتل حيث قال :

إذا كانت الأقدار من مالك الملك فبيان عندي ما يسر وما يبكي
رضيت بما يقضى الإله فأمره يقابل بالإقبال عند ذوى النك
ولن صلي الإنسان نار مشقة فا النعب الإبريد إلا آخر المسك

(١) رواه الإمام مسلم ، وأحمد ، والترمذي عن العباس بن عبد المطلب .

آخر الصبر لا يحصى أموراً وإنما ينأ في الحالين من غير ما شك

قوله: «والساخط القلب يعود راض، هذا علامة الشفاء، فما دام للعبد ينقبض عند الجلال والشدة، وينبسط عند الجلال والرخاء ففيه بقية من مرض القلب، فإذا استوت عنده الأحوال، فذلك علامة للصحة على الكمال، ويتصل بمقامات الرجال.

سئل ذو النون المصري رضى الله عنه عن وصف الأبدال، فقال: «سألت عن دياجي الظلام، لا كشف لك عنها، هم قوم ذكروا الله بقلوبهم تعظيماً لربهم، لمعرفتهم بجلاله، فهم حجج الله تعالى على خلقه، ألبسهم الله تعالى الزور الساطع من محبته، ورفع لهم أعلام الهداية إلى مواضعه، وأقامهم مقام الأبطال بإرادته. وأفرغ عليهم من مخافته، وطهر أبدانهم بمراقبته، وطيبهم بطيب أهل معاملته، وكساهم حللاً من شبح مودته، ووضع على رؤوسهم تيجان مبرته، ثم أودع القلوب من ذخائر الغيوب، فهي متعلقة بمواضعه، فهمم إليه ثائرة، وأعينهم إليه بالغيب ناظرة، قد أقامهم على باب النظر من رؤيته، وأجلسهم على كرسي أطباء أهل معرفته، ثم قال لهم: إن أتاكم عليل من فدى فداوه، أو مريض من فراق فعالجوه، أو خائف منى فأنصروه، أو آه منى فحذروه، أو راغب في مواصلة فنوه، أو راحل نحوى فزودوه، أو جبان في مناجرتي، فشجموه أو آيس من فضلي فرجوه، أو راج لإحساني فبشروه، أو حسن الظن بي فباسطوه، أو عيب لي فواصلوه، أو معظّم لقدرى فعظموه، أو مسيء بإحساني فعاتبوه، أو مسترشد فأرشدوه.» انتهى كلامه رضى الله عنه.

ثم نبه على المقصود بهذا العلم، فقال:

وليس هذا طبه جالينوس وإنما يختص بالنفوس

قلت: نبه رحمه الله على أن هذا الطب الذى ذكر ليس هو طب الأبدان الذى كان يعرفه جالينوس الحكيم، وإنما هو طب النفوس لتصلح لحضرة القدوس، وطب القلوب لنصح من الأمراض والعيوب، وتنبهاً لدخول حضرة علام الغيوب، فتخرط في سلك — من آى الله بقلب سليم — ويكون — في مقعد صدق عند مليك مقتدر — في جوار الكريم، هنا الله بالسكنى في حضرة في الدنيا والآخرة

ثم ذكر قلة هذا الطب في زمانه، فقال:

فهكذا الشيوخ قدماً كانوا يا حشرنى إذ سلفوا وبانوا

قلت : الإشارة تعود على ما ذكر فى الفصل فى أحكام الشيوخ ، من معرفتهم بالطرق ومالكها : سهلها ووعرها ، ومعرفتهم بطب القلوب وأنواع الأدوية والعقاقير ، وعلمهم بعلل النفوس وأمراضها ، ثم تأسف وتحسر على ذهابهم ، أى فراقهم دار الدنيا ، وسكناتهم دار البقاء ، ولكن لا تخلو الأرض من قائم لله بحجته ، كما قال سيدنا على كرم الله وجهه .

وقد وردت أخبار فى مدح مقام الشيوخ والتنويه بقدرهم عند الله .

قال فى العوارف : ورد فى الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال :

« والذى نفس محمد بيده لئن شئت لأقسم لكم : إن أحب عباد الله إلى الله الذين يحبون الله إلى عباده ، ويحبون عباد الله إلى الله ، ويمشون فى الأرض بالنصيحة (١) . »

وهذا الذى ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم هو رتبة المشيخة والسعوى إلى الله ، لأن الشيخ يحب الله إلى عباده حقيقة ، ويجب عباد الله إلى الله ، ورتبة المشيخة والسعوى من أعلى الرتب فى طريق الصوفية ونيابة النبوة فى السماء إلى الله .

فأما وجه كون للشيخ يجب عباد الله إلى الله لأن الشيخ يسلك بالمريد طريق الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ومن صح اقتداؤه واتباعه أحبه الله ، قال الله تعالى - قل لئن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحبكم الله (٢) .

ووجه كونه يجب الله تعالى إلى عباده ، لأنه يسلك بالمريد طريق التزكية ، وإذا تزكت النفس : انجلت مرآة القلب ، وانعكس فيها نور العظمة الإلهية ، ولاح فيها جمال التوحيد ، وذلك ميراث التزكية ، قال الله تعالى - قد أفلح من زكاه (٣) - وفلاحها بالظفر

(١) ورد فى الحديث : « إن أحب عباد الله إلى الله أنصحهم لعباده » رواه عبد الله بن أحمد فى زوائد الزهد عن الحسن مرسلاً . وقال عليه الصلاة والسلام : « حببوا الله إلى عباده يحبكم الله » رواه الطبرانى والضياء المقدسى .

(٢) سورة آل عمران : الآية : ٣١

(٣) سورة الشمس : الآية : ٩

بمعرفة الله ، وأيضاً مرآة للقلب إذا انهمكت لاحت فيها الدنيا بقبحها وحقيقتها وماهيتها ، ولاحت الآخرة بنفاسها بكنهها وغايتها ، فيكشف البصيرة حقيقة الدارين ، وحاصل المنزلة ، فيحب العبد الباقي وزهد في الفاني ، فتظهر فائدة التزكية وجدوى المشيخة والتربية ، قال الشيخ من جنود الله تعالى ، يرشد به المريدين ، ويهدي به الطالبين .

ثم قال : فعلى المشايخ وقار الله ، وبهم يتأدب المرید ظاهراً وباطناً ، قال الله تعالى — أولئك الذين هدى الله فبهداهم اقتده^(١) — فالشايخ لما اهتدوا أهلوا للاقتداء بهم ، وجعلوا أئمة المتقين .

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاكياً عن ربه عز وجل : إذا كان الغالب على عبدى الاشتغال بى ، جعلت همته ولذته فى ذكرى ، فإذا جعلت همته ولذته فى ذكرى ، عشقنى وعشيقته ، ورفعت الحجاب فيما بينى وبينه ، لا يسهو إذا سهى الناس ، أولئك كلامهم كلام الأنبياء ، أولئك الأبطال حقاً ، أولئك الذين إذا أردت بأهل الأرض عقوبة أو عذاباً ذكرتهم فصرفته بهم عنهم ، . انتهى .

ثم أشار إلى الحكم الثانى من أحكام التصوف فقال : (الحكم الثانى فى حكم الاجتماع) .

أعلم أن الاجتماع عند القوم هو أعظم الأركان وأهمها ، حتى قال بعضهم : التصوف مبنى على ثلاثة أركان : الاجتماع ، والاستماع ، والاتباع ، فكل من انفرد عن الإخوان واشتغل بنفسه لا يجىء منه شيء ، والمؤمنون كالشياه ، فإذا انفردت شاة عن الغنم ، كانت من سهم الذئب ، وقد رغب الله فى الاجتماع ، قال تعالى — وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان — وقال صلى الله عليه وسلم : يد الله مع الجماعة^(٢) ، .

وعن معاوية رضى الله عنه قال : خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم على حلقة من أصحابه فقال : ما أجلكم ؟ قالوا : جلسنا نذكر الله ونحمده على ما هدانا للإسلام ومن به علينا ، قال : والله ما أجلكم إلا ذلك ؟ قالوا : والله ما أجلسنا إلا ذلك ، قال : أما إني لم

(١) سورة الأنعام : الآية : ٩٠

(٢) رواه الترمذى عن عبد الله بن عباس .

استخلفكم تهمة لكم ، ولكنه جاءني جبريل فأخبرني أن الله يباهي بكم الملائكة .

وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ما من قوم اجتمعوا يذكرون الله عز وجل ، لا يريدون بذلك إلا وجهه ، إلا ناداهم مناد من السماء : أن قوموا مغفوراً لكم ، قد بدلت سيئاتكم حسنات .

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : يا أيها الناس : إن لله سرا يامن الملائكة تجول ويخف على مجالس الذكر في الأرض ، فارتعوا في رياض الجنة ، قالوا : وأن رياض الجنة؟ قال : مجالس الذكر ، فاغدوا وروحوا في ذكر الله ، وذكروا أنفسكم : من كان يريد أن يعلم منزلة عند الله فليظر كيف منزلة الله عنده ، فإن الله ينزل العبد منه حيث أنزله من نفسه ، (١).

وقوله عليه الصلاة والسلام : وذكروا أنفسكم ، أي ليذكر بعضكم بعضاً ، فالذاكرة هي أعظم الذكر ، لأن فيها علماً وذكر الله ، ومجالس الذكر تصدق بمجالس العلم ، والذكر والمذاكرة ، وما زال الأشياخ رضى الله عنهم يوصون أصحابهم بالاجتماع ، ويحضون عليه.

وكان شيخنا رضى الله عنه يقول : إذا رأيتم أحداً انقطع عنكم فتداركوه قبل أن يموت ، وموته برودته ورجوعه عن الطريق .

وكان للشاذلى رضى الله عنه تلميذ يحضر مجلسه ، ثم انقطع عنه ، فلقبه ذات يوم ، فقال : مالك انقطعت عنا ؟ فقال له : قد استغنيت بك عنك ، فقال له رضى الله عنه : لو استغنى أحد بأحد ، لاستغنى الصديق عن مجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يفارقه حتى مات ، فانقطع الفقير عن الاجتماع ، أو عن الشيخ من أعظم للقواطع ، والله تعالى أعلم .

وذكر الشيخ في هذا الفصل سبب الاجتماع ، وادابه ، ووقته ، وأهله ، وثمرته ، فأشار إلى الأول بقوله :

فكان إذ ذاك اجتماع القوم له بعلم عمل عن علم

قلت : لما كان الاجتماع على الشيخ مرتباً على معرفته والتحقق به ، استفتح الفصل بفاء

(١) ورواه قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن لله عز وجل ملائكة سياحين في الأرض فضلا عن كتاب الناس ، إلى آخر الحديث ، وهو طويل رواه الترمذى ، والبخارى ومسلم ، والإمام أحمد .

السيية ، والإشارة تعود على شروط الشيخ المتقدمة ، أى فكان حين حصل ذلك الأمر المتقدم فى الشيخ ، وتحقق العلم به ، بعلامة شواهد اجتماع القوم له ، وحضورهم بجلسه لتعلم علم العمل ، أى لتعلم إتقان العمل بالعلم الذى كان عندهم واستفادوه منه .

والحاصل : أن فائدة الشيخ هى تحقيق الإخلاص ، وإتقان العمل ، إذ العلم عند الناس كثير ، والعمل به قليل ، وعلى تقدير وجود العمل : لا يخلو من طلب الحفظ وقصد الحروف ، وذلك مناف للإخلاص ، والأعمال صور قائمة ، وروحها وجود سر الإخلاص فيها ، وأيضاً الإنسان لا يخلو من رعونات نفسه ، فتوقعه فى إفراط أو تفريط ، أو تخرج به لخلاف المقصود ، فإذا رجع فرأى من هو أعلم منه وأنصح له ، لم يبق فيه بقية تفرقه عن الوصول إلى الحق .

وقوله « عن علم ، راجع للاجتماع ، أى فكان اجتماعهم عليه بسبب إتقان العمل بالعلم الذى حصلوه على علم ويقين منهم أنه على بينة من ربه ، وأنه أهل للتربية ، بحيث شهدت له أرواحهم بالتقديم ، وسرم بالعظيم ، ولم يكن اجتماعهم عليه على جهل به وتقليد وشك وترديد .

ثم الالىق بالشيخ إذا اختلط الفقراء : « أهل بدايات ونهايات ، أن يفرقهم فى المذاكرة على ما قاله الناظم وأشار إليه بقوله :

ولم يكن ذلك عن رويته بل يحضر القوم على السوية

قلت الروية والتروى هى : المشاورة فى الأمر والاتفاق عليه ، يعنى أن القوم لم يكن اجتماعهم عن اتفاق وروية على أن يحضروا فى مجلس واحد ووقت واحد ، ويكون أهل البدايات وأهل النهايات على السوية فى مجلس واحد ، كما يفعل أهل التدريس للعالم الظاهر ، بل كانت الشيوخ تذكر كل فرقة على حدها ، وتخطب كل واحد على قدر فهمه ، فينبغى للشيخ أن يكون له مجلسان : مجلس يخص به أهل النهايات ، ومجلس يعم به أهل البدايات والنهايات ، وينبغى له أيضاً ألا يلتزم مجلساً واحداً لا يتعداه ، بل مهما اتفق اجتماعهم ذكرهم فى أى وقت كان ، ومهما قدم عليه قوم ذكرهم ، فقد يكون منهم من يجب الاستعجال فى سفره ، ومنهم من يريد المقام ، ولا ينبغى للشيخ أن يحتجب عن الفقراء حتى يضرروا بانتظاره ، فقد كان عليه الصلاة والسلام لا يحتجب عن أصحابه ، ولم يكن له

وما ذكره الناظم من تخريق المذاكرة إنما يتأتى مع قلة الفقراء ، وأما مع كثرتهم فيجعل لهم مجلساً واحداً ، ويذكر فيه في البدايات ، والوسط والنهايات ، وكل واحد يشرب من منهل - قد علم كل أناس مشربهم - هذا ما أدركنا أسياننا عليه حين كثرة الاتباع .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : ويجعل مجلساً يتضرع فيه إلى الله في إصلاح شأنه وشأن من تعلق به ، ليكون ناصحاً لهم في الباطن كما لصح لهم في الظاهر .

ولما ذكر سبب الاجتماع وآدابه أشار إلى وقته ، فقال :

ولم يكن أيضاً لدى العشاء إذ فيه نهي وهو للإغفاء

قلت الإغفاء هو : النوم ، يعنى أن اجتماع القوم لم يكن عند وقت العشاء ، لأن ذلك الوقت جعله الله للنوم والراحة ، قال تعالى - وهو الذى جعل لكم الليل لتسكنوا (١) فيه - وقال تعالى - وهو الذى جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وجعل النهار لشوراً (٢) - وذلك ليقوم للصلاة ناشطاً ، ولا سيما عند قصر الليل .

وقد نهى سيدنا عمر رضى الله عنه عن النوم قبلها والحديث بعدها ، يعنى العشاء ، وكذلك أيضاً لا ينبغي أن يكون عند أوقات الصلاة ، لأن ذلك يؤدى إلى خروج وقتها ، ولا ينبغي تطويل المجلس ، فقد قال الزهرى : إذا طال المجلس كان فيه حظ للشيطان .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وحق المريد أن يدخل على الشيخ بالحمة ، ويقعد عنده بالحمة ، ويخرج من عنده بالخدمة والعزيمة ، ثم أشار إلى حكمة الاجتماع ، فقال :

وافتمروا فيه للاتلاف ليعلم المستوفى حال الوافى

قلت : الاتلاف هو : الاجتماع ، ونألف القوم اجتمعوا ، قاله في القاموس .

يقول رضى الله عنه : وافتمروا أيضاً للاجتماع لأمر ، منها : معرفة حال الإنسان في العلم ، والحال ، والمقام ، فإن النفس قد تغلط في نفسها ، فتظن أنها أدركت مقام الأكابر ،

(١) سورة يونس صلى الله عليه وسلم ، الآية : ٦٧

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٤٧

وهي مقيمة مع الأصاغر ، فإذا اجتمع مع من هو أنهض منه حالا وأكثر منه علما ؛ علم حاله وعرف مقامه ، فيجد في سيره ، ويتحقق بقدره .

وفي بعض الأخبار : « عاش من عرف قدره ، وكذلك الفقير الكامل إذا رأى من هو دونه في الحال أو المقام حمد الله وشكره وطلب الزيادة من مولاه ، وهذا معنى قوله « ليعلم المخوف حال الوافي ، المستوفى الذي هو : الناقص ؛ تمنحه رؤية الكامل الذي هو الوافي في العلم والحال ، لاستشعاره نقصه وقصوره عن رتبة صاحبه الوافي ؛ فينهض في العمل ؛ وينافسه في الحال قال تعالى — وفي ذلك فليتنافس المتنافسون^(١) والوافي يعرف قدره الله عليه فيما أدركه فيشكره ، فيزيده الله تعالى على ما أعطاه ، ويتشوف إلى مقام أعلى فيوصله الله إليه ، إذ السهر لا نهاية له .

قال الشيخ أبو هادي رضي الله عنه لأصحابه يوما : هم يرتفع المرید إلى رتبة هي أعلى من رتبته؟ فقالوا : بفضل الله ورحمته ، فقال : إنما سألتكم عن السبب الخاص بهذا الأمر ، فقالوا : من عند الشيخ ، قال : يخلق الله له همة هي أعلى من همة ، فيرتفع بها إلى رتبة أعلى . ومنها ، أي ومن الأمور الداعية للاجتماع : حصول للنشاط والقوة ، فإن دوام الوحدة تبرد صاحبها ، وتقوى عليه الحس والكسل إن كان في محل البدايات .

وقد تحصل له فترة أو وقفة ، فإذا اجتمع مع الإخوان قوى حاله وزال كسله ، ولذلك قال تعالى — وتعاونوا على البر والتقوى^(٢) .

ورغب عليه الصلاة والسلام في حضور مجالس الذكر كما تقدم .

قال بعض المتقدمين : كنا إذا قرنا نظرنا إلى محمد بن واسع ، فعملنا عليه أسبوعا أه أي بقي نشاطنا فعمل عليه أسبوعا ، فشاهدة الأخيار ترفع الهمة وتقوى العزيمة ، والمؤمن مرآة أخيه ؛ فإني المحاذي ينطبع في المحاذي ، وقد قال أنس رضي الله عنه : « ما نقصنا أيدينا من التراب من دفعه عليه الصلاة والسلام حتى قددنا قلوبنا .

ومنها استفادة العلم والمعرفة ؛ وأما العلم فن المذاكرة ، وأما المعرفة فن المشاهدة .

قال بعض الحكماء : « فهم سطرين ، أفضل من حفظ وقرين ، فضل ومذاكرة اثنين - أفضل من هاتين ، أى أفضل من فهم سطرين وحفظ وقرين ، والنظر إلى العلماء وبجالة الحكماء عبادة كبرى ، وباقه التوفيق .

ثم استدل على فضل الاجتماع بالحديث ، ورواه بالمعنى ، فقال :

لا خير فيمن لم يكن الوفا ولم يكن الخير مألوفاً

قلت لفظ الحديث : « المؤمن يألف مألوف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف (١) .

وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام : « إن من خياركم أحسنكم أخلاقاً الموطئين أكافاً الذين يألفون ويؤلفون » .

فقوله عليه الصلاة والسلام « الموطئين أكافاً » معناه المأمون جانبهم بحيث لا يخاف منهم خيانة ولا جناية الذين يألفون الناس ويألفهم الناس ، وهو معنى قول الناظم « لا خير فيمن لم يكن الوفا ، بخيره ولم يكن مألوفاً لخيره » أى يألفه غيره .

وفي رواية أخرى : « ألا أنبئكم بأحبكم إلى وأقربكم منى يجالس يوم القيمة : أحاسنكم أخلاقاً الموطئون أكافاً ، الذين يألفون ويؤلفون » (٢) .

قلت وينبئ بالتفصيل في أحوال الناس : أما العارفون الراستخون ؛ فلا يليق بهم إلا التألف بالناس والتصبر لهم ، لأنهم يأخذون نصيبهم من كل شيء ، وقد وجههم الله تعالى لنفع عباده ، فينبئ لهم أن يألفوا الناس ويألفهم الناس ؛ وكذلك الصالحون المتوجهون لإصلاح الناس بالبرك والدعاء ؛ والعلماء المتوجهون لتعليم العباد ، فلا بد من صبرهم على جفوة المتعلمين والسائلين ، ومن تعلق بهم من المسلمين .

وأما المريدون السائرون ، فلا ينبئ لهم أن يألفوا الناس كلهم ، فإن ذلك يقطعهم عن

(١) وفي لفظ آخر : « المؤمن يألف ويؤلف ، ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف ، وخير الناس أنصهم للناس » رواه الدارقطني في الأفراد .

(٢) رواه الطبراني في الأصغر والأوسط عن أبي هريرة والطبراني في مكارم الأخلاق . بلفظ « إن أقربكم منى مجلساً . . . » عن جابر .

وهم ، وكل فقير مال للرياسة والسياسة ، وتوجه للناس قبل كاله ، فلا يحى منه شيء ، وإنما يألف الفقير من ينمضه حاله ، ويدل على الله مقاله .

وفي الحديث : قالوا : « من يجالس يارسول الله ؟ » قال : من ذكركم بالله رؤيته ، وزاد في علمكم منطقته ، ورغبكم في الآخرة عمله . .

وقال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه ، أوصاني حبيبي ، فقال : لا تتقبل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالباً من معصية الله ، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله ، ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقيناً ، وقليل ما هم ، وبالله التوفيق ، وإلى هذا المعنى أشار بقوله :

ومن يكن يصحب غير جنسه لجاهل والله قدر نفسه

قلت : وإنما كان من يصحب غير جنسه جاهلاً بقدر نفسه ، لأن النفس ؛ وهى الروح : ياقرتة رفيعة ، جعلها الله فى صدف بشريتك ، فإذا صحبت بها من هو أحسن فقد صدتها ورفعتها واعتنيت بشأنها ، لأن حجة الأبرار تصيرك من الأخيار ، وإذا صحبت بها من هو أسوأ منك وأخسر منك فقد بختها وحططت قدرها ورميت بها فى المزايل ، لأن الطباع تسرق للطباع ، والمرء على دين خليله ، وصاحب المرء رقعة من ثوبه ، فلا يصح أن يكون من غير نوعه ، ويرحم الله للقاتل حيث قال :

عليك بأرباب الصدور فن غدا مضافاً لأرباب الصدور تصدرا
ولماك أن ترضى بصحبة ساقط فتخط قدراً من علاك وتحقرا

• • •

وقال غيره :

لا تصحب أخا الجهل فأياك وإياه فكمن جاهل أردى حليماً حين واقاه
قياس النعل بالنعل إذا ما هو حاذاه يقاس المرء بالمرء إذا ما هو ماشاه
وللشئ من الشئ مقاييس وأشباه وللقب على القلب دليل حين يلقاه

وقال سهل بن عبد الله : أحذر صحبة ثلاثة من أصناف الناس : الجبارة الغافلين ، والقرء المداهنين ، والمتصوفة الجاهلين .

وقال يوسف بن الحسين الرازي رحمه الله : قلت لابي التون المصري رضى الله عنه : من أحب ؟ فقال : من لا تكتمه شيئاً يعلمه منك .

وقال حمدون القصار رضى الله عنه : اصحب الصوفية ، فإن للقيح عندهم وجوها من الماذر ، وليس للحسن عندهم كبيرهم ، إشارة إلى أن العجب بالعمل عندهم متف في صحتهم .

وقال الجنيد رضى الله عنه : إذا أراد الله بالمريد خيراً أوقعه إلى الصوفية ومنعه صحبة القراء .

وقال سيدنا علي رضى الله عنه : شر الأصدقاء من أحوجك إلى المداراة ، والجاك إلى الاعتذار .

وقال أيضاً : شر الأصدقاء من تكلف له ، وأنشدوا :

أحب من الإخوان كل موات	وفي غضيض الطرف عن عثراتي
يوافقني في كل أمر أحب	ويحفظني حيا وبعد وفاتي
فمن لي بهذا : ليتني قد وجدته	فقاسمته مالي من المحنات

وأوحى الله إلى موسى عليه السلام : يا ابن عمران كن يقظانا ، وارتد نفسك لإخوانه وكل أخ لا يوافقك على مسرتك فهو لك عدو يقبض قلبك ويباعدك مني .

قال الشيخ أبو عبدالله بن عباد رضى الله عنه : والحاصل من هذا أن صحبة الصوفية هي التي يحصل بها كمال الانتفاع للصاحب دون من عداهم من المنسوبين للدين والعلم ، لأنهم خصوا من حقائق التوحيد والمعرفة بخصائص لم يساهم فيها أحد ، وسريان ذلك إلى الصاحب من المصحوب هو غاية الأمل والمطلوب ، فقد قيل : من تحقق بحالة لم يخل حاضرته منها ، فمن جلس على دكان العطار لم يفقد الرائحة الطيبة ، هذا في الحضور والمجالسة ، فإياك بالصحة والمؤانسة ، ثم قال : وبصحبة هؤلاء يحصل للبريد من المزيد ما لا يحصل لهم بغيرها من فنون المجامعات وأنواع المكابدات ، حتى يبلغوا بذلك إلى أمر لا يسهو عقل عاقل ، ولا يحيط به علم ناقل .

ولذا قال سيدي أبو العباس المرسى رضى الله عنه : ماذا أصنع بالكيميا ، والله لقد

صحت أقواما يبرأهم من الشجرة اليابسة فثمر وما لا الوقت ، فمن صحب هؤلاء الرجال ما يصنع بالكبياء .

وقال أيضاً رضى الله عنه : والله ما سار الأولياء من قاف إلى قاف إلا حتى يلتقوا واحداً مثلنا ، فإذا لقوه كان بنيتهم .

وقال أيضاً : الولي إذا أراد أغنى .

وقال أيضاً رضى الله عنه : والله ما بينى وبين الرجل إلا أن أنظر إليه نظرة وقد أغنيته .

وقال فيه شيخه سيدى أبو الحسن رضى الله عنه : أبو العباس هو الرجل الكامل ، والله إنه ليأتيه البدوى يبول على ساقه ، فلا يمسي عليه المساء إلا وقد وصله إلى الله ، ثم أشار للحديث ورد في الجليس فقال :

أفضل للمرء جلوس وحده ولا يكن جليس سوء عنده

قلت : أشار إلى قوله عليه الصلاة والسلام : « الجليس الصالح خير من الوحدة ، والوحدة خير من الجليس السوء » ، والجليس الصالح مثل الطائر : إن لم تنل من طيه أصبت من ربحه ، والجليس السوء مثل الحداد إن لم تصب من شره أصابك من نكته ^(١) ، وفي معنى ذلك قيل :

إذا كنت في قوم فصاحب خيارهم ولا تصحب الأردى فتزدى مع الردى
عن المرء لا تسل وسل عن قرينه فكل قرين بالمقارن يقتدى

وقال شيخ شيو خنا سيدى على رضى الله عنه : الجلوس مع العارفين أفضل من العزلة ، والعزلة أفضل من الجلوس مع العوام ، ولا شيء أضر على المرید من الجلوس مع المتفجرة الجاهلين .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : الجليس السوء هو الذى جمع ثلاث خصال :

(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : مثل الجليس الصالح والجليس السوء كباتع المسك ونافخ الكير ، إلى آخر الحديث ، رواه البخارى عن أبى موسى .

الأول : الرضى عن نفسه ، بحيث يرى له حقاً على الناس ، ويرى الناس كلهم دوله ، وهذه صفة الجبابة الغافلين :

الثانية : الاسترسال في الغيبة ، وتزكية النفس وتمعظيم ذنب للغير ، واحتقار ذنب نفسه ، فلا يقبل عثرة ، ولا يغفر زلة ، وهذه صفة القراء المداهنين .

الثالثة : وجود الدعاوى ، والطمع ، وحب الرياسة ، والبدع ، وهذه صفة المتصوفة الجاهلين . وقيل : الإخوان ثلاثة .

أخ لآخرتك ، فلا تراخ فيه إلا الإيمان .

وأخ لدينك ، فلا تراخ فيه إلا حمن المخلق .

وأخ للناس ، فلا تراخ فيه إلا السلامة من شره .

وهو كلام جامع مفيد . انتهى ، وبالله التوفيق .

ثم أشار إلى الاجماع وتبجته فقال :

قد يرتجى الشفاء السقيم مهما يكن ملازم الحكيم

قلت : لا أعظم شفاء لأمراض القلوب وحلها من صحة العارفين ، والدخول تحت جناح تربيتهم ، وملازمة حسانتهم بالصدق والمحبة ، والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح ، وكان شيخنا رضى الله عنه يقول : من لم يصحب الفحول يبق في الوهم موحول ، وإنما اشترطت الملازمة ودوام الصحبة ، لأن بذلك يعرف صدقه في طلب دوائه ويظهر حاله في وجه الشفا من دائه لمعرفة وجه العلة وسببها الذي لا يعرف غالباً إلا بالملازمة ، وأيضاً بذلك يقع الحلف عليه ، فينهض بهمة ودعائه .

وفي ذلك يقول للشيخ أبو مدين رضى الله عنه :

وراقب الشيخ في أحواله فسى يرى عليك من استحصانه أثراً

ففى رضاه رضى البارى وطاعته يرضى عليك ، فكن من تركها حذراً

هكذا فى بعض النسخ ، وفى بعضها ترك هذا البيت ، والمراد بالحكيم فى كلام الناظم : شيخ التريية ، لأنه طبيب حكيم كما تقدم ، ثم رد على من أنكر على الفقراء الاجتماع فقال :

ومن ينزع فاطرح نزاهة فالدين مبنى على الجاهة

قلت : يريد من فازع الفقراء وأنكر عليهم اجتماعهم فلا تسمع لقوله ، بل انبذه وراء ظهرك ، قاله بن مبنى على الجماعة ، قال صلى الله عليه وسلم .

• الجماعة رحمة والفرقة عذاب (١) .

وقال عليه السلام :

• يد الله مع الجماعة (٢) ، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم :

• من فارق الجماعة قيد شبر مات ميتة (٣) جاهلية .

إلى غير ذلك من الأحاديث المرغبة في الاجتماع ، وقد تقدمت في أول الفصل نبذة صالحة منها

وقد حرر ابن عريضون في « مقنعه » الخلاف في المسئلة ، ووجه القول بالاستحباب ، واستدل بأحاديث ووقائع ، فطالعه إن شئت ، وهذا أمر قد تواتر عند للصوفية ، فلا يحتاج إلى دليل ، وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق .

ثم أشار إلى الحكم الثالث ، وهو اللباس ، فقال :

الحكم الثالث في حكم اللباس .

أى ما يختاره القوم من اللباس ، وما يتركونه ، ولا يكون ذلك قدحا في طريقهم ، أصلاً ولا فعلاً .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « كل مبتذل لا يبالى ما لبس (٤) » ، وهو كلام تام ، أى كل من يحب الخمول لا يبالى ما لبس .

(١) رواه عبد الله بن أحمد بن حنبل في زوائد المسند ، والتعضاعى عن النعمان بن بشير .

(٢) رواه الترمذى بلفظ « يد الله على الجماعة » عن ابن عباس .

(٣) وفي لفظ آخر : « من فارق الجماعة شبراً فمعد خلع ربة الإسلام من عنقه » رواه أحمد ، وأبو داود ، والحاكم عن أبي ذر .

(٤) لفظ الحديث كما ورد في الإحياء : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله تعالى يحب المتبذل : الذى لا يبالى ما لبس » . رواه البيهقى .

وكان عمر رضى الله عنه يقطع من كيه ما جلوز الاصابع .

وقال بعض المشايخ : الفقير الصادق ، أى شىء لبس يحسن عليه ، ويكون عليه فيه الملاحاة والمهابة ، والثوب الخلق (أى البالى) أحب إليهم من الجديد ، لانه أكثر بركة ، ويحتدون في النظافة والظرافة .

قال صلى الله عليه وسلم : « النظافة من الإيمان » ، ورأى على بعض الوفود ثوبا وسخا ، فقال صلى الله عليه وسلم : « أما كان يجد هذا ماء يغسل به ثوبه » ، وقال : « هب أن الفقر من الله » ، فابال الوسخ ، وقال : « إن الله يبخس الوسخ » ، ويكرهون لبس الشهرة من الثياب ، ويتبركون بثياب المشايخ ، وقد كانت الصحابة يتبركون بثيابهم صلى الله عليه وسلم ، وبشعره وريقه ، وعرقه ، وفضل وضوئه ، ففيه جواز التبرك بآثار الصالحين .

ثم ذكر الشيخ بعض أحكام اللباس ، فقال :

وقد أباحوا سائر الاثواب وتركها أقرب للصواب

قلت : إنما أباحوا سائر الاثواب لقوله تعالى - يا بنى آدم قد أنزأنا عليكم لباساً يواري سوءاتكم^(١) .

فأطلق فيه ، وقال تعالى - يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد^(٢) .

وقد لبس صلى الله عليه وسلم جميع الألوان : الأحمر ، والأصفر ، والأخضر ، والمحجر ، والأسود ، والأبيض ، والقباء ، والجبّة ، والكساء ، والقديصر ، والعمامة ، والرداء ، والبردة ، وغير ذلك واشترى للسراويل ، وذكر العنسي : ولم يرد عنه لباس الأزرق ، ولا يكره ، لجميع الألوان مباحة اللباس ؛ وفضلها الأخضر ، لانه لباس أهل الجنة ، والأبيض ، لقوله .

قلت : وما يؤيد صحة الحديث ما ورد : أنه كان له ملحمة مصبوغة بالزعفران ، وربما صلى بالباس فيها ، رواه أبو داود ، والترمذى من حديث قبلة بنت مخزومة ، قالت : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم وعليه أسمال ملائين كائتا زعفران ، قال العراقي : ورواه موثقون .

(١) الآية : ٢٦ من سورة الاعراف .

(٢) الآية : ٣١ من سورة الاعراف .

عليه الصلاة والسلام : إن من خير ثيابكم البياض ، ليلبسها أحياءكم وكفنوا فيها أمواتكم (١) .
واستحب للصوفية لبس الصوف : لما في الصوف من رقة للقلب ، وخفة المؤنة ، ولأن
سيدنا موسى عليه السلام يوم نجاهي ربه كانت ثيابه كلها صوفاً ، وهذا ليس على سبيل
التحجير ، بل على سبيل الزهد فقط ، ومخالفة النفس ، واقتداء بأهل الصفة .

وفي الحديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « من ترك لبس ثوب جمال وهو
يقدر عليه تواضعاً لله ، كساه الله حلة الكرامة » (٢) .

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم :

« ألا تسمعون : » إن البذاذة من الإيمان ، كررها ثلاث مرات .

قال المنذرى : والبذاذة بفتح الباء الموحدة وذالين معجنتين ، هو : التواضع في اللباس
برئاسة الهيئة .

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : « إن الله يحب المتبذل : الذي لا يبال ما لبس ،
رواه البيهقي .

وقوله : « وتركها أقرب للصواب ، يعني ترك التكثر منها والتأنق فيها ، لا تركها بالكلية ،
لأن التعري حرام ، ثم علل ذلك الترك فقال :

إذ في لباس حلها الحساب أيضاً ، وفي حرامها العقاب

(١) ورواية الدارقطني في الأفراد : « خير ثيابكم البياض ، فكفنوا فيها موتاكم ،
والبسوها أحياءكم ، ورواه ابن ماجه ، والطبراني والحاكم بلفظ : « خير ثيابكم البياض ،
فكفنوا فيها موتاكم والبسوها أحياءكم ، وخير أحوالكم الإئتمد : ينبت الشعر
ويجلبو البصر ، .

(٢) وأيضاً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك اللباس تواضعاً لله وهو
يقدر عليه : دعاه الله يوم القيامة على رموس المحلاتق حتى يخبره من أى حل الإيمان شاء
يلبسها . رواه الترمذي والحاكم عن معاذ بن أنس ، .

قلت : في بعض الاخبار : انقروا الدنيا فإن حلالها حساب ، وحرامها عتاب ، (١) لكني لم أقف على من ذكره ، غير أن الزهد في الدنيا مرغب فيه بالاتفاق ، والذي ثبت في الحديث من عبد الله بن مسعود رضي الله عنه ، عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : « لا تزول قدما ابن آدم يوم القيامة حتى يسئل عن خمس : عن عمره فيما أفناه ، وعن شبابه فيما أبلاه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وماذا عمل فيما علم ، رواه الترمذي وقال حديث غريب . وقوله : « في لباس حلها الحساب » يعني عن أصلها وقصدتها ، وبحث بعضهم فيه بأن ما أبيع لا يكون سبباً للحساب ، ويجاب بأن الحساب يقع على قصده بالزيادة على الحاجة ، هل قصد التجميل أو التفاخر أو إظهار نعمة الله ؟

وسئل أيضاً عن القيام بشكرها ، فانه من النعم الذي يسئل عنه ، قال تعالى — ثم لتسألن يومئذ عن النعم (٢) .

وأما العقاب على الحرام فظاهر ، لأنه عصى الله بتناوله ما حرم الله ، فهو من جملة المعاصي التي يستحق عليها العقاب ، إلا أن يتفضل الله بعفوه .

قال أبو عبد الله السلي رضي الله عنه : وآدابهم في ذلك « أي في اللباس » أن يكون مع الوقت ، يلبسون ما يحدون من غير تكلف ولا اختيار ، ويقتصرون على ما يؤدون به الغرض ، من ستر العورة وما يدفع به الحر والقر ، فهي بما استثنى النبي صلى الله عليه وسلم من الدنيا (٣) ، وقيل : إنها ليست من الدنيا وتبرءون من كثرة اللباس ، ويواسون بالفضل .

قال صلى الله عليه وسلم : « ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب : رجل غسل ثوبه فلم يكن له خلق ، أي ثوب بال » يتبدل به ، ورجل لم ينصب له على مستوق قدران ، ورجل

(١) رواه ابن أبي الدنيا ، والبيهقي في شعب الإيمان عن الإمام علي موقوفاً ، وهو معنى قوله عليه الصلاة والسلام أيضاً : الدنيا خضرة حلوة ، من اكتسب فيها مالا من حله وأنفقه في حقه أنابه الله عليه وأورده جنته ، ومن اكتسب فيها مالا من غير حله ، وأنفقه في غير حقه أحله الله دار الهوان ، ورب متخوض في مال الله ورسوله له : النار يوم القيامة ، رواه البيهقي في شعب الإيمان عن ابن عمر .

(٢) آخر سورة التكاثر .

(٣) من قوله صلى الله عليه وسلم : الدنيا ملعونة ملعون ما فيها ، إلا ما ابتنى به وجهه الله عز وجل .

كما بشرابه فلم يقل أيهما تريد (١) .

وعن عائشة رضى الله عنها قالت : ما أعد رسول الله صلى الله عليه وسلم من شيء زوجيني .
ثم ذكر فوائد المرقعة فقال :

والقوم ما اختاروا المرقعات	إلا لأوصاف وسوف تأت
أولها فيها أطراح الكبر	ومنعها البرد ثم الحر
وخفة التكليف ، ثم فيها	قلة طمع الطامعين فيها
وذلة النفس وتطويل العمر	والصبر ثم الاقتدا بعمر
ألا ترى لابسها كالحاشع	فهي إذن أقرب للتواضع

المرقعات : جمع مرقعة ، وهى الثوب الملائق من رقاع كثيرة ملونة أو غير ملونة ، كانت من صوف أو شعر أو جلد ، وإنما اختارها القوم على ما سواها من أثياب لوجوه عشرة :
أولها طرح الكبر ونفيه والتخلق بضده ، وهو التواضع ، إلا إذا قصد بذلك من حيث أنها شعار الصالحين ، فيحرم لباسها حينئذ ، أو يقصد بذلك النظار على من لم يلبسها من الفقراء ، أو يرى له مزية بها على غيره ، فيقلب الأمر حينئذ .

ثانيها : أنها تدفع الحر من حيث تناسبها وبرودتها ، لاجتماع أجزائها دون تحليل ، وتدفع القهر : أى البرد ، لسكناها .

وثالثها : خفة مؤنتها فى تحصيلها ، فإنها من الخرق الملقاة على المزابل ، التى لا يضر إعطاؤها من طلبت منه ، نعم : إن كان يختار لها الرقاع الرفيعة ، قد خرجت عن حقيقةها ، وذات ثمرتها لأنها صارت حينئذ من رفيع الثياب ، فهى وسائر اللباس سواء .

ورابعها : قلة الطمع فيها للعوص السلاية وغيرهم ، من حيث ذاتها ، لا من حيث ما يحتوى عليها من الحرمة ، فإذا جذبها الفقر إليه واختبروه لم يكن لهم إلمام : أى توصل

(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « من ترك زينة الله ، ووضع ثياباً حنة تواضعاً لله ، وابتغاء لمرضاته كان حقاً على الله أن يدخله عبقرى الجنة » ، رواه أبو سعيد المالىنى فى مسند الصوفية ، وأبو نعيم فى الحلية .

بها ، بل رددوها عليه واستغفروا من حقه ، كما هو مشاهد معلوم ، وابسها للاحترام جائز
قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

وخامسها : ما فى ابسها من دفع الشرور ، باعتبار الاحترام لشبه لابسها بأهل الخير ،
وذلك جائز فى الدفع ، لا فى الجلب لقوله تعالى — يدنين عليهن من جلابيبهن ذلك أدنى أن
يعرفن فلا يؤذين — وهذا داخل فى قوله : « وقلة الطامعين فيها » .

وسادسها : ما فيها من ذلة النفس بين أبناء الجنس ، وفى ذلك موتها ، وفى موتها حياتها ،
وفى ذلك قال الشترى متكأ على لسان الحق :

إن رد وصلنا فموتك شرط لا ينال الوصال من فيه فضله

وفى ذل النفس أيضاً : إسقاط المنزلة والجاه ، وهو شرط فى تحقيق مقام الإخلاص ، وفيه
أيضاً حصول انشغال النفس هو راحة لأن صاحبه لا يعرف بالتقية ، ولا يدور بالأمور
العالية ، بل إذا غاب لا ينتظر ، وإذا حضر لا يستشار .

وفى الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : « رب أشعث أغبر ذى طمرين لا يؤبه » (أى
لا يعبأ) به لو أقسم به على الله لأبره ، (١) .

وسابعها : ما فيها من رفع الهمة وقلة المبالاة بالخلق ؛ فإن المعتقد لا يزيده اعتقاد الناس
إلا شراً ، والغالب على صاحبها عدم المبالاة بالخلق ، قد استوى عنده المعتقد والمعتقد .

قال بعض المشايخ لبعض الشباب : إياكم وهذه المرقعات ؛ فانكم تكرمون لأجلها ،
فقال الشاب : إنما نكرم بها من أجل الله ، قال : نعم ، قال : حبذا من نكرم من أجله ، أى
ما أحبه إلينا ، له : بارك الله فيك ، وهذا السابع داخل فى ذل النفس .

وثامنها : ما قيل فيها من طول العمر ، ومحمل ذلك على البركة فيه ، بحيث يدرك فى يسير
منه ما لا يدرك غيره فى سنين متطاولة كما قال ابن عطاء رضى الله عنه : « من يورك له فى عمره
أدرك فى يسير من الزمان ما لا يدخل تحته دوائر العبارة ، ولا تلحقه الإشارة ، وعبادة
العارفين كلها متضاعفة بأضعاف كثيرة .

(١) والحديث الفاظ أخر منها : « رب أشعث أغبر ذى طمرين ، تنبوا عنه أمين الناس
لو أقسم على الله لأبره » ، رواه الحاكم ، وأبو نعيم فى الحلية عن أبي هريرة .

وقال أيضاً في حكمه : « ما قل عمل برز من قلب زاهد ، ولا كثر عمل برز من قلب راغب » .

وقيل : إن ذلك يكون حقيقة ، وهو من باب الخاصية ، وإن من لبسها دل على طول عمره ، والله تعالى أعلم .

وتاسعها : مقاساة الصبر وتجرع مخالفة النفس ، وفي ذلك من الفضل ما لا يحصى ، قال تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وقال تعالى - وبشر الصابرين (١) - و - إن الله مع الصابرين (٢) .

وقال : بعض الصحابة رضوان الله عليهم : الصبر من الدين كالرأس من الجسد ، والصبر مطية الإمامة والافتداء .

قال تعالى - وجعلناهم أئمة يهدون بامرنا لما صبروا - .

وفيها أيضاً الوقاية من ارتكاب الكبائر المشهورة ، إذ يعاب على صاحبها ، ولا يمكن منها بحال ، فهي عصمة من عظام الكبائر ، والصبر عليها كأنه صبر عن القبائح كلها .

وعاشرها : الاقتداء بأمر المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه . وقد قال عليه الصلاة والسلام : اقتدوا بالذين من بعدي أبي بكر وعمر (٣) .

فالافتداء بهما امتثال لأمره عليه الصلاة والسلام ، وفيها جمع الخاطر الذي لبسها لأجله عمر رضي الله عنه ، فانه كانت له مرقعة : بين كتفيه ثلاث عشرة رقعة ، إحداها من جلد ، فلما طرحها يوم فتح بيت المقدس بإشارة المسلمين ولبس غيرها ، قال : أنكرت نفسي ، وعاد إليها ، ولبس عمر رضي الله عنه المرقعة كان اختياراً منه وتواضعاً ، وليس ذلك ضرورة ، فقد كانت له أموال خاصة به ، قبل الخلافة وبعدها ، وبالله التوفيق .

قال الشيخ زروق رضي الله عنه : « قاعدة ، ينبغي لمن وسع الله عليه في الدنيا أن يظهر عليه أثر نعمة الله باستعمالها على وجه مباح ، لا يخل بالحق ولا بالحقيقة ، بأن يلبس أحسن لباس جنسه أو وسطه ، ويتخذ مرقعة يجعلها عدته وأصل لباسه ، فما دام غنيا عنها استغنى »

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٥

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٥٣

(٣) رواه أحمد والترمذي وابن ماجه عن حذيفة ..

ولا ففى المرجع عنده ، كذا أشار علينا شيخنا أبو العباس أحمد بن عبد الله الجزيرى ، ثم الزواوى رضى الله عنه .

الحكم الرابع فى الأكل .

ذكر فى هذه الترجمة : حكم الأكل ، ومقداره ، وصفته ، وأدابه ، وآداب تحصيل المأكول ، والعمل فيه بعد حصوله ، وكيفية العمل فى صرف ما يتصرف منه ، ومن أولى بصرف ذلك إليه ، والتنبيه على أمور مهمة تتعلق بالأكل . ثم بدأ بحكمه عند القوم فقال :

الأكل فيه تركه مشروط إلا اضطراراً قدر ما يخطو
وإن يكن لحسن وإلا فتركه عند الجميع أولى

قلت : الضمير من د فيه ، يعود على طريق القوم ، والطريق يذكر ويؤنث ، يعنى أن الأكل فى طريق القوم تركه عندهم شرط أيضاً ، لأن من كانت همته فى بطنه ، كانت قيمته ما يخرج منها ، فذلك لا يأكلون إلا اضطراراً ، بقدر ما يسد الحاجة ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه ، حسب ابن آدم لقيات يقمن صلبه ، فإن كان ولا بد ، فثلث للطعام ، وثلث للشراب ، وثلث للنفس (١) » .

وحد الاحتياج للطعام أن يشتهى الإنسان خبزه المعتاد ، وحد الاضطرار : أن يشتهى كل خبز ، بل يأكل أى نوع كان .

والجوع الكذاب : أن يشتهى مع الحبز شهوة ما ؛ قال المشايخ : وعلامة أخذ الحاجة من الطعام تغيير طعم الطعام فى الفم ، والاحتياج فى تسويغه لشرب الماء بوجه لا يمكن دونه ، والإحساس بالثقل ، والله تعالى أعلم قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

وقوله « قدر ما يحوط » يعنى قدر ما يحفظ القوة ويمسك البدن ، إذ لا يجوز لأحد أن يجمع نفسه حتى تختل قوته وتفسد فكرته ، بل خير الأمور أوسطها ، كما أشار إليه البوصرى رحمه الله بقوله :

واخش السائس من جوع ومن شبع قرب مخصة شر من التخم

وقوله: وإن يكن ، أى الاضطراب ، أى وإن حصل الاضطراب فأكله حسن ، وإلا فتركه أولى عند كافة أهل الطريق .

قال أبو عبد الله السلمى رضى الله عنه : سئل بعض المشايخ عن الأكل الذى لا يضر ، فقال : أن يأكل بتنفيذ القدرة ، لا بشاهد الشهوة ، أى أن تأكل بسبب تنفيذ القدرة مرادها ^{من} بقاء هذا البدن . فيكون أكله لحفظ صحة هذا الجسم ، كما أمرك ربك ، لا بسبب شهوة بطنك .

وروى أن رجلاً تجشأ عند رسول الله ﷺ ، فقال : كف عنا جشاءك ، فأكثركم شبعاً في الدنيا أكثركم جوعاً يوم القيامة (١) .

وقال الحسن . كان بلية آدم في أكلة أكلها ، وهى بليتكم إلى يوم القيامة .

وقال سهل رضى الله عنه : لأن أترك من عشائي لقمة أحب إلى من قيام ليلة .

وقال يحيى بن معاذ : لو كان الجوع يباع في الأسواق لما أمكن أن يشتروا غيره .

وقال : لو تشفعت لنفسك بالملائكة المقربين ، والأنبياء والمرسلين في ترك شهوة لردتهم واجمعين ، ولو تشفعت إليها بالجوع لانقادت إليك وطاوعتك : يعنى لو خوفتها به ، لتركك تلك الشهوة .

وقال : مالك بن دينار : لا تجعلوا بطونكم جرباً (٢) للشيطان يودع فيها ما أحب .

وقال صلى الله عليه وسلم : من أحسن من نفسه نشاطاً فليؤد بها بالجوع والعطش (٣) ، يعنى نشاطاً للمعصية أو للهو .

وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال : دخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يعلى

(١) ولفظ الحديث : كف عنا جشاءك فإن أكثرهم شبعاً في الدنيا ، بضمير الغائب ،

و أطولهم جوعاً يوم القيامة . رواه الترمذى وابن ماجه عن ابن عمر .

(٢) الجرب : جمع جراب ، وهو وعاء من جلد .

(٣) وقال عليه الصلاة والسلام من حديث أبي هريرة : لكل شيء زكاة ، وزكاة الجسد

الصوم . رواه ابن ماجه .

جالسا ، فقلت : ما أصابك ؟ قال : الجوع ، فبكيت فقال لى : لا تبك ، إن شدة القيامة
لا تهيب الجائع إذا احتسب ذلك (١) .

ثم نبه على بعض آدابه فقال :

وأدب القوم لدى الطعام جم فيه ترك الاهتمام
وقلة الذكر له إن غاب لكونه عندهم حجاب
بل أنزلوه منزل السواء عند العليل بغية الشفاء

قلت : أشار إلى أن آداب القوم ، يعنى الصوفية ، عند تناول الطعام أو قبله ، جم ،
أى كثير .

فنها : عدم اهتمامهم به قبل الحاجة إليه ، لأن الاهتمام به قبل الحاجة دليل الشراء والحرص
عليه ، وذلك من قوة الأوصاف البهيمية عليها ، وقد تقدم قول من قال : من كان همه بطنه
كانت قيمته ما يخرج منها .

وحكى عن ربيع رضى الله عنه أنه قال : « لم يخطر ذكر الطعام ببالى عشرين سنة » .
حتى احتضر رحمه الله .

ومنها قلة : ذكره قبل حضوره ، لأن ذكره دليل تعلق النفس به ، وتشوفها إليه ، ومن
أحب شيئا أكثر من ذكره (٢) ، ولأن ذكره يهيج الشهوة ويسلط النفس على الطلب ، فيؤدى
للاهتمام ، أو يكون علامة عليه .

قلت : وينبغى للعارف ألا يأكل إلا بإذن من الله ، بحيث يسهل حتى يتيسر ذلك من

(١) وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن أقرب الناس من الله عز وجل يوم القيامة
من طال جوعه وعطشه وحزنه في الدنيا ... » الخ الحديث وهو طويل جداً ، رواه الخطيب
في الزهد ، ورواه الحارث بن أبي أسامة . وراجعته في الإحياء بطوله في باب « فضيلة الجوع »
وفى الشيع .

(٢) هذا لفظ حديث شريف رواه الديلمى في مسند الفردوس عن أم المؤمنين عائشة
رضى الله عنها وأرضاها .

غير سؤال ، فاذا دخل داره مثلاً فلا يطلب غذاء ، حتى يعرض عليه إلا لضرورة فادحة .
ولأننا أهملوا ذكره قبل حصوله اهتماماً وسؤالاً ، لأن ذكره حجاب عن الحقائق باشتغال النفس
له ، لولوعها به طلباً وذكراً ، ولو كانت فانية في الحق لاشتغالها ذلك عن الحفظ .

وقوله : بل أنزلوه منزل الدواء ، : يعني أن القوم رضى الله عنهم أنزلوا الطعام والشراب
منزل الدواء ، لقيام هذا البدن ، فلا يتناولون منه إلا قدر شفائه ، وهو ما به قوامه ؛
ولا يذكرونه ولا يهتمون به أصلاً اشتغالا عنه بما هو أهم ، من : ذكر أو فكر أو شهود
أو معاملة ظاهرة ، وإذا تناولوه قصدوا به التقوى على الطاعة والقيام بحق البشرية التي هي
معرفة السر ، وإليه أشار بقوله : بغية الشفاء ، أى بقصد الشفاء لا بقصد المتعة والشهوة .

قال السلي رحمه الله : قيل لبعض المشايخ : كيف يتناول الطعام ؟ قال : كتناول العليل
الدواء يرتجى الشفاء ، والله تعالى أعلم ، ثم ذكر ما يتعلق به قبل حصوله ، فقال :

ولم يكن همهم بجمعه . وكسبه وفضله ومنعه

قلت : : يعني أن القوم لم يكن همهم بالاشتغال بجمع الطعام واكتسابه ، ولا اشتغال باعطاء
فضله ، أى ما فضل عن الحاجة ومنعه ، بل أنزلوه منزل المهمل الذى لا قدوم له عليه إلا عند
الضرورة ، أو ما يقرب منها ، فلا يهتمون بجمعه ولا باعطاء فضله ومنعه ، لاشتغالهم
بما هو أهم .

قال : السلي رضى الله عنه : فمن آدابهم ترك الاهتمام بالرزق ، وقلة الاشتغال بطلبه ،
وجمعه ومنعه ، قال الله تعالى — وكأين من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم (١) —
أى لا تدخره .

وصح عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان لا يدخر شيئاً لغد ، ومن اشتغل منهم بشيء من
الأسباب فأنما ذلك قياماً برسم العبودية ، وإن حصل منها شيء كانوا فيه أمناء على وجه أنهم
خزان المملكة ، يترصدون سد الخلل ، فيمسكون ما أمروا بامساكه ، ويرسلون
ما أمروا بإرساله .

وقد سئل الشبلي رضى الله عنه : كم فى خمس من الإبل ؟ فقال أما الواجب فثاة ، وأما
عندنا فكها لله ، فقيل له ما دليلك على ذلك ؟ فقال : أبو بكر رضى الله عنه ، حيث
خرج عن ماله كله لله ورسوله ، فمن خرج عن كل شيء فإمامه أبو بكر ، ومن أعطى بعضاً

وترك بعضاً فامامه همر ، ومن أعطى الله ومنع الله ، فامامه عثمان ، ومن ترك الدنيا لأهلها فامامه علي ، وكل علم لا يدل على ترك الدنيا فليس بعلم .

وكان أبو العباس الحضرمي رضى الله عنه يقول : ليس الرجل الذي يعرف كيفية تفريق الدنيا فيفرقها ، وإنما الرجل الذي يعرف كيفية إمساكها فيمسكها ، يعنى أنه يعرف كيف يمسكها ولا يشتغل قلبه بها ، بحيث يكون يأخذها بالله ومن الله ويدفعها لله وإلى الله ، ولذلك قيل : الدنيا كالحية ، وليس الشأن في قتل الحية ، وإنما الشأن في إمساكها حية ، وإمساكها حية هو إمساكها بالله ، فانياً عنها وعن طلبها

وقال للشيخ أبو محمد عبد القادر الجيلاني نفعا الله به لما سئل عن الدنيا : فقال : أخرجها من قلبك واجعلها في يدك ، فانها لا تضررك .

وقال الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : الدنيا جراداة ، إذا قطع رأسها حلت : ورأسها حبها .

وقال بعض أهل المعاني في تفسير قوله تعالى - وما تلك يمينك يا موسى (١) - يقال للفقير : وما تلك يمينك أيها الفقير ، قال : هي دنياى اعتمد عليها في قيام بنيتي ، وأنفق منها على عيالي ، ولى فيها مآرب أخرى : أنصديق منها ، وأفضل بها وجوه الخير ، فيقال له : ألقها من يدك أيها الفقير ، فألقاها فإذا هي حية تسمى ، كانت تلدغه في قلبه ، وتشغله عن شهود ربه ، فلما فر منها وأيس من نفعها قيل : له خذها ولا تخف ، لأنك غنى بالله عنها ، فتأخذها بالله لا بنفسك ، وتدفعها كذلك ، وبالله التوفيق .

ثم ذكر آدابه بعد حصوله ، فقال :

ولا استفلوه ولا عابوه ولا يكن قصداً فيطلبوه

قلت : من آداب القوم عند حصول الطعام ألا يستفلوه أى يهفرونه ولا يحتقرونه ، بل يعظمونه ويكبرونه ، ولو كان قليلاً في الحس . أو خشينا أو ردى الصنعة ، فن آدابهم أن يتلقوا للقليل من صاحبه الذى أنى على يديه بالبسط والفرح والتعظيم والتكثير والتبريك ، ويتقدمون بأكله قبل غيره ، تطيباً لحظائره ورفعاً لقلبه ، وكذلك يفعلون في الطعام الحشين أو الردى . أو ما أشبه ذلك ، ويتلقون الكثير أو الرضيع من يأتى به بالغنى ، ورفع الهمة عنه شفقة على صاحبه من دخول العجب أو الرياء ، وأظهار الزهد والقناعة ليقضى بهم غيرهم .

ومن آدابهم أيضاً ألا يعبثوا طعاماً ولا يقبحوه ، لأن ذلك يدل على الشره له والحرص عليه ، وقد تقدم أنهم غافلون عنه غائبون عن شأنه حتى يأتيهم الله بما قسم لهم ، وهذا منهم اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، ففي الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : « ما عاب رسول الله صلى الله عليه وسلم طعاماً قط ، كان إذا اشتهاه أكله وإذا تركه ، (١) » .

وقوله : « ولم يكن فصداً فيطلبوه » ، معنى : إن الطعام عند القوم لم يكن مقصوداً عندهم ، فلا يمتدنون بشأنه قبل حصوله حتى يطلبوه ، بل كانوا غائبين عنه مشغولين بذكر مولاهم ، لا يلتفتون إليه إلا عند الاضطرار ، فيطلبون ما يتقوون به على عبادة ربهم دون حرص ولا استكثار ولا شهوة ولا اختيار .

روى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه الصلاة والسلام : ما بال الأقوياء ومناوئة الشهوات ، إنما جعلت للشهوات لضعفاء خلقي : إن القلوب المعلة بالشهوات عقولها محجوبة عنى . وحكى أن بشراً الحافى روى في السوق ، فسئل عن ذلك ، فقال : نفسى تطالبني بخيارة منذ سنين ، فمعتها ورضيت الآن بالنظر إليها ، فأعطيتها .

وقال : بعضهم إنما هي فورة جوع لا أبالي بما صعدتها .

وقال آخر : ليس لها علينا إلا كفايتها ، فلا نبالي فيه بطيب ولا ردى .

وهذا ما لم يكن حراماً ، وسيأتي التنبيه عليه ، وما لم يكن أيضاً مضرراً للبدن ، وإلا حرام تناوله ، وليس تركه قادحاً في التوكل ، وإنما هو من مقتضيات الحكمة وجرى مع سنة الله في خواص مخلوقاته ، وما وقع من الحكايات ، فذلك أمر غارق للعادة ، وصاحبه محمول على بساط الحال ، محفوظ في ذلك الوقت ، فلا يقتدى به ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر آدابهم في الادخار ، فقال :

والقوم لم يدخروا طعاماً بل تركوا الحلال والحراماً
إلا يسيراً قدر ما تيسر إذ الحلال المحض قد تعذرا

قلت : أخبر رحمه الله أن القوم لم يكونوا يدخرون شيئاً لوقت آخر ، وإنما كانوا يأخذون قدر حاجتهم في الوقت ، ويتصدقون بالفضلة ، وهكذا كانت سيرته صلى الله عليه وسلم في جل أوقاته

(١) راجع الإحياء ، كتاب آداب المعيشة وأخلاق النبوة ، تجد فيه ما يغنى .

قال : ابن ليون النجيبى في « الإلهة » : وأما ترك الادخار فقد صح عنه في الأحاديث أنه عليه الصلاة والسلام لم يدخر .

وقال أنس : كان النبي صلى الله عليه وسلم لا يدخر شيئاً لغد .

وعن عائشة رضي الله عنها أنه عليه الصلاة والسلام قال لبلال : أطعمنا يا بلال .

وقال : يا رسول الله ما عندي إلا صبر من تمر ، خبأته لك ، قال :

« أما تخشى أن يخسف الله به في نار جهنم ، أنفق يا بلال ولا تخف من ذي العرش إقلالا (١) » .

والصبر جمع صبره ، وهو ما كدس من التمر وغيره من غير وزن ولا كيل ، وقد لطم الشريشي هذا المعنى في رائيته فقال :

ولأنك بمن لا يفارق خبزه فديمة جود الحق دائمة القطر

قال : سيدى أحمد بن يوسف الفاسى رضى الله عنه في شرحها : يقول - والله أعلم - فلا تسكن أيها المريد من الذين همهم بطنهم ، الملازمين لمحبزهم وغيره من المطبوعات ، في كل وقت وأوان ، بل اقتد بنبيك صلى الله عليه وسلم في كونه : كان لا يدخر لغد ، وينهى عنه ، كما اقتدى بذلك فيه أقوياء أمته الذين أردت سلوك طريقهم والاهتداء بهديهم ، ولا تنحط إلى ما نهى عنه فتخط من المزيمة إلى الرخصة ، ومن الورع إلى الإباحة ، ولا يجهى منك شيء ، ولا يدخلك أيها المريد حين العمل بهذا كونك ترى أنك لا تجد ما تنقوت به إذا أعطيت ما يفضل عن غذائك في الحال لمن يستحقه ، فإن قطر عطاء الله وجوده وفضله دائم الانصباب والانسكاب ، قد عمت جميع الخلائق نعمة ومنه .

قال في العوارف : ومن أخلاق الصوفية الإنفاق من غير إقتار ، وترك الادخار ، وذلك أن الصوفى يرى خزائن فضل الحق ، فهو بمثابة من هو مقيم على شاطئ بحر ، والمق على شاطئ البحر لا يدخر الماء في قربته وراويته (٢) .

(١) « أنفق بلال » إلخ رواه البزار عن بلال، وعن أبي هريرة والطبراني عن ابن مسعود.

(٢) هذا المعنى مأخوذ من قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : كنز المؤمن ربه ،

وخزائنه ، بطنه ، ومشجبه ظهره ، رواه الديلمي في مسند الفردوس .

وروى أبو هريرة رضى الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : أنه قال : « ما من يوم إلا وملكان يناديان فيقول أحدهما : اللهم أعط منفقا خلفا ، ويقول الآخر : اللهم أعط ممسكا تلفا » (١) .

وروى أنه أهدى لرسول الله صلى الله عليه وسلم طيور ، فأطعم خادمه طيراً ، فلما كان الغد أتاه به ، فقال له رسول الله : ألم أنك أن تخبأ شيئاً لغد ، فإن الله يأتي برزق كل غد ، (٢) .

وروى عن عيسى عليه السلام أنه كان يأكل الشجر ، وببيت حيث أمسى ، ولم يكن له ولد يموت ، ولا بيت يخرب ، ولا يخبأ شيئاً لغد .

فالصوفي كل خباياه في خرائن الله ، لصدق توكاه وثقته بربه ، فالدنيا للصوفي كدار الغربه ، ليس له فيها ادخار ، ولا له منها استكثار .

قال عليه الصلاة والسلام : « لو توكأتم على الله حق توكاه لرزقتم كما ترزق الطير ، تغدو خماساً وتروح بظاناً » (٣) ، انتهى .

ثم قال : « ورد أيضاً عنه صلى الله عليه وسلم أنه نهى أم أيمن عن أن تدخر لغد شيئاً » (٤) ، ونهى بلالاً عن الادخار في كمره خبز ادخرها ليفطر عليها ، فقال : أنفق يا بلال ولا تخف من ذي العرش » (٥) إقلال .

وقال له : « إذا سئلت فلا تمنع ، وإذا أعطيت فلا تخبأ » .

وأما ادخاره صلى الله عليه وسلم ، فلعماله ، وتشريعاً وتبييناً للضعفاء من أمته ، كما أن ترك ادخاره يعد تعليماً للأقوياء منهم حسبما ذكره الإمام أبو حامد رضى الله عنه ، وقال بعضهم :

(١) متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٢) وورد الحديث بلفظ « ألم أنك » بكسر الكاف ، أن ترفعى شيئاً لغد ، فإن الله يأتي برزق كل غد ، ورواه الإمام أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن أنس .

(٣) رواه الترمذي والحاكم ، وصححه .

(٤) ويعضده الحديث الذي مر « ألم أنك » بكسر الكاف .

(٥) حديث « أنفق بلال » سبق تخريجه .

فعله صلى الله عليه وسلم دائر بين الإباحة والورع ، فادخاره قوت سنة بيان للإباحة ، وعدم ادخاره ورع ، وشأن أهل الطريق الأخذ بالعزائم دون الرخص التي لم يندب العمل بها ، إماما يندب الأخذ به منها كالقصر في السفر ، ونحره فإنهم يسارعون إليه ويحافظون على نعميله ، على أن للعارفين علما يصرفونه بحسب الأحوال والعوارض ، قد يخفى على من ليس من أهل ، فقد كان بعضهم لا يقصر في سفره قائلا للناس : في ترك قصر الصلاة للفقراء نية حسنة يحبون اغتنام الصلاة خلفهم ، فلا نحرهم من نيتهم ، ثم إن الشبهة تختلف باختلاف المقامات ، فمن كان من أهل الحقيقة مثلا ، وأتى إليه بشيء حلال ، ثم شاهد الخلق قبل الحق فأهل الظاهر لا يفتنون لإباحيته ، وأهل الباطن يحكمون بشبهته ، فيقع للتورع عنه ، كما وقع للشيخ أبي مدين رضي الله عنه ، وكذلك الادخار من أصله ، وإن كان حلالا من طريق الأحكام ، لكنه شبهة عن أهل الباطن ذوي النهي ، والأحكام في حق من لم يكمل حاله ، ويستقيم يقينه ويستو عنده الوجد والفقد .

وقال الشيخ عبد المزين المهدوي رضي الله عنه : الورع ألا يخطر الرزق ببال ، ولا يكون بينك وبينه لسبة ، لا في التحصيل ولا عند المباشرة ، لأنه لا يدرى أياك أم لا .

وقال الشيخ أبو طالب رضي الله عنه : ويقال من اهتم برزق غد فهي خطيئة تكتب عليه سيئة .

وقال سفيان الثوري رضي الله عنه : للصائم إذا اهتم في أول النهار بعشائه ، كتبت عليه خطيئة .

وكان سهل يقول : إن ذلك ينقص من صومه ، وقال : أعرف بالبصرة مقبرة عظيمة يندى على موتاهم برزقهم من الجنة بكرة وعشية يرون منازلهم من الجنان ، وعليهم من الغنوم والكروب ما لو قسم على أهل البصرة لما تروا أجمعين ، قيل : لم ، قال كانوا إذا تندوا قالوا بأي شيء نتعشى وإذا تعشوا قالوا : بأي شيء نتغذى .

وقد وقع للنهي من صلى الله عليه وسلم ، ومن الذين من بعده عن الادخار في زمانهم ، الذي كان الحلال فيه كثيراً ، فكيف بزمانك الذي ظلب فيه الحرام ، فالأولى أن تلزم الضرورة ، فلا تأخذ إلا قافة وضرورة ، ولا تأكل إلا كذلك .

وقد كان شقيق البلخي رضي الله عنه يقول : في سنة تسعين ومائة : إن للمكاسب اليوم

قد فسدت ، وإن التجارات والصنائع شبهات كلها ، ولا يحل الاستكثار منها لوجود النش وعدم النصح ، قال : وإنما ينبغي للسلم أن يدخل فيها ضرورة .

وقوله : بل تركوا الحلال والحرام ، يعني أن القوم تركوا الإكثار من الحلال خوفا من الوقوع في الحرام ، وتركوا ، الحرام تقوى ، وتركوا المتشابه ورعا (١) .

وقيل : الورع هو ترك الحرام والمتشابه ، وهم يطالبون أنفسهم بحقائق ذلك .

وقد روى عن ابن عباس رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « إن الله نهي موسى بمائة ألف وأربعين ألف كلمة في ثلاثة أيام ، فلما سمع موسى كلام الآدميين مقتهم ، لما وقع في مسامعه من كلام الرب عز وجل ، فكان بما نجاه ربه أن قال : يا موسى إنه لم يتصنع لي المتصنعون بمثل الزهد في الدنيا ، ولم يتقرب إلي المتقربون بمثل الورع عما حرمت عليهم ، ولم يتعبد لي المتعبدون بمثل البكاء من خشيتي ، قال موسى : يا رب البرية كلها ، ويا مالك يوم الدين ، ويا ذا الجلال والإكرام : فما أعددت لهم ؟ وماذا جزيتهم ؟ قال : أما الزهاد في الدنيا ، فإنني أبحتهم جنتي ، يتبوءون فيها حيث شاءوا وأما الورعون عما حرمت عليهم ، فإنه إذا كان يوم القيامة لم يبق عبد إلا ناقشته الحساب ، وفتشته إلا الورعون ، فإنني أستحييهم وأجلهم وأكرمهم ، وأدخلهم الجنة بغير حساب ، وأما البكاءون من خشيتي ، فأولئك لهم الرفيق الأعلى ، لا يشاركون فيه ، رواه الطبراني وغيره .

وقوله : لا يسيرا ، إلخ يعني أنهم يأخذون اليسير على وجه اللقاقة والضرورة ، ويتركون الزائد ، وسواء كان أخذهم لذلك بتكسب أو غيره ، لأن أخذ ذلك لا بد لهم منه ، لوجوده الضرورة شرعا ، ودخول الكف ليس من شأن التفكير ، بل أموره كلها على التيسير ، فلا يكف ولا يتكف ، لقوله عليه الصلاة والسلام : « أنا وأتقياء أمتي برءاء من التكلف (٢) » .

ولأن التكلف ينافي التوكل ، وترك الأسباب من غير إذن ينافي الأدب ، ولكن كما قال

(١) كان سيدنا عمر رضى الله عنه يقول : كنا نترك تسعة أعشار الحلال مخافة أن تقع في الحرام .

(٢) رواه الدارقطني في الأفراد ، وليس فيه لفظه وأتقياء ، . وروى من حديثه الزبيدي بن العوام : « إني برئ من التكلف ، وصالحوا أمتي » .

صلى الله عليه وسلم « لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصاً وتزوج بطاناً^(١) ، فلما توكلوا على الله كفاهم كل مؤنة ، لقوله تعالى ، ومن يتوكل على الله فهو حسبه ،^(٢) أى كافية .

وقوله « إذ الحلال المحض قد تعذر ، الحلال المحض هو الخالص الذى لا شوب فيه ولا اخلاف ، وقد تقدم قول شقيق : إن المكاسب اليوم قد فسدت . إلخ كلامه .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : فأما ما يجرى على اختلاف العلماء ، والراجع والمرجوح فهو موجود .

وقال العلماء : إذ فقد رأساً أقيم من عشرة أشياء تجارة بصدق ، وإجارة بنصح ، وأعتاب الأرض غير مملوكة ، ومدينة من أخ صالح ، وصيد البحر ، ومهر النساء بطيب نفس ، وقسمة المنعم على وجه شرعى ، واليراث على أصل مجهول ، والأسؤال عند الحاجة ، وكثيراً ما يجرى على السنة المتدينين : أن الحلال ضالة مفقودة أى معدومة ، وهو أمر يحملونه عكازاً الاسترسال وأخذ كل ما والاهم ، بل الحلال موجود ، ولو لم يكن موجوداً فى كل زمان ما كلفنا بطلبه ، ولا نقطع أولياء الله سبحانه ، إذ هو قوتهم ، وذلك باطل ، وأيضاً إذا حرمت الكل حلت الكل ، وكل من بيده شيء يستأنف فيه حكم الله من الآن .

وقد كان شيخنا البوزيذى يقول : من بيده شيء لا يعرف فيه دخول حرام بالأصالة ، ولا مصالة فيبحة مقصودة . فمن أين يحرم ماله ؟ وما غلب على الناس من الجهل ورقة الديانة لا يحرم ما بأيديهم ، لأن الإنسان لا يخاطب إلا بما فى قلبه ، ثم قال : إن الله خلق المال حلالاً ، كما خلق الماء طهوراً ، فكما لا ينجس هذا إلا ما غيره ، لا يحرم هذا إلا ما غيره ، إلا أن الساف رضى الله عنهم لمعرفتهم بكثرت النفوس ، تساهلوا فى الطهارة لحصرها ، وشددوا فى باب الكسب لتساهل النفوس فيها ، حتى جرى فى قواعدهم فى باب الطهارة : أن الأصل مقدم على الغالب ، وفى باب الحلال والحرام : الغالب مقدم على الأصل ، وهى مسألة اختلف ، وقد أهمل الناس فى هذه الأزمنة باب الحرام ، لا سيما فى بلاد المشرق ، فليكن الفقير من ذلك على بال ، ومن يصحب العلم فلا يضل ، ولا يضيق عليه الواسع ، بل لا يزال فى ضجة ما لم يتغير .

(١) رواه الترمذى ، والإمام أحمد ، وابن ماجه ، والحاكم فى المستدرک .

(٢) سورة الطلاق ، الآية : ٣

وأشار ابن الفاكهاني إلى أنه ينبغي عدم التمرض للبحث في هذه الأزمنة، والوقوف مع ظاهر الأحوال، لأن البحث لا يجب حيث لا علامة، ووجوده لا يكشف عن شيء، وأكثر العلماء على أن الحلال ما جهل أصله، والحمد لله الذي جعل في الأمور سعة، انتهى كلامه مع بعض اختصار.

وقال الشيخ أبو الحسن: أحل الحلال ما لم يخطر لك على بال، ولا سألت فيه أحداً من النساء والرجال اهـ.

ثم أشار الناظم إلى ما يعمل بالفضلة على الحاجة.

قلت: أشار بقوله «بلا تكليف» إلى أن ما يدخل على الفقير كله من باب التيسير، بلا كلفة ولا تدبير، فإن كان من غير سبب فأمره ظاهر، إلا أنه ينبغي أن يسبق نظره في الأخذ إلى الحق دون الخلق، فإن سبق نظره إلى الخلق فقتضى الورع عند الخصوص ألا ينيل نفسه شيئاً منه، كما وقع للشيخ أبي مدين رضى الله عنه: أماه حمل قح، فزارعته نفسه وقالت: له ياترى من أين هذا؟ فقال لها: أنا أعرف من أين هذا يا عدوة الله، فأمر به بعض أصحابه أن يرفعه لبعض الفقراء عتوبة لها، لكونها رأت الخلق قبل رؤية الحق تعالى.

وينبغي له أيضاً ألا يتشوف إليه قبل حصوله، فإن تشوف لشيء منع نفسه منه، كما وقع لايوب الحال مع أحد بن حنبل في قصة الخبز، وهي معروفة.

وأما إن كان بسبب شرعى، فينبغي أن يكون ذلك خفيفاً غير شاغل عن ذكر الله. وأن يكون مقصوداً به الأدب مع الحكمة، غير ملتفت له ولا معتمد عليه.

قوله: «ابتدءوا بالجار والضعيف»، أشار إلى كينية تفريق الفاضل عن الحاجة، وأنه يقدم الأهم فالأهم لحديث «ابدأ بنفسك»، ثم بمن تعول (١).

قال رجل: يا رسول الله عندى دينار، قال أنفقه على نفسك؟ قال: هدى آخر،

(١) والحديث روايات منها: «ابدأ بنفسك فتصدق عليها»، فإن فضل شيء فلاملك، الخ. رواه النسائي عن جابر.

قال : أنفقه على عيالك ، قال : عندى آخر ، قال ، صل به ذوى رحلك ، قال : عندى آخر ، قال : اصنع به ما شئت (١) ، الحديث .

وحق الجار معلوم من الدين بالضرورة ، فيؤثرونه على غيره بعد المراتب المذكورة ، ويؤثرون من الجيران أحوجهم ، فإن استنوا ، فأقربهم إليك بابا ، وإن كان هناك ضعيف لا جوار له ، والجيران أغنياء قدموه لأن سد الخلل مقدم على الإبرار ، والأخوة في الله مقدمة على غيرها ، هذا كله في الفضلة والإيثار ، لا في باب الاضطرار ، بحيث إذا أعطاه ملك واختل بنيته عن العبادة فذلك ممنوع ، والإيثار ما يحتاج إلى الصبر عند إعطائه من غير إخلال ، في قوته ولا ضرر فادح يلحقه ، والفضل ما لا يلحقه منه شيء من ذلك ، والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى ورعهم وتحفظهم من الحرام والمتشابه ، فقال :

وجنبوا طعام أهل الظلم والبغى والفساد خوف الإثم
بل أكلوا مما استبان حله غير الذى لا يعرفون أصله

قلت : أهل الظلم هم ملوك الجور وأهال المغشوب على أيديهم ، وأهل البغى هم : السراق والمحاربون ، وأهل الفساد من يتعامل بالربا وبالمعاملة الفاسدة ، ولا يتحاشى الحرام . ويحتمل أن يكون أهل لبغى والفساد شيئا واحداً ، وهم المصرص ومن يلحق بهم من لا يتقى الله في معاملته ولا يتحافظ من الحرام في مأكله وملبسه وغير ذلك .

ويدخل في أهل الظلم قضاة الجور الذين يقبضون الأجرة على مجرد الحكم ، وكذلك للدول (٢) الذين لا يتحاشون من أموال المسلمين ، مهما قدروا عليها ، عصمتها الله من جميع ذلك .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وأما تجنبهم طعام الظلمة ونحوهم فلو جوه :

أحدها ما في إرضائهم من الموالاة التي لا تحمل ، أى لأنهم يفرحون بأكل طعامهم أهل الصلاح والخير ، مع ما هم عليه من الظلم ، ما لم يخش الضرر الواضح .

(١) وللحديث روايات أخرى منها : « أبدا بنفسك فتصدق عليها ، فإن فضل شيء فلا ملك » الخ . رواه النسائي عن جابر .

(٢) جمع حادل ، وهو في الأصل : المشرك الذى يعدل بربه ، واستعمل هنا في الظلم ، ومنه قول المرأة للحجاج : إنك لعادل قاسط . أى ظلم .

الثاني : ما فيه من تسلطهم على المنتسبين : إما بسوء الظن بالجميل ، لا اعتقادهم حرمة ما بأيديهم ، وأن من يأكله لا خلاق له فيستهنون بهذا الشخص ، بل بكل أهل جنسه : يجعله حجة على غيره ، بمن لا يقدر أن يتوسع توسعه لورخ أو ضيق حضيرة ، أى ضيق دائرة معرفته ، فيقول له : فلان أكبر منك أكل طعامى ، وما تكون أنت منه ؟ فيؤذى لذلك .

الثالث : ما فيه من إعانتهم على ما هم فيه ، إذ يرون أنفسهم حينئذ أنهم من أهل الخير ويقولون : لو رأى منا فلان ما يكره ما أكل طعامنا ، لاسيما إن وجد له وجه في إباحة ذلك . وتجرأ على الله بنسبتها لأهل الله ، كما يفعله بعض من وهن الإيمان في قلبه ، والعياذ بالله .

الرابع : ما فى ذلك من ميل النفس لهم ، ومحبتهم ، وقد قال عليه الصلاة والسلام : اللهم لا تجعل لمنافق على يدا فتحة نفسى ، (١) .

وحكى أبو نعيم فى حليته أن ابن المبارك دخل على الخليفة فوعظه ، وذكره فأعطاه مالا ، فاشترى به عبيداً فأعتقهم ، فقال له محمد بن واسع فى ذلك ، فقال له : ذكرتهم بالله ووعظتهم ، وأخذت منهم مال الله وصرفته فى وجهه . فقال محمد بن واسع الله : قسم قلبك الآن لهم ، كما كان ، قال : لا ، فاستغفر ، رحمة الله على الجميع .

الخامس : ما فى ذلك من تناول الشبهة من غير ضرورة ، فقد قال الشيخ أبو العباس المرسى رضى الله عنه : من كان من فقراء هذا الزمان مؤثراً للجماع أكو لا أموال الظلمة ، فقية نزعة يهودية ، قال الله تعالى - سمعون للكذب أكالون للسحت - اه باختصار .

السادس : ما يلحقه بسبب ذلك من الذلة وتغيير الحال ، كما اتفق لكثير من الناس ، واتخذهم بعضهم (أى بعض الكبراء) سياسة ، فإذا رأى فقيراً استظمر عليهم بالقوة وخافوا دعوة أو غيرها والوه واحتالوا عليه ، حتى يدخل فى أيديهم فلا يمكنه التعزز عليهم ، وقد كان بعض مشايخ المغرب يقول : الفقير لا يمشى بالليل ، ولا يهرب بالنهار إن رأى ما يخاف . ولا يأكل طعام الظلمة .

قلت : لأن هذه كلها تورث الذل .

السابع : ما فى ذلك من فتح باب التشويش ، باعتقاد الناس أن له عندهم جاهاً ،

(د) وفى رواية : لفاجر ، بدل : منافق ، و : قلبى ، بدل : نفسى ، رواه ابن مردويه فى التفسير ، والدليل فى مسنده ، وأبو موسى المدينى فى كتاب : تضييع العمر ، من طريق أهل البيت رضى الله عنهم .

فبذبحهون له بطالب الشفاعة ، وذلك أمر لا يمكنه استيفاءه ، وقل ما تعلق به رجل فسلم
ندياته ، والله تعالى أعلم .

وهذا كله ما لم تكن ضرورة ، والمراء فقيه نفسه .

وقد ذكر الشيخ الغوري رحمه الله : أن السلطان أبا الحسن صنع طعاماً لجماعة من أهل
الحيرة في وقته ودعاهم له ، فكان منهم من أكل ولم يذوق ، ومنهم من استظمر بالصوم ،
ومنهم من أخرج خبزه وانتدم بإدام الملك ، ومنهم من أكل وقال ، ومنهم من قال : أنا
صائم ، ولكن هاتوا من طعام الملك على وجه البركة ، فسالهم شيخهم عن ذلك .

فقال الأول : طعام مستهلك ترتبت القيمة في ذمة مستهلكه ، لحل له التعرف فيه ، وقد
بكتى منه عن طيب نفسه ، فبأى وجه أتركه .

وقال الثاني : تجنبت حل الشبهة بجميع وجهه .

وقال الثالث : عملت على القول بإباحة الغلة للغاصب .

وقال الرابع : هو مال مجهول الأرباب يجب فيه التعرف بالقيمة ، فكنت تأخذ وتفقد
أو يبقوه بعد .

وقال الخامس : طعام مستحق للمساكين ، قدرت على استخلاص بعضه ، فاستخلصت
فأندرت عليه ، وخرجت به لأربابه .

فإذا ذكر عنه أنه غسل مزوده بما تعلق من الإدام ، وشق عليه إخراج ما تعلق به من
الزخارن ، فأرسلها مع النهر .

ومن هذا النوع ما ذكر أن ابن عباد رحمه الله : أعطاه السلطان كسوة وأعطى الشيخ
الزكراكي كسوة ، وأعلمهما أنه إنما علمهما من الجزية وثمنوها ، فقبلها ابن عباد وردھا
لأنه رأى رضي الله عنهما ، فقبل لبعض أهل الوقت ، من له بصيرة في ذلك ، فقال : الورع
مستحب بالإجماع ، وجبر قاب لك واجب بالإجماع ، وأنتم ترون من واقع أصواب التعلق
بالباطل ، أو بالاستعجب ، هذا ما وقع له في الأمر اظاهر ، ولما بهت له (أي لابن عباد)
مواهبك يساوى مالا لعله كانت به : صبه في المرحاض ، ولم ينتفع به ، فأعرف لهذه
تخلفها ، فلارد آفات ، كما الأخذ آفات كما لا يخفى ، ولورع من ورعه الله ، وإنما يورعه
فإن علم صدقه في ورعه . انتهى كلام الشيخ زروق .

قلت : وقد اضطرب العلماء في هدايا الملوك وإجازتهم ، فمنهم من قبلها ، ومنهم من ردّها وقد ذكر الغزالي في الإحياء جماعة ممن قبلها ومن ردّها ، فانظره إن شئت .

وقوله : « بل أكلوا بما استبان حله ، إلخ » يعني أن القوم لا يأكلون إلا ما ظهر حلّه وتحققت إباحته ، ولا يأكلون بما لا يعرفون أصله ، هل هو حلال أو حرام ؟ ولعل ذلك مع قيام الريبة والشك ، والله تعالى أعلم .

وقد استوفى الغزالي في الإحياء الكلام على الحلال والحرام ، فعليك به .

ثم ذكر الناظم بعض آداب الأكل ، فقال :

ولم يكونوا كرهوا الكلام عليه لكن كرهوا الإرغام

قلت : الكلام على الطعام حسن ، لأن السكوت عليه يدل على الشره والهمة ، ويستحب أن يكون بعلم ، أو بحكايات الصالحين ، ويكون الكلام بعد بلع الطعام ، لا في حال مضغه ، لأنه ربما يخرج شيء من فيه فيسقط في الطعام فيقذره على غيره ، فلا يتكلم إلا كل ما دام الطعام في فيه ، وقد ذكر عن بعض المشايخ أنه استحب أن يسمى عند كل لقمة ، ويحمد هند ابتلاعها ، قال ابن الحاج : وهذا أمر حسن ، لكن السنة لم ترد به ، وهي أحسن من كل ما سواها ، فلم يكن القوم يكرهون الكلام في حال الطعام ، لكن كانوا يكرهون الإرغام : أي التحتم على الإخوان في الأكل ، لما في ذلك من التكلف المنهى عنه ، بل الأدب في ذلك تركه يفعل ما يشاء ، وقد يكون قولك له : كل ، سبياً في رفع يده حياء ، فالواجب على صاحب الطعام أن يدفع الطعام ويقرب لهم الماء ، وينيب عنهم ، فهو في غاية اللطافة ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر وقت الأكل فقال :

ويكرهون الأكل مرتين في اليوم والمرة في اليومين

قلت : إنما كرهوا الأكل في اليوم مرتين ، لما فيه من تقوية شهوة الطعام ، وقد تنهوا عنهم لا يأكلون إلا عن قاعة^(١) ، وقد قيل لسهل رضي الله عنه : أكلة في اليوم ؟ قال : أكلة الصالحين ، قيل : أكلتان ؟ قال : أكلة المؤمنين ، قيل : ثلاثاً ؟ قال : يا هذا مر أهلك بينو لك سلاقاً .

(١) أي حاجة إلى الطعام .

والمراد باليوم ياض النهار ، ومن الفجر إلى الغروب ، والغالب أن الأكل فيه مرتين
بثقل الأعضاء ويبطئ الهضم ، ويفسد الطعام في المعدة ، وفيه قال ابن سينا عفا الله عنه :

نوق إذا ما شئت إدخال مطعم	على مطعم من قبل فعل المواضع
فكل طعام يعجز السن مضغه	فلا تبتلعه ، فهو شر المطاعم
واجعل طعامك كل يوم مرة	واحذر طعاماً قبل هضم طعام

وقال آخر :

ثلاثة هي أسباب المنايا	وداعية الجسوم إلى الحمام
تكاح يستدام وكثرة نوم	وإدخال الطعام على الطعام

ورضهم من كلام الناظم أن المدوح هو الأكل مرة في اليوم يعني مرة في النهار ، ومرة
والليل ، وهو الوسط ، وأن الأكل مرة في اليومين تفريط ، كما أن الثلاثة في اليوم إفراط .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وهذا حكم من اعتدل مزاجه أو قارب ، فأما من
انحرف إلى حد الإفراط أو التفريط ، فلا ينبغي أن يهمل حكمه ، بل يعدل بما يصلحه من
غير إخلال ولا بعد للحق ، فإن الشبع المفرط الذى يفسد المعدة ويضيع الطعام من غير
احتياج محرم ، والذى يثقل الأعضاء ولا يفسد شيئاً مكروه ، على خلاف فيه ، والأولى
بالشخص ألا يأكل حتى يجوع جوعاً متوسطاً ، وهو الذى يشتهى ما يقوم به أوده ، أى قوامه
من متاد طعامه ، ولا يفرط إلى أن يشتهى كل خبز ، فإنه مضر بالفكرة ، محمل بالقوة ،
ولا يفرط بحيث يأكل بالتشهى ، وهو طلب الطعام مقروناً بالشهوة ، ثم ذكر استحباب
الاجتماع على الطعام ، فقال :

وفضلوا الجمع على الأفراد فيه لأجل كثرة الأياد

قلت : إنما فضلوا الاجتماع على الأفراد في الأكل ، لثلاثة أوجه :

أحدها : ما في ذلك من التماس البركة الحسية والمعنوية ، أما الحسية فلقوله عليه الصلاة
والسلام « اجتمعوا على الطعام يبارك لكم فيه (١) » ، وأما المعنوية فلقوله عليه الصلاة والسلام «

(١) رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن ماجه ، والحاكم ، وابن حبان بلفظ : « اجتمعوا
على طعامكم واذكروا اسم الله يبارك لكم فيه » .

« من أكل مع مغفور غفر له ، وبقدر ما تكثر الجماعة تعظم البركة ، لأن مع كل إنسان ملكين أو أكثر ، فيكثر حضور الملائكة بقدر ما يحضر من الناس .

وكان الجنيد رضى الله عنه يقول : المؤاكلة مراعاة ، فانظروا من تؤاكلوه .

وثانيها : ما فى ذلك من العفة والقناعة وعدم الحرص والثروة ، لأن أكل الإنسان وهو **أيدل** على نذالته وبخله فى النذالة وحرصه بهمة ، والنذالة باللام بعد الذال هى الرذالة والخمار وبخله أو حرصه ونهمته ، وفى الحديث « شر الناس من أكل وحده » ، وضرب عبده ، ورفضه ، إلا لضرورة شرعية أو عادية .

وثالثها : ما فى ذلك من الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقد كان عليه السلام لا يأكل طعاماً إلا على صنف أعنى كثرة الأيدي (١) ، وكان سيدنا إبراهيم الخليل اتخذ قبة ينظر منها مد بصره من كل ناحية لأجل الضيفان ، وربما كان يمشى الأميال فى طه من يأكل معه .

وقوله : لأجل كثرة الأيدي يصدق بالأوجه الثلاثة ، والأيدى جمع أيد ، وأيدى يد ، فهو جمع الجمع ، والله تعالى أعلم ، ثم ذكر آداباً آخر فقال :

ولم يلقم بعضهم لبعض ولم يحمل بصره بل بنض قلت : أشار رحمه الله إلى أن الصرفية لم يكن من عادتهم أن يلقم بعضهم لبعض ، وبذلك إذا كان على وجه الانبساط والملاعبة لما فيه من قلة الاحتشام والنوقير ، أو يحمل ذلك على تلقيم الخادم إذا أتاكم بالطعام ، وهو نص قول السلى : « وكره أكثرهم تلقيم يخدمهم بما بين أيديهم ، لاسيما إذا كان ضعيفاً ، فإنه لا يجوز له التصرف فيما قدم إليه فقال بعضهم : يملكه بالإحضار بين يديه ، وقال بعضهم : بالتناول ، وقال بعضهم : بالوفى فى الفم ، وتال بعضهم : باستيفاء الأكل ، وقال الجنيد رضى الله عنه : تهزل الرحمة بالفقراء عند الطعام ، فإنهم لا يأكلون إلا بالإيثار ، انتهى كلام السلى .

فجعل التلقيم المكروه إنما هو للخادم ، لكن قول الناظم بعضهم لبعض ، ظاهر فى تهالف الفقراء ، فيحمل على ما تقدم من الانبساط ، وأما إذا كان على وجه التبرك بمن يرجى بوجوه

(١) رواه أبو يعلى والطبرانى فى الأوسط وابن عدى فى الكامل بلفظ : « أحب الله إلى الله ما كثرت عليه الأيدي » .

خلا بأس ، وللتأخيرين من المشايخ فيه أسانيد وطرق ، وقد يستدل له بحديث المرأة التي سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يناولها إنما يأكل ، فناولها من بين يديه ، فقالت : لا أريد إلا من النى في فيك فناولها ، وكانت قليلة الحياء (١) ، فصارت بعد من أشد الناس حياء ، الحديث .

وقد جرى العمل بهذا بشرط إذا طلب ذلك من الشيخ أو ممن ترجى بركته ، ولا يكلف به من لا يطلبه ، وأشار أيضاً إلى أن الصوفية إذا كانوا في حالة الأكل لا يجملون بصرهم ، أى لا يمدونها إلى من يأكل معهم ، بل يغمضون أبصارهم ، وينظرون أمامهم لما في إجابة البصر من إخراجهم وقلة المروءة معهم ، فإن هبته الإنسان في حالة الأكل بشيعة ، لاسيما إذا كان كبير السن ، وقد كان بعضهم ترك أكل الطعام النى يحتاج للضغ حياء من الله أن يراه على تلك الهيئة .

وقال بعضهم : استروا بإدخاله كما تسترون باخراجه ، فالواجب من جهة الأدب ألا ينظر أحد إلى الآكلين ، ولا يقف على رؤوسهم بماء ولا غيره ، بل يضعه ويذهب عنهم خلاف ما يفعله أرباب الدنيا في الولايم وغيرها ، والخير كله في الاتباع ، والشر كله في الابتداع .

وكان مالك رضى الله عنه كثيراً ما ينشد هذا البيت :

وخير أمور الناس ما كان سنة وشر الأمور المحدثات البدائع
والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى أدب آخر وهو ، عدم انتظار الغائب إذا حضر الطعام ، فقال :

ولم يروا فيه بالانتظار فيذهب الوقت بلا تذكّار

قلت : أشار رحمه الله إلى أن مذهب الصوفية إذا حضر الطعام بادروا إليه بالأكل ، ولم يكن رأيهم فيه بالانتظار لمن كان غائبا منهم ، بل يعزلون حقه ويأكلون الباقي ، وذلك

(١) يبدو أنها رجعت بركة فم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وليس هذا من باب قلة الحياء وإنما كانت جريئة وقد أراد الله خيراً بها ، فانها رزقت بعد من الحياء ما لا يعلمه إلا الله ببركة فم النبي ﷺ والله تعالى أعلم .

لما في ذلك من التكلف للغائب، وإهانة الطعام بابتذاله، أى إهماله وشنل بال الجائع منهم به لا سيما وهم لا يأكلون إلا عن احتياج، ولأن الحاضر مقدم حقه على الغائب.

قال أبو عبد الرحمن السلي رضى الله عنه : ويكره الانتظار عند حضور الطعام .

وقد قيل : قلوب الأحرار لا تحمل الانتظار، ويكره تفويت الوقت بالاشتغال بالأكل حتى حكى عن بعضهم أنه كان يفطر على حسوة يحسوها، ويقول : الوقت أعز من أن يغفل بالأكل اه .

قلت : وإلى هذا الأخير أشار بقوله : « فيذهب الوقت بلا تذكّر ، ولعله مرتب على محذوف تقديره ولا يطيلون الجلوس عليه فيذهب الوقت بلا ذكر كما رتبته السلي ، والناظم في هذا الباب ما نظم ، إلا ما ذكره السلي حرقا حرقا ، غير أنه قدم وأخر ، وفيه تنبيه على ما كان عليه السلف من الجد والاجتهاد ، ومحافظةهم على أوقاتهم وساعاتهم .

قال الحسن البصرى رضى الله عنه : أدركت أقواما كانوا على ساعاتهم أشفق منكم على دنائهم كم ودراهمكم ، يقول : كما لا يخرج أحدكم دينارا ولا درهما إلا فيما يعود عليه نفعه ، فكذلك لا يحبون أن يخرج ساعة من أعمارهم إلا فيما يعود عليهم نفعه .

وقال السرى السقطى : خرجت يوما من بغداد، أريد الرباط بعبادان ، أصوم بها رجب وشعبان ، (فاتفق أن مرت (١)) في طريقى على الجرجاني ، وكان من الزهاد الكبار ، فدنا وقت الإفطارى ، وكان معى ملح مدقوق وأقراص ، فقال : ملحك مدقوق وممك ألوان من الطعام ، لم تخلع ولن تدخل سنن المحبين ، فنظرت إلى مزود كان معه فيه سويق الشعير ، فسف منه ، فقلت : ما دعاك إلى هذا ؟ فقال : إني سبعت ما بين المضغ والسف سبعين تسبيحة ، فما مضغت الخبز منذ أربعين سنة ، وفي الخبز ما من ساعة تأتي على العبد لا يذكر الله فيها إلا كانت عليه حسرة يوم القيامة (٢) أنظر تنبيه ابن عباد ، فقد أطلال فيه .

ثم نهى عن كثرة الأكل فقال :

وكرهوا البطنة للإخوان فالبطن كالوعاء للشيطان

(١) وضعها ليستقيم المعنى إذ لم تكن بالأصل الذى راجعنا عليه .

(٢) رواه أبو نعيم في الحلية والبيهقى في شعب الإيمان عن عائشة رضى الله عنها .

قلت : البطنة بكسر الباء هي : امتلاء البطن من الطعام ، فأخبر رحمه الله أن الصوفية كرموا البطنة للإخوان ، وهي الشبع ، أو الزائد فوقه إلى حد لا يضرب ، وإلا حرم ، وأشار بهذا إلى قول سيدنا عمر رضي الله عنه : « إياكم والبطنة فإنها تذهب الفطنة ، وتبطل بالجوارح عن الطاعة » .

وأشار بقوله « فالبطن كالوعاء للشيطان » إلى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان يجري من ابن آدم مجرى الدم ، فضيقوا مسالكه بالجوع » (١) .

فالبطن إذا امتلأت كثر دم البدن ، فتسع بجاريه للشيطان فيسلط عليه الكسل والثقل . رسو الخواطر ، والوساوس ، فيكون جسمه كالوعاء للشيطان ، يحشو فيه ما شاء .

وقد قال لقمان لابنه : يا بني إذا ملأ البطن نامت الفطنة ، وخرست الحكمة .

ومن ابن عباس رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يدخل ملكوت السماء من ملأ بطنه » (٢) .

وقيل يا رسول الله : من أفضل الناس ؟ قال : من قل طعمه وضحك ، ورضى بما سقر به عرقه .

وقال صلى الله عليه وسلم « البسوا ، واشربوا ، وكلوا في أنصاف بطونكم ، فإنه جزء من النبوة » .

وقال صلى الله عليه وسلم : « لا تميموا بطونكم بكثرة الطعام والشراب ، فإن القلب كلزرج يمت إذا كثر عليه الماء » .

وفي حديث آخر : « إن الله يباهي الملائكة بمن قل طعمه في الدنيا ، فيقول انظروا إلى عبدي ابتليته بالطعام والشراب في الدنيا فتركهما ، شهدوا يا ملائكتي ما من أكلة بعدها إلا أبدلته بها درجات في الجنة » اهـ .

(١) رواه ابن أبي الدنيا في « مكاييد الشيطان » .

(٢) يؤيده ما رواه الديلمي في مسند الفردوس عنه صلى الله عليه وسلم : « البسوا الصوف رزقوا ، وكلوا في أنصاف البطون ... تدخلوا في ملكوت السماء » .

وقد ذكر في كتاب الإحياء للجوع عشر فوائد :

الأولى : صفاء القلب ، وإنقاذ القريحة ، ونفوذ البصيرة . فإن الشبع يورث البلاء
فيؤيقس القلب ويكثر البخار في الدماغ ، كشيء السكر حتى يحتوى على معادن الفكر ، فيشتغل
القلب بسببه عن الجريان في الأفكار .

الثانية : رقة القلب وصنائه الذي به يتنبأ لإدراك لذة المناجاة والتأثر بالذكر ، فكم من
ذكر يجري على اللسان مع حضور القلب لا يلبذ به ، حتى كان بينه وبين الذكر حجاب من
قساوة القلب ، قال أبو سليمان : أحلى ما تكون العبادة إذا لصق ظهري ببطني .

وقال الجنيد رضي الله عنه : يحمل أحدكم بينه وبين الله مخلة من طعام ، ويريد أن يعمل
حلاوة المناجاة .

الثالثة : الانكسار والذل ، وزوال البطر والفرح والاشرف الذي هو مبدأ الطغيان
والغفلة عن الله تعالى ، ولا تنكسر النفس ولا تذلل بشيء كما تذلل بالجوع ، فعنده تسكن
لربها وتخضع وتقف على عجزها وذلها .

الرابعة : ألا ينسى بلاء الله وعذابه ، ولا ينسى أهل البلاء ، فإن الشبعان ينسى الجائعين .
فيل ليوسف عليه السلام . مالك تجرع وأنت على خزائن الأرض ، قال : أخا أن
أنسى الجائع .

والعبد الفاضل لا يشاهد بلاء إلا ويذكر بلاء الآخرة ، فيذكر بجمعه : جوع أهل
النار ، وبعطشه : عطش يوم القيامة .

الخامسة : كسر شهوات المعاصي والاعتلاء على النفس ، فإن منشأ المعاصي كسر
الشهوات والتموى ، ومادتهما من الأطعمة والأغذية فتقليلهما يجمع كل شهوة وقوة .

السادسة : دفع النوم ودرام السر ، فإن شبع شرب كثيراً ، ومن كثر شربه كثر نومه .
ولذلك قال بعض المشايخ : معاشر المريدین لا تأكلوا كثيراً وترقدوا كثيراً ، فتخسر
كثيراً ، وفي كثرة النوم تضییع العمر وفوات التهجذ ، وبلادة الطبع وقساوة القلب الله
هو أنفاس الجواهر ورأس مال العبد .

السابعة : تيسر المراقبة على العبادة ، الأكل يمنع من كثرة العبادة ، لأنه لا
يحتاج إلى زمان يشتغل فيه بالأكل ، وربما يحتاج إلى علاجه ، ثم يكسر تردده إلى الله

الخلاء ، والأوقات المصروفة إلى هذه لو صرفها إلى الذكر والمناجاة وسائر العبادات لعظم ربحه وكثر خيره ، وبما يتعذر مع كثرة الأكل دوام الوضوء وملازمة المسجد ، فانه يحتاج إلى الخروج لمراقبة الماء وغيره ، ويتعذر أيضاً مع كثرة الأكل عبادة الصوم ، فانه يتيسر لمن تعود الجوع دون غيره .

الثامنة : صحة البدن ودفع الأمراض فان سبب الأمراض كثرة الأكل وحصول فضلة الاختلاط في المعدة ، ثم إن المرض يسبب من العبادات ، ويشوش القلب ويمنع من الذكر والفكر ، وينفخ العيش ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : « المعدة بيت الداء والحمية رأس الدواء » (١) ، و « أصل كل داء البردة » (٢) .

وفي رواية : البطنة « أصل الداء والحمية أصل الدواء » وسمع بعض الفلاسفة من أطباء أهل الكتاب قوله صلى الله عليه وسلم « ثلاث بطام ، وثلاث شراب ، وثلاث نفس » (٣) ، فتعجب منه وقال : ما سمعت بلاما في قلة الأكل أحسن منه ، وإنه لكلام حكيم .

وقال ابن سالم : من أكل خبز الحطة بجنناً بأدب لم يمتل إلا علة الموت ، قيل وما الأدب قال : يأكل بعد الجوع ، ويرفع قبل الشبع .

وفي الخبر المشهور « صوموا تصحوا » (٤) .

التاسعة : خفة المؤنة ، فان من تعود قلة الأكل كناه من المال قدر يسير ، والذي تعود للشبع صار بطنه غريباً ملازماً ، يأخذ بمحنة كل يوم ، فيقول ماذا تأكل اليوم ، فيحتاج إلى أن يدخل المداخل الرديئة ، فيكتسب الحرام فيعصى ، أو الحلال فيذل ، وربما يمد عينيه إلى الطمع في الخلق ، وعو غاية الذل والمهانة ، والمؤمن ضعيف المؤنة لا يذل نفسه في شهوة بطنه .

العاشرة : التمكن من الإيثار والصدق ، فيعزى بالفضيلة على المساكين ، ويمكن

-
- (١) ويؤيده قوله عليه الصلاة والسلام : « ما ملأ ابن آدم وعاء شراً من بطنه » رواه الترمذي من حديث المقدم . (٢) رواه الدارقطني في الملل ، وابن السني وأبو نعيم . (٣) رواه الترمذي من حديث المقدم ، وهو بقية الحديث المتقدم . (٤) رواه ابن السني وأبو نعيم في الحلية والطبراني عن أبي هريرة .

يوم القيامة ، في ظل صدقته ، كما ورد (١) ، فإياك له غزواته للكنيف ، وما يتصدق به غزواته فضل الله ، فليس للعبد من ماله إلا ما تصدق فأمضى أو أكل فأفنى ولبس فأبلى ، قال تصدق بفضلة الطعام أولى من التخصة والشبع .

قال الحسن : لقد أدركنا أقواما كان الرجل منهم يثني وعنده من الطعام ما يكفيه ، ولو شاء لا كلة كلة ، فيقول : والله لا أجعله كلة في بطني ، حتى أجعل بعضه لله تعالى ، فهذه عشر فوائد للجوع ، وتنبعث من كل واحدة قواعد لا تنحصر .

انتهى كلام الغزالي باختصار .

وقد تقدم تقييد الجوع بغير التلفد للمكره أو المله للشرية ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر أدبا آخر ، وهو ألا يرفع يده قبل الناس إذا كان يقتدى به ، فقال : وقالوا : ولا يمسك يدا ما داموا في الأكل ، ليفهم رفق ما قاموا .

قلت : من آداب الأكل مع الجماعة ألا يمسك يده قبلهم حتى يعلم أن القوم أخذوا حاجتهم من الطعام ، وهذا إذا كان كبيرا يقتدى به ، أو رب المنزل .

وفي بعض الآثار ، إن لم تأكل فأكل ، فإن رفع اليد قبل الجماعة ينجلهم ويمنهم من الاسترسال في الأكل ، وقد يكون معهم من هو في الحاجة ، فيمنعه من الأكل فيتضرر بسببه ، ولهذا قالوا : من الأدب الجهر بالتسمية والإسمرار بالحمدلة ، لأن الجهر بها ينجل من معه ، فهو رفع يده قبل قضاء حاجته من الطعام .

ومن آدابهم أيضا : لا يجلس إذا قام القوم عن الطعام ، بل يقوم معهم لأن جلوسه يدل على مذاته : أي سقاطته وهجته ، وإن كان محتاجا ، إلا في محل لا يدركه شيء من ذلك .

قال السلي رضي الله عنه : وإذا كان مع جماعة فلا يمسك عن الأكل ما داموا يأكلون ، لا سيما إذا كان متقدمهم .

(١) ولفظ الحديث كما رواه الحاكم من حديث عتبة بن عامر ، كل امرئ في ظل صدقته حتى يقضى بين الناس ، ورواه الإمام أحمد أيضا :

روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا أكل مع جماعة كان آخرهم أكله .

ولم يذكر السلي ما ذكره الناظم بقوله ، وليقم متى قاموا ، لكنه ظاهر .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وينبغي أن يراعى في كل موقف ما يليق به ، فطعام
الفقراء يأخذ منه قدر حاجته سواء قلت أو كثرت .

قلت : والمراد بالفقراء : الإخوان .

ثم قال : وطعام المتفضلة أى الأجانب المتفضلون به ، يأخذ منه مقداراً لا يخل بمروءته
ولا يقدح عدهم في ديانتهم ، لأنه إن قلل : قالوا مرء متصنع ، وإن كثر قالوا : لأنهم
متوسع ، ومنه رأيا في أكله فقد ستر نفسه ، كذا قال بعض الثنايخ لمن رآه يأكل أكلاً غنياً
فتناه ، فقال : كل من رآه في أكله فقد رآه في دينه ، وطعام العامة من المحبين والمتسعين
يأخذ مند على قدر شاهد الحال .

وقد كان حدود الضار إذا دعى أصحابه إلى وليمة أشبههم قبل الإجابة ليتناولوا بالمر .

وكان الشيخ أبو مدين رضى الله عنه : يفعل ذلك ويندبهم عنده بأطيب الطعام .

ومن آدابهم : السخاء ، والإيثار ، والتوسط في تناوله ، كما أبان ذلك بقوله :

وأمرؤا فيه بفتح الباب وأكلو بالقصد والآداب
وفتحوا الباب لكل سار وأكلوا بالرفق والإيثار

قلت ذكر من آداب القوم في الأكل خمسة أمور :

أحدها : فتح باب المنزل الذى يأكلون فيه ، ليدخل عليهم كل من يحتاج إلى الأكل ،
وفيه دلالة علىكرمهم وحنى قلوبهم ، لأنهم لا يدفعون من يأتيهم ، بل يقابلونه ويفرحون
به ، وربما رأوا له المنة عليهم في أكله معهم ، بل يعتقدون أنه هدية من الله إليهم ، لا سيما
لأن كان من إخوانهم أو من ذوي الحاجة لقوله عليه الصلاة والسلام : السائل على باب أحدكم
هدية من الله تعالى (١) ، أو كما قال .

(١) وقال صلى الله عليه وسلم : « ردوا السائل ولو بثلث عرق » . روى البخارى في
التاريخ والإمام أحمد والنفائى عن حواء بنت السكن ، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام :
« ردوا مائة سائل ولو ولو بمثل رأس الدباب » . روى الترمذى عن أم المؤمنين عائشة .

وكان الشيخ الغوري رحمه الله يقول : رأيت لبعض العلماء أنه قال : يجب على الإنسان إذا وقف السائل وهو يأكل أن يتأمله .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : فقلت له : يجب ؟ قال : نعم ، مثل الصلاة ، قال : فاستغربته ، وسألت عنه جماعة بالمشرق والمغرب ، فلم أجده عند أحد ، واستدل له بأن عائشة رضى الله عنها أعطته حبة عنب ، وذكرت حديثه ردوا للسائل ولو بثق تمره .

قال : وفي الاستدلال على الوجوب نظر .

قلت : إنما يظهر الوجوب إذا كان مضطراً أو حاملاً .

ثانيها : الأكل باقتصد من غير إفراط ولا تفريط ، فلا يزيد على الشبع المعتاد ، بل يقصر عنه ، ولا يقال جداً حتى يحتل بدنه ، وخير الأهور أوسطها ، وكذلك لا يكبر اللقمة جداً ، ولا يصغرها جداً ، والوسط مطلوب في كل شيء .

وقال تعالى : - ولا تجعل يدك مملوكة إلى عنقك (١) - الآية ، وقال - والذين إذ أنفقوا لم يسرفوا ولم ينسوا وكان بين ذلك قواً (٢) - .

وقال عليه الصلاة والسلام ما عمل من اقتصد (٣) ، إلى غير ذلك من الأخبار .

ثالثها الأكل بالآداب ، وهي كثيرة ، فمنها ما يتعلق في أوله ، وهي التسمية جهرآ .
ونية التقوى على الطلعة .

والاعتبار في تيسيره بعد أن عمل فيه عوالم كثيرة ، وذلك اليد إذا كان سنة ذراً (٤) ،
ولا فلا ، والأكل على السفرة دون الخوان المرتفع (٥) .

والجلوس على إحدى رجليه ، وهي القيمري وريح الأخرى وإصاقتها ببطنه .

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٢٩ .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٦٧ .

(٣) رواه الدارقطني والطبراني عن ابن عباس بنظ : ما عمل مقتصد .

(٤) غسل اليدين سنة سواء كان فيها نذارة أو لا ، واتجاه السنة أولى .

(٥) لأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يأكل على خوان قط .

والشعر عند الأكل، قاله السلي .

ومنها ما تطلب بعد الشروع فيه : وهي الأكل بثلاثة أصابع ، حيث يتأتى ذلك .

قال السلي : وليس من الظرافة أن يغمس يده في الطعام بحيث يتلطيخ به اه .

والأكل بما يليه . وتصفير اللقمة ، وتجويد المضغ ، وترك النظر إلى لقمة صاحبه ، وترك لبق الأصابع قبل تمامه ، ثم يرده في القصة ، وترك الانحناء على الطعام لئلا يسقط من فيه شيء . فيقذره على غيره ، وترك تفحص اليد عما يفضل من لقمته في القصة ، فإن ذلك يندر على الآكسين ، وهذا كثيراً ما يفعله من لا معرفة له بالآداب ، فليتحرز الفقير منه جهده . فإن التصرف كله آداب كما يأتي إن شاء الله ، وترك مسح يده في جوانب القصة ، وترك الأكل وسط القصة .

وقد قال صلى الله عليه وسلم : « كلوا من حواشيها ولا تأكلوا من وسطها فإنها بركة » (١) .

والأكل باليد إلا ما كان مائساً أو خفيفاً .

وكره بعضهم الأكل بهذه اللقاع إلا لفروء .

ومنها ما تطلب بعد انتهاء ، وهي : الحمد لله ، وابق الأصابع . لقوله عليه الصلاة والسلام : « إن أحدكم لا يدري في أي طعامه البركة » (٢) ثم مسحها ثم غسلها .

وقد روى بعضهم لهذا الترتيب بالفظ : « داغ ، فالام لائق ، والميم للمح ، والذين للتسل .

ومنها لفظ ما سقط من الطعام ، يقال : إنه مهر الحور .

وبقي من الآداب التي تطلب عند الأكل : الأكل باليمين بدلاً من اليسار ، إلا أن يكون .

(١) رواه الإمام أحمد والبيهقي عن ابن عباس بالفظ . « كلوا من أطرافها من جوانبها ولا تأكلوا من وسطها فإن البركة تنزل في وسطها » ، وقال أيضاً عليه الصلاة والسلام : « كلوا من حواشيها ، وذروا ذروتها يبارك فيها » ، رواه أبو داود وابن ماجه عن عبد الله بن بسر .

(٢) رواه الإمام مسلم عن حديث جابر بالفظ . « فإذا فرغ فليبق أصابعه فإنه لا يدري في أي طعامه تكور البركة » ، والبيهقي في الشعب : « لا مسح أحدكم يده بأنديل حتى يلعق يده » ، فإن الرجل لا يدري في أي طعامه يبارك له فيه .

في هذه طعام وفي هذه ادام ، كما وقع لسيدنا على كرم الله وجهه ، إذ كان في إحدى يديه خبز وفي أخرى شواء ، وعدم القران في النمر مثلاً ، إلا أن يكون مع قوم أطعمهم وعدم جولان يده إلا أن يكون مع أهله وولده ، وحيث يباح له الجولان .

وآداب الأكل كثيرة ، ذكر منها في المدخل نبذة صالحة .

ورابعها : الأكل بالرفق ، وهو الثاني في الأكل بحيث يصغر القمة ، ولا يرفع أخرى حتى يبتلع ما في فيه ، ويجبد المضغ ويلوك طعامه إلى أن ينعمه مضغاً ، ولا يظهر الشره والحرص ، بل يظهر للقناعة والفنى عنه .

وخامسها : الأكل بالإيثار ، وهو أن يؤثر غيره على نفسه إن كان الطعام قليلاً ، أو كان فيه ما يشتهى فيقدمه لغيره ، كلحم جيد أو غيره ، والإيثار : بذل ما تمس الحاجة إليه دون ضرر لاحق في الحال والمآل ، وقد مدح الله أهل الإيثار بقوله تعالى - ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة (١) - .

وقال بعضهم : الزهد عندنا : إذا وجدنا آثرنا ، وإذا فقدنا شكرنا .

وقوله : وفتحوا الباب ، إلخ لما كان الأمر لا يلزم الفعل ذكر أولاً الأمر ، ثم صرح بالفعل ، أو يحمل الأول على الباب الخارجة ، والثاني على الباب الداخلة إن كان للنزل بابان ، والله تعالى أعلم تنمة .

قال أبو عبد الرحمن الدلمي رضى الله عنه : قال بعض مشايخ الصوفية : واجب على المضيف ثلاثة أشياء ، وعلى المضيف ثلاثة أشياء .

فأما على المضيف بأن يطعمه من الحلال ، ويحفظ عليه مواقيت الصلاة ، ولا يجلس عنه ما قدر عليه من الطعام .

وعلى المضيف أن يجلس حيث يجلسه ، وأن يرضى بما قدم إليه ، وألا يخرج إلا بعد استئذان .

وروى عن ابن عباس رضى الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : من السنة أن يشيع للمضيف إلى باب الدار (٢) .

(١) الآية : ٩ من سورة الحشر .

(٢) ذكره الغزالي في الإحياء ، ولم يخرج المراقى .

قلت : وإن زاد فهو خير .

ويذكر أن سيدنا إبراهيم الخليل كان يشيع الضيف مسيرة ميل أو أكثر ، والله تعالى أعلم .
ثم أشار إلى الحكم الخامس من الأحكام للقسعة ، فقال : والخامس ما يلزمهم من الآداب
هذه الاجتماع ،

وحاصل هذا الحكم الحض على الآداب ومواطنه وكيفيته ، فقال موطناً للكلام عليه :
والطريق ظاهر وباطن تعرف منه صحة البواطن

قلت : المراد بالطريق هو طريق السلوك إلى ملك الملوك ، وهي طريق للصوفية ، ولها
ظاهر وباطن ، فظاهرها ما يتعلق بإصلاح الجوارح الظاهرة ، وباطنها ما يتعلق بإصلاح
العوالم الباطنية .

وأخبر أن استقامة الظواهر دليل تعرف منه استقامة البواطن ، وعبر عن الاستقامة
بالصحة ، فصحة الظاهر عنوان صحة الباطن .

قال ابن عطاء الله في الحكم : حسن الأعمال نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال
من التحقق بمقامات الإنزال .

وقال أيضاً : ما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر ، إلا أن ما تعلق
بإصلاح الظواهر يسمى شريعة وما تعلق بإصلاح البواطن يسمى طريقة ، ثم حقيقة .

ثم بين ما يختص بالظاهر وما يختص بالباطن فقال :

ظاهره	آداب والأخلاق	مع كل خلق ماله خلق
باطنه	منازل الأحوال	مع المقامات لذى الجلال

قلت : لما أخبر أن للسريق لها ظاهر ، وهو ما يظهر على الجوارح من الآداب المرضية
والأخلاق السنية والأعمال الزكية ولها باطن ، وهو : ما يمكن في القلوب من الواردات
الإلهية والأحوال الربانية والمقامات البقية والعلوم الدنية والأسرار القدسية ، عين هنا
ما يختص به الظاهر وما يختص به الباطن ، فأخبر أن ظاهر الطريق : الآداب ، وحقيقته
عند الصوفية حفظ الحواس ، وضبط الانفاس ، أى الأوقات ، والحق أنه تهذيب الجوارح
ونصرها في أنواع المصالح .

قال السلي رضي الله عنه : وعلى كل جارحة آداب تختص به ، قال الله تعالى - إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا (١) .

وقال بعض المشايخ : حسن - مع الله تعالى : لا تتحرك جارحة من جوارحك في غير رضي الله عز وجل ، فأدب اللسان أن يكون رطباً بذكر الله تعالى ، وبذكر الإخوان بخير ، والدعاء لهم ، وبذل النصيحة ، والوعظ ، ولا يكلمهم بما يكرهون ، ولا يفتب ولا يتم (يعني يمتن بالنسيئة) ولا يشتم ولا يخض فيما لا يعنيه ، وإذا كان في جماعة فكلم معهم ما داموا يتكلمون فيما يعينهم ، فإذا أخذوا فيما لا يعينهم تركهم وأمسك ، ويتكلم في كل مكان بما يوافق الحال ، فقد قيل : لكل مقام مقال ، وقيل : خلق الله اللسان رجلاً للقلب ، ومفتاحاً للخير والشر ، وقيل : إذا طلبت صلاح قلبك فاستعن عليه بحفظ لسانك ، والزم الصمت ، فانه من الجهل وزن العاقل ، قال صلى الله عليه وسلم : وهل يكب الناس على وجوههم أو مناخرهم إلا حصائد ألسنتهم (٢) .

وآداب السمع : ألا تسمع الفحش والحناء والغبية والنسيئة والمناكر ، والشذوا :

أحب الفتى ينفي المناكر سمعه كأن به عن كل قاحشة وقرأ

بل يسمع الذكر والوعظ والحكمة وما يعود إليه بالفائدة ديناً ودنياً ، ويحسن الإصغاء إلى مكلميه ومخاطبيه ، مانذا بذلك .

وآداب البصر : الغض عن المحارم ، وعن عيوب الإخوان ، وعن المنكرات والمحرمات ، فان الله تعالى - يعلم خائنة الأعين وما تخفي الصدور - .

وقيل : من طأوع طرفه تابع حشفه (أي موته) وفي رواية (من أرسل طرفه مات حشفه) وأنشدوا .

ولأنك مهماترسل الطرف رائداً لقلبك يوماً أتعبتك الماظر

ترى ما الذي لا كله أنت قادر عليه ، ولا هن بعضه أنت صابر

ثم قال السلي : وقيل من غض طرفه تم ظرفه ، وقيل : من كثرت لحظاته دام حسراه ، ويكون نظره بالاعتبار والاستدلال على قدرة الله تعالى وعظمته وجبل صنعه ، طارياً عن حظوظ النفس الأمارة بالسوء .

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦ .

(٢) رواه الترمذي ومصححه ، وابن ماجه ، والحاكم وقال : صحيح على شرط الشيخين .

حكى عن بعضهم أنه قال : نظرت إلى شخص نظرة شر ، فرأيت في المنام قائلاً يقول لى : الدنيا دارى ، والخلائق فيها عبيدى وإمامى ، فمن نظر إلى واحد منهم بنير حق فقد عانى ، فالتبته وآليت ألا أنظر إلى شخص بعد ذلك إلا دلى حد الأمانة .

وحكى عن أبى يعقوب النمر جورى أنه قال : رأيت فى الطواف لساناً بفرد عين^(١) ، وهو يقول : أعود بك منك ، فقلت : ما هذا الدعاء ، فقال : اعلم أنى مجاور منذ خمسين سنة فرأيت يوماً شخصاً استحسنته فإذا اطمة وقت على صنى ، فسالت على خدى ، فقلت : آه قبل لى : لحظة بلطمة ، ولو زدت لزدناك .

وقال صلى الله عليه وسلم لعل رضى الله عنه : إياك أن تتبع النظام فان الأولى لك والثانية عليك^(٢) .

وآداب القلب مراعاة الأحوال الحسية المحمودة ، ونفى الخواطر الردية المذمومة ، والتفكر فى آلاء الله ونعماته وعجائب خلقه ، قال الله تعالى - ويتفكرون فى خلق السموات والأرض^(٣) - الآية .

وقال صلى الله عليه وسلم : تفكر ساعة خير من عبادة سنة^(٤) .

قلت : وفى رواية : خير من عبادة سبعين سنة .

فيجمل الأول على تفكر أهل الدليل ، والثانى على تفكر أهل الهوى .

ومن آداب القلب : حسن الظن بالله وبجميع المسلمين ، وتطهيره من الذل والحسد والخيانة وسوء الظن وسوء المعتقد ، فأنها من خياناته ، قال الله تعالى - إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه حسوا^(٥) - .

وقال النبي صلى الله عليه وسلم : إن فى الجسد مضة إذا صلحت صلح بصلاحها سائر الجسد ، وإذا فسدت فسدت سائر الجسد ، ألا وهى القلب^(٦) .

(١) يعنى بين واحدة .

(٢) رواه الترمذى ، وقال : حديث غريب . ورواه أبو داود .

(٣) سورة آل عمران ، الآية : ١٩١ .

(٤) رواه ابن حبان فى كتاب النظمة .

(٥) سورة الإسراء ، الآية : ٢٦ .

(٦) متفق عليه .

وقال سري السقطي : للقلوب ثلاثة ، قلب كالجبل لا يحركه شيء . وقلب كالنخلة أصلها ثابت والرياح يميل بها يمينا وشمالا ، وقلب كالريشة يذهب مع كل ريح ولا يثبت .
وآداب الدين : البسط بالبر والإحسان ، وخدمة الإخوان والأستعين بهما على مصيبة الله تعالى .

وآداب الرجلين : السعي بهما في صلاح نفسه وإخوانه ، والألمش بهما مرصاً ، ولا يختال ولا يتبخر ، ولا يزهر ، فانها بما ينفضه الله تعالى ، وألا تستعين بهما على المعاصي . انتهى .

وأما الأخلاق ، فالمراد بها : حسن الخلق مع كل مخلوق ، ورجعها إلى : الحلم ، والصبر ، والصبر ،

أو تقول : مرجعها إلى أن تعامل الخلق بما تحب أن تعامل به .

أو تقول : مرجعها إلى كف الأذى ، وبذل النداء ، والإنصاف فيما ظهر وما بدا ، وحل الجفا ، وشهود الصفا ، ورعى الدنيا بالقفا .

وقال الغزالي : هي ملك النفس عند الشهوة والغضب ، ويرجع إلى ما تقدم .

وقوله : مع كل خلق ماله خلق ، معناه : أن تحسن أخلاقك مع من لا خلق له ، أي لا نصيب له عند الله ، أمرك أن تحسن أخلاقك مع من لا قدر له ، لأنه هو الذي يحتاج إلى تحسين الأخلاق ، وأيضاً التأدب وحسن الخلق مع من لا خلق له يتضمن التأدب مع غيره بالاحروية ، ومرجع ذلك لقوله تعالى - خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلین^(١)

قال عليه الصلاة والسلام : « أمرني ربي أن أعطى من حرمني ، وأعفو من ظلمني ، وأصل من قطعني ، » .

وقال تعالى - ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم^(٢) . ومعناه أن تحسن إلى من أساء إليك .

(١) الآية : ١٩٩ من سورة الأعراف .

(٢) الآية : ٢٤ من سورة فصلت .

وقوله : باطنه منازل الأحوال . . . مع المقامات ، يعنى : أن باطن الطريق هو محل نزول الأحوال والمقامات ، وهى القلوب والأسرار ، لأنها باطنية لا يعطىها إلا الله والفرق بين الحال والمقام أن الحال يتحول فيذهب ويحجى ، بخلاف المقام ، فإنه راسخ وتمكين .

قال فى العوارف : كثر الاشتباه بين الحال والمقام ، واختلفت إشارات المشايخ فى ذلك ووجود الاشتباه لمكان تشابههما فى نفسهما ، وتداخلهما فتراءا البعض الشيء حالا وتراءا البعض مقاما ، وكلا الروايتين صحيح لوجود تداخلهما ، ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن اللفظ والعبارة عنهما تشعر بالفرق .

فالحال سمي حالا لتحوله ، والمقام مقاما لثبوته واستقراره ، وقد يكون الشيء بعينه حالا ، ثم يصير مقاما ، مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ، ثم تزول الداعية بغلبة صفات النفس ، ثم تعود ، ثم تزول ، فلا يزال العبد حال المحاسبة تعاوده الحال ، ثم يحول الحال ظهور صفات النفس إلى أن تتداركه المعونة من الله الكريم ، وينقلب حال المحاسبة فتتغير النفس وتنضبط ، وتتملكها المحاسبة ، فتصير المحاسبة وطنه ومستقره ومقامه ، ثم ينازله حال المراقبة ، فن كانت المحاسبة مقامه نصير له المراقبة حالا ، ثم يحول عنه حال المراقبة لتأرب السهو والغفلة فى باطن العبد ، إلى أن ينقشع ضباب السهو والغفلة ، ويتدارك الله عبده المعونة ، فتصير المراقبة مقاما بعد أن كانت حالا ، ولا يستقر مقام المحاسبة قراره إلا بنازل حال المراقبة ، ولا يستقر مقام المراقبة إلا بنازل حال المشاهدة ، فإذا منح العبد نازل حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ، ونازل المشاهدة أيضا يكون حالا يحول بالاستتار ، ويظهر بالتجلى ، ثم يصير مقاما ، وتخلص شمس من كسوف الاستتار ، ثم فى مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه ، كالتحقق بالفناء والتخلص إلى البقاء ، والترقى من عين اليقين إلى حق اليقين ، وحق اليقين نازل يخرق شغاف القلب ، وذلك أعلى فروع المشاهدة ، انتهى .

وكذلك التوبة والورع والزهد والتوكل والرضى والتعليم ، نكون أحوالا ، ثم تصير مقامات ، فإدامت مجاهدة فى أحوال ، فإذا كانت ذوقا فى مقامات .

وقد قالوا : الأحوال مواهب ، لأنها موهبة من الله جزاء على الأعمال ، والمقامات مكسب ، لأن التمكن منها مكتسب بدوام الأعمال .

وفي التحقيق : كلها مواهب .

وقول سيدنا هل كرم الله وجهه : سلوني عن طرق السموات ، فإن أعرف بها من طرق الأرض ، أشار إلى المقامات والأحوال فإن السالك بصير قلبه سماوياً ، فهي طرق السموات ، ومستنزل البركات . قاله الله - عز وجل - أيضاً .

وقوله : لله الجلال ، يتعلق بمحذوف ، أى يستقر بها عند ذى الجلال ، وهو الحق تعالى - ذو الجلال والإكرام - والله تعالى أعلم .

ولما كان بين الظاهر والباطن تلازم : ما كن في هذا ظهر في هذا ، أشار إلى ذلك بقوله :

والآداب الظاهر للبيان دلالة الباطن في الإنسان

قلت : هذا داخل فيما تقدم من أن صحة الظواهر تدل على صحة البواطن ، فما استودع في غيب السرائر ظهر في شهادة الظواهر .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم : من سر سريرة ألبسه الله رداءها

فأحوال الظاهر تابعة لأحوال الباطن ، فالأسرة (١) تدل على السريرة ، وما فيك ظهر على فيك ، وكل إناء بالذى فيه يرشح ، وما غامر القلوب فملى الوجوه أثره يلوح ، فتهذيب الجوارح يدل على تهذيب القلوب ، وآداب الظاهر يدل على آداب الباطن .

حكى أن الجنيد دخل على أبي حمزة النيسابورى ، فرأى أصحابه واقفين عند رأسه كأصحاب الملك ، فقال الجنيد : أدبت أصحابك يا أبا حمزة أدب الملوك ؟ فقال : لا يا أبا القاسم ولكن : أدب الظاهر عنوان أدب الباطن .

وهو الذى ذكر الناظم هنا ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر فضيلته فقال :

وهو أيضاً للفقير سند ولغنى زينة وسودد

وقيل : من يحرم سلطان الأدب فهو بعيد ، ما تدانا واقترب .

وقيل : من تحبسه الأساب فانما تطلقه الآداب .

قلت : المراد بالفقير هنا : من لا مال له ، بدليل مقابلته بالغنى وإنما كان الأدب سنداً للفتنة

(١) الأسرة : أسرة الوجه : ظاهره وشكله : يدل على ما في القلب من ثبات أو تقلب

إذا أنها تتغير بحسب ما فيه . والله أعلم .

أى متنبداً عليه ، ويرتفع إلى مقام الأكارب دينا أو دنيا ، لأن القلوب مجبولة على حب أهل الإحسان والتواضع والحلم ، فإن أراد اللطوق بأكارب الدين كان أدبه معهم سبباً في التحاقه بهم ، وإن أراد اللطوق بأكارب الدنيا ، كان أدبه أيضاً سبباً في لحوقه بهم ، لأن القلوب مجبولة على حب أهل الإحسان كما تقدم .

وإنما كان للفنى زينة وسؤدد ، أى شرفاً ، لأن الفنى محبوب بالطبع ، فإذا كان أديباً نادباً زاد عندهم شرفه .

ومن آداب الفنى : التواضع والكرم ، فإذا خلا من هذين فليس بأديب ، وإذا خلا من الآداب التحق بالاراذل ، وانخرط في سلك الانذال ، ولذلك قيل : خير ما أعطى الإنسان : عقل يزجره ، فإن لم يكن لحياء يمنعه ، فإن لم يكن قال بستره ، فإن لم يكن ضائعة تحرقه يستريح منه للبلاد والعباد .

والآداب أيضاً من موجبات القرب والوصال ؛ ولذلك قيل : من يحرم سلطان الأدب ، أى يمنع منه ولم يوجد فيه شيء منه ، فهو بعيد ما تدانا ، فى زعمه ، واقتراب ، فى وهمه ، فامصدرية ، وتدانا واقتراب من عطف التفسير والمرادف ، أى فهو بعيد مدة كونه متدانياً قريباً فى ظنه .

وأشار بهذا لقول أبى حمزة رضى الله عنه : التصوف كله أدب ، لكل وقت أدب ، ولكل حال أدب ، ولكل مقام أدب ، فمن لزم آداب الاوقات بلغ مبلغ الرجال ، ومن طبع الآداب فهو بعيد من حيث يظن القرب ، ومردود من حيث يظن القبول .

وقال ابن حطاء الله : من جهل المرید أن يسىء الأدب ، فتؤخر العقوبة عنه ، فيقول : لو كان هذا سوء أدب لقطع الامداد وأوجب البعاد ، فقد يقطع المدد عنه من حيث لا يدرى : ولو لم يكن إلا منع المزيد ، وقد يقام مقام البعد من حيث لا يدرى ، ولو لم يكن إلا أن يخلبه وما يريد .

وإنما سمي الناظم الأدب سلطاناً لأنه حاكم على الشخص فى نفسه ، فلا يتركه يميل إلى جهة النقص والذاتل .

ومن فضيلة الأدب أنها تلحق من لا نسب له بذوى الانساب ، وتصير الوضيع شريفاً

والذي رفيعاً ، ولذلك قيل : من تحبسه الآداب الدنيوية تطلقه الآداب المرصية ، أى من يحبسه عن الارتفاع مع الكبراء نسبة الوضيع ، يطلقه إلى طلب علو أدبه الرفيع .

قيل لبعض الملوك فى بعض الكتب انه ليس بحبيب ، أى من قوم لهم حسب ، فسأله الملك ، فقال للملك : أنا حبيب لأولادى ، أى يصير أولادى من ذوى الأحساب بسببى ، وهكذا كما قال بعضهم : ونحن بنات المجد لغيرنا ، أى نحن تؤسس المجد ونبنيه لغيرنا ، ولا نستظل ببناء مجد غيرنا ، وفى ذلك قيل :

كن حليماً ودع فلان ابن من كان حليماً وأجمع إلى الحلم علماً
لا تكن سكراناً فأكلك الناس ولا حظلاً تذاق وترى
ثم تم فضيلته وشرفه فقال :

فالقوم بالآداب حقاً سادوا منه استفاد القوم ما استفادوا

(قلت) السؤدد هو الشرف أى ما ساد القوم وشرفوا . إلا بالآداب مع الله ومع رسوله صلى الله عليه وسلم ومع أشياخهم ومع سائر المسلمين ، فالآداب مع الله بامتثال أمره واجتناب نهيه ، والاستسلام لقهره .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه فى شرح الحكم : هو حفظ الحدود ، والوفاء بالمهود والنطق بالملك الودود ، والرضى بالموجود ، وبذل الطاقة والمجهود .
والآداب مع رسول الله صلى الله عليه وسلم باتباع سنته وإيثار محبته ، والاهتداء بهديه والتخلق بأخلاقه .

والآداب مع الأشياخ بحفظ الحرمة ، وحسن الخدمة ، وصدق المحبة .

والآداب مع المسلمين ، بأن تحب لهم ما تحب لنفسك ، أو أكثر .

وتقدمت آداب الجوارح ، فلا بد منها ، وكذلك آداب الأوقات ، وهى تعيينها بالطاعات ، فأوقات العبد أربعة كما قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : وقت الطاعة ، ووقت المعصية ، ووقت النعمة ، ووقت البلية ، فوقت الطاعة مقتضى الحق منك شهود المنة ووقت المعصية مقتضى الحق منك تحقيق التوبة ، ووقت النعمة مقتضى الحق منك الشكر ، ووقت البلية مقتضى الحق منك الصبر ، فإذا قام العبد بهذه الآداب كلها حصل له الشرف التام والمنزلة الكبرى عند الخاص والعام .

١٦٩

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : وكل نسبة لا أدب فيها فصاحبها كذاب ، لأن عنوان الصدق وجود المراقبة ، وإن كانت النقلة مع حفظ الأصل غير قاذحة ، فقد قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : كل سوء أدب يشر أدبا فليس بأساءة أدب ؛ يعنى من حيث الواقع ، لا من حيث القصد ، فتأمل ذلك ، وبالله التوفيق .

وقوله : منه استفاد القوم ما استفادوا ، يعنى من العلوم والمعارف والانوار والأمرار والكرامات الحسية والمعنوية ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر بعض تفاصيل الأدب ، فقال :

إذ لصحوا الأحداث والأصاغر وحفظوا السادات والأكابر

قلت : ذكر هنا أربعة أصناف من الناس ، من يتأدب معهم إذا اجتمعوا معه ، أولهم الأحداث : جمع حدث :

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : هو من لا نبات له ، وهم ثلاث : الحدث سنا ، وهو الصغير الذى لم يميز حقائق الأمور ، فله ولوع بكل ما يراه أو سمعه من مستحسن ، فلا تؤمن فائلته في الانقلاب ، ثم للنفوس ولوع به ، من حيث الجمال الصورى ، أو من حيث التعلق الروحاني ، وقد يكون ذلك لا يشعر به الشخص ، وقد يكون من حيث شعوره ، وأصحبتهم آفات حاضرة من حيث شغل البال وحفظه ، ثم حيث اشتغال النفس بالليل له ، ثم من حيث كون الضرر في النفس بصحبته ، فلا خير فيها ، ولا بد من نصحه عند إقباله بتعريف الأصول ، وترك الفضول .

قلت : الأصل في صحبة الجوار ، وإنما يمنع لهذه العوارض التي ذكرها ، فمن تحقق سلامته منها فلا يعترض عليه ، وقد ذكره التجيبي ، واستدل للجواز بخدمة أنس بن مالك رضى الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وإن كان عليه الصلاة والسلام معصوما ، فالأصل فيما يفعله الاقتداء حتى يرد ما يخصه به .

القسم الثاني من أقسام الحدث : الحدث غفلا ، وهو الذى لا يثبت على حقيقة ، ولا يتجه على طريقة : يتبع كل ناعق ، ويتنسم كل ناشق ، هذا أعظم ضرراً من الذى قبله لفقدان الحقيقة فيه ، وانتفاء قابليتها منه ، ونصحه بتعريف الوجه الذى يقصده ، ويأيد الحق بوجه واضح حتى تقوم الحجة وتظهر الحجة ، وأكثر ما يوجد هذا في فقراء البادية .

قلته : إن كان على الفطرة سهل علاجه ، وقربت هدايته .

القسم الثالث : الحدث دينا ، وهو مع كل قوم بما هم عليه ، يميل مع كل ربح ، ويسمى : الإمامة بكسر الهمزة وشدة الميم ، ونصحه بدعواه إلى أفراد الوجهة ، وتذكيره بما في ذلك من الضرر .

فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « في كل واد من قلب ابن آدم شعب فمن تتبع قلبه تلك الشعب لم يبال الله في أي واد أهلكه » .

الثاني : الأصاغر ، والمراد بهم : صغار السن الذين لم يبلغوا سن الحداثة والتمكن فيها ، ونصحهم بغرس الخير في قلوبهم ، كما قال ابن أبي زيد في رسالته : « وأرجى للقلوب للخير ما لم يسبق الشر إليها » .

وقال السلي رضي الله عنه : والنصحة مع الأصاغر بالشفقة والإرشاد والتأديب والمحل على ما يوجب حكم المذهب ، ويدلهم على ما فيه صلاحهم ، لا على ما فيه مرادهم ، وعلى ما يفيدهم لا على ما يحبونه ، ويذرمهم عما لا يعينهم .

الثالث للسادات : والمراد بهم : العباد ، والزهاد ، والصالحون ، والعلماء العاملون ، والمريدون السالكون ، الذين لم يبلغوا مرتبة المشيخة ، ونصح الأول بدلالته على الإخلاص وإسقاط الحظوظ النفسانية والروحانية ، ونصح الثاني بتصحيح النية وإفراد الوجهة مع ما نصح به الأول ، ونصح الثالث بتحقيق النوبة والاستقامة ، ونصح الرابع بتحقيق الإخلاص وتوطين الصبر والحلم والتواضع ، ونصح الخامس بالغية عن السوى ، أو بإسقاط الهوى ومحبة المولى ، وحفظهم بالنعمان والتوقيد والاحتشام ، وبإعطاء الرتبة حقها من كل وجه ، ولا يستحق أحداً أقامه الله في مقام من المقامات كيفما كان .

قال في الحكم : إذا رأيت عبداً أقامه الله بوجود الأوداد ، وأدامه عليه مع طول الأمداد ، فلا تستعمرن ما منحه مولاه ، لأنك لم تر عليه سيما العارفين ولا بهجة المحبين ، فقلوا وأرد ما كان ورد .

وقال أيضاً : قوم أقامهم الحق لخدمته ، وقوم اهتمهم بمحبته ، — كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك ، وما كان عطاء ربك محظوراً ، .

الرابع : الأكابر ، والمراد بهم للأشايخ ، وحفظهم بثلاثة أمور : إنباع عاصمهم ، وإن

لم يفهم معناه ، فقد قالوا : خطأ الشيخ أحسن من صواب المرید ، فإن بان غبه توقف من غير اعتراض حتى يظهر أمره .

الثاني : عدم البحث عما جاء به إلا من حيث التفهم ، فإن من قال لاستاذہ : لم ، لا يفلح أبداً .

الثالث : موالة من والام ومعاداة من عاداهم ، ما لم يكن له مانع شرعى ، أو يحرمه إلى منكر .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : آداب الفقير المتجرد أربعة : الحرمة للأكابر ، والرحمة للأصاغر ، والإلصاف من نفسه ، وعدم الانتصار لها .

ثم ذكر آدابهم فى الكلام فقال :

واجتنبوا ما يؤلم القلوب

قلت : هذا عام مع جميع المسلمين ، فلا يتكلم مع مسلم بما يوجهه فى قلبه ، ولو كان غاصباً ، فقد قال تعالى - فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى (١) - .

فالوعظ إنما ينفع إذا كان على وجه الملائمة والحياسة ، ويتأكد ترك ما يؤلم مع الزوجة والأهل ، وكذلك مع الإخوان ، لأن جبر القلوب فى جبر القلوب ، وكسر القلوب فى كسر القلوب ، فمن جبر قلب عبد بإدخال المرور عليه أو هداية إليه : جبر الله قلبه ، ومن كسر قلب عبد بإدخال الحزن عليه أو تنفيره حين كسر الله قلبه ، ومن أراد جبر قلوب عباد الله فليخض عن مساوئهم ، وليسكت عن عيوبهم ، ويرحم الله للقاتل :

إذا شئت أن تحبوا وديرك سالم	وجاءك موفور وعرضك متين
لسانك لا تذكر به عورة أمريء	فعدك عورات ، وللناس ألين
وإن أبسرت عينك عيباً فقل لها	أيا عين لا تنظري فللناس أعين
وعاشر بمروءة رجائب من اعتدى	وفارق ، ولكن بالتي هي أحسن

(١) سورة طه عليه الصلاة والسلام ، الآية : ٤٤ ، هذا مع فرعون ، فكيف بتكفير

للمسلم فى هذا الزمن ؟ ! !

وقال الشيخ زروق : فهذه الآيات جامعة لجميع ما يؤلم القلوب بطريق الاجتناب ، فمن حمل عليها سلم من هذه الآفات التي أصلها كلها التجسس عن أخبار الناس ، وسوء الظن بهم . وقد قال عليه السلام : « ثلاثة لا ينجو منها ابن آدم : الحسد ، والطيرة ، والنظر ، فإذا حسدت فلا تبغ ، وإذا ظننت فلا تمحق ، وإذا تطيرت فأعض » (١) .
ومن خلقه عليه الصلاة والسلام أنه « كان لا يواجه أحداً بما يكره ، إلا أن تنهك حرمت الله » .

ثم ذكر آدابهم في العمل فقال :

.....
وابتدروا الواجب والمندوب

قلت : أشار بذلك إلى كمال عبوديتهم ، وأنهم يتبادرون إلى حقوق مولاهم : واجبة كانت أو مندوبة ، أمثالاً لقوله تعالى - وسارعوا إلى مغفرة من ربكم وجنة عرضها السموات والأرض (٢) - على اختلاف قصدهم .

فهم من يقصد الثواب والنجاة من العقاب عاجلاً وآجلاً ، وهم العوام منهم .
ومنهم من يقصد : تحقيق العبودية والقيام بوظائف الربوبية ، وهم الخواص ، أو خواص الخواص ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر آدابهم مع الأشياخ والإخوان ، فقال :

وخدموا الشيوخ والإخوانا وبذلوا النفوس والأبدانا

قلت : خدمة الشيوخ قرينة عظيمة ومنقبة جسيمة ، وهي سبب الفوز بالوصول إلى معرفة الحق تعالى ، ونيل درجات المقربين السابقين .

وفي ذلك يقول سيدي عبد الوارث رضي الله عنه : خدمة الرجال سبب الوصول إلى مولى الموالى .

وقال سيدي عبداً لله الهبطى رضي الله عنه :

إن كان الخديم ظنه جميل دل على فلاحه دليل

(١) وروى ابن عدى قوله صلى الله عليه وسلم : « إذا حسدت فلا تبغوا ، وإذا ظننت فلا تمحقوا ، وإذا تطيرتم فأعضوا ، وعلى الله فتوكلوا » .

(٢) سورة آل عمران ، الآية : ١٣٣ .

أهل نفسه لخدمة الرجال لكي ينال من حبيبه الوصال
غيره ذل المحب في طلب للقرت عن عزيز عند أهل الحب

وقال أبو عبد الرحمن الدمشقي رضي الله عنه : الصحبة مع الأستاذ بانباع أمره ونهيه ،
وهي في الحقيقة خدمة لا محبة .

قيل لأبي منصور المغربي : كم صحبة أبا عثمان ؟ فقال : خدمته وما صحبته ، يعني أن محبة
الصغير الكبير تسمى خدمة ، لا محبة (١) .

ثم قال : والقيام بخدمة أستاذه واجب ، والصبر تحت حكمه ، وترك مخالفته ، ظاهراً
وباطناً . وقبول قوله والرجوع إليه في جميع ما يعرض له ، والتبرك به واستماع كلامه ،
وتعظيم حرمة ، ومجانبة الإنكار عليه في شيء من أموره ، سرّاً وجهرّاً ، قال الله تعالى
- فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم (٢) - الآية .

سأل بعض أصحاب الجنيد الجنيد عن مسألة فأجابته ، فعارضته في ذلك ، فقال الجنيد : فإن
لم تؤمنوا فاعتزلوا .

ويكون في صحبته كالصحابة رضي الله عنهم مع النبي صلى الله عليه وسلم ، تأديبهم بأداب
القرآن في قوله تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله (٣) - وقوله تعالى -
لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض (٤) -
الآية ، وقوله تعالى - لا تجعلوا دعاء الرسول بينكم كدعاء بعضكم بعضاً (٥) - وما أشبه ذلك .
وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « الشيخ في قومه كالنبي في أمته (٦) » اهـ .

(١) ومنه قول أنس بن مالك رضي الله عنه : خدمت رسول الله صلى الله عليه
وسلم ... الخ ولم يقل : محبت ، وهو أدب رفيع .

(٢) سورة النساء ، الآية :

(٣) و (٤) سورة الحجرات . الآيتان : ١ ، ٢

(٥) سورة النور ، الآية : ٦٣

(٦) رواه الخليل في مشيخته ، وابن التجار عن أبي رافع بلفظ : الشيخ في أهله كالنبي
في أمته ، ورواه ابن حبان في الضعفاء ، والشيخ الرازي في الألقاب عن ابن عمر .

قلت : والحديث قال ابن الجوزي ، إنه موضوع (١) ، والله تعالى أعلم .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : خدمة الشيوخ أمر زائد على تعظيمهم اهـ .

وأما خدمة الإخوان ، فهي إعانة على ما يرضى له من أمور دينية أو دنيوية بنفسه أو بماله أو بجاهه أو بما يقدر عليه .

قال السلي رضى الله عنه : رأيت جدى إسماعيل فى النوم يقول لى : ألسنت تعلم شيئاً من العلوم ؟ فقلت : ربما أعلم شيئاً ، فقال : أليس سئلت أهد عن الاعتقاد فى خدمة الفقراء ؟ فقلت : نعم ، فقال : كتبت ما كتبت ولسنت ؟ محتاج إليه ، إنما هى ثلاث كلمات ، وهى : أن نخدم من فؤدك بالحرمة ، وأقربائك بالنصيحة ، ومن دونك بالشفقة ، وانتهت اهـ .

وقال فى آداب محبتهم ما نصه : والصحبة مع الأقران بالبشر والانبساط والوافقة وبذل للمروف والإحسان ، والكون معهم على حكم الوقت .

حكى أن العباس ابن عطاء همد رجله بين يدى أصحابه ، وقال : ترك الأدب مع أهل الأدب أدب .

وقال الجنيد رضى الله عنه : إذا صحت المودة سقطت شروط الأدب (٢) .

روى عنه صلى الله عليه وسلم أنه كان عنده أبو بكر وعمر رضى الله عنهما ، فدخل عثمان فطلى ركبتيه ، وقال : هـ ألا أستحي من تستحي منه الملائكة (٣) ، فحشمه عثمان وإن عظمته فالحالة اتى بيده صلى الله عليه وسلم وبينهما : يعنى أبا بكر وعمر ، أصنى ، ثم قال : ولا يداهدنهم فيما يخاف المذهب .

وقد قال رويم : ما زالت الصوفية بخير ما تنافروا ، فإذا اصطالحوا فلا خير فيهم ، ويخضع عند الحق لقائله بالقبول .

روى أن عمر رضى الله عنه أمر بقلع ميزاب كان من دار العباس بن عبد المطلب إلى

(١) وكذلك حكم المناوى فى المقاصد الحسنة بوضعه ، وذكر فيه كلاماً طويلاً ، فارجع إليه إن شئت .

(٢) وفى المثل السائر : هـ شدة الافة ترفع الكلفة .

(٣) رواه الإمام مسلم ، والإمام أحمد عن أم المؤمنين السيدة عائشة رضى الله عنها .

الطريق بين الصفا والمروة ، فقال له العباس ، قلت ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم وجهه يده ؟ فقال : إذن لا يردده إلى مكانه غيرك ، ولا يكون السلم فهو عاتق عمر ، فقام على ما تمته ، فردده إلى موضعه ، رضى الله عنهما ، انتهى .

وقوله : « وبذلوا النفوس » إلخ ، والبذل هو الخدمة والمهنة ، يقال : ثوب مبتذل ، أى مهان بالخدمة ، يعنى أنهم بذلوا نفوسهم وأدانوها في خدمة الشيوخ والإخوان ، فقالوا غاية المرفان ، وحازوا أقصى مقام الإحسان ، نفعا الله بهم وخرطنا في سلكهم ، آمين ، ثم ذكر آدابهم في العلم ، فقال :

واحترموا الماضى بما والآت	وانصتوا عند المذاكرات
ووقفوا من دون عالم يصلوا	وسألوا الشيوخ عما جهلوا
وآثروا واغترفوا واحتشوا	وعملوا بكل ما قد علوا

قلت : أما الإشارات عند المذاكرة فلا تهل على كمال العقل والرياسة ، فذوقوا : من كمل عقله قل كلامه ، ومن قل عقله كثر كلامه ، وأيضا الكلام إنما يفهم بتمامه ، فإذا تم الكلام تكلم بما عنده من غير ملاجئة ولا خصام ، ولا ينبغي السكوت بالكيفية إذا لا يعرف الشيخ حاله ولا مقامه إلا بكلامه .

وقال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : تعلم المذاكرة كتعلم الرماية ، فلا بد أن يرموا الإشارة ، فتارة أمامها وتارة قدامها ، حتى يصادفها ، أو كلام هذا معناه .

وأما احترام الماضى فالمراد من تقدم من الصحابة والتابعين والأولياء والصالحين والعلماء العاملين ، واحترامهم ألا يذكروا إلا بالإحسان ، وأن يلتزم لهم أحسن المذاهب .

وبرحم الله التوروى لما سئل عن ابن العربى الحائلى : فقال : « الكلام كلام صوفى ، تلك لغة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسئلون عما كانوا يعملون » .

ومن احترامهم الاستغفار والترضى عنهم ، قال تعالى - والذين جاءوا من بعدهم يقولون ربنا اغفر لنا ولإخواننا الذين سبقونا بالإيمان (١) - .

وأما احترام الآتي ، فمعناه ألا يقطع المادة ويحجر القدرة ، فيقول : انقطعت الأولياء . ولم يبق أحد ، وانقطعت التربية ولم يبق من يصلح لها ، أو كان الناس وليس هذا زمانهم . أو نحو ذلك من سوء الظن بالله وعباده .

وأما دسؤال الشيوخ عما جهلوا ، فلأن طلب العلم واجب على كل مسلم ، وهو معلوم من الدين بالضرورة ، ووقع الإجماع على أنه لا يحل لامرئ أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ، وإنما يستلون عما يحتاجون إليه في الحال من عمل أو حال أو مقام دون ما يتعلق بالمستقبل من المقامات ، وهو معنى قوله : ووقفوا من دون ما لم يصلوا ، يعني دون الذي لم يدركوه بالمنازلة والذوق ، فلا يستلون عنه ، لأنه لا تدركه عقولهم ، وإن أدركته اتصلت به على غير وجه التحقق ، فكان ضرره أكثر من نفعه .

وأما عملهم بكل ما علموا ، فلأن العمل نتيجة العلم ، فعلم بلا عمل وسيلة بلا غاية ، وعمل بلا علم جناية .

وفي الحديث : مثل العالم الذي لا يعمل ، كالشجرة : تحرق نفسها وتضيء على غيرها (١) . .
ولأن العلم يهتف بالعمل فإن وجدته وإلا ارتحل (٢) ، و من عمل بما علم أورثه الله . علم ما لم يعلم (٣) . .

فالعلم إذا أيد بالعمل نهض ، ثم أنتج نوراً تاماً ، ينتج ذلك النور حكمة ، فيكون كل شيء من صاحبه علماً وحكمة .

وقوله : وآثروا ، يعني أنهم آثروا على أنفسهم في الكلام ، فيقدمون أكبرهم علماً لو سناً ، ويؤثرون أيضاً على أنفسهم في صدور المجالس والمجافل ، وكل ما فيه تعظيم .

وقوله : اغتفروا ، أي سألوا وعفوا عن خطيئة الإخوان الذين لم يتهذبوا ، وصبروا على غلظتهم في المذاكرة وغيرها .

(١) رواه الطبراني ، والضياء المقدسي بلفظ : مثل العالم الذي يعلم للناس الخير وينسى نفسه كشئ السراج يضيء للناس ويحرق نفسه . .

(٢) وقال صلى الله عليه وسلم : كل علم وبإل على صاحبه إلا من عمل به . رواه ابن حبان .

(٣) رواه أبو نعيم في الحلية .

وقوله : واحتشموا ، أى تركوا المنازعة والنخاصة والملاجة بالفضب ، لأن ذلك يؤدي إلى الشرور والعداوة والحقد ، فتخرج المذاكرة حينئذ إلى المجادلة والمراء .
وقد قال عليه الصلاة والسلام : من ترك المراء وهو محق بنى له بيت في أعلى الجنة ، ومن ترك المراء وهو مبطل بنى له بيت في أسفل الجنة ، (١) .
ثم ذكر آدابهم في المعاشرة فقال :

واحتكموا بالعدل والإنصاف فوردوا كل معين صاف

فقال : أشار رحمه الله إلى أن الفقراء لا يداهن بعضهم بعضاً في الحق ، ولا يناقش بعضهم بعضاً ، بل ياتمرون بينهم بالمعروف ويتناهون عن المنكر ، فيحكمون بالعدل على بعضهم بعضاً ، وعلى أنفسهم ، ومن توجه عليه حق من الحقوق أنصف وأدعن وانقاد للحق ، ولا يتمصب ولا يتحاي حية الجاهلية ، وحقيقة العدل هو : تنفيذ الحق من غير زيادة عليه ولا نقصان منه ، والإنصاف هو الاعتراف به من غير توقف ، ويقال للإنصاف من شيم الأشراف .

وقال أبو العباس بن العريف رحمه الله : لا بد لطالب العلم الحقيقي من معرفة الإنصاف ولزومه بالأوصاف اه ،

قلت : ولا بد أيضاً للعالم من التحقق بالإنصاف ليرجع للحق أينما ظهر .
وقد قالوا : وإذا أخطأ العالم لا أدري أصيبت مقائله ، .

وكان الشيخ عبد العزيز للهدى رحمه الله : إذا سئل عن شيء لا يدريه يقول : لا أدري ، وإذا سئل عن شيء يدريه يقول : أحب أن أسمعه من غيري .

قال للشيخ زروق رضي الله عنه : ومن عجيب ما سمع في ذلك أن ابن الحاج حكي في مدخله : أنه لما طالب شيخه ابن أبي جمرة رضي الله عنه في أن يقرأ عليه ، قال له : وترك القضاء والأكابر الذين كنت تقرأ عليهم وتقرأ على ؟ فقال : عزمت ، قال : استخرا الله ، قال : استخرت ثم جئت من الغد ، فقال : عزمت ، قلت : نعم ، قال : لا يخطر على بالك أنك جلست بين يدي عالم ولا إلى عالم وأنت متعلم ، ولما قوم اجتمعنا لطلب أحكام الله ، فإن وجدنا الحق على لسان صبي من صبيان المكتب اتبعناه .

(١) وهو حديث طويل رواه الطبراني وذكره الحافظ ابن حجر الهيتمي في الزواجر

قلت : فهذا الامر الذى كان عليه سلف هذه الامة ، وإلا لما صح مخالفة متأخرهم .
لمتقدمهم ، والله أعلم .

ثم المنصف هو : الذى لا يبالى كان شيخاً أو تلميذاً أو عالماً أو معلماً ، ظهر الحق على
لسانه أو لسان غيره ، لانه مقصوده دون ما سواه ، وقليل ما هم اه .

قوله : فوردوا كل معين صافى ، الوردود ، هو : الشرب ، والمعين هو : الماء الجارى ،
والصافى : لا تغير فيه ، يعنى أن الصوفية لما حكموا بالعدل ، واتصفوا بالإنصاف شربوا
من العلوم أعذبها وأصفها ، لأن القلوب إذا صفت وتزكت وتطهرت من الدعوى والمكارة .
أشرقت فيها أنوار العلوم ، ولاحت فيها أسرار الفهوم ، فأخذت من العلوم أصفها ، ومن
الانوار أباها ، ومن الأسرار أسناها وأوقاها ، فن صنى صنى له ، ومن كدر كدر
عليه ، فالعلم المكدر هو علم التقليد ، أو علم الدليل ، والعلم الصافى هو علم الأذواق ،
أو علم الشهود .

وفى هذا المعنى قال القطب ابن مشيش رضى الله عنه : « وانثنى من أحوال للتوحيد
وأغرقنى فى عين بحر الوحدة ، والله تعالى أعلم .
ثم ذكر شروط الاخوة وآدابها فقال .

وبعضهم كان لبعض عوناً يلتقى لديه دعة وأماناً
ينصره فى الحق حيث كانا فإن أساء قارضه إحساناً

قلت : أشار رحمه الله إلى أن الصوفية رضى الله عنهم (أعنى الفقراء) كانوا يتعاونون
على البر والتقوى ، لأن ذلك لمقصد جمعهم ، فيعين أخاء بنفسه وماله وجاهه وعلمه وعمله
وممته وحاله ومناصحته وموداته ومصادقاته إلى غير ذلك ، وما كان اجتماعهم إلا ليتعاونوا
على ذكر الله وسائر أبواب الخير .

قال تعالى - وتعاونوا على البر والتقوى^(١) - وبذلك التعاون يصير كل واحد منهم فى
راحة وأمن من حاجته ، وهذا معنى قوله ويلقى لديه دعة وأماناً أى يلتقى عنده راحة فيما يمانيه
عند توجه أخيه لذلك الامر ، أو عندما يعينه عليه ، وأماناً من فوات مقاصده بسببه ، ولذلك

قال عليه الصلاة والسلام ، « مثل الاخوان كمثل اليدين تغسل إحداهما الاخرى (١) »
وكمثل البيان يشد بعضه بعضاً ، وفي معناه قيل :

إن أخاك الحق من كان معك ومن يضر نفسه لينفعك
ومن إذا ركب الزمان صدأك بدد فيك شمله ليجمعك

قوله ، ينصره في الحق ، إلخ أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم .

« انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً ، قالوا : يا رسول الله ، فإذا اتصرت مظلوماً ، فكيف ينصره ظالماً ؟ قال : تأخذ على يديه فترده عن ظلمه (٢) » .

وإنما كان رده عن الظلم نصراً ، لأن نفسه ظالمة له ، وهو معلوب في يده ، فإذا رددته عن ظلمه فقد نصرتة عليها ، وإذا تركته يظلم فقد خذاته ، وقد تقدم قول روي (٣)
« يزال الصوفية بخير ما تنافروا ، فإذا اصطلحوا قل دينهم .

وقوله « فإن أسأقارضة إحصانا ، القرض هو السلف ، أطلقه هنا على مطلق العطاء ، أي
بأن أسأ فقير إلى أخيه في قول أو فعل سأل ، وبذلك إحصانا وعفوا ، وامثالاً لقوله
قال لنبيه عليه الصلاة والسلام ومن يقتدى به - ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه
عداوة كأنه ولي حميم . وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم - أي ادفع
السببة بالتي هي أحسن ، وقد تقدم قوله عليه الصلاة والسلام في تفسير قوله تعالى خذ العفو
آية إن الله أمرني أن أعفو عن ظلمي وأصل من قطعني وأعطى من حرمني » .

قلت : وقد رأيت للغزالي كلاماً حسناً في آداب الاخوة وشروطها ذكره في الإحياء ،
فرايت أن أذكره على وجه الاختصار لما فيه من الفوائد الغزارة ، قال رضي الله عنه :

(١) الحديث كما في الإحياء ، « مثل الاخوان إذا التقيا مثل اليدين تغسل إحداهما الاخرى »
رواه السلي في « آداب الصحبة ، والديلمي في « مسند الفردوس . وقال العراقي : إنه من
قول سلطان الفارسي رضي الله عنه ، والله أعلم .

(٢) رواه أحمد ، والبخاري ، والترمذي ، والدارمي ، وابن عساكر . وله ظله كما في « الفتوح
الكبرى في ضم الزيادة إلى الجامع الصغير كلاهما للسيوطي » : « انصر أخاك ظالماً أو مظلوماً
فكيف أنصره ظالماً ؟ قال تحجزه عن الظلم ، فإن ذلك نفسه ، والحديث روايات أخرى
للفظ ، تأخذ على يديه ، قال السخاوي في « المقاصد الحسنة » رواه البخاري .

(٣) في الأصل « حدود القصار » ، راجع ص ١٧٤

• اعلم أن عقد الإخوان رابطة بين الشخصين ، كعقد النكاح بين الزوجين ، وكما يقتضى النكاح حقوقاً يحب الوفاء بها ، فكذلك عقد الأخوة ، فلاخيك عليك حق في المال وفي النفس وفي اللسان وفي القلب ، وبالغفو وبالدهاء .

ثم قال : وذلك بحسبه ثمانية حقوق :

الحق الأول : في المال بالمواساة ، وذلك على ثلاث مراتب أدناها أن تنزله منزلة عبدي وخادمك ، فتقوم بحاجته بفضلة مالك ، فإذا سئحت له حاجة وعندك فضلة أعطيته ابتداء . فان أحوجته إلى سؤال فهو غاية التقصير .

الثانية : أن تنزله منزلة نفسك ، وترضى بمشاركته إياك في مالك ، فتسبح له في مشارطته .

الثالثة وهي العليا : أن تؤثره على نفسك ، وتقدم حاجته على حاجتك ، وهي ربة الصديقين ومنتهى درجة المتحابين .

ومنها : الإيثار بالنفس أيضاً كما روى أنه سعى بجماعة من الصوفية إلى بعض الخلفاء ، وهو المتوكل ، فأمر بضرب رقابهم ، وفيهم أبو الحسن النوري ، فبادر إلى السبأ ليكون أول مقتول ، ف قيل له في ذلك : فقال : أحببت أن أؤثر إخواني بالحياة في هذه اللحظة ، فكان ذلك سبب نجاة جميعهم في حكاية طويلة .

الحق الثاني : الإغاثة بالنفس في قضاء الحاجات ، والقيام بها قبل السؤال ، وتقديمها على الحاجة الخاصة ، وهذه أيضاً لها درجات كالمواساة ، فأدناها : القيام بالحاجة عند السؤال ، ولكن مع البشاشة والاستبشار ، وإظهار الفرح ، وأوسطها أن تجعل حاجته كمحاجتك ، فتكون متفقداً لحاجته ، غير غافل عن أحواله ، كما لا تنفل عن أحوال نفسك ، وتنبذ عن السؤال ، وأعلاها أن تؤثره على نفسك وتقدم حاجته على حاجتك ، وتؤثره على نفسك وأقربائك وأولادك .

كان الحسن يقول : إخواننا أحب إلينا من أهلينا وأولادنا ، لأن أهلينا يذكروننا الدنيا وإخواننا يذكروننا بالآخرة .

الحق الثالث : على الإنسان بالسكوت ، فيسكت عن التجسس والسؤال عن أحواله

ويسكت عن أسرارہ التي بشا إليه، فلا يبشأ إلى غيره، ولا إلى أنص أصدقائه، ولا يكشف شيئاً منها، ولو بعد القطيعة، ويسكت عن عماراته ومدافعتة في كلامه.

الحق الرابع: على اللسان بالنطق، فيتودد إليه بلسانه ويتفقد في أحواله التي يجب أن يتفقد فيها، كالسؤال عن عارض عارض له، وأظهر شغل القلب بهيه، فينبغي أن يظهر بلسانه كراحتها، والأحوال التي يسر بها ينبغي أن يظهر بلسانه مشاركتة في السرور بها، ففي الأخوة المساهمة في السراء والضراء، ويدعوة بأحب أسمائه في حضوره ومغيبه، ويثني عليه بما يعرف من محاسن أحواله عند من يريد هو الثناء عنده، وكذا على أولاده وأهله حتى على عقله وخلقه وهيئته وخطه وشعره وتصنيفه، وجميع ما يفرح به من غير كذب، ولا إفراط، ويبلغه ثناء من أثق عليه، مع إظهار الفرح به، ويذب عنه في غيبته مهما قصد سوء أو تعرض بعرضه، بكلام صريح أو تعريض، وتعلمه «أعلك الله»، وتنصحه.

الحق الخامس: العفو عن الزلات والخطوات، فإن كانت زلة في الدين بارتكاب معصية فليتلطف في نصحه، فإن بقي مصرراً فقد اختلف الصحابة في ذلك، فذهب أبو ذر إلى مفاطعته، وقال: إذا انقلب أخوك عما كان عليه فابتنه من حيث أحبته، وذهب أبو الدرداء رجاءة إلى خلاف ذلك، وقال أبو الدرداء: إذا تغير أخوك عما كان عليه فلا تدعه لأجل ذلك، فإن أخاك يزوج مرة ويستقيم أخرى، وهذه أطف وأفقه، وذلك لما في هذه الطريق من الرفق والاستمالة والتعطف المفضي إلى الرجوع والتوبة، وأيضاً للأخوة عقد ينزل منزلة القرابة، فإذا انعقدت وجب الوفاء بها، ومن الوفاء ألا يهمله أيام حاجته وفقره، وفقر الدين أشد من فقر المال.

ثم قال: والفاجر إذا صحب تقياً وهو ينظر إلى خوفه رجوع عن قريب، ويستحي من الإصرار، بل الكسلان يصحب الحريص في العمل، فيحرص حياته منه، وإن كانت زلة في حرك، فلا خلاف أن العفو والاحتمال هو المطلوب.

الحق السادس: الدعاء له في حياته ومماته بكل ما يحب لنفسه وأهله.

الحق السابع: الوفاء والإخلاص، ومعنى الوفاء: الثبات على الحب، وإدامته إلى المات معه، وبعد الموت مع أولاده وأصدقائه.

الحق الثامن: التخفيف، وترك التكليف والتكلف، فلا تكلف أخاك ما يشق عليه، بل

تروح سره عن مهماتك وحاجاتك ، وترفعه عن أن تحمله شيئاً من أعبائك ، ولا تستمد من
من مال وجاه ، ولا تنكفه لتواضع لك والنفق والقيام بحقوقك ، بل ما تقصد بمحبته
إلا الله تعالى .

انتهى المراد منه ببعض اختصار

ثم ذكر بعض ما يجتنب فعله فقال :

وليس حط الرأس من آدابه	بل الصواب كان في اجتنابه
بل هو مبنى على القصاص	لمن أراد حسبه الخلاص
وليس في قيام الاستغفار	أصل صحيح واصطلاح جار

قلت : أما حط الرأس ، فهو أن الفقير إذا أساء الأدب مع أحد من الفقراء أو غيرهم
يأتى إليه ويحيط رأسه بين يديه ، ليؤدبه أو يقتص منه ، أو يسمح له ، وهذا أمر لم يرد
في الشريعة ، ولا جرى به عمل في الطريقة ، فالصواب اجتنابه ، لأن ذلك كان عند من قال
مبنياً على القصاص ليتخلص المجنى عليه من الجاني ، فهو من باب التمكين من القصاص ، وهو
يتأتى بنحو حط الرأس ، فلاحاجة إلى ابتداء هذا الحط ، وقد مكن عليه الصلاة والسلام . فكان
من القصاص ، ولم يكن فيه شيء زائد على التمكين من القصاص لمن أراد أن يجتنب
بخلاص نفسه في الدنيا قبل الآخرة .

وأما قيام الاستغفار ، فهو أن الفقير إذا أساء في حق الفقراء أو غيرهم ، وأراد التوبة
والاستغفار قام على رءوس الفقراء معترفاً بذنبه وظهراً بالاستغفار ، ومعتذراً عما صنع ،
وهذه الحالة لم يجهريها عمل فقراء المغرب ، ولا مستند لها من السنة ، فتركها أولى ،
إلا لضرورة ، وهذا خلاف ما ذكره أبو مدين بقوله :

وحط رأسك واستغفر بلا سبب وقم على قدم الإنصاف معتذراً

فعله لم يصحبه عمل بعده ، وأراد به المبالغة في الاعتذار ، والله تعالى أعلم .

ثم أجمل ما بقى من الآداب بقوله :

(والقصد من هذا الطريق الأدب في كل حال منه : هذا المذهب)

قلت : أشار رحمه الله إلى أن الطريق مبنية على الآداب ، فمن لا أدب له . لا طريق له .

ومن أساء الأدب مع الأحباب طرد إلى الباب ، ومن أساء الأدب في الباب ، طرد إلى سياسة البواب .

وقال بعضهم : اجعل عملك ملحاً وأدبك دقيقاً ، وقد تقدم قول أبي حفص : التصوف كله آداب إلخ .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلي رضي الله عنه : أربعة آداب إذا خلا الفقير المتسبب منها . فلا تمبأن به وإن كان أعلم البرية : بجانب الظلمة ، وإيثار أهل الآخرة ، ومواساة ذوي الفاقة ، ومواظبة الخس في الجماعة .

وأربعة آداب إذا خلا الفقير المتجرد منها . فاجعلوه والتراب سواء : الرحمة للأصاغر . والحرمة الأكابر ، والإنصاف من نفسه ، وترك الانتصار لها .

وقال محي الدين بن العربي رضي الله عنه : أربعة من حازها فقد حاز الخير كله : تعظيم حرمان المسلمين ، وخدمة الفقراء ، والإنصاف من نفسه ، وترك الانتصار لها . وباب الأدب باب كبير قد استوفى جله السلي والفضالى في الإحياء ، وبداية الهداية ، ومداره على ما تقدم .

والضمير في منه ، يعود على الطريق ، أى : والقصد من هذا الطريق الأدب في كل حال من أحواله ، هذا هو مذهبهم الذى تمسكوا به فوصلوا ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ثم ذكر الحكم السادس فقال :

السادس في حكم السماع ، قلت : السماع هو استماع الأشعار بالنغم والموسيقى ، ونكلم هنا على حكمه وأحكامه وآدابه وفوائده ، وبدأ بالحكم فقال :

وللأنام في السماع خوض لكن لهذا الحزب فيه روض
قال المراقبون بالتحريم قال الحجازيون بالتسليم

قلت : الخوض في الأصل هو الدخول في الماء ، ولما كان الغالب على الماء التغير بالخوض فيه ، صار يطلق على الدخول في الأمور المشككة الملتبسة لكثرة الخوض فيها ، والروض معلوم ، يجمع على رياض ، وهو مكان التزمة والفرجة .

يقول رحمه الله : للناس في السماع خوض كبير في منعه وجوازه ، لكن لهذا الحزب

(وهي جماعة الصوفية) التي هي حزب الله خزيمة وخمرة يحدونها في قلوبهم وأسرارهم ، ولذلك لما سئل الجنيد عن السماع قال : كل ما يجمع القلب بالله فهو جائز ، أو ما هذا معناه .

ثم ذكر الخلاف ، فآخبر أن المراقبين قالوا بالتحريم ، والمراد بهم الخفية ومن تبعهم ، وأهل الحجاز قالوا بالتسليم أي الإباحة أو الوقف ، والمراد بهم مالك والشافعي ومن تبعهم فقد روى أبو معصب أن مالكا سئل عن السماع فقال : لم يبلغني فيه شيء إلا أن أهل العلم يبلدنا لا يذكرونه ، ولا يقدمون عنه ، ولا ينكره إلا غبي جاهل ، أو ناسك عراقي خليط الطبع .

قلت : لا يشك عاقل أن الأصل في السماع هو الجواز ، بدليل قضية الجوارز اللاتي كن يفتن ويضربن بالنف يوم العيد ، والرسول عليه الصلاة والسلام حاضر ، وهي في البخاري وغيره .

وقال أبو عبد الرحمن السلي رضي الله عنه :

وروى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت : كانت عندي جارية تسمى فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم وهي على حالها ، ثم دخل عمر ففرت ، فضحك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فقال : ما يضحكك يا رسول الله ، لحدثه فقال : لا أخرج حتى أسمع بما سمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فأمرها فأسمته .

قلت : وذكره للتجبي أيضاً بهذا اللفظ ، ثم قال السلي :

وسئل ذو النون عن السماع ، فقال : وارد حق يزج القلوب إلى الحق ، فمن أصغى إليه بحق تحقق ، ومن أصغى إليه بنفس تزدق .

قال السري : تطرب قلوب المحبين إلى السماع وتخاف قلوب التائبين ، وتكاف قلوب المشتاقين .

وقيل : مثل السماع مثل للغيث إذا وقع على الأرض المجربة فتصبح مخضرة ، كذلك القلوب الزكية تظهر مكنون فوائدها عند السماع ، وقيل يحرك ما ينطوى عليه القلب من السرور والحزن ، والرجاء والشوق ، وربما يخرج به إلى البكاء ، وربما يخرج به إلى الطرب .

وقيل : السماع فيه حظ لكل عضو ، وربما يبكي وربما يصرخ ، وربما يصمق وربما يرقص ، وربما يغنى عليه .

وقيل : أهل السماع ثلاثة : نائب ، وصادق ، ومستقيم .

وقيل : المستمعون ثلاثة : مستمع بره ، ومستمع بقلبه ، ومستمع بنفسه .

وقيل : يحتاج المستمع إلى ثلاثة : دقة ، ورقة ، وحرقة مع فناء الطبع ودخول الحقائق ، ولا يصح السماع إلا لمن فئت حظوظه ، وبقيت حقوقه وخدمت بشريته ، ثم قال : فكذلك السماع يؤثر على مقدار صفاء الباطن وقوة الوارد .

قال بعض المشايخ : لا يصح السماع إلا لمن كان قلبه حياً ونفسه ميتة ، فأما من كان نفسه حية وقلبه ميتاً ، فلا .

حكى عن بعض الأبدال أنه قال : رأيت النبي صلى الله عليه وسلم ، فقلت : ما تقول في السماع الذي عليه أصحابنا ، فقال : هو الصفاء الذي لا يلبث عليه إلا أقدام العلماء ، انتهى للراد منه .

وقد أشبع الكلام فيه ابن ليون للتجبي في الإنالة ، قال فيها : فاستماع الشعر لا ينكره إلا جاهل بالسنة ، ثم قال : وقال صالح بن أحمد بن حنبل : إنه رأى أباه يستمع من جاره فناء كان في بعض ديار جيرانه ، ثم قال : وعن أنس كنا عند النبي صلى الله عليه وسلم إذ نزل عليه جبريل فقال : يا رسول الله فقراء أمتك يدخلون الجنة قبل الأغنياء بخمسمائة عام ، وهو نصف يوم ، ففرح فقال : أفيكم من ينشدنا ، فقال بدرى : نعم يا رسول الله ، فقال : هات ، فأشد البدرى يقول :

قد لست حية الهوى كبدى فلا طيب لها ولا راق
إلا الحبيب الذي قد شغفت به فمنده رقيبى وترباقى

فتواجد عليه السلام وتواجد أصحابه معه ، حتى سقى رداؤه عن منكبيه ، فلما فرغوا لم يبق كل واحد إلى مكانه . فقال معاوية ما أحسن لبكم يا رسول الله ، فقال : مه مه - يا معاوية ليس بكريم من لم يهتز عند ذكر الحبيب ، ثم اقتسم رداؤه من حضرهم بأربعمائة قطعة ، وذكره المقدسى والسهروردى ، وتكلم الناس في هذا الحديث (١) .

(١) قال الحافظ جلال الدين السيوطى ما معناه : إن الحديث الذي فيه لست حية - بالهوى كبدى ، وذكر حديثاً آخر ، وقال : الحديثان باطلان موضوعان باتفاق أهل =

قلت : والتحقيق في السماع هو التفصيل فأما أهل الحقائق فلا شك في جوازهم .
أو استحبابه على ما يأتي ، ومستندهم ما تقدم ، وأما أهل الشرائع فإن خلا للكان من الفساد .
أو للشبان فهو حرام سداً للذريعة ، والله تعالى أعلم . وإلى هذا التفصيل أشار بقوله فقال :

وإن للشيخ فيه فنا إذ جعلوه للطريق ركنا
ولأنما أبيع للزهاد وتنبه إلى الشيخ باد
وهو على العوام كالحرام عند الشيخ مجلة الأعلام

قلت : أشار رحمه الله إلى أن السماع فيه للشيخ العارفين فنون ، وزيادات ومواجد ،
وأحوال وواردات ، فذلك جعلوه ركنا يأوون إليه ، ولا يعتمدون عليه ، لأنه رخصة
الضعفاء منهم ، كما يأتي ، وأما الأقوياء فلا يحتاجون إليه ، وقد سئل الجنيد رضي الله عنه
عن السماع : أمباح هو ؟ فقال : كل ما يجمع العبد على ربه فهو مباح ، وقد تقدم ،
والتحرير : هو التفصيل ، كما ذكره الناظم ، قسم مباح ، وقسم مندوب ، وقسم حرام ،
فهو الزهاد مباح ، لأن نفوسهم مانت عن الشهوات والمستلذات ، فلا ضرر لهم فيه حتى
يحرم ، ولا نفع لهم فيه حتى يندب ، إذ لم يلبثوا رتبة التحقيق والنوق ، وللشيخ العارفين
مندوب ، لأنه يثير فيهم الوجد والوارد حتى ينشر ذلك في عوالم الأجساد ، وتوسع ميادين
الحضرة ، فيكون الحضار منها نصيب ، لأن من تحقق بحالة لم يخل حاضروه منها ، وكل
ما أفتى إلى الكمال فهو كامل ، وعلى العوام حرام ، أو كالحرام ، لأنه ينشر فيهم الشهوات
والمعاصي ، ويحرك عليهم الطباع الرديئة والعوائد الدنيئة ، فإذا انتفت هذه العلل كان مباحا ،
إلا إن حضره أهل الفساد ، فيمنع مطلقا سداً للذرائع ، ولأنما حرم على العوام لأن لنا
مراقبة أئمتنا ، وأنه ينبت الفاق في القلب .

وقالوا أيضاً : السماع راح ، تشربه الأرواح ، بكثوس الآذان ، على معاني الألحان ،

== الحديث انظر للفتاوى ج ١ ص ٣٢٦ . وفي الإحياء : وأما مالك رحمه الله فقد نبه على
القناء ، وقال : إذا اشترى جارية فوجد ما مغنية كان له ردها ، وهو مذهب سائر أهل المدينة ،
وقال الشافعي رحمه الله : إن القناء هو مذكروه يشبه الباطل ومن استعكس منه فهو مغني
ترد شهادته .

وله كل امرئ ما نوى ، و ماء زمزم لما شرب له (١) ، وهذا وما سمع له (٢) .

وقالوا أيضاً : من سمع بتزندق تزندق ، ومن سمع بتحقيق تحقيق ، وإذا ذكر الهوى
فأكل امرئ ما نوى .

وكان بعضهم يقول : أنتم غفوا كما تحبون ، ونحن نسمع كما نحب ، وبالله التوفيق .
ثم ذكر نتائج السنية والدنية فقال :

وفيه كان ميلئ الاحوال كما بين سافل وعال

قلت . الميلئ في اللغة هو ، السرعة ، وفرس ميلئ ، أى سريع (قاله في القاموس) يعنى
أن السماع سرعة ظهور الاحوال الزكية أو الدنية ، فمن كان قلبه مع ربه حركة سريعاً إلى
حضرته قدسه ، ومن كان قلبه مع حظه وهواه حركة إلى حظوظه ومناه . لأجل ذلك يظهر
من سقط في أسفل سافلين ، ومن ارتفع في أعلى عليين .

ثم أشار إلى نتيجة أخرى فقال .

وهو صراط عندم محدود يعبره الواحد والفقيد

قلت : السماع عند الصوفية طريق محدود ، أى معلوم بحدوده ورسومه ، ويعبره : أى
يسلكه الواحد لحاله ، وهو الذى حجب بالجمع عن الفرق ، أو الذى لم يحجبه جمعه عن فرقه
ولا فرقه عن جمه ، ويسلكه أيضاً الفاعل لحاله ، وهو الذى حجب بالفرق عن الجمع ، فيظهر
على كل واحد ما كن في سره ، فالواحد يزيد في حضرة الحق عشقاً ووجداً ، والفاعل
يزيد عن ربه طرداً وبعداً ، فكل إناء بالذى فيه يرشح .

قال الجنيد رضى الله عنه : كل مرید رأته يميل إلى السماع فاعلم أن فيه بقية من البطالة .

(١) رواه ابن أبى شبة ، والإمام أحمد ، وابن ماجه ، والبيهقى ، عن جابر ، والبيهقى
في شعب الإيمان عن عبد الله بن عمرو ، والدارقطنى والحاكم عن ابن عباس ، والمستغفرى
في الطلب عن جابر .

(٢) الأخيرة ليست من لفظ الحديث الشريف ، بل هي نوع مقابلة . والحق أنه لا يجوز
مقابلة هذا بذلك ، إذ فرق بين قول رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام الناس .

وقال أيضاً : السماع صراط محدود، عليه يعبر صاحب يقين وجود، وصاحب شك وجحود
إما أن يرفع سالكه إلى أعلى عليين ، أو يكبكه في أسفل سافلين - فككبوا فيها هم
والفاوون (١) - ومن يطلع الله ورسوله ويخش الله ويتقنه فأولئك هم الفائزون (٢) .

وإلى هذا أشار الناظم بقوله :

فعاير يحله عليين وآخر يحطه في سجين

قلت : فالعاير الذي يحله في عليين هو : من تحقق بالوحدة ، وفهم الإشارة ، وذاق
حلاوة الخمرة ، فلا يزال يسمع بالله ، ومن الله حتى يغيب عن حسه ، ويفرق في حضرة
قدسه ، فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين ، والآخر الذي يحطه في
سجين هو الذي يسمع بنفسه ، ويتذكر حظوظه وهواه الذي كان مشغولاً به سره ونجواه ،
فلا يزال يزججه الشيطان حتى يلقيه في بحر الردى والهوان ، فينفض في طلب المعاصي والطغيان
فأولئك الذين استحوذ عليهم الشيطان فأسأهم ذكر الرحمن أولئك حزب الشيطان ألا إن
حزب الشيطان هم الخاسرون ، فيكتب مع الفجار - كلا إن كتاب الفجار لفي سجين (٣) -
نسأل الله العصمة بمنه آمين .

ثم ذكر نتيجة أخرى فقال :

وهو سرور ساعة يزول نعم ، وسم ساعة قتل

قلت السماع إنما هو فرح ساعة ، ثم يذهب ، فمن كان فرحه بالله اجتنى ثمرته وجناه ،
وفاز بمعرفة ربه ورضاه ، ومن كان فرحه بهواه فقد باء بغضب من الله ، وهو أيضاً سم
قاتل لمن حركه إلى الهوى والباطل .

قال السلي رحمه الله : بلغني أن أبا عمرو بن مجيد قال لأبي القاسم النصراباذي : بلغني
أنك مولع بالسماع ؟ قال : نعم هو خير من أن تقعد فتغتاب ، فقال . هيهات يا أبا القاسم
زلة في السماع شر من كذا وكذا سنة تغتاب .

(١) ٩٤ : من سورة الشعراء .

(٢) ٥٢ : سورة النور .

(٣) سورة المطففين ، الآية : ٧ .

قلت : ولعله من جهة الاقتداء به ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر نتيجة أخرى من نتائج السماع ، فقال :

وهو قياس العقل نقاش القلوب إذ ينزل الحال به ثم يؤوب

قلت : السماع معيار العقول في الخير والشر ، فيعرف به الكامل في الخير من الناقص فيه والكامل في الشر من المتوسط فيه .

أما الكامل في الخير فهو المتمكن في المعرفة الراسخ فيها ، فهذا كالجبل لا يحركه سماع ولا تهزه ريح ، وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب .

قيل للجنيذ : ما لك كنت تتحرك في السماع ، والآن لا يظهر عليك شيء ؟ فقرأ الآية وترى الجبال (١) إلى آخرها .

وأما الناقص في الخير فهو السائر ، فهذا إذا سمع تحرك وتواجد ، ورقص وشطح ، فهذا منسوب للحال ، لكنه في أثر الرجال ، فن دام سيره ظهر خيره ، ووصل إلى ما وصل إليه غيره .

وأما الكامل في الشر ، فهو المتهمك في الغفلة ، إذا سمع هاج شره ، وغلبته نفسه ، وبطشت في الحين إلى ما تقدر عليه من الفساد .

وأما المتوسط في الشر ، فتحركه نفسه ، ويغلبها في الوقت ، فإذا قامت جمحت إلى طلب ما تحركت إليه ، إلا أن يعصمه الله بحفظه .

وهو أيضاً (أى السماع) نقاش القلوب ، فيخرج ما فيها من خير وشر ، كمن ينقش على اللآلئ فيخرجه ، إن كان صافياً شرب ، وإن كان متغيراً طرح .

وقوله : « إذ ينزل الحال به ثم يؤوب » ، هو تصوير النقش المذكور ، لأن السماع ينقش من ما فيه من الحال ، إما رباني ، أو شيطاني ، أو نفساني ، والجميع يزول ويذهب ، فإن كان ربانياً بقي أثره من الخشوع والطمانينة والتواضع والزهد وحسن الخلق ، وإن كان شيطانياً أو نفسانياً لم يبق بعده إلا الفسرة والغلظة والحرص والطمع وغير ذلك من الأخلاق المذمومة .

وفي الحكم لابن عطاء الله لا تزكين وارداً لا تعرف ثمرته ، فليس المراد من السحابة الإمطار ، وإنما المراد منها وجود الأثمار ، وهذا مراد من قال : من لم يؤثر فيه السماع زيادة ما عنده فهو نقص في حقه ، لأن الواردات لا تراد لذاتها ، وإنما تراد لثمراتها ، والله تعالى أعلم .

ثم شبه الحال الرباني بالمطر النازل في أصول الشجر كما تقدم في الحكم ، فقال :
(وآثاره في عرصات القلب كالوبل في النعنع القويم الرطب)

قلت : للعرصات : جمع عرصة ، وهو المكان الواسع الذي تنرس فيه الأشجار ، كفى به هنا عن سعة للقلوب الفارغة من الشواغل والشواغب ، وأراد أن السماع يترك آثاره في قلوب العارفين المطهرة من دنس الهوى ، الفارغة من حب السوى ، كما يترك المطر الغزير آثاره في النعنع القويم الرطب ، وهو الزهر أولاً ، والمقد ثانياً ، والثمار ثالثاً ، فليس المراد من المطر نزوله ، وإنما المراد ما ينشأ عنه من الثمار ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر آدابه في الجملة ، فقال :

ولا يجوز عنده التكلم ولا للتلامي ، لا ، ولا التبسم

قلت : إنما لا يجوز التكلم عنده ، لأنه عند العارفين محل الوجد والخمرة والكلام يشوش القلب ويبعده من الحضرة ، ويتلف عن الحقيقة ، قالوا يجب تركه لمن أراد جبر قلبه ، وعند غير العارفين رخصة ، لأنه قريب من رتبة الباطل ، فأقل شيء يرده إليه .

قال السلي رضي الله عنه : والسكون مع حضور القلب وجمع الهم ، والوقوف على أقوال المنشدين أولى من المداخلة ، لأنه محل الاستكانة والتمكين ، والهدوء والإنصات من آداب المستمعين ، قال الله تعالى - فلما حضروه قالوا أنصتوا (١) - الآية ، وقال - وخشعت الأصوات للرحمن فلا تسمع إلا همساً (٢) - اه .

وأما التلامي عنه ، فإنه يقتضى أنه لا أرب له فيه من جهة قلبه ، وإنما مراده راحة نفسه ، والفرجة والتلامي يكون بالالتفات عنه بقلبه أو بدنه ، شغلاً بغيره .

(١) الاحقاف ، الآية : ٢٩ .

(٢) طه ، الآية : ١٠٨ .

وأما التبتيم فيه ، فإن فيه إساءة الأدب ، فإن غلبه خرج ، وإلا أخرج وزجر .

قال السلي رحمه الله : ولا يحضر مجلس السماع من يتبتيم أو يتلأهى .

يحكى عن الشيخ أبي عبد الله بن خفيف أنه قال : حضرت مع شينخى أحمد بن يحيى السماع ينيران (اسم موضع) فاتفق فيها سماع أمم بموضع ، فطاب وقت الشيخ وتواجد ودار ، وكان في ضفة بمحذاتنا قوم من أبناء الدنيا ، فتبتيم واحد منهم . فأخذ الشيخ منارة كبيرة . كانت هناك فرماها ، فأصابت الجدار فانقرست أرجلها الثلاث في الحائط ، وكان قد صلى ثلاثين سنة للصبح بوضوء العشاء ، اه .

ثم نهى عن حضور الأحداث فقال :

ويمنع الأحداث من حضوره وإن يكن ذاك فمن ظهوره

قلت : مما يتأكد في مجالس السماع منع الأحداث من حضوره ، إما حدث السن . وإما حدث الدين ، أو العقل ، وقد تقدم تفسيرهم .

أما حدث السن فلما تحرك مشاهدتهم من الفتنة ، لا سيما مع دواعى ذلك من الشعر والأوزان ولقرنم بالأصوات الحسان ، والنفس لها في هذا الميدان مجال عظيم ومكر كبير :

وأما حدث الدين أو العقل ، فإن حضور غير الجنس يمنع من المدد ، وذلك مجرب في الذكر والمذاكرة ، والسماع عند الصوفية ذكر قلبي ، فإن ألجأت للضرورة إلى حضورهم فليكونوا صفاء من خالف الناس خافضين أصواتهم . وهذا معنى قوله وإن يكن ذاك فمن ظهوره ، أى ، وإن يكن ذلك الحضور ولم يمكن التحرز منهم بوجه ، فليكن حضورهم من ظهور السماع ، أى من وراء ظهور المستمعين . والله تعالى أعلم .

قال السلي رحمه الله : ولا رخصة للأحداث في القيام والتحرك أصلاً ، وأكثر المشايخ يكرهون حضورهم مجلس السماع ، ولا يرخصون لهم فيه .

سمعت والدي رحمه الله يقول : دخلت بغداد زائراً لجعفر الخلدي ، فوجدت أبا العباس الهارندي عنده ، وهو حدث ، فكلمنا حضرة نا دعوة فيها سماعاً أمر أبا العباس بالانصراف ، ولم يأمره أن يقعد في مجلس السماع .

ثم نهى عن الرقص والتحريك فيه لغير المغلوب فقال :

والرقص فيه دون هجم الحال ليس على طريقة الرجال
ولإن يكن يقوى على السكون فإنه أسلم للظنون

قلت : الرقص والترفص هو الارتفاع والانخفاض ، يعنى أن الرقص في السباح والتحريك دون غلبة الحال ، ليس هو طريق الكمال ، بل الكمال هو السكون والوقار وخفض الصوت والاستماع ، فإنه أسلم لسوء الظنون بمن يفعل ذلك ، وإن كان صادقا . إذ لا سلامة من الخلق ، ثم اعلم أن الرقص وقع فيه اضطراب كبير بين الصوفية وعلما الشريعة ، والتحرير في المسألة أن نقول : الأصل في الرقص هو الإباحة ، إذ لم يرد نص عن الشارع فيه بتحريم ولا إباحتها ، بل ظواهر النصوص تقتضى الإباحة ، وسيأتى ذكرها إن شاء الله . وأيضاً الأصل في الأشياء هي الإباحة ، وقيل الوقف حتى يأتي الحظر ، ولم يرد في كتاب الله ولا سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ما يقتضى التحريم ، وإنما حرمة الأئمة لما قارء من تعاطى أهل الفساد بجميع النساء والشبان وآله الهو ، والعلة تدور مع المعلول وجوباً وعدماء ، فيحصل في الرقص أنه على ثلاثة أقسام : قسم حرام ، وقسم مباح ، وقسم مطلوب .

فأما القسم الذى هو حرام ، فهو رقص العوام بمحضر النساء والشبان ، فهذا حرام لما يؤدى إليه من الفساد ، وما يهيج من الطباع الدنية والنفوس الشيطانية ، ويلتحق به ما خلا من ذلك ، لكن قصد به التصنع والرياء وإظهار الحال ، والتظاهر بما ليس في حقيقة ، فهو حرام أيضاً لما داخله من الرياء والتلبيس .

وعلى هذين القسمين يحمل كلام من أطلق التحريم ، كصاحب المعيار ، والنسبى الكافية ، وغيرهما .

وأما القسم المباح ، فهو الذى يفعله الصالحون وأهل النسبة من غير وجد ولا تواجد ، وإنما يفعلونه راحة لنفوسهم ، وتنشيطاً لقلوبهم بشرط الزمان والمكان والإخوان ، غالباً من حضور ما تقدم من النساء والشبان ، فهذا مباح إذ لا موجب للتحريم فيه ، إذ علة التحريم هو ما تقدم ، وهو خال من ذلك ، وأما ما يقال : إنه من فعل السامرية حين عبدوا العجل فعلى تقدير صحته فإنما حرم فعلهم لفساد قصدهم ، لأنهم قصدوا بذلك تعظيم العجل أو الفرح به ، وهذا كفر ، ولو كان رقصهم خالياً من ذلك ما حرم عليهم .

وقد ثبت أن جعفر بن أبي طالب رضى الله عنه رقص بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم حين قال رسول الله : أشبهت خلقى وخلقى ، وذكره السنوسى فى « نصرة ينير » وغيره .

وقال ابن ليون التنجيبى ما نصه : وأما الرقص فى المسجد فى صحيح مسلم عن عائشة رضى الله عنها أنها قالت : جاء جيش من الحبشة يزفون يوم عيد فى المسجد ، فدعانى رسول الله صلى الله عليه وسلم فوضعت كفى على منكبيه ، فجعلت أنظر إلى لعنهم ، قال ابن عيينة : راقف الرقص ، فثبت أن الرقص فى أصله مباح ، ولو كان حراماً لذاته ما فعل بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم .

وأما القسم المطلوب فهو : رقص الصوفية أهل الذوق والحال ، إما وجداً أو تواجداً ، سواء كان ذلك فى حضرة الذكر أو السماع ، ولا شك أن دواء القلوب من الغفلة وجمعها لله مطلوب بأى وجه أمكن ، ما لم يكن بمحرم يجمع على تحريره ، فلا دواء فيه ، وقد تقدم قول الجنييد لما سئل عن السماع ، قال : كل ما يجمع العبد على ربه فهو مباح .

وقال الفاسى فى « شرح الحصن » عن شيخ الإسلام السيوطى رحمه الله ما نصه : أقول وكيف ينكر الذكر قائماً ، وقد قال تعالى — الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم (١) — .

وقالت عائشة رضى الله عنها : « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يذكّر الله على كل أعباءه (٢) » ، وإن انضاف إلى هذا القيام رقص ونحوه فلا إنكار عليهم ، فلذلك من لذة الشهود والمواجيد :

وقد روى فى الحديث رقص جعفر بن أبي طالب بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم لما قال له : « أشبهت خلقى وخلقى » ، وذلك من لذة هذا الخطاب ، ولم ينكر ذلك عليه النبي عليه الصلاة والسلام ، فكان هذا أصلاً فى رقص الصوفية لما يذكرونه من لذة المواجيد .

وقد صح القيام والرقص فى مجالس الذكر والسماع عن جماعة من أكابر الأئمة منهم شيخ الإسلام عز الدين بن عبد السلام اه .

(١) سورة آل عمران ، الآية : ١٩١ .

(٢) رواه مسلم ، والترمذى وأبو داود ، وابن ماجه عن عائشة .

وهو نحو ما في الإحياء ، وزاد فيه حديث نظر عائشة رضي الله عنها مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحبشة وهم يرقصون ، وقوله لهذا ، أتحيين أن تنظري إلى زحف الحبشة ، والزحف الرقص انتهى .

وذكره ابن زكري في شرح النصيحة .

قلت : وقد تواتر النقل عن الصوفية قديماً وحديثاً شرقاً وغرباً أنهم كانوا يجتمعون لذكر الله ، ويقومون ويرقصون ، ولم يبلغنا عن أحد من العلماء المعتبرين أنه أنكر عليهم .

وقد رأيت بفاس بزاوية الصقليين جماعة يذكرون ويرقصون من صلاة الصبح يوم الجمعة إلى المغرب ، مع توفر العلماء ، فلم ينكر أحد عليهم ، وقد بلغني أن شيخنا شيخ الجماعة سيدي الناودي بن سودة كان يحضر معهم في بعض الأحيان ، فلا ينكر على الفقراء الرقص في حال ذكركم إلا مقلداً جامداً ، أو معانداً جامداً ، يرحم الله الشيخ زروقاً رضي الله عنه في بعض شروحه على مقطعات الششتري لما تكلم على هذا المعنى ، قال : وإنما أطلت الكلام هنا لوجهين :

أحدهما مخافة أن ينثر الفوضىاء ، ممن لا أخلاق له بهؤلاء السادات فيتعاطونه في غير محله ، فيقع في المقت (١) .

ثم قال : والآخرون يتبع قول الملحدين ، أهل العقول الواهية ، والافتدة الخارية ، فيقدح في جملة طريقة أنتجها الصالحون من أولياء الله ، وظهرت نقيجتها في كثير من عباد الله واشتملت نسبتها على رجال قاموا بأحكام الشريعة وآداب الحقيقة ، وتلقوا بأسماء رب العالمين ، وتخلقوا بأخلاق سيد المرسلين ، آثارهم حميدة ، وملاقاتهم سعيدة ، ترغب الملائكة في خلقتهم ، واشتاقوا الأنبياء والرسل إلى رؤيتهم ، كتاب الله مطرز بأشياء عليهم ، وبشار السنة كلها تشير لإيهم ، عند ذكركم تنزل الرحمة ، وبسبب وجودهم تدفع النقمة ، يرغب في الحقوق بمسكركم خليل رب العالمين حيث قال فيما أخبر الله عنه في كتابه المبين - رب هب لي حكماً والحقني بالصالحين - وتبعه الصديق الأمين في ذلك ، حيث قال - توفني

(١) على أن المقصود من الرقص هنا ليس هذا الذي يتعارف الناس عليه اليوم ، إنما هو نوع من الفرح يملك على الإنسان مشاعره فيحدث فيه نوع اضطراب غير إرادي . وهذا لا لوم فيه والله أعلم .

ملا والحقني بالصالحين — واستشهادنا في معرض الولاية بهاتين الآيتين اللتين سبقتا في مقام النبوة ، إنما اقتبسنا الدليل على ذلك ، وهذا من باب تناول الأعلى إلى الأدنى بالشاء عليه ليعرف غيره ببعض شواهد فضيلته كما في قوله صلى الله عليه وسلم .

اللهم أحيى مسكيناً واحشرنى في زمرة المساكين (١) .

أى واجبل المساكين هم قرابتي المحذقون في يوم المحشر ، فقد عرف صلى الله عليه وسلم بفضيلة المساكين ، وعظم جاههم عند الله ورسوله ، لطلبه من الله أن يكونوا في كفالته ، لأنه في كفالتهم ، فكذلك عرف الصديق بفضيلة أمة الإسلام ، وخصوصاً الصالحين منهم لأنه طلب من الله اللعوق بعسكرهم لتصوره عن إدراك مقامهم ، لكن مبالغة في التعريف بعظم جاههم عند خالقهم ، فعرف أولاً بفضيلة الإسلام عموماً ، وعرف ثانياً بفضيلة الصالحين منهم خصوصاً ، ملا الله قلوبنا من محبتهم ، وسلك بنا سبيل سيرتهم ، وحشرنا في زمرةهم ، اللهم آمين ، انتهى كلامه رضى الله عنه .

ثم أشار إلى أن السماع إنما هو رخصة للضعفاء ، فقال :

وليس يحتاج إلى السماع إلا أخو الضعف القصير الباع

قلت : أشار إلى أن السماع لا يحتاجه ويزيد به إلا من كان ضعيف الحال قصير الباع في المعرفة والشهود ، وأما القوى المتمكن فلا يحتاج إليه .

قال السلي رضى الله عنه : وقيل يحتاج إلى السماع من كان ضعيف الحال ، فأما القوى فلا يحتاج إلى ذلك .

وقال الحصرى ، ما أدون حال من يحتاج إلى مزعج يزجه ، ولعمري ما تحتاج الشكلى (بالثنية) إلى نائحة ، والشكلى هى : التى مات ولدها .

وقيل هو (أى السماع) لقوم كالغذاء ، ولقوم كاللواء ، ولقوم مروحة ، كما قال تعالى

(١) رواه ابن ماجه ، ولفظه ، من المقاصد الحسنة للحافظ البخارى : اللهم أحيى مسكيناً ، وأمتى مسكيناً ، واحشرنى في زمرة المساكين ، ورواه الطبرانى في الدعاء والحاكم ، والبيهقى في الشعب ، وأبو الشيخ ، والديلى ، والترمذى في الزهد .

— قل هو الذين آمنوا هدى وشفاء (١) — الآية .

وقال موضع آخر (وسئل بعض الشيوخ عن شرب القلوب من السماع ، وشرب الأرواح والنفوس) فقال : شرب القلوب الحكم ، وشرب الأرواح النعم ، وشرب النفوس ما يوافق طبعها من المخطوط ، ونعت الحسن والجمال .

ثم أشار إلى علامة الضعف ، فقال :

والزعات فيه والتمزيق ضعف ، وهز الرأس والتصفيق

قلت : ازعق هو : الصياح والتمزيق هو : تخريق الثياب ، وهز الرأس : تحريكه ، والتصفيق الضرب بالكف يعني : أن الصراخ في السماع وتمزيق الثياب وتحريك الرأس والتصفيق باليد إنما يصدر من ضعف الحال ، الذي هو مغلوب للأحوال ، وأما القوى المالك للأحوال ، فلا يصدر منه شيء من ذلك .

قال السلي رضي الله عنه : وليس من الأدب استدعاء الحال والتكليف للقيام ، إلا من غلبه حال فيه ، فيزجج أو يكون على سبيل مساعدة لصادق ، أو مطاية لخاطر من غير تساكر ولا إظهار حال ، وترك ذلك أولى .

روى أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يعظ فصق رجل من جانب المسجد ، فقال : « من هذا الملبس علينا ديننا ، إن كان صادقاً فقد شهر بنفسه ، وإن كان كاذباً يحقه الله » .

ثم قال : حكى أن شاباً كان يخدم الجنيد ، وكلما سمع شيئاً زعق وتخير ، فقال : إن ظهر فيك شيء بعد هذا فلا تصحبني ، فسكان يضبط نفسه ، وربما كان يقطر من كل شعرة منه قطرة عرق حتى كان يوم من الأيام زعق زعقة خرجت منها روحه .

والزعقة من وجهين : أحدهما التوجع ، والآخرى للتطلع ، زعقة التوجع من حيث الحزن والحزن ، وهي نظيرة صيحة المصاب ، وزعقة التطلع من المحبة والشوق والرجاء ، وهي نظيرة صيحة المتطلعين للإهلاك إذا تحققوا ذلك ، وهذا لا يكون إلا عند وجود غائب أو فقدان حاضر ، ومثلها كمثل العطسة لا يدرى كيف تهجي .

قلت : أما التهايل يمينا وشمالا فلا يدل على الضعف ، وقد رأيت شيخنا يفعله عند السماع وهو من لذة التواجد ، فلا يدل على الضعف ، والله تعالى أعلم .

وقد ذكر ابن عريضون في مقنعه ، أن الصحابة رضي الله عنهم كانوا إذا ذكروا الله مال بعضهم على بعض كالشجرة في يوم الريح العاصف ، أو ما هذا معناه ، ثم أشار إلى أن السماع لم يكن عندهم مقصوداً للاجتماع ، بل حيث ما تيسر ، فقال :

ولم يكن لأجله اجتماع ولا لدى غيبته انصداع
قلت الانصداع هو الافتراق ، يضي أن القوم لم يكن اجتماعهم مقصوداً للسمع . بحيث إذا وجدوا اجتمعوا وإذا غابوا افترقوا ، بل كانوا إذا اتفق اجتماعهم لأمر من الأمور ، أو إذا دعاهم أحد إلى وليمة أو سرور استعملوه ، لأنهم أغنياء عنه بحلاوة الذكر والمعرفة والله تعالى أعلم .
ثم ذكر أنه لم يكن فيه آلة الله ، فقال :

ولم يكن فيه مراسنونا ولا طنابار ومسمونا
وليس أيضاً كان فيه طار ولا مزاهر ولا تنقار
والشمع والفرش والتسكالف أحلف ما كانت يمين حالف
قلت : المراسنون ، بفتح الميم هي الطائفة التي تجيب القوال بالدندنة ونغم الموسيقى ، بحيث إذا فرغ القوال من الشعر أجابوه بكلام الله وأنغم المستلذة ، وهو من شأن أهل الله ، فالتشبه بهم هجنة ، والطنابير : جمع طنبور ، وهو شبيه بالعود في صورته ، وقيل هو بنفسه والمسمون المرصدون للغناء في الولائم ، يسمعون للناس غناءهم ولهوهم ، والطار معلوم ، وهو ذو الشراشر ، والمزهر هو المجلد من جهتين ، والتنقار هو : فعل القر ، ويكون في نقر الأوتار المعلومة .

يقول رحمه الله : إن سماع القوم لم يكن فيه شيء بما ذكر ، بما هو من آلات الله ، ويلتحق بما ذكر : الرباب ، والشبابة ، والبندير ، والزماردة ، وغير ذلك مما يستعمله أهو الله فينبغي للفقير أن يحتملها ، وهذه مسألة خلافية ، فقد رجح الغزالي في الإحياء ، جواز سماع هذه الأشياء ، بشرط خلو المكان والإخوان والزمان ، قيل : وهو مذهب للشافعي (١) ، ورده بعضهم .

والحاصل أن المعارف المحقق الذي غرق في عين بحر الوحدة حتى كان سمعه بالله ومن الله وبصره بالله وإلى الله ، ووجد أنه بالله ومن الله ، لا يكدره شيء ، فلا ينكر عليه شيء .
وقد قالوا : إذا ثبتت عدالة المرء فليترك وما فعل .

وهذه مسألة خلافية لم يرد فيها نص من الشارع ، والأصل في الأشياء الإباحة حتى يرد التحظر ، وما حرم السماع حتى أخذه أهل اللهو ، ونقلوه إلى لاهوتهم وقارنوه مع شرب الخمر وازنا ، لحرم حينئذ ، سداً للذريعة ، والله تعالى أعلم .

وقد كان بعض علماء الحديث من أهل الحفظ وال ضبط يستعمل ضرب العود ، فبب عليه خلف لا يحدث بحديث حتى يضرب العود . فأخبر به السلطان (قيل هارون الرشيد) فأرسل إليه وقال له : حدثني بحديث المخزومية ، فقال أحضر العود ، فقال له الملك : عود البخور ؟ فقال : بل عود الطرب ، فضحك الملك ، ثم قال : من يحرم السماع من الفقهاء ، فقال له : من طبع الله على قلبه ، ثم قال له ذلك العالم : لقد حضرت وليمة بالمدينة ، وفيها عباؤها ، حتى لو سقط البيت لم يبق معنى بالمدينة ، وأصغرهم مالك ابن أنس ، فغنوا وهو بزمه ، فغنوا وأنشدوا ، اه (ذكره ابن عرفة في باب النكاح) نقلته بالمعنى (١) .

وقوله : للشمع والفرش إلخ . يعني أنهم لم يكونوا يتسكفون بالسماع حتى يحضروا للشموع الموقودة ، والفرش المهددة ، والوسائد المزوقة ، وإنما كانوا يحضرون له على حالة الفاقة والابتذال ، على ما يصادف الوقت والحال . وليس مراده أنها محرمة ، وإنما مراده أن طريق القوم عدم التسكف ، فإن صادف الحال أنها أعدت فلا يمتنعون منها ، لأن الصوفي اتعت دائرته ، فلا يختار شيئاً ولا يمتنع من شيء . بل ما أعطاه سيده أخذه بالقبول ، إلا ما حرمة الشريعة المطهرة بنص صريح لا تأويل فيه ، فهو حينئذ أولى بالأدب من غيره والله تعالى أعلم ، ثم قال :

وأمرؤا فيه بخلق الباب وإنما ذاك للاجتناب

قلت : وإنما أمرؤا في حال السماع بخلق الباب لئلا يحضر معهم من يجتنب حضوره من الأحداث والعوام والنساء وغير ذلك مما لا يليق بحضوره ، لأن مجلس السماع إذا كان ربانياً هو مجلس الذكر والمذاكرة ، ومجلس الذكر والمذاكرة غذاء الأرواح ورضاع القلوب ، فهي ترضع بعضها بعضاً ، فإذا حضر صاحب التخييض وضعت منه بعض القلوب ذلك

لتخويض ، فربما يسرى ذلك في الجماعة ، فلا يجدون حلاوة الوجد ، ولا لذة الخمرة ، ولذلك قال الجنيد رضى الله عنه : المواكلة رضاة فانظروا من تواكلوا ، فيصدق بالحس والمعنى .

وقد عقد بعض للشيخ حلقة الذكر في بيت مظلم فلم يجدوا قلوبهم ، فقال لهم اتنوني بالصباح ، فلما أتوا به وجدوا معهم طالبا من طلبة المدرسة ، فأخرجوه لحيث يجدوا قلوبهم .

وحكى عن بعض أشياخنا (وأظنه سيدى محمد بن عبد الله) أنه كان في مجلس المذاكرة جلس معهم رجل عاوى ، فأزال الشيخ عنه ثوباً ، وقال له : قم بع في السوق ، فلما خرج قال له : خذ ثمنه ولا تعد ، وسد الزاوية .

والحاصل : أن حضور غير الجنس مشوش مانع من زيادة المدد ، والله تعالى أعلم .

ثم حرد الخلاف في السماع فقال :

وليس للقاتل ما يقول في الشعر إذ سمعه الرسول

قلت : سماع الشعر من غير ألحان ولا موسيقى لا نزاع فيه ، لأنه سمعه عليه الصلاة والسلام وأجاز عليه ودعا لقائله ، وإنما النزاع في الترتيم به .

وقوله : بالحنان وموسيقى ، فمن كان طبعه جامداً لا يحركه شيء ، لا لخير ولا لشر ، كان في حقه مكروهاً إن شغله عن ذكر الله أو مباحاً إن لم يشغله ، ومن كان طبعه مائلاً للهوى وحب الدنيا وعلم أنه يحركه للفساد حرم عليه ، ومن كان قلبه معموراً بحجة مولاه ، فأبى عما سواه ، كلما سمع زاد به إلى مولاه ، فهذا يستحب في حقه السماع .

هذا حاصل ما ذكره في « جل الرموز » حين تكلم على السماع .

فقال : السماع ينقسم إلى ثلاثة أقسام : منه ما هو حرام محض ، وهو لأكثر الناس من الشبان ، ومن غلبت عليهم شهواتهم ، وملكهم حب الدنيا ، وتكدرت بواطنهم ، وفسدت مقاصدهم ، فلا يحرك السماع منهم إلا ما هو الغالب عليهم من الصفات المذمومة ، سيما لزماننا هذا .

والقسم الثاني : منه مباح ، وهو : من لاحظ له منه إلا التلذذ بالصوت الحسن ، واستدعاء السرور والفرح .

والقسم الثالث : مندوب ، وهو : من غلب عليه حب الله تعالى ، والشوق إليه ، فلا يجرؤ السماع منه إلا الصفات المحمودة ، وتضاعف الشوق إلى الله ، واستدعاء الأحوال الشريفة والمقامات العلية ، والكرامات السنية ، والمواهب الإلهية .

قال الشيخ ابن ذكرى رحمه الله : فبين من هذا أنه لا نص فيه من الشارع ، والذي يقتضيه قواعد الشريعة انقسامه إلى ما ذكر ، إله .

ثم ذكر أصل استعمال السماع فقال :

وإنما كان السماع قدما	فصدأ المريد الشيخ يشكو السقا
وجاء هذا ، ثم جاء هذا	حتى استقلوا عنده أفذاذا
فبث كل ما به قد جاء	فموضوا من دائهم دواء
فعندما نشطت النفوس	وزال عنها كسل وبوس
وطابت للقلوب بالأسرار	واستعملت نتائج الأفكار
ترنم الحادى بيت شعر	فاكتفته غامضات الفكر
كل له مما استفاد شرب	هذا له قشر وهذا لب
فإن تمادى وأتم الشغرا	أبدوا من الشرح عليه سفرا
فهكذا كان سماع الناس	فهل ترى به كذا من باس

قلت : القدم بكسر القاف معناه : القديم ، وهو ظرف ، أى فى القديم ، والسقم : المرض والأفذاذ : الجماعة المتفرقة ، جمع فذ ، وهو المنفرد ، وبث شكواه : أودعها وأخبر بها ، والنشاط خفة الأعضاء ، والكسل ضده ، والبأس هو الضرر والداء ، والأسرار : الأذواق والأحوال ، ونتائج الأفكار : العلوم ، والترنم : التغنى . والحادى : القوال ، واكتف الشيء : أحاط به ، فصار فى كفه . والغامض : الخفى ، والشرب (بكسر الشين) التصيب من الماء ، والقشر : ظاهر الشيء . واللب باطنه .

يقول رضى الله عنه : وإنما كان استعمال السماع فى الزمان المتقدم عند قصد المريد الشيخ يشكوا إليه سقمه ومرضه الذى أصاب قلبه من غفلة أو فترة أو فسوة أو كسل أو طغيان أو غير ذلك من العيوب التى لا تحصى ، ثم توالى المجئ إلى الشيخ : هذا بعد هذا ، حتى استقل عنده جماعة من الفقراء ، فشكى كل واحد داءه ، لأنه طبيب ماهر ، وقد يدلونه

بلمحة أو بالنظرة ، فعندما أحسوا بالشفاء ونشطت نفوسهم ، وذهب دأؤهم وبؤسهم ، رطابت قلوبهم بالأذواق، وامتلأت قلوبهم بالأنوار ، وأشرقت فيها شموس المعارف والأسرار ، واستعملت نتائج أفكارهم ، فأبنت من العلوم ما يليق بسعة صفاها : ترمم الحادى بالنزل الرقيق ، واستعمل من الشعر ما بالجانب يليق ، فإذا سمعته دقائق أفكارهم الصافية ، وغوامض فهمهم العلية ، أحاطت بمعانى تلك الأشعار ، واستخرجت ما فيها من علوم وأسرار ، كل واحد على قدر نصيبه وشربه بما استفاد من شيخه بمحبته وصدقه ، وعلى قدر مجاهدته وسيره ، فمنهم من يكون حظه معانى الكلام الظاهرة ومنهم من يخوض بفكره إلى المعانى الباطنة ، وقد يقع في أسماعهم من كلام واحد ما يليق بحان كل واحد ، على حسب مقامه ، كالنفر الثلاثة الذين سمعوا قائلاً يقول : يا سعترا برى ، فبعضهم سمع : اسع تر برى وبعضهم سمع : الساع ترى برى ، وبعضهم سمع : ما أوسع برى ، فالأول حاله بداية ، والثانى الاستشراق على النهاية ، والثالث حاله واصل إلى الغاية .

وفى هذا المعنى قال ابن عطاء الله : للعبارة قوت العائلة المستمعين ، وليس لك منها إلا ما أنت له آكل ، فإن تهادى الحادى على شعره حتى آثمه تكلموا فيه ، واستخرجوا ما عندهم فيه من العلوم ، كل على قدر وسعه — لينفق ذو سعة من سعته — الواصلون — ومن قدر عليه وزقه — السائر — فآظفروا من علومهم ما يملؤ مغراً أو أكثر ، فهكذا كان سماع الناس فى الزمان المتقدم ، فهل ترى أيها المنكر لهذا الفعل من بأس أو أنت من الحال والوجد من أهل الإفلاس .

قلت : وأيس مراد الشيخ الحصر فى هذه الكيفية حتى لا يصح السماع ، إلا إذا كان هكذا بل كل من وجد فى نفسه كسلاً أو قبضاً : استعمل ما يزيل به كسله أو مرضه .

ثم اعلم أن اعتراض أهل الظاهر على الصوفية لا ينقطع أبداً : سنة ماضية ، وخصوصاً فى السماع والرقص ، وهم معذورون ، لأنهم لا يشاهدون إلا ذواتا ترقص وتشطع ، ولا يدرون ما فى باطنها من المواجهيد والأفراح ، فيحملون ذلك على خفة العقل والطيش ، فيقيمون فيهم ، إلا من حصه الله بالتسليم ، ولذلك كان التصديق بطريقة القوم ولأية ، والاعتراض جنابة ، إلا من صحت نيته وحملته الغيرة ، فهو مأجور من جهة ، محروم من جهة .

وقد رأيت للطرطوشى اعتراضاً كبيراً على الصوفية فى الرقص ، حتى قال فيه : لأنه ضلالة وجهالة ، وذلك لما قلنا ، قال تعالى — بل كذبوا بما لم يحيطوا بعلمه ولما يأتهم تأويله — .

وكان الشيخ ابن عباد رضي الله عنه يقول : لا تجعلوا لأهل الظاهر حجة على أهل الباطن ،
أى لأنهم لم يدركوا ما أدركه أهل الباطن ، فلا تقوم الحجة عليهم بمجرد سوء الظن ، وقد مر
أبي مدين حيث يقول :

إذا لم تذق ما ذقت الناس في الهوى فله يا غالى الحشا لا تعنفنا
إذا اهتزت الأرواح شوقاً إلى الله نعم : ترقص الأشباح يا جاهل المعنى

إلى آخر كلامه وبالله التوفيق .

ثم أشار إلى مسألة الخلع ، وهى خلع الثوب عنه ، وإلقاؤه للفقراء فرحاً وتواجداً كما
فعله عليه الصلاة والسلام ، فقال :

وكرهوا الخلع على المساعده لأن فيه كلفة المعانده
ومن يكن يخلع عند الحال فلا يجوز رده بحال
إذ كان كل طائد في هديه كالكلب ظل عائداً في قبته

قلت الخلع بفتح الحاء وسكون اللام هو : نزع الثوب عند السماع ، وهو على ثلاثة أقسام :
أما أن يكون مساعدة لغيره ، أو لعبة حال عليه ، أو سقط بنفسه ، الأول مكروه لما فيه
من التكلف والمعانده ، أعنى المنافسة ، لأنه لما رأى غيره خلع ثوبه وجداً أو حالاً : خلع
هو ثوبه مساعدة له ، ومنافسة فيما فعل ، وهذا لا يخلوا من رياء وتصنع ، وإليه أشار بقوله
« وكرهوا الخلع ، إلخ . » وإما أن يكون لعبة حال عليه ، فنزعه فرحاً بالوجد أو شكراً
لما وهبه الله من سنى الأحوال ، فهذا يأخذه الفقراء ، ولا يجوز له الرجوع فيه بحال ، لأن
فيه الرجوع في الصدقة وقد قال عليه الصلاة والسلام : « العائد في صدقته كالكلب يعود
في قبته (١) » ، وإلى هذا أشار بقوله « ومن يكن يخلع عند الحال ، إلخ . »

قال السلى : وأكثر المشايخ يكرهون طرح الخرقه على سبيل المساعدة ، لما فيه من
لتكلف المخائف للحقيقة ، وما كان من معارضة حال أو وقت ، فلا يجوز فيه الرد ، لأن
ذلك شبه هبة وهديه ، وقال صلى الله عليه وسلم .

(١) متفق عليه من البخارى ومسلم ورواه أحمد وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن :

و للعائد في صدقته كالكلب يعود في قيئه . .

وقيل : من رجع في هبته بالغ في خسته اه .

ثم إلى حكمه ، فقال :

وحكمه في أفضل الأحكام رأى العراق ليس رأى الشام

قلت : ظاهر كلامه أن الضمير في « حكمه » يعود على الخلع الذي هو أقرب مذكور ، لكن لم يذكر السلي الذي يعتمد الناظم في هذا النظم هذا الخلاف ، وكذلك التجبي في الإقالة ، مع أنه أطال فيه الكلام ، ويحتمل أن يرجع الضمير إلى السماع من أصله ، ويكون استدراكا لترجيح أحد القولين المتقدمين ، في قوله « قال أهل العراق بالتحريم » ، وقال الحجازيون بالتسليم ، لكنه بعيد ، لأن أهل الحجاز غير أهل الشام ، وأيضاً السياق يباه ، ولعل الناظم اطلع على خلاف بين أهل العراق وأهل الشام في الخلع بالجواز والمنع .

وجنح للشيخ زروق إلى المنع فقال : تنبيه .

الذي ينبغي الجزم في هذا الزمان منع المحرق ، أي خلعه وأخذها والدخول عليها ، لما عليه الناس من الشبهة والاعتلال اه .

قلت : بل الظاهر الجواز ، وليس في طريق للصوفية صوفي شحيح ، بل هو من أقبح القبيح ، ومن كان شحيحاً تعلم السخاء بهذا وبغيره ، ثم أشار إلى ما يفعله بها ومن يمتنعها ، فقال .

وحكموا الوارد في الخروق للأنس والخبرة بالطريق

قلت : إذا اختلف الفقهاء في الخرق التي تخلع في مجالس السماع والذكر ، هل ترد لصاحبها أو تقطع وتفرق بينهم أو تعطى لأحوج منهم ، حكموا أول وارد عليهم ، فما حكم به اتبعوه ولأننا فعلوا ذلك للأنس الذي يحصل بينهم في ذلك الحكم ، بحيث لا يتغير قلب أحد .

وقيل : يحكمون من كان أهل الخبرة بطريق القوم ، وهذا ما لم يحضر الشيخ ، وأما إن حضراً لحكم له ، وإذا خدمت على القوال فهي له لقوله عليه الصلاة والسلام « من قتل قتيلاً قله سلبه »^(١) .

(١) متفق عليه ورواه أبو داود والترمذي والإمام أحمد وابن ماجه . ولفظه في الفتح الكبير : « من قتل كافراً ، بدل قتيلاً » .

وقيل : إن كان من جملة الفقراء فهو كأحدهم ، وإن كان محبا فقط فهي له ، وإن كان بأجرة فلا شيء له .

ثم ذكر ما يسقط بنفسه من غير أن يخلعه صاحبه ، فقال :

والسقط مردود بلا خلاف وقدّر هذا في السماع كاف

قلت : السقط بالكسر بمعنى : المسقوط ، يعني أن ما سقط من غير اختيار صاحبه فهو مردود عليه ، ولو كان من غلبة حال أو وجد إذ الخلع المتقدم إنما هو ما كان باختيار صاحبه فرحاً بالوجد أو الحال ، أو شكراً ، لا ماسقط بغير اختياره ، فلا يحمل أخذه ، إذ : لا يحمل ما لم امر به مسلم إلا بطيب نفسه (١) .

تسميم : قال ابن ليون التجيبي : ومن أشار يده أن يخلع ، بأن عنه ما عليه ، ومن دخل الطابق (أى الحلقة) بفرجية غير مزورة بآنت عنه ، يعني لتفريطه وعدم حزمه ، ومن خلع ما على رأسه بأن عنه كل ما عليه ، فإن الخزق نابعة للتاج . قلت ولعل هذا حيث جرى به أو عمل ، وإلا فالظاهر اختصاصه بما خلع ثم قال : ومن رقص ويده تحته بآنت عنه خرقة ، ومن عثر في ثوبه أو داسه (أى وطئه عليه برجله) أو أظفأ به السراج ، أو آذى به أحداً أو شبه ذلك بأن عنه الثوب ، وكذلك الإشارة بالسكم ، فإن الفقير محفوظ والسقط بآنت عنه ، فيبين عنه ثوبه بأقل شيء ، بخلاف المحب ، فإنه لا يبين عنه ثوبه إلا باختياره ، والعياط للفاحش في السماع يطالب صاحبه ، فإن انفصل ، وإلا استغفر ، وكذلك الوقف الكثير في الطابق (أى الحلقة) ما لم تشهد له البواطن بالصدق ، ولا يزاحم محترم محترماً في طابقه ، ولا يدخل الطابق غير فقير ، لأنه لا يدرى مشرب القوم ، ويحبسه الخادم في موضعه إن غلب عليه وارد ، انتهى .

وهذا القدر كاف في السماع ، لمن له صدق واستماع ، وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق .

ثم أشار إلى الحكم السابع من أحكام الترجمة التسعة فقال : السابع في حكم السفر والقعود على المشايخ : اعلم أن للسفر آداباً تطلب قبل الشروع فيه ، وآداباً حال الشروع ، وآداباً بعده ، فأما التي تطلب قبل الشروع فنما الاستخارة لقوله عليه الصلاة والسلام .

(١) هذا لفظ حديث شريف رواه أبو داود .

ما عذب من استخار، ولا ندم من استشار (۱) .

وروى البخاري عن جابر رضي الله عنه قال : كان رسول الله يعلنا الاستخارة لما يعلنا
جماعة ، يقول : إذا هم أحدكم بأمر فليركع ركعتين ثم يقول : اللهم إني أستخيرك بعلمك ،
وأستقدرك بقدرتك وأسألك من فضلك العظيم ، فإنك تقدر ولا أقدر ، وتعلم ولا أعلم ،
وأنت علام الغيوب ، اللهم إن كنت تعلم أن هذا الأمر خير لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ،
أو قال عاجل أمري وآجله فاقدره لي ويسره لي ، ثم يارك لي فيه ، وإن كنت تعلم أن هذا
الأمر شر لي في ديني ومعاشي وعاقبة أمري ، أو قال عاجل أمري وآجله ، فاصرفه عني واصرفني
 عنه ، واقدر لي الخير حيث كان ، ثم رضى به ، اه والركعتان بالكافرون والإخلاص ،
وبقصر على هذه الاستخارة دون غيرها مما فيها نوم أو غيره ، ويكررها ثلاثاً أو سبعاً
إن كان أمراً مهما .

ومنها الاستشارة إن كان له شيخ ، فليستشره ولا يسافر بغير إذنه ، وإن لم يكن له شيخ فليستشر من اشتهر بالصلاح والخير من العلماء العاملين ، وكذلك الوالدين ، ومنها النية الصالحة فلا يسافر بقصد الدنيا أو النزهة ، وسيأتي الكلام على هذا عند قول الناظم : ولم تكن أسفارهم تنزهاً ، بل كان فيها نحو النوجها ، ويقدر ما يعدد من النيات يحصل له من الخيرات وقد قال الشيخ القطب ابن مشيش لأبي الحسن : لا تنقل قدميك إلا حيث ترجو ثواب الله ، ولا تجلس إلا حيث تأمن غالباً من معصية الله ، ولا تصحب إلا من تستعين به على طاعة الله ولا تصطف لنفسك إلا من تزداد به يقيناً ، وقليل ما هم ، ومنها التماس الصاحب ، وفي بعض الآثار : التمسوا الرفيق قبل الطريق (٢) ، وقد نهى عليه الصلاة والسلام عن السفر وحده ، وقال : الراكب شيطان ، والراكبان شيطانان ، والثلاثة ركب (٣) ، اهـ . ولا يسافر مع خير جنسه ، ولا يصحب إلا من يزيد به إلى ربه .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم حين قالوا له : من نبأك يا رسول الله ؟ قال :

(۱) رواہ الطبرانی فی الأوسط بلفظ : « ما خاب من استخار ، ولا ندم من استشار ، ولا عاله من اقتصد » .

(٢) ونص الحديث : « التمسوا الجار قبل الدار ، والرفيق قبل الطريق ، رواه الطبراني في الاوسط عن رافع بن خديج .

الحاكم في هذه الحالة هو الحاكم الذي هو الحاكم في هذه الحالة.

• من ذكر كم باقه رؤيته وزاد في علمك منطقته ، وذكر كم بالآخرة عمله ، والمراد بالمجالسة مطلق المصاحبة ، فتصدق بالسفر وبغيره .

ومنها قضاء الديون ، ورد الودائع ، فإن لم تحمل وتعذر تعجيلها فليترك وكيلا يؤدي عنه وإن كانت عليه مظالم تحلل منها ، لأنه لا يدري : هل يرجع أم لا ؟ .

ومنها استعداده لحمل الماء ، فيستصحب قربة أو ركوة يتوضأ منها ، قال السلي رضي الله عنه : ويجب على المسافر استصحاب ركوة أو كوز للطهارة ، والركوة أولى ، والركوة إناء من جلد ، وقال في القاموس : زق صغير ، ثم قال : سمعت والدي رحمه الله يقول : كان بعض المشايخ إذا صالحه المسافر تفقد أثر حمله الركوة من كفه وأصابعه ، فإن وجدته وأي أثر الركوة أحسن قبوله ، والا ازدراه .

وقال بعضهم : إذا رأيت الصوفي وليس معه ركوة ولا كوز ، فاعلم أنه عزم على ترك الصلاة وكشف العورة ، شاء أم أبى .

ويستحب للمسافر استصحاب العصا والإبرة والخيوط ، والمقص والموسى ونحوها ، فإن ذلك مما يستعين به على أداء الفرائض كما يجب ، وإذا أراد أن يسافر فن الأدب أن يطوف على اخوانه ويعرفهم بسفره ويودعهم ، ويستحب لمن هو في هجبتهم تشييعه ، كذلك كان أدب المشايخ . اذ انتهى .

وأما التي تطلب حين الشروع في السفر فمنها : صلاة أربع ركعات ، فقد روى الدبلي أنه صلى الله عليه وسلم كان إذا أراد سفراً صلى أربع ركعات ، يقرأ في كل ركعة بفاتحة الكتاب والإخلاص ، فإذا سلم قال : اللهم اني أتقرب بهن اليك ، فاحملهن جليفتي ذاهلي ومالي ، فإذا نهض للسفر من جلوسه قال : اللهم بك انتشرت واليك توجهت ، وبك اعتصمت ، اللهم أنت ثقتي ورجائي ، اللهم اكفني ما أمني وما لا أهتم به ، وما أنت أعلم به مني ، وزودني التقوى ، واغفر لي ذنبي ، ووجهني للخير حيث ما توجهت ، ثم يقرأ للكافرون والإخلاص والمعوذتين ، .

ومنها توديعه أهله وجيرانه وأصحابه ، يقول : استودعكم الله الذي لا تضيع ودائعه ، ويقال له : زدك الله التقوى ، وغفر ذنبك ، ويسر لك الخير حيث ما كنت .

ومنها قراءة ورد السفر ، وهو : استغفر الله (عشراً) اللهم صل على سيدنا محمد النبي
الأي وعلى آله وصحبه وسلم يسلياً (عشراً) حسبنا الله ونعم الوكيل (عشراً) ولا حول
ولا قوة إلا بالله العلي العظيم (عشراً) .

هكذا تلقيناه من أشياخنا زاد شيخنا البسملة (عشراً) .

قال ينبغي أن تكون بعد الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم ، وهذا الورد حفيظة
رحمن يقال في كل سفر ولو قرب ، وينبغي تقديمه على التوديع ، وإذا كان له مركوب (١)
قال إذا جعل رجله في الفرز : بسم الله ، وإذا استوى على ظهره — الحمد لله سبحانه الذي
حرف لنا هذا وما كنا له مقرنين وإنا إلى ربنا لمنقلبون — سبحانه إني ظلمت نفسي فاغفر لي
فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت ، هكذا روى الترمذي .

زاد غيره : الحمد لله الذي حملنا في البر والبحر ، ورزقنا من الطيبات ، وفضلنا على كثير
من خلق تفضيلاً ، اللهم إنا نسألك في سفرنا هذا البر والتقوى ، ومن العمل ما ترضى ، اللهم
هون علينا سفرنا هذا ، واطوئنا بعده ، اللهم أنت الصاحب في السفر ، والخليفة في الأهل
اللهم إني أعوذ بك من وعشاء السفر وكآبة المنقلب وسوء المنظر في المال والأهل .

ويكبر ويسبح ويحمد (ثلاثاً وثلاثين) ويهلل (مرة) .

وأما التي تطلب بعد الشروع فاشتغاله بذكر الله ، وبالتفكير والاعتبار في عظمة الله ،
وكل ما رأى شيئاً عرف فيه صانعه ومولاه ، وإذا علا على شرف كبير ، وإذا هبط في واد
أو مكان منخفض سبح ، وإذا انفلتت دابته قال : يا عباد الله احبسوا ، وإذا رأى قرية أو
مدينة قال : اللهم رب السموات السبع وما أظللن ، ورب الأرضين السبع وما أقللن ، ورب
الشیاطين وما أضللن ، ورب الرياح وما ذرين ، أسئلك خير هذه القرية وخير أهلها ، ونعوذ
بك من شرها وشر أهلها وشر ما فيها ، وإذا وصل وضع يده على سورها ، ويقرأ لا يلاف
قرش (ثلاثاً) فإذا فعل ذلك لم يزل صحيحاً جسمه فيها حتى يخرج ، وإذا دخلها قال :
اللهم بارك لنا فيها (ثلاثاً) اللهم ارزقنا جناها وأعدنا من وبائها ، وحبيها إلى أهلها وحبيب
صالح أهلها إلينا .

وسياتى بقية الادب والآداب التى تطلب حين يصل عند الناظم إن شاء الله .
وبنبئنى للفقير أن يشد يده على هذه الآداب النبوية ، فانها دليل المحبة ، قال الله تعالى
— قل إن كنتم تحبون الله فاتبعونى يحببكم الله — والله تعالى أعلم .

ثم قدم الحكمة فى سفرهم وما المقصود به فقال :

مذهبهم فى جولة البلدان	زيارة الشيوخ والإخوان
ثم اقتباس العلم والآثار	أورد ظلم أو للاعتبار
أو للخمول أو لتنى الجاه	أو للرسول أو لبيت الله

قلت من سنة الفقراء فى بدايتهم الجولان فى البلدان ، وعدم التقرر^(١) فى الأوطان ،
وذكر الناظم فى حكمة ذلك عشرة أوجه :

أولها : زيارة الشيوخ ، وهى أعظمها بعد الحج وزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ،
وذلك لما فيها من زيادة فىض الإمداد واكتساب الأوصاف المحمودة ، والتخلص من الأوصاف
المدمومة ، مع اقتباس العلم والحال ، وفى ذلك من الخير ما لا يعلمه إلا الله ، وسياتى بعض
ذلك إن شاء الله .

وعن أبى رزين رضى الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : زر فى الله فان
من زار فى الله شيعه سبعون ألف ملك ، يقولون : اللهم صل على كذا وصل فيك ، وناداه مناد أن
طبت وطاب ممشاك ، وتبرأت من الجنة مقعداً .

قلت وهذا الذى ذكره الناظم زيارة الأحياء .

وأما زيارة الأموات ، فن ظفر بشيخ التريه ، فلا يحتاج إلى زيارة غيره : حيا كان
أو ميتاً .

وقد قال التجيبي : إن زيارة الأموات ليس من طريق القوم .

(١) أى الاستقرار .

(٢) ورواه أبو نعيم فى الحلية ، عن ابن عباس ، ونصه كافى الفتح الكبير : زر فى الله
طانه من زار فى الله شيعه سبعون ألف ملك .

قلت : وهو كذلك ، لأن القوم قد أغناهم بالأحياء ، فلا يزورون الأموات إلا للدعاء لهم
 هم عليهم ، وأما من لم يظفر بشيخ التربية فينبغي له الإكثار من زيارتهم ، فإن غاية نفع
 أن يدلّه على الحق ، وفي ذلك يقول الشيخ الصالح أبو إسحاق سيدي إبراهيم النازي
 بن وهران) .

زيارة أرباب التقى مرهم يبرى	ومفتاح أبواب الهداية والخير
وتحدث في الصدر الخلى إرادة	وتشرح صدراً ضاق من سعة الوزر
وتنصر مظلوما ، وترفع خاملا	وتكسب معدوما ، وتجر ذاك كسر
فكم خلصت من لجة الإثم فأنكا	فألقته في بحر الإنابة والبر
وكم من مرید أظفرت به برشد	خبر بصير بالبلاء وما يبرى
فألقى عليه حلة يمنية	مطرزة بالفتح واليمن والنصر
عليك بها ، فالقوم باحوا بسرّها	ووصوا بها يا صاح في السر والجهر
فزر ، وتأدب بعد تصحيح نية	تأدب بملوك مع المالك الحر
ولا فرق في أحكامها بين سالك	مرب ومجذوب وحي وذى قبر
وذى الزهد والعباد فالكل منعم	عليه ، ولكن ليست الشمس كالبدر

ثانيها : زيارة الإخوان ، ولا شك أن السفر لزيارة الإخوان قرينة عظيمة ومنقبة جسيمة
 هي من أفضل السياحة قال الله تعالى — ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب
 الله هم الغالبون (١) — فالمراد بالذين آمنوا : هم الصار الدين ، الذين ينصحون عباد الله ،
 وهم الفقراء المتوجهون إلى الله ، فإن كل من لقيهم نصحوه وذكره بالله .
 وقال عليه الصلاة والسلام : « يقول الله تعالى : وجبت محبتي للمتحابين في ، المتجالسين في ،
 المتزاورين في ، المتباذلين في ، رواه مالك (٢) .

(١) سورة المائدة ، الآية : ٥٦ .

(٢) وروى الحديث من طرق أخرى منها : « حقت محبتي للمتحابين في ، وحقت محبتي
 للنواصلين في ، وحقت محبتي للمتناصحين في ، وحقت محبتي للمتزاورين في ، وحقت محبتي
 المتباذلين في : المتحابون في على منابر من نور ، يغطهم بمكانهم النبيون والصديقون والشهداء ،
 رواه الإمام أحمد ، وابن حبان ، والحاكم ، والقضاعي . عن عباد بن الصامت . =

وقال صلى الله عليه وسلم : إن في الجنة غرفاً يرى ظاهرها من باطنها ، وباطنها من ظاهرها أعدّها الله للمتحابين فيه ، والمتزاورين فيه ، والمتباذلين فيه ، رواه الطبراني .

وعن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : أن رجلاً زار أخاه في قرية فأرصد الله تعالى له على مدرجته ملكاً ، فلما أتى عليه قال : أين تريد ؟ قال : أريد أخاً لي في هذه القرية قال : هل لك عليه من نعمة تربها ؟ قال : لا ، غير أني أحبته في الله : قال : فإني رسول الله إليك أن الله قد أحبك كما أحبته فيه ، اه . رواه مسلم ، والمدرجة الطريق .

وقال صلى الله عليه وسلم : من عاد مريضاً أو زار أخاً في الله ، ناداه مناد أن طبت وطاب ممشاك (١) .

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : ما من عبد أتى أخاه يزوره في الله ، إلا ناداه مناد من السماء أن طبت وطابت لك الجنة ، وإلا قال الله في ملكوت عرشه : عبدي زارني وعلى قرابه فلم يرض له بثواب دون الجنة (٢) .

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه لأصحابه حين قدموا عليه : هل تجالسون ؟ قالوا : لا نترك ذلك ، قال : فهل تزاورون ؟ قالوا : نعم يا أبا عبد الرحمن ، إن الرجل منا ليفقد أخاه فيمشي على رجله إلى آخر الكوفة حتى يلقاه ، قال : إنكم أن تزالوا بخير ما فعلتم ذلك . اه .

ثالثها : اقتباس العلم النافع ، ولا شك أن السفر لطلب العلم فرض فقد قال عليه الصلاة والسلام : طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وقال أيضاً : اطلبوا العلم ولو بالصدء ، ذكره في القوت (٣) .

== ونص عبارة الإمام مالك في الموطأ : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إن الله مبارك وتعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون لجلالي ؟ اليوم أظلمهم في ظلي يوم لا ظل إلا ظلي ، ورواه أيضاً بهذا اللفظ الإمام أحمد ومسلم .

(١) رواه الترمذي وابن ماجه عن أبي هريرة ، وأفضله من الفتح الكبير : من عاد أخاه في الله ناداه مناد : أن طبت وطاب ممشاك وتبوأات من الجنة منزلاً .

(٢) رواه ابن عدي ، والبيهقي ، والطبراني في الأوسط ، والأصغر ، والخطيب وابن عبد البر في العلم ، وابن ماجه .

(٣) رواه ابن عبد البر وابن عدي والبيهقي في المدخل عن أنس بن مالك .

وقال صلى الله عليه وسلم : من سلك طريقاً يلتمس بها علماً سهل الله له طريقاً إلى الجنة (١) ،
وقال صلى الله عليه وسلم : ما من خارج خرج من بيته في طلب العلم إلا وضعت الملائكة
له أجنحتها ، رضى بما صنع (٢) .

وعن قبيصة رضى الله عنه قال : «أثبت النبي صلى الله عليه وسلم فقال : يا قبيصة ما جاء
بك ؟ قلت : كبرت سني ورق عظمي فأثيتك لتعلمني ما ينفعني الله به قال : يا قبيصة ما مررت
بجبر ولا شجر ولا مدر إلا استغفر لك الحديث .

وقال صلى الله عليه وسلم : من غدا يريد العلم يتعلمه الله ، فتح الله له باباً إلى الجنة ،
وفرشت له الملائكة أكتافها ، وصلت عليه ملائكة السموات ، وحيتان البحر ، والعالم من
الفضل على العابد كالقمر ليلة البدر على أصغر كوكب في السماء ، والعلماء ورثة الأنبياء ، إن
الأنبياء لم يورثوا درهما ولا ديناراً ، ولكنهم ورثوا العلم ، فمن أخذه أخذ بحظ وافر ،
وموت العالم مصيبة لا نجبر ، وثلة لا تسد ، وهو نجم طمس : موت قبيلة أيسر من
موت عالم .

والمراد بالعالم في الحديث : «العلم النافع فيصدق بعلم ذات الله وصفاته ، وأحكامه ،
والمراد بالعابد الذي فضل عليه العالم : العابد الجاهل بما يلزمه من أداء فرضه ، فلا شك أن
عبادة الجاهل في جحره ، والعالم شامل للعلم بالله ، وهو الولي ، والعالم بأحكام الله وهو : العالم
العامل المخلص ، والله تعالى أعلم .

رابعها : اقتباس الأثر وهو حديث النبي صلى الله عليه وسلم ، وفضل السفر إليه كفضل
السفر إلى العلم ، لأنه عين العلم ، وقال صلى الله عليه وسلم : نضر الله امرءاً سمع منا شيئاً
فبلغه كما سمعه قرب مبلغ أوعى من سامع ، ومعنى «نضر» بهج وحسن .

خامسها : رد المظالم والسفر لذلك فرض ، كما إذا كان على الفقير دين أو قصاص أو حق
من حقوق العباد ، فيسافر إليه ليرده أو يتحلل منه ، هكذا ذكره السلي ، ونصه : ثم لطلب
العلم ، ثم لزيارة الإخوان والمشايخ ، إلى أن قال : ثم لرد المظالم والاستحلال ، ثم لطلب
الآثار والاعتبار ، ثم لرياضة النفوس وخول الذكراء . وهذا نص ما ذكره الشيخ في
هذه الآيات .

(١) رواه مسلم والترمذي عن أبي هريرة .

(٢) رواه أحمد، وابن ماجه ، وابن حبان ، والحاكم ، وفي آخره — كما في الفتح الكبير
« حتى يرجع » ، وفي الباب أحاديث كثيرة في وضع الملائكة أجنحتها لطالب العلم .

وقد تردد الشيخ زروق في تفسيره ، فحمله أولاً على رد ظلم العباد بعضهم عن بعض ، وجعله من تغيير المنكر وقال : هذا على من يمكنه ذلك من غير نقص في دينه كما هو معلوم في باب تغيير المنكر .

قلت : ولو حمل على رده بالشفاعة والإصلاح لكان أقرب ، ويكون في حق السكاملين منهم .

وحمله ثانياً على ما قلنا من رد المظالم ، ثم قال : وقد يريد الفرار من الظلم ، فإن المظالم لا يذل نفسه ، وقد قال تعالى — يا عبادي الذين آمنوا إن أرضي واسعة فإياي فاعبدون (١) — وقال تعالى — ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها (٢) — وقد يريد الفرار من المحل الذي يجري فيه الظلم على يديه كفرار إبراهيم بن آدهم رضى الله عنه من أرضه وغيره ، وكما في حديث الرجل الذي قتل تسعة وتسعين نفساً ثم كمل المائة بالعابد ، فلما دل على التوبة قال له : « اخرج من أرضك لأنها أرض سوء » ، الحديث (٣) . اهـ .

وهذه كلها احتمالات يقبلها اللفظ ، وأما المقصد فهو الأول ، لأن عادة الناظم محاذاة ما للسلي ، والله تعالى أعلم .

سادسها : الاعتبار بما يرى في سفره من جبال وأنهار وعيون وبحار وأشجار وثمار وأصناف المخلوقات ، وضروب السكائنات ، وقد تقدم أنه ينوي هذا في أول سفره .

سابعها : قصد الخول ونفي الجاه إذ لا يتحقق الإخلاص حتى يسقط من عين الناس ، ويسقط الناس من عينه ، ولا شك أنه إذا تغرب في البلدان لا يعرفه أحد ، فيأمن من الظهور الذي هو قاصم الظهور ، والخول مقصود عند القوم في البدايات ، وملحوظ في النهايات .

ثامنها : نفي الجاه ، وهو قريب من الخول ، ويفرق بينهما بأن قصد الخول هو الذي لم يكن له جاه فأراد أن يبقى على خوله ، ونفي الجاه هو الذي كان له جاه وأراد نفيه وزواله فإذا سافر إلى موضع لا يعرفه أحد ، فالغالب تحقيق خوله ، وينبغي له أن يكتفئ اسمه وينحني حاله حتى لا يعرف لأنه إذا عرف رجع إليه ماهرب منه ، والمراد بالجاه : المضر أو الجارى على

(١) الآية : ٥٦ سورة الفسكوت .

(٢) الآية : ٩٧ سورة النساء .

(٣) أحدهما .

غير وجه مستقيم ، أو الذى يخشى منه نقما أو شغلا ، أو الذى تميل إليه النفس وتركن إليه فان الركون إلى ظل العز قاطع كبير .

تاسعها : لزيارة الرسول صلى الله عليه وسلم ، وهى من أكبر القربات وأعلى الدرجات ، فقد قال عليه الصلاة والسلام ، من زارنى فى المدينة وجبت له شفاعتى (١) ، أو كما قال ، وقال صلى الله عليه وسلم : لا تشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد : المسجد الحرام ، ومسجدى هذا ، والمسجد الأقصى (٢) ، اهـ .

عاشرها : زيارة بيت الله الحرام ، والوقوف بعرفة ، وهو فرض المستطيع ، مستحب لغيره إذا سلم من تضيق واجب ، قال صلى الله عليه وسلم : من حج هذا البيت ولم يرفث ولم يفتن خرج من ذنوبه كيوم ولدته أمه ، (٣) اهـ .

تنبية : قال الشيخ زروق رضى الله عنه : كل هذه الوجوه تحتاج لتصحيح النية ، وتحقيق المقصد ، فإن النفس خادعة ، وللأمور آفات ، واعتبر هذا بحكاية أحمد ابن أرقم ، حيث جنحت نفسه لطلب الجهاد فتعجب منها ، وقال : نفس تأمر بالخير ، هذا عجب ، ثم سأل الله تعالى قائلاً : اللهم إني مصدق بقولك — إن النفس لأمارة بالسوء — ولها مكذب فأظلمنى على حقيقة هذا الأمر ، قالت : يا أحمد إنك تقتلنى كل يوم كذا وكذا قتلة ، ولا يشعر بى أحد فأردت موتة واحدة ، ويقال : مات شهيداً .

قال الإمام أبو حامد رحمه الله ، فانظر كيف رضيت بالرياء بعد الموت انتهى بمعناه . قلت : وبقي من فوائد السفر صحة البدن واتقارب فقد قال عليه الصلاة والسلام : سافروا تصحوا وتنعموا (٤) ، وكذلك قصد موت الغربة ، فقد قال أيضاً عليه الصلاة والسلام : للغريب شهيد ويفسح له فى قبره كبعده من أهله ، (٥) .

ثم ذكر مفهوم ما تقدم فقال :

ولم تكن أسفارهم تنزهها بل كان لله فيها نحوه للتوجهها

(١) وقال عليه الصلاة والسلام : من زارنى ، بالمدينة لحسباً كنت له شهيداً ، أو شهيداً يوم القيامة ، رواه البيهقى فى شعب الإيمان .

(٢) رواه أحمد ، وأبو داود ، والنسائى ، وابن ماجه ، وهو متفق عليه من البخارى ومسلم .

(٣) رواه البخارى ، وأحمد ، والنسائى ، وابن ماجه ، والترمذى .

(٤) رواه البيهقى والشيرازى فى الالقاء . وأبو لعيم فى الطب ، والقضاعى .

(٥) فى حديث طويل رواه ابن عساكر

ولم تكن أيضاً بلا استئذان للشيخ والآباء والإخوان
ولم يكن ذلك الفتوح أو لأمريء مبتذل عمدوح

قلت : إنما لم تكن أسفارهم للتنزه في البلدان ؛ أو لسكروب الأوطان ، بل في رضى الرحمن ، لأن مقاصدهم دائرة على الجد والتحقيق والمناقشة والتدقيق ، لا ينقلون أقدامهم إلا حيث يرجون رضى الله ، ولا تنزل همهم العالية إلا على الله ، غائبون عما سواه ، لا يتوجهون بهمهم إلا نحو الحبيب ، ولا يسافرون بقلوبهم إلا إلى حضرة القريب المحيى بخلاف العامة : أنفسهم غالبية عليهم ، وشهواتهم حاكمة عليهم ، إن تحرکوا للطاعة خوشتها عليهم ، فافسدت عليهم نياتهم وأزعجتهم في هوى أنفسهم ، نطهر لهم الطاعة وتخفى لهم الخديعة .

روى أن رجلاً جاء يودع بشراً الخافى رضى الله عنه عند مشيه للحج ، وقال : قد عرمت على الحج أتأمر بشيء ، فقال له بشر : كم أعددت للفقرة ؟ فقال : ألفي درهم ، فقال له بشر : أى شيء تبتغى بحجك نزهة أو اشتياقاً إلى البيت وابتغاء مرضاة الله ، قال : ابتغاء مرضاة الله ؛ قال فإن أصبت رضى الله تعالى ، وأنت في منزلك وتتفق ألفي درهم وتكون على يقين من مرضاة الله ، أفتعلم ذلك ؟ قال : نعم ، قال : اذهب فأعطاها عشرة أنفس : مديناً يقضى دينه ، وفقيراً يرم شعثه ، ومعيلاً يهجر عياله ، ومربي يقيم يفرحه ، وإن قوى قلبك أن تعطيا لواحد فافعل ، فإن إدغالك السرور على قلب امرئ مسلم ، وإغاثة لهفان وكشف ضر عتاج ، وإغاثة رجل ضعيف اليقين أفضل من مائة حجة بعد حجة الإسلام ، قم فأخرجها كما أمرناك وإلا قل لنا ما في قلبك ، قال : يا أبا نصر : سفرى أقوى في قلبي ، فتبسم بشر وأقبل عليه وقال له : المال إذا جمع من وسخ الشبهات والتجارات اقتضت النفس أن تقضى به وطراً تسرع إليه بظاهر الأعمال الصالحات ، وقد آلى الله على نفسه ألا يقبل إلا عمل المتقين اه .

وقال الشيخ أبو الحسن الشاذلى رضى الله عنه : إذا أكرم الله عبداً في حركاته وسكناته نصب له العبودية لله ، وستر عنه حظوظ نفسه ، وجعله يتقلب في عبوديته ، والحظوظ عنه مستورة مع جرى ما قدر له ، ولا يلتفت إليها كأنه في معزل عنها ، وإذا أهان الله عبداً في حركاته وسكناته نصب له حظوظ نفسه ، وستر عنه عبوديته فهو يتقلب في شهواته وعبودية الله عنه بمعزل ، وإن كان يجرى عليه شيء منها في الظاهر ، قال : وهذا باب من الولاية والإهانة .

وأما الصديقية العظمى والولاية الكبرى، فالخطوط والحقوق كلها سواء عند ذوى البصيرة
 بالله فيها يأخذ ويترك اه .

ولمّا لم تكن أسفارهم بلا استئذان الشيخ والآباء، لأن السفر من غير إذن الشيخ لا بركة
 به، ولا سير إلى الله فيه، بل فيه نقض للعهد الذى أخذه عنه : ألا يتحرك إلا بإذنه، وقد
 يكون له نظر في إقامته، وكانت الفقراء في الزمان السالف يستأذنون فيما هو أقل من هذا
 وقد وجد بعض الفقراء باقلا (أى فولا) فأتى به إلى الشيخ فقال : يا سيدى ما أفل بهذه
 الباقلا، فقال له : أفطر عليها، فقال بعض الحاضرين : يا سيدى يشاورك حتى في الباقلا،
 قال : نعم لو خالفنى فى شئ لم يفلح، أو ما هذا معناه، وهذا إن كان للسفر بعيداً، وأما القريب
 الذى لا يستغنى عنه، فأمره قريب .

وأما استئذان الآباء فهو أيضاً من الأمور المؤكدة .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : فإن حق الوالدين واجب شرعاً، إلا فى واجب لا يحيد
 عنه، ولا تراخى فيه كطلب علم حاله، والجهاد عند تعيينه، والحج عند ضيق وقته، إذا
 توفر شرطه .

وقال السلى : ولا يسافر بغير رضى الوالدين والاستاذ، وبغير إذنهم، حتى لا يكون
 طاقاً فى سفره، فلا يجد بركة فى أسفاره .

قلت : هذا إن تحقق أنهم لا يمنعون من زيارة الشيخ، وأما إن تحقق أنهم يمنعون من
 زيارة شيخ التربية أو من صحبته، فلا فائدة فى استئذانهم، ويسقط عنه استئذانهم، حسبما
 ذكره البلالى فى اختصار الإحياء، ونصه فى باب حقيقة علم الباطن، ويسافر إليه ولو منع
 أبواه فى فرضه .

وذكر الشيخ السنوسى فى شرح الجزيرى، أن النفس إذا غلبت كانت كالعدو إذا لجأ
 فتجب مجاهدتها والنموض إليها بقواه العملية والعملية، وفى مثل هذا يسقط استئذان الأبوين
 وغيرهما، لمخ كلامه الطويل فى المسألة .

وقد يرجع هذا قوله تعالى — وإن جاهدك على أن تشرك بى ما ليس لك به علم
 فلا تطعهما (١) — فإن الشرك على قسمين : أكبر وأصغر، وماء من الفاظ العموم، والشرك

الأصغر لا ينجو منه في الغالب إلا بصحبة من تخلص منه بشيخ كامل ، والقرآن بحر واسع يعرف منه كل أحد على قدر وسعه .

وما يناسب ما قلناه من مخالفة الأبوين في صحبة الشيخ ، قول الشاعر :

ولا أصنى إلى من قد نهاني ولي إذن غن العذال صبا
أخاطر بالخواطر في هواكم وأترك في رضاكم أبا وأما

ولقد سمعت من أشياخنا وغيرهم : أن شاباً كان يحضر مجلس شيخ شيوخنا ، سبى يوسف الفاسي ، وكان أبوه ينهاه عن ذلك ويذره ، حتى كان ربما يأتي لمجلس الشيخ ويقول : أترك لي ولدي ، فسكان الشيخ يقول للشاب : يا ولدي أطع أباك في كل شيء إلا في القدوم إلينا وحضور مجلسنا ، وكأنه تمسك بقول الغزالي : « إن أخذ علم النصف فرض عين ، والله تعالى أعلم .

وقول السلي : لئلا يكون عاقاً لوالديه : اعلم أن حقوق الوالدين لا يكون بمجرد مخالفتهم ، فإن الوالدين على ثلاثة أقسام :

قسم : يكونان وافرئ العقل واسعى الصدر ، لا يفتضان بشيء .

وقسم : يكونان ضعيفي العقل ضيق الصدر ، يفتضان بأقل شيء ، وقد يفتضان بلا شيء .

وقسم : يكونان معتدلي الحال .

فأما القسم الأول : فقد يعقهما ، ولو لم يفتضا .

وأما القسم الثاني : فقد لا يكون عاقاً لهما ولو غضبا ، والمرجع في ذلك لعرف أهل العقول الكاملة بحيث يشهدون في ذلك ويقولون : إنه عقوق ، سواء ظهر غضب أو لا .

وأما الثالث : فغضبهما عقوق ، كذا سمعت هذا التفصيل من بعض العلماء الفاسيين وهو صحيح حسن (نقله بعض شراح الشمايل) والله تعالى أعلم .

وأما استئذان الإخوان ، فهو حسن لعلة ينهض حالهم لزيارة معه .

وأما كون سفرهم لم يكن للفتوح ، وهو ما يقبضه من الهدايا والصدقات ، فقد تقدم أن سفرهم إنما كان لرضى الرحمن ، أو لتذكير الإخوان ، أو لرياضة النفوس ، ولم تكن أسفادهم لقصد الدنيا ، فإن ذلك من الهمة الدنية ، وكل من كان سفره للدنيا ، فلا قيمة له عند الله ،

ومن كانت همته ما يدخل بطنه ، كانت قيمته ما يخرج منها ، وجلس من كانت هذه همته في بيته أفضل له ، نعم إن تخلصت النية ثم أعطاه الله فتوحاً أخذ به ذبذبة الشيخ أو صرفه فيما يضطر إليه ، وكذلك السفر لمن كان مشهوراً بالسخاء والعطاء ، فهو من قبيل السفر للدنيا إذ لا يخلو من طمع فيه ، وما أقبح الطمع ، وما أحسن الورع .

دخل سيدنا على كرم الله وجهه البصرة فوجد الناس يقصون في المسجد ، فأقاهم حتى وقف على الحسن البصري ، فرأى عليه ستماً وهدياً ، فقال له : إني سائلك فإن أجبتني تركتك ، وإن لم نجبنني أقتك كما أقت أصحابك ، فقال له : سل عما بدالك ، فقال له : ما فساد الدين ؟ قال : الطمع ، قال : وما صلاح الدين ؟ قال : الورع ، قال له اجلس فشك يتكلم على الناس . اهـ .

وإلى هذا أشار بقوله «أو لا مريء مبتذل بمذوح» والمبتذل اسم فاعل ، من ابتذل طعامه أعطاه ، وأصل ما ذكره الناظم قول السلي رحمة الله : ولا يسافر للنزهة والبطر ورماء الناس والجولان في البلدان لطلب الدنيا والسعوب على متابعة الهوى .
قال أبو تراب النخشي رضي الله عنه : ليس شر أضر على المريد من أسفارهم على متابعة هواهم ، وما فسد من فسد من المريد إلا بالأسفار البطالة .

قال الله تعالى - ولا تكونوا كالذين خرجوا من ديارهم بطراً ورءاء الناس (١) - وقال النبي صلى الله عليه وسلم : «يأتي على الناس زمان يحج أغنياء أمتي للنزهة ، وأوسطهم للتجارة ، وقراؤهم للرياء ، وقراؤهم للسألة (٢)» ، وقال أيضاً (٣) قال أبو حنيفة النيسابوري : ينبغي للسافر ثلاثة أشياء : ترك تدبير الزاد ، وتقدير الطريق ، ويعلم أن الله حافظه .

ثم ذكر آداب الوصول ، فقال :

لحيث ما حلوا بلداً فبالحرا
أن يقصدوا الشيخ وبعد الفقرا

(١) الآية : ٧٧ من سورة الأنفال .

(٢) ولص الحديث : «إذا كان آخر الزمان خرج الناس للحج أربعة أصناف : سلاطينهم للنزهة ، وأغنياءهم للتجارة ، وفقراءهم للسألة ، وقراؤهم للسمعة ، رواه الخطيب بإسناد مجهول ، وأبو عثمان الصابوني في كتاب المائتين بمعناه .

(٣) أي قال أبو تراب النخشي .

قلت : من آداب الفقراء إذا حلوا بلدًا من البلدان ، سواء كانت التي فيها شيخهم .
أولا أن يقصدوا شيوخها وكبراءها أولا ، ثم يقصدوا فقراءها ، لأن التقديم تعظيم ، والعظيم
هل قدر المقام ، ومن لا يعظم لا يعظم ، وإذا قصدوا شيوخها فلا يدخلون عليهم إلا
معتقدين كمال ولايتهم ، ولا يدخلون مختبرين فيحرمون بركتهم ، فكل من قصد الأولياء
بالميزان ، فلا ينال إلا الحرمان ، ومن أنام بالتعظيم وحسن الاعتقاد نال من الله كمال المحبة
وحسن الوداد ، وينبغي أن ينزل من عليه وعمله وحاله ، كما يفعل مع شيخه ، وكذلك يفعل
مع الفقراء ، فلا يدخل عليهم إلا معتقداً كمالهم ، وينزل أيضا عن عليه وعمله ، فيرجع إلى
علمهم فيما يشيرون إليه ، ولا يدعى علما ، ولا يراه في حضرتهم ، بل يرى علمهم أكل من
عليه ، وأنه مفتقر إليهم وإن كان أعلى منهم في الظاهر ، ويرى عملهم أوفى من عمله ، وإن
كان أوفى منهم فيه ، لأن ذلك معتبر بالحقائق ، وهي باطنية قلبية ، فيحملها على أكل الوجوه
وآتمها ، فيشرب منهم على قدر اعتقاده ، ويأخذ من مددهم على قدر صدقه ، وهذا الترتيب
الذي ذكرنا هو مع الاختيار ، فإن تعذر لقاء المشايخ أولا : قدم الفقراء .

وقوله : فبالحرأ ، أى فبالأحرورية والألوية أن يقدموا الشيخ ، ثم بعد ذلك الفقراء
إن أمكن كما قلناه ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر آداب لقاء الأتباع ، والجلوس معهم ومكالمتهم ، فقال :

وان للقوم هنا آدابا إذ جعلوا كلامهم جوابا
فإن تعاطى الشيخ منهم قولا قالوا ، وإلا فالسكوت أولى

قلت : للقوم في لقاء المشايخ آداب .

منها : أنهم إذا قربوا المنزل رفعوا أصواتهم بالهيلة والذكر ، فلا يزالون كذلك حتى
يصلوا إلى الزاوية فهو من تعظيم النسبة ويفعلون ذلك عند قربهم المباشرة ، لما فيه من تنبيه
الغافلين الشياطين ، ومنها انتظار خروج الشيخ من غير نداء عليه ، ولا رسول إليه ، قال
الله تعالى — إن الذين ينادونك من وراء الحجرات أكثرهم لا يعقلون (١) —

ومنها تقبيل يد الشيخ ، ثم رجله إن جرت بذلك عادة للفقراء ، فهو من أحسن التعظيم
وهو من تربية الآداب والمهابة .

وفي ذلك قال الشاعر :

يا من يريد خمرة المحبة خذوها عني : هي حلال
ومن يريد يسقى منها غبا خذ يضع لأقدام الرجال
راسى حططت لكل شيخ هم الموالى : سقوني زلال

ومنها جلوسهم بين يديه على نعت السكينة والوقار، خافضين أصواتهم، فاكسين رؤوسهم
خاضعين أبصارهم ، فلا يكلمونه حتى يبدأهم بالكلام .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : ثم إن طلب أحدهم بالكلام ، فإن كان الكلام عاديا
أن به منخفا ، وإن كان في العلوم والحقائق نظر ، فإن حضرته نفسه ترك ، وإلا تكلم بأقل
ما يمكنه الكلام في ذلك ، لأن الكلام في حضرة الأستاذين مقت .

ثم قال : ومن أعجب ما شهدته في بعض الناس أنهم يدخلون على رجال من أهل الكمال
لقصد الاتفايع بهم ، ثم يبسطون ألسنتهم بالكلام في وجوه من صور الحقائق ، ويرون
أنهم بذلك متقربون لقلوبهم ، ومتحجبون لهم ، ولا أدري هل ذلك لظنهم خلوص عما يألونه ،
أو لرؤيتهم أن ذلك مما يقربهم إليهم ، أو ليروهم أنهم يفهمون ويذوقون ، هذه كلها جهالات
أناذنا الله منها ، انتهى كلامه .

قلت : أما في حال المذاكرة فلا بأس أن يتكلم بما عنده من العلم إعانة للشيخ ، بانخفاض
وتواضع ، ولا يعارضه في كلامه ، فإن لم يفهم كلام الشيخ ، أو وآه مخالفاً لرأيه ، أو لما عند
فهمه ، يقول : يا سيدى هذا ما فهمته ، وقد ظهر لى كذا وكذا ، وقال فلان : كذا وكذا
على وجه الاستفهام ، لا على وجه التعارض ، فإن ظهر له خلاف ما ظهر للشيخ فليسكت ،
وإن وقعت معارضة بين الشيخ وبعض الفقراء أو غيرهم ، فلينصر الشيخ ما استطاع ، فإن
ذلك مما يجلب المودة من الشيخ ، ثم إن تعاظم الشيخ من الفقراء كلاماً أو من أحدهم : كله
يخفى وتواضع ، وإلا فالسكوت أولى .

وقد أشرت إلى هذه الآداب مع زيادة في قصيدتي العينية التي وضعتها في الآداب ،
قلت بعد كلام :

مع الشيخ آداب إذا لم تمكن له فإنه في واد القطيعة رافع

خضوع، وهيبة، وصدق محبة	وعقل كمال فيه : إنه جامع
فلا ترفع صوتاً إذا كان حاضراً	ولا تضحكن، فالضحك فيه لجائع
ولا تعرض أصلاً عليه فإنه	بنور شهود البصيرة تابع
ولا ترمين عينا إلى ماء غيره	فترى كسيراً في المعاطش ضائع
ولا تخرجن من غش تربية غدت	تمدك بالأنوار منها تتابع
إلى أن ترى الترديد قد حازوقته	وصرت من التمكن أمرك شائع
تعد من الأنوار من كل وجهة	وتسقى من الأنعام من هو تابع

ثم أشار إلى آداب المقدم عليهم في حق القادمين ، فقال :

واجب على أولى الإقامة	تفقد الوارد بالكرامه
وهو يزور القوم في الحرام	ولأنما ذاك للاحترم
ويبدءوا الوارد بالسلام	وبالطعام ثم بالإكرام
وكلوه بعدها تنكليها	تأسيماً بفعل إبراهيم
وكرر اسؤال هذا الوارد	إلا عن الشيخ أو التلامذ

قلت : ذكر في هذه الآيات ستة آداب في حق المقدم عليهم :

أولها : تفقد الوارد بالكرامة، وهو الذهاب إلى لقائه وإظهار المبرة في وجهه والفرح به وإراحته من شئونه وتعلقاته ، وإنزاله في محل يظهر به التعظيم كدار ، أو زاوية ، والدار أبلغ في تعظيمه ، فإن نزل في محل قدم عليه من لم يكن خرج للقائه ، فالوارد أحق أن يزار في محله إلا أن يكون بمكة ، فإن عليه أن يزور المجاورين لبيت الله الحرام ، لحرفة بيت الله الحرام ، فلا يخرجون منه إلى غيره ، وهذا معنى قوله : واجب على أولى الإقامة ، إلخ . وقوله : وهو يزور القوم ، إلخ . على ما في بعض النسخ .

ثانيها : ابتداءه بالسلام تأسيماً له لقوله عليه الصلاة والسلام : لكل داخل دهشة فأبدوه بالسلام ، ولكل طاعم وحشة ، فأبدوه باليمن ، .

ولم يشر بقوله : ويبدءوا الوارد ، اه .

ثالثها : مبادرته بالطعام ، ويسمى هذا الطعام « الفرى » والمراد ما تيسر ووجد من غير تكلف ، وهذه من المسائل التي تطلب المبادرة بها ، وقد نظمها بعضهم فقال :

بَادِرٌ بِتَوْبَةِ قَرِيٍّ وَالِدْفَنٍ نِكَاحٍ بِكَثْرٍ ، وَصَلَاةٍ ، تَدِينِ

رابعاً : إظهار كرامته بما يقدر عليه من الطعام من غير تكلف مفرط ولا تفريط ، فالمصطفى لا يتكلف ولا يكلف ، فإن كان موسماً عليه بالغ في إكرامه من غير سرف .

قال السلي : ولما ورد أبو حمص على الجنيد تكلف في خدمته فأنكر عليه ، فقال : لو دخلت خراسان علمتك كيف الفتوة ، ف قيل له في ذلك ؟ فقال : صيرت أصحابي مخانيث ، تقدم إليهم ألوان الطعام والطيبات كل يوم ، وإنما الفتوة عندما ترك التكلف ، ثم قال له : إذا حضرك الفقراء فاخدمهم بلا تكلف ، حتى إذا جمت جاعوا معك ، وإذا شبعوا شبعوا معك ، وحتى يكون مقامهم وخروجهم من عندك واحداً .

خامساً تكلمه تكليماً خفيفاً ، كما فعل إبراهيم عليه السلام حيث بدأ بالسلام ، ثم أتى بالطعام ، ثم تسكلم معهم ، قال تعالى - هل أتاك حديث ضيف إبراهيم (١) - الآية ، ثم قال - فما خطبكم أيها المرسلون (٢) - فهذا هو الكلام ، وإليه أشار بقوله « وكلوه » إلخ . والناسي هو الاقتداء .

سادساً : ترك سؤاله عن أحوال الدنيا وأحاديثها ، فإن ذلك مما لا يعنى ، ويقضى القلب ، وإليه أشار بقوله « وكرهوا » إلخ .

وأصل ما ذكره لناظم قول السلي رضى الله عنه : وعلى المقيمين أن يسلموا عليه ، أى على الوارد ، لحق القادم أن يزار ، إلا أن يكون بمكة ، فإن عليه زيارة المجاورين لحرمة بيت الله الحرام ، ثم يقدم إليه ما حضر من الطعام من غير تكلف ، فقد قيل : الأدب مع الضيف أن يبدأ بالسلام ، ثم بالإكرام ، كصنع الخليل عليه الصلاة والسلام - إذ دخلوا عليه

فقالوا سلاماً قال سلام ، فالبث أن جاء بمجمل حنيد^(١) - وقد قال عز وجل - قد كان لكم أسوة حسنة في إبراهيم والذين معه^(٢) - ولا يستل عن أحاديث الدنيا عما لا يرضى ، بل عن أخبار المشايخ والأصحاب والإخوان المتعاونين على أعمال الخير .

ثم أشار إلى ملازمة الأوراد في حال السفر ، فقال :

وكرهوا تضييعه أوراده كيف ، وقد جاء إلى الزيادة

قلت : أوراد الإنسان ما كان وظفه عليه شيخه ، أو وظفه على نفسه ، والمراد ما كان يعمل في حضره ، فإذا سافر بقي على ما كان عليه ، لقوله عليه الصلاة والسلام : أحب العمل إلى الله أدومه وإن قل^(٣) .

وذلك بقدر الاستطاعة ، وإلا فالسفر محل التعب والنصب ، فقد يشق عليه في حال حضره مع أن أجره جار عليه ، ولو لم يفعل ، ففي الحديث : إذا مرض الإنسان أو سافر أجرى عليه ما كان يعمل مقبلاً صحيحاً^(٤) ، أو كما قال عليه الصلاة والسلام : نعم الفكرة والفترة إن كان من أهلها لا يتركها ، وكذلك المذاكرة ، وكيف يترك أوراده بالسكينة ، ومإنما سافر لطلب الزيادة الباطنية .

كان بعض المشايخ يقول : عليك بالذكر عند اللبس ، وبالفكر عند القبض ، وبالحمد على كل حال ، وردك لا تتركه ، فإن فاتك بالليل استدركه بالنهار ، وإن سافرت فاجعل وردك كله في الذكر ، أو اتركه على حاله ، إلى آخر كلامه ، ثم قل :

ومن يسافر في هوى النفوس فإنما يؤمر بالجلوس

قلت : ما قاله ظاهر ، وقد تقدم هذا المعنى مراراً ، وتقدم ضابط أبي الحسن الشاذلي رضي الله عنه قريباً ، والغالب على من لم يظفر بشيخ التربية هذا الوصف إلا اللاد ، إذ لا يخرج من حظوظ النفس إلا بصحبة من خرج منها ، والله تعالى أعلم :

(١) سورة هود عليه الصلاة والسلام ، الآية : ٦٩ .

(٢) سورة الممتحنة ، الآية : ٤ .

(٣) متفق عليه من البخاري ومسلم .

(٤) رواه الإمام أحمد ، والبخاري عن أبي موسى ، ولفظه من : الفتح الكبير ، : ١٠١ .

مرض العبد كتب الله تعالى له من الأجر مثل ما كان يعمل صحيحاً مقبلاً .

تمة : بني آداب تتعلق بالسفر ذكرها السلي .

منها : أنه إذا دخل بلداً فيها زوايا قصد أعظمها وأكثرها فقراء .

قلت : هذا إن كانوا كلهم من طريقته ، وإلا نزل على من هو متفق معه في النسبة .

ومنها : أنه ينبغي أن ينزل على الموضع الذي فيه المياه الجارية ، والمظاهر النقية .

قال : وسمعت أبا طاهر الأشقر يقول : كان يصحبني فقير مليح ، كلما نزلنا منزلاً تفقد موضع الطهارة ، فإن وجدته نظيفاً طيباً استطاب المكان وتناول ما قدم إليه من الطعام ، وإن لم يكن ذلك لم يتناول الطعام ، وقال : هذه بلية ليس فيها كنيف .

ومنها : أنه إذا دخل بلداً ليس فيها فقراء نزل على أكثرهم حجة لهذه الطائفة ، وأحسنهم إيماناً بهم وميلاً إليهم ، فإذا دخل دويرة تنحى ناحية ونزع خفيه ، يبدأ باليسرى في النزوع وباليمنى في اللبس ، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا فعل أحدكم فليبدأ باليمنى وإذا نزع خفيه ، يبدأ باليسرى (١) ، ثم يقصد موضع الطهارة فيتوضأ ويصلي ركعتين ، فإن كان هناك شيخ قصد زيارته وقبل رأسه ، إلا أن يكون الزائر حدثاً فيقبل يديه اهـ .

ومنها : أنه ينبغي لمن أراد السفر أن يتعلم أحكامه كأحكام قصر الصلاة ، والتميم ، والقبلة (٢) ، وغير ذلك مما يتوقف عليه في السفر .

قال الشيخ أبو يعقوب السنوسي رحمه الله : يحتاج المسافر إلى أربعة أشياء في سفره ، وإلا فلا يسافر : علم يسوسه ، وورع يحجزه ، وخلق يصونه ، وبقين يحمله .

مثل أبو رويم عن أدب المسافر ؟ فقال : ألا تسبق همته خطوته ، وحيث ما وقف كان منزله .

ومنها أنهم إذا كانوا جماعة وليس فيهم مقدم ، ولا شيخ أن يتفقوا على مقدم يرجعون

(١) رواه أحمد ، ومسلم ، وأبو داود ، والترمذي ، وابن ماجه ، ولفظه : وإذا فعل أحدكم فليبدأ باليمنى ، وإذا خلع فليبدأ باليسرى ، لتكون اليمنى أولهما تفعل ، وآخرهما تنزع .

(٢) بكسر اللقاف ، مكان الانحاء للكعبة الشريفة وهو مسافر .

إليه في أمورهم ، ففي بعض الآثار : « لا خير في قوم ليس فيهم من يعظم في الله ، ومعناه ثابت في الحديث عند المنذرى ، غير أنى لم أستحضره .

وقال السلى في « آداب الصحبة » : « ومن آدابهم إذا اجتمعوا أن يقدموا أحدهم لتكون مراجعتهم إليه واعتمادهم عليه ، ويكون أرجحهم عقلا ، ثم أكبرهم همة ، ثم أعلمهم حالا ثم أعلمهم بالمذهب ، ثم أسنهم .

قال النبي صلى الله عليه وسلم : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن استووا فأكفهم في الدين ، فإن استووا فأقدمهم هجرة (١) » ، ثم أحسنهم خلقا ، ثم أتمهم أدبا ، ثم أسبقهم بقاء المشايخ ، انتهى المراد منه .

وقال أيضا : « ومن آدابهم ألا يجرى بينهم في حديثهم : هذا لى وهذا لك ، ولو كان كذا لم يكن كذا ، ولعل ، وعسى ، ولم فلت ؟ ولم لم تفعل ؟ وما يجرى بجراها فإنها من أخلاق العوام (٢) .

ثم قال : « ولا يجرى بينهم الإغارة والاستعارة (٣) .

قال بعضهم : الصوفى لا يعير ولا يستعير ، ولا تجرى بينهم المخاصمة ولا المجادلة ، ولا الاستهزاء ولا الازدراء ، ولا المراجعة ، ولا المغالبة ، ولا الغلبة ، والتقيصة لا تكون بينهم ، بل يكون كل واحد منهم للكبير كالابن ، وللصغير كالأب ، وللنظير كالأخ ، وللوالدين والأستاذين كالمملوك .

(١) ونص الحديث : « يؤم القوم أقرؤهم لكتاب الله ، فإن كانوا في القراءة سواء فأعلمهم بالسنة ، فإن كانوا في السنة سواء ، فأقدمهم هجرة ، فإن كانوا في الهجرة سواء فأقدمهم سنا ، ولا يؤمن الرجل الرجل في أهله وملكه ، ولا يقعد في بيته على تكبره إلا باذنه . » رواه أحمد ، ومسلم ، والأربعة عن ابن مسعود .

(٢) المقصود : منع الجدال على أى شكل كان .

(٣) لئلا تدب بينهم الشحناء والتنافر .

وهذا ليس خاصا بالسفر، وإنما هو من آدابهم في الصحبة على الدوام، وفي السفر أكثر لأن السفر يسفر عن الممايب، ولا ينبغي على حاله في حال السفر إلا الصديق .

ومنها : أنه إذا أقبل وقرب إلى بلده، قال : لا إله إلا الله ، وحده لا شريك له ، له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير ، آيئون تائبون عابدون ساجدون ، لربنا حامدون صدق الله وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، لا يزال يقول حتى يدخل البلد ، فإذا دخلها قال : اللهم اجعل لنا بها قراراً ، وارزقنا حسناً، فإذا دخل على أهله (١) . قال : أوبا أوبا ، لربنا توبا ، لا يغادر علينا حوبا .

ومنها : أنه ينبغي أن يستصحب هدية لأهله وأقاربه وجيرانه ، على قدر وسعه . ومنها : أنه ينبغي أن يدخل أول النهار، ولا يدخل ليلاً فإن تعذر أرسل رسولاً يعلم به وقد نهي عليه الصلاة والسلام أن يطرق أهله ليلاً (٢) والله تعالى أعلم وبالله التوفيق .

ثم أشار إلى الحكم الثامن من الأحكام التسعة ، وهو السؤال ، فقال :
الثامن في السؤال : أي الطلب .

قلت : ذكر في هذه الترجمة : حكمه ، وآدابه ، ومواطنه ، فبدأ بحكمه ، فقال :

حكم السؤال عندهم مشروع طوراً ، وطوراً عندهم ممنوع

قلت : اعلم أن السؤال أصله في الشريعة الجواز، قال تعالى - وأما السائل فلا تنهر (٣) - وقال عليه الصلاة والسلام : « أعط السائل ولو على فرسه (٤) » .

ثم تميزه الأحكام الخمسة يكون : واجبا ، ومندوبا ، ومباحا ، ومكروها ، وحراما .

(١) والسنة إذا دخل البلد بدأ بالمسجد قبل أهله .

(٢) في الحديث : « نهى النبي صلى الله عليه وسلم أن يطرق الرجل أهله ليلاً ، متفق عليه من حديث جابر .

(٣) سورة الضحى ، الآية : ١٠ .

(٤) ولفظه عند ابن عدى « أعطوا السائل وإن جاء على فرس » .

فأما الواجب فهو سؤال الاضطراب خوفاً على البشرية أو الروحانية ، وذلك إذا غلبت
نفسه للرياسة والكبر .

وقد نص ابن العربي على وجوبه على المريد في بدايته ، حسبما ذكره القسطلاني في شرح
البخاري في باب الزكاة .

وأما المندوب فهو إذا سأل لغيره عند حاجته ، أو لتهديب نفسه عند الأمن عليها ،
وأما المباح فهو ما إذا سأل اختباراً لنفسه ، هل تقدر عليه أم لا ، وإذا طال عهده به
اختبرها ، هل رجعت لأصلها أو هي باقية على موتها ، وأما المكروه فهو سؤاله لنفسه عند
الحاجة قبل الضرورة ، وقيل : مباح ، على ما سيأتي .

وأما الحرام ، فهو السؤال تكثراً أو إلحاحاً ، وسيأتي الكلام على هذه الأقسام في شرح
كلام الناظم إن شاء الله .

ثم أشار إلى القسم الواجب أو المندوب ، فقال :

وما على السائل من تأويل	لأجل قهر النفس والتذليل
فن أولى الأذواق والأحوال	من كان راض النفس بالسؤال
قالوا : ولا خير إذن في العبد	ما لم يكن قد ذاق طعم الرد

قلت : السؤال لأجل قهر النفس يصدق بالواجب والمندوب ، فالواجب ما إذا كانت
نفسه غالبة عليه ، وفيها نخفخة وكبر ورياسة ، ولا يمكن دواؤها إلا به لقوله عليه الصلاة والسلام
« لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال خردلة من كبر » (١) والمندوب ما إذا كانت مأونة من
ذلك ، لكن ثقل عليها وجمحت منه وهو في محل الرياضة ، فهذا مستحب في حقه إذ لا يثقل
عليها إلا ما يقتلها ، ولا شيء أسرع في قتلها منه ، فتقرب عليه المسافة ، وهذا ما لم يأمره
به شيخه ، وإلا أمين عليه ، وصار من قبيل الواجب (وقيدته) الشيخ زروق بما إذا لم يوجه

(١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « لا يدخل الجنة من في قلبه مثقال خردلة
من كبر » ، قيل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ، ونعله حسناً ؟ قال : « إن الله جميل
يحب الجمال : الكبر : بطر الحق وغمط الناس » ، رواه مسلم عن ابن مسعود .

إلى ضرر في دينه ودنياه (١) .

قلت : مثل الضرر في الدين ما إذا كان يتم كشف في الديار على محارم الناس ، لأن عادة النساء لا يستترن من الفقراء في السؤال ، ومثل ضرر الدنيا إذا خاف أن يقبض ويؤخذ ماله .

ثم قال الشيخ زروق : ولا يجعله الشيخ مناجاة وقاعدة كلية يعرف بها فقراءه ، فإن ذلك يؤدي لقبض المقصود ، لاسيما مع هيئة مقصودة وكيفية معلومة تصير صاحبها علماً فيما توجه له فيزيده تعزراً وفساداً ، ولذلك قل ما ينجح من استعماله إلا أن يكون ذلك كما كان يفعله بعض الفقراء من أهل مصر : أنه كان إذا أتاه أحد من أبناء الدنيا ألزمه بذلك من غير شهوة حتى يأتي على آخر المدينة ثم يتصدق به . فقد يكون له وجه انتهى .

قلت : وما ذكره الشيخ زروق محمول على ما يفعله بعض الفقراء ، يأخذون علماً أو راية ويقصدون المداثر والخيم ، وهذا حرام ، وأما ما يفعله أصحابنا فإنما هو لقتل النفوس ، وقوت الأرواح إذ لا يتقدم له الفقير حين يؤمر به ، إلا بعد جهد جهيد وجهاد شديد ، بحيث تمنى النفس الموت الحسي اختياراً ، وترضى أن تموت مراراً ولا تتقدم له ، إلا أن الصدق ومة الشيخ تجعله على الامتثال ، فلا شك أنه يقرب مسافة بعيدة ، ويقتل النفس ، ويجهز عليها في مرة واحدة ، وأصل دخوله في هذه الطائفة على هذا الوجه أن شيخ شيخنا (سيدي علي العمراني) كان له جاه ووزارة ورياسة في فاس ، فلما دخل في يد الشيخ ، ورأى صدقه وجده ، قال له : أرى لك خمرة (٢) لم يقدر عليها أحد قبالك ، ولولا ما رأيت فيك من الصدق والجد ما دلتك عليها ، قال : وما هي يا سيدي ؟ قال : السؤال ، فتقدم إليه .

(١) هذا الكلام كله رده قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : من يتكفل لي أن لا يسأل الناس شيئاً فأنكفله بالجنة ، فكان ثوبان راوى الحديث تسقط علاقة سوطه ولا يأمر أحداً يتأوله إياه ، وينزل هو فيأخذه ، رواه أبو داود والنسائي وغيرهما . وهذا الحديث الشريف الصحيح نعرف كيف يعلمنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عزة الإسلام ، فإن الإسلام عزة في قلب المسلم تنفره عن السؤال ولوأين الطريق .

(٢) الخامرة : المخاطلة ، والأخذ بالقهر والغلبة ، ومنه استخمر القوم : أي ملكهم قهراً والله تعالى أعلم .

ورأيت في كتابه أنه قال له : يا ولدي ، إنك تطلب هذا العلم (١) ، ولا تقال منه ما يزيد إلا بالذل ، فدخل فيه ، وسكن إلى مماته رضى الله عنه .

قوله : « فن أولى الأذواق » الخ . يعنى أن بعض أهل الأذواق والأحوال « كان راض نفسه » أى رضىها وهذبها بالسؤال .

قال السلي رضى الله عنه : وقد رخص بعضهم فى السؤال لمن يقصد بذلك تذليل النفس .

وقال عبد الله بن منازل : لا خير فيمن لم يذق طعم إجابة الرد .

وكان بعض المشايخ يأكل من السؤال ، فمثل عن ذلك ؟ فقال : اخترته لكرامته نفسى .

وقال الأستاذ أبو القاسم القشيري : ولا يزال الفقير بخير ما دام خبزه كسراً ، فإذا دارت الخبزة بين يديه دار الشر على رأسه .

وما أحسن حال السائل يقف بكل باب يسمع « يفتح الله » انتهى .

وكان إبراهيم الخواص تعرض عليه الألوف فلا يقبلها ، وربما سأل من يعرف من الناس الدرهم والدرهمين ، لا يزيد على ذلك ، وكان أبو جعفر الحداد ، وهو شيخ الجنيد : يسأل بابا أو بايين أو ثلاثا بين العشائين ، فكانت العامة تتعجب منه أولاً ، ثم عرف بذلك ، فكان لا يعيبه عليه العامة ولا الخاصة مع جلالة قدره وعلو معرفته بربه .

وكان إبراهيم بن آدم معتكفاً بجامع البصرة ، ولا يفطر إلا من ثلاثة أيام إلى ثلاثة أيام ، يخرج بعد صلاة المغرب يطلب على الأبواب فطره .

ومن راض نفسه بالسؤال شيخ شيوخنا (سيدى عبد الرحمن المجذوب) وكذلك للشيخ للعارف أبو الحسن الششتري ، وفعله أيضاً فى أول بدايته أبو الحسن البردعى بأمر شيخه أبى عبد الله التاردي ، وغيرهم ممن لا يعرف .

(١) التذلل المطلوب للعلم فقط ليرفع عنه عار الجهل ، قال الشاعر :

من لم يذق ذل التعلم ساعة تجرع كأس الجهل طول حياته

لا الوقوف على قوارع الطريق وسؤال الناس أخطوه أو منعه .

وقوله : « ولا خير إذن في العبد ، الخ . » يعني أن الفقير إذ لم يذوق طعم الرد حتى يكون رده عنده أحلى من العطاء ، فلا خير فيه ، لأن نفسه لم تمت حيث استحسنت العطاء ، وثقل عليها المنع ، فالواجب عليه الدوام عليه حتى يذوق سره ، وذوق سره أن يكون المنع أحب إليها من العطاء والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى القسم المنوع فقال :

ومنعوا السؤال للتكاثر بل حاكموا عليه بالتهاجر
والقوم لما يسألوا إلخافاً ولا تكاثراً ولا جزافاً
بل ذاك كان منهم اضطراباً فيسألون لقوت والإفطاراً

قلت : هذا من القسم المنوع ، وهو أن يستل لقوت البشرية من غير اضطراب ، واختلف العلماء في القدر الذي تحرم منه المسألة ، فقليل : أربعون درهماً ، وقيل : قوت يوم وليلة ، وهو أقرب ، والسؤال للتكاثر وهو لاكتساب المال والتكاثر منه ، ولو صحبته نية بل نفسه فلا ينفع ، لأن الحديث يغلب الطبيب ، لكثرة .

أخرج البخاري ومسلم عن ابن عمر رضي الله عنهما ، قال : قال رسول الله ﷺ : « لا يزال المسألة بأحدكم حتى يلقي الله وليس في وجهه مزعة لحم ، والمزعة القطعة . »

وقال أيضاً ﷺ : « إنما المسائل كدوح يكدح بها الرجل وجهه ، فمن شاء أبقى على وجهه ومن شاء ترك ، إلا أن يسأل ذا سلطان في أمر لا يجد منه بداً (١) ، اه . » والكدوح الخوش .

وقال ﷺ : « لا يزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخفق وجهه ، فأيكون له عند الله وجه (٢) ، اه . »

(١) رواه أحمد وأبو داود وابن حبان عن سمرة بدون لفظ « إنما » ، في أول الحديث .

(٢) وفي هذا المعنى وردت عدة أحاديث ، منها قوله ﷺ : « من سأل الناس أموالهم تكثراً ، فإنما يسأل جمر جهنم ، فليستقل منه أو ليستكثر ، رواه أحمد ومسلم وابن ماجه عن أبي هريرة . »

ومعناها : « من سأل الناس ما يغنيه حاله ، لم يبق له القمامة ومسأله في وجهه - فهو خوس =

وعن علي رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : من سأل مسألة عن ظهر غنى استكثر بها من رخص جهنم ، قالوا : وما ظهر غنى قال عشاء ليلة .

قلت : وهذا يرجع القول الثاني في القدر الذي يحرم معه السؤال ، وهذا كله مبنى على التقصد والنية ، فمن كان مراده قوت الروحانية فلا كلام معه ، ومن كان مراده قوت البشرية خسر وخاب - قل كل يعمل على شاكلته - ومن عادة اللقوم إذا عرفوا أحداً يستل شهوة نفسه هجره ولا موه حتى يتوب ، ومن عادتهم أنهم لا يسألون إلخافاً ، أي بحرر وإلحاق حتى يؤذى المسؤول .

قلت : وقد كان يفعله بعض الإخوان عفا الله عنهم ، فإن كان لجذب غلب عليهم فيسلم وإلا فغير صواب ، والله تعالى أعلم .

وقيل : الإلحاف السؤال دون احتياج ، قال عليه الصلاة والسلام : من سأل وله أربعون درهماً فقد ألحف (١) ويجمع بين مفهوم هذا والحديث المتقدم عن علي كرم الله وجهه بأن المتقدم في حق من عرف بالزهد والتوكل ، واشتهر بسيا الفقر ، وهذا في حق العوام الذين لم يعرفوا بذلك كما قال عليه الصلاة والسلام في فقير وجد عنده دينار ، فقال : كية من فار ، وقد وجد عند غيره أكثر من ذلك فلم يقل فيه ذلك ، والله تعالى أعلم .

= (أو خدوش ، أو كدوح) قيل : وما الغنى ؟ قال : خمسون درهماً أو قيمتها من الذهب ، رواه أحمد ، والأربعة والحاكم عن ابن مسعود .

ومنها : من سأل شيئاً وعنده ما يغنيه ، فإنما يستكثر من جمر جهنم ، قالوا : وما يغنيه ؟ قال : قدر ما يغديه أو يعشيه ، رواه أحمد ، وأبو داود ، وابن حبان ، والحاكم عن سهل بن الحنفلية . والأحاديث في هذا الباب كثيرة جداً . ونسأل الله تعالى أن يقبنا وكل مسلم شر السؤال لغير الله إذ أن السؤال لغير الله ذل وهو عكس المطلوب في علم النصوف ، والحق أحق أن يتبع .

(١) رواه أبو داود وابن حبان عن أبي سعيد .

والسؤال جزافاً بكسر الجيم وفتح الزاي^(١) هو من يتخذ حرفة بصطاد به أموال الناس ،
وذكر في القاموس أن الجزاف بفتح الجيم وشد الزاي ، هو : الصياد والمجرفة بكسر الميم
شبكة بصطاد بها .

قال بندار بن الحسن رضي الله عنه ، من سأل وله ما يغنيه خفت أن يخافه فقراء المسلمين
يوم القيامة ، ويقولون أخذت ما جعل لنا من المال ولم تكن منا اه .

وإنما كان سؤال القوم عند الفاقة والاضطرار دون السعة والاختيار ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر الآداب التي تكون عند السؤال فقال :

(وأدب الصوفي عند المسألة أن يدخل السرق إليه يسأله)

(لسانه يشير نحو الخلق وقلبه معلق بالحق)

قلت : السؤال الذي يكون لقوت الروحانية له آداب ، إذا فعلها استحق بذلك فتح الباب
ورفع الحجاب ، وإن لم يفعلها لم يفتح له فيه الباب ، وربما كان زيادة في الحجاب :

الاول : أن يكون قصده قوت الروحانية فقط ، أو قوت الفقراء ، أو من تعلق به
مع الاضطرار ، وأما إن كان قصده قوت بشريته ، أو شهوة من شهواته فضرره أكبر
من نفعه .

الثاني : أن يكون بإذن من الشيخ ، فإن لم يكن إذن فقد خسر فيه ، وكل من تبطش نفسه
له فلا نفع له فيه ، إذ لا تموت النفس إلا بما يشغل عليها .

الثالث : أن يكون متحطياً بحلية العبد الفقير ، يطلب المدد من العلى الكبير ، فيكون
حافي الرجل عارى الرأس فقيراً ذليلاً ينادى سيده متاع الله : لله ، ويحضر قلبه المعرفة حين
يقول : لله .

الرابع : أن يكشف عن يده إلى الذراع ، ويمدها إلى نحو المستول ، وينظر إلى جبهته ،
لأن ذلك أشد على النفس وأسرع في موتها ، إذ الحياء جله في العين ، والمراد إنما هو موت
النفس وحياة الأرواح .

(١) أخذ الشيء مجازفة وجزافاً ، وهو فارسي معرب .

الخامس : أن يكون عارفاً أو مستشرفاً فتكون يده ولسانه يشاران إلى الخلق حكمة ، وقلبه معلق بالملك الحق .

قال في الحكم : لا تمدن يدك إلى الآخذ من الخلائق ، إلا أن ترى أن المعطى فيهم مولاك فإن كنت كذلك نخذ ما وافقك العلم .

وقيل : من علامة الفقير الصادق أن يأخذ الصدقة ممن يعطيه ، لا ممن جرت الصدقة على يديه ، وعلامته أن لا يذم مانعاً ، ولا يمدح معطياً ، ومن لم يكن عنده هذا العلم تعلمه قبل الخروج إلى السؤال ، فإن كثر عليه العطاء فينبغي أن يقصر في السؤال ، لأن النفس مجبولة على حب العطاء ، وأما إن ظهر عليه المنع فينبغي أن يزيد فيه ، لأن ذلك حينئذ تمحض لحياة الروح ، فإن قبض شيئاً ولم يحمده أحداً من الإخوان فليصدق بذلك ليلاً ، بحيث لا يشعر به أحد ، أو يرميها في موضع خال ، والاحسن أن ينزل ذلك في موضع يتنقع به الناس ولا يشعر به .

السادس : ألا يسأل من النساء ولا من الصبيان ، وهو من لم يحتمل ، ولا من أهل النعمة ولا ممن لا يتحاشى من الحرام ، وهذا إن كان معه شيء من السلوك ، فإن كان مجذوباً محضاً ، فلا كلام عليه ، وهذا معنى قوله في الحكم : نخذ ما وافقك العلم ، وقد حرر المسألة الشيخ ابن عباد علماً ونصوفاً ، وذكرنا من ذلك في الشرح نبذة صالحة ، فلينظر ذلك من أراد ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر القسم المكروه والمباح ، فقال :

وكرهوا سؤاله لنفسه	ثم أباحوه لأهل جنسه
ولم يعدوه من السؤال	لكن من العون على الأعمال
إذ كان خير الخلق في آراءه	يسأل أحياناً إلى أصحابه

قلت : اتفقت الصوفية على كراهية سؤال الفقير لقوت بشريته عند الحاجة ، ما لم يبلغ حالة الاضطراب ، وحالة الاضطراب أن يضعف عن العمل أو تضعف فكرته ، أو إن كان مسافراً ضعفت قوته على المسير ، فهذا يباح له أو يندب ، فإن خاف على نفسه وجب ، فإن لم يبلغ الفقير إلى الحال الذي وصفنا فالأفضل في حقه الصبر والاكتفاء بعلم الله حتى يأتيه الله

برزقه - إن الله يرزق من يشاء بغير حساب - ويعطى بلا أسباب ، فقد قيل : « ما نزلت فائدة ، ومن فأنزلها بالله ، فدامت عليه أكثر من ثلاثة أيام قط » .

وفي حكاية بشر الحافي رضى الله عنه ، قال : رأيت على بن أبى طالب رضى الله عنه فى يوم ، فقلت : يا أمير المؤمنين ما أحسن عطف الأغنياء على الفقراء : طلبوا الثواب ، قال رضى الله عنه : وأحسن منه تيه الفقراء على الأغنياء ثقة بالله .

ولله در القائل :

إذا ما مددت السكف ألتمس الفنى إلى غير من قال أسألونى : فشلت (١)
سأصبر جهدى فى صيانة غرقى (٢) وأرضى بدنياى ، وإن هى قلت

وقال بعض الحكماء : عز النزاهة أشرف من سرور الفائدة .

وفى الحكم : ربما استجيا العارف أن يرفع حاجته إلى مولاه اكتفاء بمشيئته ، فكيف لا يستجى أن يرفعها لخليقته .

وقوله : « ثم أباحوه لأهل جنسه » ، يعنى أنهم أباحوا السؤال لإخوانه المحتاجين ، وهم أهل جنسه ، لأن الفقراء جنس ، والعوام جنس ، وهذا مندوب ، ولم يعدوا هذا من السؤال وإنما هو من التعاون على البر والتقوى ، وقد فعله عليه الصلاة والسلام لأصحابه حين قدموا عليه عراة فخطب على الناس ، وقال : يا أيها الناس اتقوا ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة الآية ، ثم قال تصدق رجل من دينار ، من درهم ، من صاع بره ، ثم من صاع تمره ، اتقوا النار ولو بشق تمره (٣) .

وكقوله للنساء يا معشر النساء تصدقن ، ولو من حليكن (٤) .

(١) هذا هو التصوف الصحيح : أن يكون غناك بالله ، ولا تمدن يداً إلى غيره .

(٢) الفرة بضم النين : بياض فى جبهة الفرس ، وغرة كل شئ أوله وأكرمه ، والمقصود به هنا : الوجه .

(٣) رواه مسلم ، والإمام أحمد ، والنسائى ، وابن ماجه عن جرير .

(٤) ولغظه - كما فىفتح الكبير - « يا معشر النساء تصدقن ولو من حليكن » =

والكل منه عليه الصلاة والسلام للتشريع، وتحصيل الخير للسائل والمعطى، وليس على منى المسألة (قاله الشيخ زروق رضى الله عنه) وإليه أشار بقوله : « إذا كان خير الخلق في أترابه ، والأتراب بالتاء المثناة من فوق الأقران ، فإن أراد به الأنبياء عليهم الصلاة والسلام فلعلمه اطلع على نقل ، وأن الأنبياء كانوا يسألون لأصحابهم ، وإن أراد به غير ذلك ، فلا تحمله اللغة ، إذ الأتراب لا يطلق إلا على الأقران ، والأقران هم المشاركون في الوصف ، وفاقه تعالى أعلم .

ثم ذكر ضابط صحة السؤال ، فقال :

ولا تصف بصحة السؤال من يؤثر الأخذ على الإبدال

قلت : لا يسلم حال السؤال للفقير ويوصف بصحة قصده فيه ، حتى يكون البذل والإخراج من يده أحسن عنده من القبض من الناس .

قال الجنيد رضى الله عنه : لا يصح السؤال إلا لمن العطاء أحب إليه من الأخذ به .

وكذلك السلف الصالح : كان العدم أحب إليهم من التحصيل ، والمنع أحب إليهم من العطاء ، إذا أقبلت الدنيا . قالوا : ذنب عجبت عقوبته ، وإذا أقبل الفقر ، قالوا : مرحبا بشعار الصالحين ، إلى غير ذلك من حكماء باتهم رضى الله عنهم .

ثم ختم الباب بمسألة التجريد ، فقال :

والشغل دون الكسب بالعبادة محض التوكل ، ورأى السادة
ثم السؤال آخر المكاسب وهو بشرط الاضطرار واجب

قلت : الاشتغال بالعبادة والتجريد عن الأسباب من أعظم القرب عد ذوى الألباب ، إذ لا يصفو الباطن من الأغيار ويملا بالمعارف والأمرار ، إلا إذا تخلص الظاهر من كثرة

= فإنك أكثر أهل جهنم يوم القيامة ، رواه أحمد والترمذي والنسائي ، وابن حبان ، والحاكم ، وهو من باب الخس على التماون ، لا السؤال ، وجل قدر النبي صلى الله عليه وسلم

الإكدار، ولا يتخلص من الإكدار إلا إذا تجرد من الأسباب، واتكل على الملك الوهاب^(١) قال تعالى - ومن يتوكل على الله فهو حسبه^(٢) - وقال تعالى - ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب^(٣) - وقال صلى الله عليه وسلم ، لو توكلتم على الله حق توكله لرزقتم كما ترزق الطير، تغدو خفاصا وتروح بطائنا^(٤) ، فصفاء الباطن من صفاء الظاهر ، وتنشأ الباطن من تنشأ الظاهر ، فالاشتغال بالعبادة دون الاكتساب هو محض التوكل على سبب الأسباب عند السادات أولى الأسباب .

وقد نكلم الناس على درجات التوكل ، وأحسن ما في ذلك ما قاله أبو حامد الغزالي رضي الله عنه ، قال في الإحياء ، التوكل مشتق من الوكالة ، يقال وكل أمره إلى فلان أي فوضه إليه واعتمد عليه ، ويسمى الموكل إليه وكبلا ، ثم قال : فالتوكل عبارة عن اعتماد

(١) قال رسول الله صلى الله عليه وسلم :

« من نزل به حاجة فأنزله بالناس كان قنأ لا تسهل حاجته ، ومن أنزله بالله تعالى أناله الله برزق عاجل أو يموت آجل ، رواه الإمام أحمد .

وروى ابن أبي حاتم عنه صلى الله عليه وسلم ، قال :

« من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة ، ورزقه من حيث لا يحتسب ، ومن انقطع إلى الدنيا ركه إليها . والاشتغال بالعبادة دون اكتساب ليس من التوكل ، بدليل قول النبي صلى الله عليه وسلم في حق رجل انقطع للعبادة : « من أين يأكل ؟ قالوا : يطعمه أخوه ، قال : « أخوه أعبد منه ، اه . بمعناه ، وقال عليه الصلاة والسلام : من فتح على نفسه بابا من السؤال فتح الله عليه سبعين بابا من الفقر ، وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يتجرون في البر والبحر ويعملون في نخلهم . وهم القدوة ، ولقي الأوزاعي إبراهيم بن آدم رحمه الله وعلى عنقه حزمة حطب فقال : يا أبا إسحق ، إلى متى هذا ، إخوانك يكفونك ، فقال : دعني من هذا يا أبا عمرو ، فإنه بلغني أنه من وقف موقف مذلة في طلب الحلال وجبت له الجنة ، والله يقول الحق وهو يهدي السبيل .

(٢) سورة الطلاق ، الآية : ٣ و ٤ .

القلب على الوكيل وحده، ثم قال : فإن ثبت في نفسك بكشف أو اعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله ، واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ، ثم تمام العطف والعناية والرحمة بجملة العباد ، وأنه ليس وراء قدرته قدرة ، ولا وراء منتهى علمه علم ، ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة ، اتكل لا محالة قلبك عليه وحده ، ولم يلتفت إلى غيره بوجه ، ولا إلى نفسه وحوله وقوته ، فإنه لا حول ولا قوة إلا بالله ، فإن الحول عبارة عن القدرة ، فإن كنت لا نجد هذه الحالة من نفسك ، فسببها أحد أمرين : إما ضعف اليقين ، وإما ضعف للقلب ومرضه ، باستيلاء الجبن عليه ، ثم قال : فاذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً ، إذ بهما يحصل سكون للقلب وطمأنينته ، ثم قال : وإذا انكشف لك معنى التوكل ، وعلمت الحالة التي سميت توكلًا ، فاعلم أن تلك الحالة لها في للقوة والضعف ثلاث درجات :

الاولى : ما ذكرناه ، وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالاته وعنايته كحاله بالثقة بالوكيل .

الدرجة الثانية : وهي أقوى : أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه ، فإنه لا يعرف غيرها ، ولا يفرع إلى سواها ، ولا يعتمد إلا إياها ، فإن رآها تعلق بكل حال بذيلها ، وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه : يا أماء ، وأول خاطر ينحدر على قلبه أمه فإنما مفزعه ، لأنه قد وثق بكفالاتها وشفقتها ثقة منه أنها ليست بتاركة ، ثم قال : والفرق بين هذا وبين الاول ، أن هذا قد فنى في توكله عن توكله ، إذ ليس يلتفت فيه إلى التوكل وحقيقته ، بل إلى التوكل عليه فقط ، فلا مجال في قلبه لغير التوكل عليه ، وأما الاول فتوكل بالتكلف والكسب ، وليس قائماً عن توكله ، ثم قال :

الدرجة الثالثة : وهي أعلاها أن يكون بين يدي الله تعالى مثل الميت بين يدي الفاسل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتاً تحركه ، القدرة الأزلية كما تحرك يد الفاسل الميت ، وهو الذي قوى يقينه بأنه يجري الحركة والقدرة ، والإرادة وسائر الصفات ، فيكون عند الانتظار لما يجري عليه كالميت ، ويفارق الصبي بأن الصبي يفرح إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها وبعدد خلفها صياحاً ، وهذا المقام في التوكل يصحح منه ترك الدعاء والسؤال ثقة منه بكرمه وعنايته فإنه يعطى ابتداء أفضل مما يسأل ، والمقام الثاني لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال ، إنما يقتضى ترك السؤال من غير

فإن قلت : هل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال ، فاعلم أن المقام الثالث ينفي التدبير رأساً ما دامت الحالة باقية ، بل يكون صاحبها كاللهوت والمقام الثاني ينفي كل تدبير من الآن حيث الفزع إلى الله ، لكن بالدعاء والابتهاال ، كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط ، والمقام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ، ولكن ينفي بعض التدبيرات ، كالترك على وكيله في الخصومة ، فإنه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ، ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به ، أو التدبير الذي عرفه من عاداته وسنته ، دون صريح إشارته . انتهى المقصود منه مختصراً .

والمختار في مسألة التجريد : ما أشار إليه ابن عطاء الله بقوله : (إرادتك التجريد مع إقامة الله إياك في الأسباب من الشهوة الخفية ، وإرادتك الأسباب مع إقامة الله إياك في التجريد انحطاط عن الهمة العلية) وقال في موضع آخر (من علامة إقامة الله إياك في الشيء بصره لك مع حصول النتائج) اهـ

وهذا كله مع عدم الشيخ ، وأما من ظفر بالشيخ فهو الذي يقوم به تجريداً وأسباباً .

وقوله : ثم السؤال ، الخ أشار به إلى الحديث . . . والمسألة آخر كسب الرجل ، وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم في ذم كثرة السؤال : إن الله ينهاكم عن أد البنات ، وعقوق الأمهات ، ومنع وهات ، وكره لكم : قيل وقال ، وكثرة السؤال ، وإضاعة المال ، انتهى (١) .

وهذا آخر الفصل الثامن ، وهذه الفصول الثمانية كلها مقدمة لما يذكره في هذا الفصل التاسع الذي أشار إليه بقوله :

(١) متفق عليه من البخارى ومسلم ، وافظه : « إن الله حرم عليكم عقوق الأمهات وواد البنات ، إلى آخره وفي ختام هذا الفصل نقول : قال عليه الصلاة والسلام : « إن المسألة لا تحل إلا لأحد ثلاثة : لذى دم موجه ، أو لذى غرم مقطع ، أو فقر مدقع ، رواه أحمد والأربعة . وروى الترمذى عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال : « إن المسألة لا تحل لثلاثة ، ولا لذى مرة سوى ، إلا لذى فقر مدقع ، أو غرم مقطع ، ومن سأل ليشرى به ماله كان خموشاً في وجهه يوم القيامة ورضخاً يأكله من جهنم ، فمن شاء فليقل ومن شاء فليكثر ، وقال عليه الصلاة والسلام : « عز المؤمن استغناؤه عن الناس =

الناسع في حكم المريد ، ومعنى الإرادة . وقائدة الشيخ ، وتدريب المريد إلى أن يصير شيخاً .

قال الشيخ زروق رضي الله عنه : وهذا الفصل هو إباب الكتاب ، وسر الطريق ومدارها ، وكل ما قبله أو بعده دائر عليه ، وذكر فيه أربعة مواقف ، لكل موقف معاقل ومعاهد بطول شرحها .

قلت : أما حكم المريد ، فالمراد ما يلزمه في بدايته من العلم الضروري ، ثم انجادة في الأعمال الظاهرة ، والاستقامة الكاملة ، وما يلزمه في وسطه من الرياضات الباطنية ، ومقاساة الأحوال السنية ، ثم ما يلزمه في نهايته من الاستغراق في الشهود ، والفناء في ذات المعبود ، ثم الرجوع إلى البقاء بنظره إلى الحكمة والقدرة ، وسيأتي تفسير المريد ، ولماذا سمى المريد مريداً .

وأما معنى الإرادة فهو : طلب السلوك إلى ملك الملوك ، أو تقرب : هي صدق الوجه إلى الله بإفراد القصد إلى حضرة هولاء ، فالمريد سالك ، والمراد مجذوب ، المريد محب ، والمراد محبوب (١) :

وأما قائدة الشيخ ، فهو جمع القلب لحضرة الرب ، أو رفع حجاب الوهم بتحصيل حقيقة العلم ، أو تدريب المريد في مقامات الإنزال وتبعيده عن القواطع والأشغال .

وأما تدريب المريد فهو : نقله من شهود الحكمة إلى شهود القدرة ، ومن شهود القدرة إلى شهود الحضرة ، وهي شهود الذات ، أو تقول : تدريبه هو نقله من شهود الأسماء إلى شهود الصفات ، ومن شهود الصفات إلى شهود الذات ، ثم من شهود الذات يرد إلى أثر الصفات ، هذه طريقة السلوك .

= رواه الطبراني ، وأبو نعيم في الحلية من قول جبريل عليه الصلاة والسلام . ورواه القضاعي عن النبي صلى الله عليه وسلم .

ولا التفت بعد ذلك إلى بلام أحد من الناس مهما كان أمره وخطره ورفيع كلامه .

(١) هناك مريد لله ، ومراد من الله ، وطالب لله ومطلوب من الله ، والطالب محب لله ، والمطلوب محبوب من الله ، والله أعلم .

وأما طريق الجذب فهو : شهود الذات أولاً ، ثم شهود الصفات ، ثم شهود المحكمات
عين القدرة ، والله تعالى أعلم .

ثم اعلم أن الناس على ثلاثة أقسام : طالبون ، ومريدون ، ومرادون ، فالطالبون هم
الذين يطلبون الشيخ ويتعششون إليه ، أو هم الذين يطلبون الطريق إلى علم التحقيق ،
ولا يعرف الطريق إلا من سلكها ، فإن علم الله صدقهم وصلهم إليه ، والمريدون هم الذين
اتصلوا بالشيخ واشتغلوا بالسير ، وهو السلوك ، والمرادون هم : الذين انجذبوا إلى الحضرة
إما بعد السلوك وهم الكامل ، أو قبله .

فأشار الناظم إلى القسم الأول ، وهو الطالب فقال :

فإن أتى القوم أخوفتون وقال : يا قوم أقبولون ؟
تقبلوه صادقاً أو كاذباً إذ كان محتوماً عليهم واجباً

قلت : الفتون : جمع فتنة ، وهي ما يقطع عن الله : ويشغل القلب عن الحضور مع مولاه
وأخوها هو : الملتبس بها ، والمنهك فيها سواء كانت هذه الفتون ذنوباً أو عيوباً أو أشغالات
أرأموالاً أو أغياراً أو أكداراً ، فإذا أراد الله أن يخلصه من تلك الفتن ، سواء كانت
ظاهرة أو باطنة ، ألقي في قلبه الاضطراب إلى الله ، وحسن الظن بعباد الله ، فإذا أطلعه على
سرور من أوليائه وأتى إليه ، وقال له : جئتك لتقبلني وتأخذ بيدي ، وجب عليه قبوله
والأخذ بيده ، لأن رده نوع من كتم العلم ، وقد قال الله تعالى - إن الذين يكتمون
ما أنزلنا (١) - الآية .

وأيضاً رده إلى ما كان عليه فيه إعانة له على الدوام فيما هو فيه ، والإعانة على المصيبة
مصيبة ، هذا إن كان صادقاً في إرادته ، وأما إن كان كاذباً فلما فيه من تقليل المفسد ،
لتعريضه لفحة رحمة الله بالوقوف ببابه ومخالطة أوليائه ، وهم قوم لا يشقى جليسهم (٢)
ولعل الله أن يفتح عليه بمثل ما فتح عليهم ، إذ كل من تحلى بحالة لا يخلوا حاضره منها ،

(١) سورة البقرة ، الآية : ١٥٩ .

(٢) هذا لفظ حديث طويل رواه الترمذي والحديث في الصحيحين .

فمن جالس للمطار طالب بطييه . والله رجال من نظر إليهم نظرة سعد سعادة لا يشقى بعدما
أبدأ ، والله رجال إذ نظروا أغتر غنى لا فقر بعده أبدأ ، رضى الله عنهم ، وخرطنا في
سلكهم آمين .

ثم ذكر ما يؤمر به بعد الدخول ، فقال :

وحدروه من ركوب الإثم	وأمره باقتباس العلم
وأمره بلزوم الطاعة	والماء والقبلة والجماعة
وقرروا فيه شروط التوبة	وأمره بلزوم الصحبة
ثم أمدوه بعلم الظاهر	حتى استقامت عنده الدرائر

قلت : اذا أتى الفقير إلى الشيخ ليأخذ بيده ، فأول ما يلقيه الورد ، فإن التلقين فيه بركة
عظيمة . وقل أن ينهض الإنسان قبل التلقين ، والتلقين سائلة مروية عن السادات إلى سيدنا
على كرم الله وجهه ، إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ثم يأمره بالتوبة ورد المظالم ، وقضاء
الدين بقدر الاستطاعة ، ويحذره من الرجوع إلى ما كان عليه .

ثم يعلمه ما يلزمه في دينه من طهارة وصلاة وصيام ، وذكر ، وغير ذلك ، كل واحد ما يليق
من علم التوحيد خاليا عن الدليل (١) ، فإن كان الشيخ ليس من شأنه ذلك دفعه إلى من يعلمه .

ثم يأمره بلزوم الطاعة من : صلاة ، وصيام ، وذكر ، وغير ذلك ، كل واحد ما يليق
به ، لأن الشيخ تقدم أنه يكون طيباً ماهراً .

ثم يأمره بالصحبة ولزوم مجالسة الشيخ ، والاجتماع مع الإخوان ، فطريق التربية
ليست طريق الانفراد ، وإنما هي طريق الاجتماع والاستماع والاتباع ، فهما انفراد المريد
عن الإخوان ، لم يكن منه شيء ، فإن تعذر إقامته مع الشيخ أمره بالزيارة والوصول ، فقد
الشيخ جار إلى المريد ، كالساقية أو القادوس ، فإن كان يتعاهدها ويمشى معها بقى الماء جارياً
وإن غفل عنها تخرم الماء وانقلب مع غيره .

وأيضاً : الوصول إلى الشيخ يدل على المحبة ، والانقطاع يدل على نقضها ، كما قال
المجذوب رضى الله عنه :

(١) يبنى يعلمه التوحيد المجرد ، وليس القائم على الاستدلالات وكلام أهل العلم .

لا يحب إلا بوصول ولا وصول إلا غالى
لا شراب إلا محتوم ولا مقام إلا على

ثم يذكره أولاً بما يصلح جوارحه الظاهرة ، وهى : التقوى ، والاستقامة ، فإذا صلحت جوارحه الظاهرة ، أمره بالعزلة والصمت والجوع المتوسط ، وفراغ القلب والفناء فى الإسم المفرد ، فإذا رآه تحقق فناؤه وكثر تعطشه ، فتح له شيئاً من علم الحقائق ، وأمره بالتفرغ التام وقطع العلائق وازهد فى الكونين ، فإذا رآه أخذته حيرة أو دهشة دفع له علم الحقيقة ، وأمره بتقليل ذكر اللسان وهمل الجوارح ، وشغله بالفكرة ، فإذا رآه لم يقدر على علم الحقيقة ، أو رآه قنع بالعلم دون الذوق ، أمره بتخريب الظاهر والتجريد للنام ، فإذا تمكن من الحقيقة ورسخت فيه ذوقاً وتحقيقاً ، أمره بإرشاد الناس إن رآه أهلاً ، هذا الذى أخذنا به وفهمناه من طريق أسياننا .

والناظم رحمه الله قدم وآخر فى هذا الترتيب ، فذكر أنه أول ما يأمره بترك الآثام ، ويحذره من ركوب الجرائم ، وهذا هو المقصود من محبة المشايخ وأخذ العهد عنهم ، إذ لم يتحى لصحبة الاشياخ إلا بقصد الحفظ ببركة محبتهم ، وذلك يحقق بفضل الله لمن صح صدقه وقويت نورانية شيخه .

وأصل هذا العهد من السنة حديث عبادة بن الصامت قال : قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فى بيعة العقبة : يا معشرى على : ألا تشركون بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنىوا ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا بهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصونى فى معروف ، الحديث .

ثم يأمره باقتباس العلم ، فإن كان هو أهلاً أمره بلزوم محبته ليعلمه ، وإلا دفعه إلى غيره كما تقدم ، فلا بد للمريد بعد عمدة التوبة من طلب العلم ، إذ لا يجوز لأحد أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ، لقوله تعالى - ولا تقف ما ليس لك به علم (١) - وقال تعالى - فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون (٢) - .

(١) سورة الإسراء ، الآية : ٣٦ .

(٢) سورة النحل ، الآية : ٤٣ .

ولا يجب عليه التوسع في العلم لما فوق حاله ، لأن ذلك فرض كفاية ، ومتى نزل به نازلة أزمه طلب علمها .

ثم يأمره بلزوم الطاعة والقبلة والجماعة ، يعني : الصلاة مع الجماعة ، لأن الأمر الخاص لا يصح إلا بعد إحكام الأمر العام ، لأن من لا يصلح أن يكون من عوام المتقين ، لا يصلح أن يكون من خواص المقربين ، فالشريعة باب ، والحقيقة دخول مع الأجباب ، قال تعالى - وابتو البيوت من أبوابها (١) - .

ثم يأمره بالتوبة وتحقيق شروطها .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : شروط التوبة ثلاثة أقسام ، شروط صحة ، وهي ثلاثة : للندم على ما فات ، والإقلاع في الحال ، والتوبة ألا يعود أبداً .

وشروط تحقيق ، وهي ثلاثة : تصميم القصد ، لأن التوبة وإن صحت من بعض الذنوب مع البقاء على ذنب آخر فصاحبها ناقص ، وقيل أن يسلم من العودة لما عنده من أصل المخالفة وأداء الحقوق الواجبة له من : الصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والصدقات ، وغيرها ، وزد المظالم المالية باتفاق ، والعرضية على المشهور .

وشروط كمال ، وهي ثلاثة : التشمير في المستأنف ، بدلا من التقصير في السالف ، والفرار من موارد الفتن بكل وجه أمكن ، والحرص على تخلص الكمال له بأى وجه كان ، فنفاة شروط الصحة فلا توبة له ، ومن فاته شروط التحقيق فهو عاص ، وقيل أن يسلم من آفات الانقلاب ، ومن فاته شروط الكمال لم يجد لتوبته لذة ، ولا يدرك لها نتيجة ، وكل واحدة لا تصح إلا بعد تحقيق ما قبلها .

وقوله : « وقرروا فيه شروط التوبة » المراد بالتقرير هو الأمر بها والحض عليها : المرة بعد المرة ، والتنبيه عليها تفصيلا وإجمالا .

ثم يأمره بلزوم الصحة ، يعني إن تأتى له ذلك ، وإلا أمره بالوصول المرة بعد المرة بما تقدم ، وفائدة للصحة ثلاثة أمور .

أحدهما : أنها حسن من الانقلاب والرجوع ، فإن رؤية الشيخ والجلوس معه تزياد
بحرب ، فلا تميل نفسه إلى الفضول أبداً ما دام مع الشيخ .

وقال شيخ شيوخنا سيدي علي رضي الله عنه : الجلوس مع العارفين أفضل من العزلة ،
والعزلة أفضل من الجلوس مع الصوام ، والجلوس مع الصوام أفضل من الجلوس مع
الافقرة الجاهلين .

قلت : والجلوس مع علماء الظاهر أقبح في حق الفقير من جميع ما تقدم ، والله ما رأيت
فقيراً محبهم فأفلح في طريق القوم أبداً ، فلا قاطع أعظم منهم ، إلا من عرف بالتسليم لأهل
نسبة ، وقليل ما هم (١) .

الثاني : أن علم القلوب إنما يقوى مدده بالصحة ، فمن تحقق بحالة لا يخلو حاضره
منها ، والطبع يسرق من الطبع من حيث لا يعلم ، والمرء على دين خليله (٢) ، والمؤمن
مرآة أخيه (٣) ، وما كان في المرآة انطبع في المرآة المقابلة لها .

الثالث : أن الإنسان مبتلي بنفسه ، فإذا انفرد وحده ظهر له أنه على شيء ، وليس
كذلك ، وقد تقدم هذا في فائدة الاجتماع ، وربما ظفر به الشيطان ، لأن الشاة المنفردة من
سهم الذئب ، وفي الحديث : الشيطان بهم بالواحد والاثنين ولا بهم بالجماعة (٤) ، أو كما قال
عليه الصلاة والسلام ، فلا بد من صحبة أخ صالح أو شيخ ناصح لتحصل السلامة من
الرعونات وغيرها ولا يتأدب الفقير وحده أبداً ، وإنما يتأدب إذا صحب أهل الأدب ،

(١) صدق الشيخ رحمه الله ، وما نحن الآن نعاني منهم البلاء ؛ كفانا الله شرهم في
الدنيا والآخرة .

(٢) هذا لفظ حديث شريف رواه أبو داود والترمذي ، وقال : حديث حسن والبيهقي ،
لقضاعي ، والعسكري ، وابن عدي في الكامل .

(٣) رواه الطبراني في الأوسط ، وللضياء المقدسي عن أنس .

(٤) ولفظ الحديث : الشيطان بهم بالواحد والاثنين ، فإذا كانوا ثلاثة لم بهم بهم ،
رواه البزار عن أحمد .

فإن صديقهم تأديب أحب أم كره ، وأيضاً النفس الحية لا تموت ما دامت مع الأحياء .
ولما تموت إذا أصبحت الأموات كما قال شيخنا الزيدى رضى الله عنه .

ثم يمدد بالعلم الظاهر ، ومنها أنه يذكره بعلم الأربعة وعلم الطريقة دون علم الحقيقة حتى إذا نهب ظاهره وباطنه صلح لعلم الحقائق ، ولا بد من الترتيب ، فمن أشرقت بدايته أشرقت نهايته ، ومن لا بداية له لا نهاية له .

وقد قالوا : من قدم الباطن على الظاهر فاته الباطن والظاهر ، ومن طلب الباطن بالظاهر حصل له الباطن والظاهر ، ومن طلب الباطن والظاهر تبحر في الباطن والظاهر ، والظاهر رأس مال ، وما عداه ربح ، ولذلك أموه أئمة العلم والدين مجرداً .

وقد قال عليه الصلاة والسلام لمن سأله أن يعلمه من غرائب العلم ما فعلت في كذا وفي كذا ، في أمر في أحكام للظواهر ، ثم قال عليه الصلاة والسلام : اذهب فأحكم ما هناك وتعال أعلمك غرائب العلم (١) .

ثم من أصلح ظاهره على لسان الصدق فتح الله بصيرته برؤية الحق ، اه .
قال : الشيخ زروق رضى الله عنه : ولما ذكر ما يتعلق بالبداية ، ذكر ما يتعلق بالوسط من المجاهدات والرياضات ، فقال :

حتى إذا انتقاد مع الإفاده	وكاد أن يصلح للإرادة
إذ للريد عديم حدود	لأجلها قيل له مرید
فمندها رد إلى الأوراد	كالصمت والصوم مع السهاد
وعاملوه بالمعاملات	إذ علموا مختلف العلات

قلت : أما الاتقياء إلى طلب الإفادة ، فيكون بثلاثة أمور : بالزهد في نفسه ، وفلسه ، وجنسه .

(١) ونسب الحديث : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال : علمني من غرائب العلم . فقال له : ما صنعت في رأس العلم ؟ فقال : وما رأس العلم ؟ قال صلى الله عليه وسلم : هل عرفت الرب تعالى ؟ قال : نعم ، قال : فما صنعت في حقه ؟ قال : ما شاء الله ، فقال صلى الله عليه وسلم : هل عرفت الموت ؟ قال : نعم ، قال : فما أعددت له ؟ قال : ما شاء الله ، قال صلى الله عليه وسلم : اذهب فأحكم ما هناك ثم تعال أعلمك من غرائب العلم ، رواه ابن السني ، وأبو نعيم في كتاب الرياضة ، وابن عبد البر .

فالزهد في النفس بالإطلاق منها وللغنية عنها وإسلامها إسلاماً كلياً حتى يسكون كليت
في يدي الغاسل ، والزهد في النفس بالبدل والإيثار في الحاصل ، وعدم التشوف إلى
غير الحاصل .

والزهد في الجنس بالإنكار لمن يعرف ، وعدم التعرف لمن لا يعرف .

فإذا حصل هذه الثلاث استحق الإفادة وصاح الإرادة ، والمراد بالإفادة إفادة العلوم
الباطنية والأسرار الربانية ، لكن بعد تحقيق التخلية والتحلية ، وسيأتي عند قوله « ألقوا
إليها من صفات النفس » إلخ .

وأما حدود المريد فثلاثة : مجاهدة ، ثم مكابدة ، ثم مشاهدة .

فالمجاهدة في تقديم الظاهر ، والمكابدة في تقديم الباطن ، والمشاهدة ثمرة المكابدة .

أو تقول : حدود الإرادة : قطع للعلائق ، وخرق العوائد ، واكتساب الفوائد .

فإذا تحققت فيه هذه الأمور سمى مريداً لتحقيق إرادته بمعرفة سيده ، لأنه لما حصر
الإرادة في إرادة واحدة ، ولم يبق له مراد إلا محبة سيده سمى لذلك مريداً ، وقيل غير ذلك
لجواب « إذا ، الذي هو عامل فيها هو قوله « رد إلى الأوراد » وما بينهما مقرر ،
ولتقدير إذا صاح الإفادة والإرادة رد عند ذلك إلى الأوراد ، وباعتبار السبب رد وقت
صلاحته الإفادة إلى الأوراد ، ثم فسر تلك الأوراد التي يرد إليها بعد إصلاح ظاهره ،
فقال : كالصمت ، وفيه سبعة آلاف حكمة ، جمعت في سبعة : عبادة من غير تعب ،
حسن من غير حائط . هيبة من غير سلطان ، راحة للكرام المكاتبين ، ستر للجاهل ،
ذبح للعالم ، قلة الاعتذار .

ومن خواصه أنه : ينقح الفكرة ، ويحجب الحكمة إذا كان مع الفكرة ، والافهوه سهو ،
كما قال بعضهم : كل كلام بغير ذكر فهو لغو ، وكل صمت بغير فكر فهو سهو ، وكل نظر
بغير عبرة فهو لهو (١) ، فالصمت الذي يصحبه الخواطر والوساوس هو تنزلة الكلام ،
وأما الصرم فهو يعين على الجوع ، وقد تقدم فوائد الجوع وأسراره ، إلا أنه لا ينبغي
الإفراط فيه ، فخير الأمور أوسطها .

(١) مأخوذ من قول النبي صلى الله عليه وسلم : « إن الله أمرني أن يكون نطقي ذكراً ،
وصمتي فكراً ، ونظري عبرة ، رواد الثلاث (محمد بن زكريا) .

« والسهر ، هو : السهر والمراد ، قلة النوم ، حتى لا يزيد على القدر المحتاج .

قال أحمد بن عامر رضى الله عنه : أعداؤك أربعة : الشيطان ، وسلاحه الشبع ، وسجنه الجوع ، والهوى ، وسلاحه الكلام ، وسجنه الصمت ، والدنيا ، وسلاحها ، لقاء الخلق ، وسجنها الخلوة ، والنفس ، وسلاحها النوم . وسجنها السهر .

ثم المطلوب من هذه الأربع الوسط والآخر بالأمم ، فمن كان الجوع أحب إليه من الشبع لم يأكل فوق حاجته ، ومن كان الصمت أهم إليه من الكلام لم يتكلم إلا فيما يعنيه ، ومن كان الخلوة أهم إليه من الخلطة لم يرتح لقاء الناس ، بل يستوحش منهم ، ومن كان السهر أحب إليه من النوم لم ينام فوق الحاجة ، والإفراط مضر في كل شيء . فمن الجوع مضر بالفكرة ومن الصمت مضر بالحكمة ، ومن السهر : يؤدي إلى الخلق ، ومن الخلوة : يؤدي إلى الملل ، قاله الشيخ زروق رضى الله عنه .

وقوله « وعاملوه بالمعاملات ، أى بالمعاملات التى فيها دواؤه ، فمن تليق به العزلة عاملوه بها ودلوه عليها ، ومن تليق به الخلطة دلوه عليها ، وهكذا ، إذ ليست معاملة أهل البداية كمعاملة أهل الهاية ، وليست معاملة السارين كمعاملة الواصلين .

وقوله : « إذ علوا ، الخ يعنى أنهم إنما عاملوا المريرين بمعاملات مختلفة ، لأجل ما علوا فيهم من الملامات المختلفة ، فعاملوا كل واحد بما فيه دواؤه .

وفى بعض النسخ « كقرب نفسه من الفلات ، وهو إشارة إلى العزلة .

وفى الحكم : ما نفع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة .

وقد أشبعنا الكلام عليها فى شرح الحكم ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر سر دلالة على الأعمال دون الحقائق ، فقال :

ولم يحلوه على الحقيقة إذ لم يكن مستوفى الطريقة

لكن أحالوه على الأعمال لأجل ما فيها من التوال

إذ الطريق إلى العلم ثم العمل ثم هبات بعدها تؤمل

قلت : الحقيقة شهود القدس وإنما لم يحلوه على الحقيقة ، أى لم يطلعوه عليها قبل استيفاء

الطريقة ، لأن الحقيقة أمرها هائل لا ينالها إلا الشجاع الصائل ، وفى ذلك يقول الشيخ الجيلانى (كذا فى عيته)

ولم ياك جزع لا يهلك أمرها فإنا لما إلا الشجاع المقارع

فلا تطلق إلا بعد موت النفوس وحط الرءوس وتصفية البواطن من الاغيار ونجليتها
بالانوار ، فمن اطلع عليها قبل ذلك خيف عليه التزندق ، لان الحقيقة لا تدرك بالعلم ،
وإنما هي أذواق ووجدان ، نعم : قد تكون علما ، ثم تصير ذوقا ، لمن راض نفسه
بالشريعة ، وعظم صدقه ، فإنه يأخذها علما وتصير ذوقا .

وأيضا اعلاه على الحقيقة قبل كمال الطريقة توجب له التقصير في الاعمال والتفري في
الخدمة ، فإن الحقيقة حلوة قد يشتغل بها ويهمل الشريعة ، ولذلك قيل : من تصوف
ولم يتشرع فقد تزندق لتعزية الحقيقة عن الشريعة ، وهذا معنى قوله : ولم يحبلوه على الحقيقة
إذ لم يكن ، أى حيث لم يكن ، أى حيث لم يكن مستوفيا لعمل الطريقة ، لكن أحالوه على
الاعمال ، والمراد بالاعمال هنا : العمل الظاهر ، كالصلاة والصوم والصمت والعزلة وذكر
الله ، ويكون ذكرا واحداً ، وهو الإسم المفرد الذى هو اسم الله الأعظم ، وسلطان الاسماء .
هذه طريقة الشاذلية ، وسيأتى للناظم التنبيه عليه ، وإنما أحالوه على الاعمال لما فيها من
النوال ، أى المطاوعة ، والمراد به نتائجها ، فكل ذكر له نتيجة وثمرة تخصه ، كما ذكره
ابن جزى في تفسيره عند قوله تعالى - فاذكرونى أذكركم - قال : واسم الجلالة وهو الله ،
جميع لتلك الثمرات كلها .

وفى بعض النسخ : لاجل ما فيها من المنال ، أى نيل ما يقصده الذاكر ويتمناه ، ثم ذكر
علة تقديم تقديم العمل على علم التحقيق ، فقال : « إذا الطريق العلم ، ثم العمل ، ثم هبات »
وهى مواهب الاسرار ، فبعد العلم بالعمل ، ثم الحال ، ثم الذوق ، ثم الشرب ، ثم الرى ،
ثم السكر ، ثم الصحو ، ثم شهود وعيان ، والعمل حينئذ فكرة ونظرة وآداب مع
الحضرة ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر كيفية انتقال العمل إلى الباطن ، فقال :

حتى إذا أحكم علم الظاهر	وأبصروا القبول فيه ظاهر
أنقوا إليه من صفات النفس	ما كان فيها قبل ذا من ليس
وهى إذ أنكرتها فلنعرف	إحدى وتسعين ، وقيل ثيف

قلت : ثم لا يزال الشيخ يأمر المريد بعمل الظاهر ، كصلاة وصيام وعزلة وصمت وذكر
لسان ، حتى إذا رآه أنقأ علم الظاهر وذاق سره وحلاوته ، فيكون قد ذاق حلالة

لصلاة والصيام ، وحلاوة العزلة والصمت ، حتى تكون العزلة عنده أشهى من الخلطة ، والصمت عنده أحلى من الكلام ، وذكر الله قد امتزج معه ، حتى لو أراد أن يسكت ما سكت ، فهذا علامة اتقان أحكام الظاهر ، وصار قبوله لعلم الباطن ظاهراً ، فحينئذ يلقي إليه من صفات نفسه ما كان ملتجئاً عليه ، كحب الجاه أو الرياسة ، أو حب المال ، أو الغضب أو القلق أو غير ذلك من أوصاف النفس التي يتعذر حصرها ، حتى قال بعضهم : « للنفس من النقائص ما لله من الكمالات (١) » ، وقال الناظم : إنها تزيد على تسعين ، بتقديم التاء .

وقد ذكر السلي نبذة صالحة ، فلنذكره بنصه ، لأن عادة الناظم النج على منواله ، فقال رضى الله عنه :

وأما أخلاق النفس ، فمنها : الكبر ، والعجب ، والفخر ، والخيلاء ، والفعل ، والغش ، والبنس ، والحرص ، والأمل ، والحقد ، والحسد ، والضجر ، والجزع ، والطمع ، والجمع ، والمنع ، والجبن ، والجهل ، والكسل ، والبذاء ، والجفا ، واتباع الهوى والازدراء ، والاستهزاء ، والتمنى ، والترفيع ، والحدة ، والسفة ، والطيش ، والمراء ، والنحس ، والظلم ، والمداوة ، والمنازعة ، والمعاندة ، والمخالفة ، والمغالبة ، والمزاحة والغيبة ، والبهتان ، والكذب ، والنميمة ، والتهويس ، وسوء الظن ، والمهاجرة ، والقوم ، والوقاحة ، والفدر ، والخيانة ، والفجور ، والشهامة ، إلى غير ذلك مما يكثّر تعداده .

فيجب على المريد معرفتها ومجانبتها ، والمجاهدة في تبديلها بأحسن منها ، فمن لم يعرف ذلك لم يزد مع مرور الأيام إلا ادباراً ، فيبدل الكبر بالتواضع ، والحدة بالتؤدة ، والكذب بالصدق ، وبالله التوفيق ، انتهى .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : وأصول الأخلاق المذمومة ثلاثة : الرضى عن النفس ، وخوف الخلق ، وهم الرزق ، فيؤله من الأول : الشهوة ، والمنفعة ، والمعصية .

ومن الثاني : الغضب ، والحقد ، والحسد .

(١) إن كمالات الله لا تنتهى حقيقة إلى حد : ونقائص النفس كثيرة جداً تنتهى إلى حد ، ولكن يتعذر عددها ، وهو كلام يقصد به أن طبيعة النفس مجبولة على النقص ، فهو من باب ضرب المثل للتعريف بحقيقة النفس وجهالاتها ونقصها . والله تعالى أعلم .

ومى الثالث : الحرص ، والطمع ، والبخل .

ثم قال : لكن التزام أصل واحد ينفي جميعها ، وهو عدم الرضى عن النفس في جميع الأحوال ، والحذر منها في كل الأوقات .

قال في الحكم : أصل كل معصية وشهوة وغفلة : الرضى عن النفس ، وأصل كل طاعة وريضة وعفة ، عدم الرضى منك عنها ، ولأن تصحب جاهلاً لا يرضى عن نفسه ، خير لك من أن تصحب عالماً يرضى عن نفسه .

فأى علم لعالم يرضى عن نفسه ، وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه اهـ ،

قوله : حتى إذا أحكم علم الظاهر ، هو على حذف مضاف ، أى أتقن عمل علم الظاهر لأن الإتيان إنما هو للعمل ، اذ هو الذى أمره به ، وهى فائدة صحبة الشيخ كما تقدم في الاجتماع ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر كيفية موت النفس ، فقال :

لجرعوها أكؤس المنون وهى تنادى : كيف تقتلونى

قلت : التجرع هو تكلف الشرب ، يعنى أن المريدين إذا أراد الشيخ أن ينقلهم الى عمل الباطن ، أمرهم بقتل نفوسهم ليكون ذلك سبباً في حياة أرواحهم ، كما قال ابن الفارض :

فالموت فيه حياى وفى حياى قتلى

ولجرعوها أى سقوها كرهاً وأكؤس المنون ، جمع كأس ، على وزن فعل ، والمنون : الموت ، يعنى أنهم تجرعوا في قتل نفوسهم مرارة الموت ، وذلك بحرق عوائدها وردّها عن شهواتها ، وأعظم العوائد : العز ، والجاه ، فلا تنتقل الى الذل والهوان والخمول الا بعد جهد جهيد ، وقتل شديد ، فإذا صار عندها الذل والعز والخمول والظهور وسواء ، فقد تحقق موتها .

قال محمد بن خفيف رضى الله عنه : لا يكمل الرجل حتى يستوى قلبه في أربعة أشياء : في المنع ، والعطاء ، والعز ، والذل .

وقال الشيخ أبو مدين : من لم يميت لم ير الحق تعالى (١) .

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : لا يدخل على الله إلا من باين : إما بالفناء الأكبر الذى هو الموت الطبيعى ، أو بالفناء الأصغر الذى تعنيه هذه الطائفة .

وقال بعضهم : لا يدخل على الله حتى يموت أربع موته : الموت الأحمر ، وهو : مخالفة النفس ، والموت الأسود ، وهو : احتمال الأذى من الخلق ، والموت الأبيض وهو : الجوع ، والموت الأخضر ، وهو : لبس المرقعات .

وفى رواية وهو : طرح الرقع بعضها على بعض اه .

وقال الشيخ زروق رضى الله عنه : موت النفس لا يكون إلا بثلاث : عزلها عن مواردها ، بحيث لا يتحرك ولا يمكن إلا بتحقيق نية توافق العلم من غير هوى ، ثم الإعراس عن كل ما تلتذ به فى عالم الأجسام والطباع والعلوم والأعمال والمعاني والمباني والحقائق ، ثم ترك الإنسان ما تميل إليه من ذلك أو من غيره ، ولذلك قال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : ولن يصل الولي إلى الله تعالى حتى تنقطع عن نفسه شهوة الوصول ، ينقطع أدب واستسلام ، لا انقطاع ملل ، كذا قال ابن عطاء الله رحمه الله ، ومن هذا القبيل دعاء الشيخ أبي محمد عبد السلام بن ميثم حيث قال : اللهم إني أعوذ بك من برد الرضى والتسليم ، كما يستعذ بك أقوام من حر المعصية والتدبير .

ومنه قول الواسطى رحمه الله : استعلاء الطاعة سم قاتل اه .

قوله : وهى تنادى ، الخ نداءها بلسان حالها القريب من لسان المقال ، وقد يسمع ذلك الإنسان من باطن النفس كأنه حسى مقالى ، وقد تمنى الموت الحسى اختياراً ، فلا تزال كذلك حتى ترعاض وتمذب ، وهى علامة موتها ، والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى عمل أهل الاستشراف فقال :

فعد ما مالت إلى الزوال ادخل فى خلوة الاعتزال
وقيل : قل على الدوام : الله واحذر كطرف العين أن تنساه

(١) يذكر أن الشيخ أبا مدين رحمه الله أخذ هذه الحكمة من قول رسول الله ﷺ :
« إنكم لن تروا ربكم عز وجل حتى تموتوا » رواه الطبراني فى اللسان عن أبي أمامة ، فموت
النفس بعبته للتجلى ، وموت المؤمن بعبته رؤية الله تبارك وتعالى فى الجنة إن شاء الله تبارك
هو تعالى جعلنا الله من أهلها بمنه وكرمه آمين .

قلت : ميل النفس إلى الزوال هو : إعطاؤها الطمع من نفسها ، بحيث يتصرف فيها صاحبها بلا نزاع منها ، فهي حينئذ قريبة للموت ، مشرقة على الزوال ، فعند ذلك يدخله الخلوة ، أى يأمره بها ، ويحضنه على ذكر الاسم المفرد (١) ، حتى لا يفتر عنه ساعة .

قلت : وهذا التدرج الذى ذكره الناظم ليس بلازم لكل الشيوخ ، وللكل المريدين أن يسلكوه ، بل من الشيوخ من يلحق الاسم من أول مرة إذا رأى الفقير أهلاً له ، ويأمره بقتل نفسه مع ذكر ربه ، بحيث يجعل له وقتاً يذكر فيه ربه ، ووقتاً يقتل فيه نفسه ، وهذا الذى أتركه عليه أسيافنا بأمر الفقير بالخلوة فى أول النهار إلى وقت العصر ، ثم يخرج إلى السوق ويعمل من الأحوال الصافية ما تموت به نفسه ، فيكمل فائزاً فى الاسم مع موت نفسه . فيقرب وقت فتحه ، ومن المريدين من لا يحتاج إلى خلوة ، بل يأمره بالخلطة من أول مرة ، والبأس معادن وطبائع ، والعمل متفاوتة ، والفتح من الله من غير توقف على الأسباب ، إلا أن الحكمة جارية مع القدرة ، والله تعالى أعلم .

قال الشيخ أبو حامد الغزالي رضى الله عنه : واقد أردت فى بداية أمرى سلوك هذا الطريق بكثرة الأوراد والصوم والصلاة فلما علم الله صدق نيتى قبض لى ولها من أوليائه ، قال لى : يا بنى اقطع من قلبك كل علاقة إلا الله وحده ، واخل بنفسك ، واجمع همك وقل : الله ، الله ، الله ، ولا تزد على ما فرض الله عليك شيئاً إلا الرواتب ، وقل هذا الإسم بلسانك وقلبك وسرك ، وأحضر قلبك ، واجمع خاطرك ، وهما قالت نفسك : ما معنى هذا ، فقل لها : لست مطلوباً بمعناه ، وإنما قال تعالى — واذكر اسم ربك وتنبذ إليه نبتيلاً (٢) — .

ثم ذكر ما يفعل فى حال خلوته مع الذكر ، فقال :

وكل الشيخ به خريماً	يلقى إليه القول والتعلماً
وقيل : إن تكتم من الأحوال	شيئاً سلكت سبيل الضلال
فليس عند النوم باليب	من لم يصف شكراً لطيب

قلت : أما توكيل الشيخ بالفقير الخديم ، فله كان فى الزمان القديم ، فكان الشيخ إذا

(١) الاسم المفرد : الله ، جل جلاله .

(٢) الآية : ٨ من سورة المزمل .

أتى إليه الفقير وظله ما يلزمه في حال نفسه أدخله الخلوة وأمره بالذكر ، ووكّل به الخديم
يلقى إليه القول الذي يأمره به الشيخ من الأذكار التي تليق به ، ويعلمه ما يحتاج إليه في سهره
ويشترط في الخديم أن يكون أعلى منه علما وحالا وذوقا .

قلت : وهذه الكيفية قد انقطعت اليوم ، ولعلها هي التي قصد الشيخ الحضرمي : نعم
بقي اليوم عرض الخديم : تذكير الفقراء بعضهم بعضاً ، فيأمر الشيخ من يراه أهلاً للتذكير ،
فيدور على الفقراء أينما كانوا يذكّرهم وينبّههم ويزيدهم إلى الله كما يزيدون به ، واذلك
كانت السياحة للفقير في بدايته أمراً كبيراً ، وزيارة الشيوخ : سبب في التمكين والرسوخ
فهذه الحالة اليوم أغنت عن الخديم والخلوة ، ولا ينبغي للفقير أن يسكن شيئاً من أحواله عن
الشيخ ، قلت أرجلت ، لأن الشيء اليسير يورث الشيء الكثير ، فليس باللبيب من لم يصف
دأبه للطبيب ، فإن تعذر عليه الوصول إلى الشيخ وقد عرض له مرض أو أمر فليشخص
شيخه بين عينيه بصفته وهيئته ، ويشكّو له فإنه يبرأ منه بإذن الله ، وإن كان مع جماعة
واستحيا فليشتك إليه في قلبه (١) وإن كنتم ذلك فهو حسن ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر نتائج الذكر ونهايته ، فقال :

فلم يزل مستعملاً للذكر	فيصمت اللسان وهو يجرى
وقدر ما تجوهر اللسان	بالاسم يستثبته الجنان
ثم جرى معناه في الفؤاد	جرى الغذاء في جملة الأجساد
فصدها حاذى مرآة (٢) القلب	لوح الغيوب وهو غير غيب
فأدرك المعلوم والمجهول	حيث اقتضى لتركها قبولا

قلت : فإذا دخل الفقير الخلوة فينبغي أن يستعمل معها العزلة ، وهي عزلة القلب
فالخلوة للأشباح ، والعزلة للقلوب ، فلا بد فيها من التفرغ الكلي ، وإلا لم ينتفع بها .

وفي الحكم : ما تقع القلب شيء مثل عزلة يدخل بها ميدان فكرة :

فالمقصود من الخلوة هو دواء القلب ، ولا يشفي القلب إلا إذا تفرغ من الاغلاط الرديئة

(١) على سبيل الاستحضار كما قال أولاً . والله تعالى أعلم .

(٢) مرآة ، حذف همزة المد للتسهيل مراعاة لوزن البيت .

فإن القلب كالعدة كلما كثرت عليه الاخلاط مرض ، وهي الخواطر والشواغب ، فاذا
فخرج القلب نفعه الذكر ، وإلا فلا ، ثم لا يزال مستعملاً للذكر ليجاب به ، حتى يصمت
اللسان ، ويبقى الجنان ذا كراً ، وينبني أن يستثبت الجنان ما يذكره اللسان ، فإن ذكر
اللسان بلا جنان قليل التهوض إلى حضرة العيان ، ثم لا يزال يذكر بلسانه ويستثبه
بجنانه حتى يجرى معناه في فؤاده ، ويتمكن نوره في قلبه ، ثم يجرى ذلك في جميع
أعضائه كما يجرى الدم في سائر جسده ، وكما يجرى الماء في الأغصان الرطبة ، فيكون البدن
كله يتحرك بذكر الله .

ولقد سمعت شيخنا مولاي العربي رضي الله عنه يقول : بقيت أربع سنين نذكر
الاسم المفرد ، حتى كان البدن كله يتحرك بالذكر ، فكنت إذا وضعت يدي على فخذي
لنكنه تحرك الفخذ الآخر ، وإذا وضعت يدي على الفخذ الآخر تحرك الفخذ الآخر اه .

فاذا صفت مرآة القلوب وتجوهرت ، فعند ذلك يحاذيها لوائح الغيوب ، وهي أنوار
المواجهة تقدمه لأنوار المشاهدة ، لأن المشاهدة تكون لوائح ، ثم طوابع ، ثم تشرق شمس
العرفان ، فلها غروب عن العيان ، فعند ذلك يكشف بحقائق الأشياء ، فيدرك سر كل
موجود ، ويعلم حقيقة كل معلوم ، وكل مجهول ، يعني ما كان مجهولاً صار عنده معلوماً ،
وما كان معلوماً أدرك سره وحكمته ، وهنا يطالع على سر المتشابهات وحقائق المشكلات ،
فتتسع عليه دائرة العلوم ، وتخرق له مخازن الفهوم ، ويخرج إلى فضاء الشهود ويصير حاكماً
بسرّه على الوجود ، فلا تفلّه أرض ، ولا تظله سماء ، قد فتحت له مبادي الغيوب ، وتظهر
عن جميع المساوي والغيوب — فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين جزاء بما كانوا
يصلون (١) — .

فقوله : فيصمت اللسان وهو يجرى ، يعني أنه ينطبع الذكر في القلب انطباعاً كلياً ، حتى
يجري الذكر على القلب ، ولو سكنت اللسان ، وهذا هو المقصود من الذكر ، وقوله : وقدر
ما تجوهر ، الخ . يحتمل أن يكون إنشاء ، ومعناه الأمر باستثبات القلب عند ذكر اللسان
أي ويستثبت الجنان ما يذكره اللسان ، فيكون بقدر ما تجوهر اللسان يستثبته ، ويحتمل
أن يكون إخباراً ، ومعناه : ويقدر ما يتجوهر اللسان بالذكر يدخل في القلب فيستثبته

فيكون فيه الحض على ذكر اللسان ، لعله يدخل الجنان ، والاحتمال الاول فيه الحض على المحض عند ذكر اللسان ، وهو أولى ، لأن ذكر اللسان إذ لم تصحبه بمجاهدة لا يفضي إلى القلب ، ولو كثر .

وقوله : « ثم جرى معناه في الفؤاد » ، يعني أنه ينصبغ القلب بمعنى الذكر حتى لا ينفك عنه ، وهي الطمانينة بذكر الله .

وقوله : « فعند ما حاذى مرآة القلب » ، أي فعند انصبغ القلب بالذكر وطماننته به ، يحاذى مرآة قلبه الصافية المجلوة أنوار الغيوب ، وهو الذي أراد بقوله « لوح الغيوب » ، وتسمى اللوائح ، وإنما قصره الوزن ، فإذا اطلعت له لوائح الغيوب ظهر ما كان محتبئاً ، أي خفياً من أنوار الشهود ، فانطوى عند ذلك وجود كل موجود ، وفي ذلك يقول الششتري :

أقصد تجلى ما كان مخبئاً والسكون كل طوبى طى
منى على دارت كسوى من بعد موى ترانى حى

وفي بعض النسخ « فعند ما حاذى أمير القاب » ، أي وهو من إضافة الصفة إلى الموصوف
أي فعند جرى الذكر في الفؤاد حاذى القلب الذى هو سلطان الجسد ، لوائح الغيوب ، وفي بعض النسخ بلفظ « ما » ، المصدرية بعد « عند » (١) ، والمامل في الظرف « فأدرك » ، أي : فأدرك عند محاذاة لوح الغيوب سلطان القلب المعلوم والمجهول .

وقوله : « فأدرك للمعلوم والمجهول » ، يعني : أنه لما اطلعت عليه شمس المعارف أدرك سر ما كان مجهولاً ، حيث عرف سر وجوده ، وغاب عن شهوده بشهود معبوده .

وقوله : « حيث اقتنى لسر كة قبولا » ، يعني أنه لا يدرك سر الملهوآت والمجهولات ، إلا إذا اقتنى ، أي ادخر لذلك قوة باستعدادده لذلك ، وهو التفرغ التام ، فيقدر تفرغه من الأشياء يكشف لك عن شهود المكون ، أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدته كانت الأكوان معك ، ومحال أن ترتبط مع الأكوان وتطلع على أسرار مكنونها فيها ، والله تعالى أعلم .

(١) فتكون النخبة « فعندما حاذى مرآة القلب » بدل « فعندما حاذى مرآة القاب » ، والله تعالى أعلم

م ذكر مخاطبات الحق له على السنة الهوائية ، فقال :

حتى إذا جاء بطور القلب خوطب اذذاك بكل خطب

فقبل لو عرفتني بكوني قيل: اذن فاخلع لعال الكون

قلت إذا وصل النور من ناحية المذكور إلى جبل الطور ، وهو قلبك المستور ،
بجباب هبة المذكو ، رفع عنه الستور ، وخاطبه حينئذ بكل أمر جميل ، فلم تعلم نفس
ما خصص به من المساررة والمصافة والمصافة والمسكلة والمهاجاة ، فيناديه لسان الملسكوت
مترجماً على عالم الجبروت ، يا أيها العبد الشائق إلى حضرتي لتعاني سر قدرتي ، هلا عرفتني
بكوني ، وقنعت بذلك مني ، فيقول العبد المشنق إلى حضرة التلاق لا أريد إلا وجهك
للكريم ، ومشاهدة شرك العظيم ؛ فيقول له الحق جل جلاله : إن أردت هذا الخطب
الجسيم ؛ والامر العظيم فاخلع عنك لعال الكونين ، وتخلط بقدم همتك نعيم الدارين ،
فإذا خلعت عنك الحظوظ والهوى ، فأنت بالوادي المقدس طوى ، وأنشدوا :

واخلع النملين إن جئت إلى ذلك الحى فقيه قدسنا

وعن الكونين كن منخلماً وأزل ما بيننا من بيننا

وإذا قيل لمن تهوى ؟ فقل أنا من أهوى ، ومن أهوى أنا

فهذه مسامرة كلام الناظم ، وانرجع إلى تفسير ألفاظه ، فنقول : حتى إذا جاء ذلك
اللائح الذى عبر عنه بلوح الغيوب ، وهو النور الذى أثمره الذكر ، حاذى مرآة القلب ،
أى وصل اطرر القلب الذى هو محل المناجاة ، ومعدن المصافاة ، فهو كجبل الطور الذى
وقعت عليه مناجاة الحكيم عليه السلام ، فإذا وصل إليه ذلك النور ، ورفعت عنه الحجب
والستور ، وخوطب إذ ذاك ، أى حين وصل النور إلى القلب بكل خطب ، له أمر جميل ،
وهذه المخاطبات تكون هوائف من ناحية القلب ، فيجب تصديقها حيث انقطعت الخواطر
الردية عنه ، وتكون أيضاً مخاطبات على السنة الهوائية الكونية ، فيسمع العارف منها
كل ما يحتاج إليه ، وهذا أمر مجرب لمن ذاق الفهم عن الله ، وفى ذلك يقول الشترى :

أنا بالله أنطق ومن الله أسمع

وقال أيضاً :

أسمع كلامي وافهم إن كنت تفهم

لأن كنزك قد أعزى عن كل طلم

من هو المسكلم الحكيم على طور الإفهام

والحاصل أن هذه الخطابات الهوائية والكونية لا تكون إلا لمن صفت مرآة قلبه

من الاغيار ، ولم يشاهد إلا الانوار والاسرار ، فحينئذ يخاطب من كل ناحية ، ويسمع التأييدات من كل جانب .

ولقد كنا في بعض أسفارنا لا نعرف من موضع إلا يأذن من الله ، ولا نقيم إلا كذلك ، بما ذلك إلا ببركة صحبة العارفين بالله .

وقوله : فقيل لو عرفنى بكونى ، يعنى أن السالك إذا أشرقت عليه لوائح الوصول ، وهب عليه نسيم القبول ، وجد فى طالب بلوغ المأمول ، يقول له الحق تعالى اختبراً لصدقه : يا عبدى هلا قنعت بمعرفة الدليل فتعرفنى بنظرك لكونى ، فيقول العبد : يا رب لا أريد إلا معرفة ذاتك ، فإذا قال له ذلك يقول له الحق جل جلاله : إن أردت ذلك فخالع عنك زمال الكونين ، وتحقق بالزهد فى الدارين ، تحصل لك مناقرة للعين .

قال (بعض للعارفين : قيل أول ما يقول الله العبد : اطلب العافية والجنة والأعمال وغير ذلك ، فإن قال : لا ، ما أريد إلا أنت ، قال له : من دخل هذا معى : فإنما يدخل بإسقاط الخطوط ، ورفع الحدود ، وإثبات القدم ، وذلك يوجب لك الندم ، وأنشدوا :

من لم يكن فيك فانياً عن حظه وعن العنا والانس بالأحباب
فلأنه بين المنازل واقف لمنال حظ أو لحسن مأب

والله تعالى أعلم

ثم ذكر ثمرة الزهد وخلع للنعل ، فقال :

ثم فنى عن رؤية العوالم ولم ير فى الكون غير العالم
ثم انتهى لفلك الحقيقة فقيل : هذا غاية الطريقه

قلت : إذا تحقق زهد المريد فى الكونين ، وغاب عن حظه فى الدارين ، أشرق عليه نور الإيقان ، فنتطى وجود الأكوان ، فما حجب اليباد عن الله إلا تعلق القلب بالخطوط والعمل على الحروف ، فلو تحرروا من رق الخطوط ، وهملوا على نعت المبودية والقيام بوظائف الربوبية ، لاشرقت عليهم الانوار ، وغابوا عن شهود الآثار ، فتعلق القلب بالخطوط النفسانية ، بمنع من مقام المراقبة ، وتعلقه بالحروف الروحانية بمنع من مقام المشاهدة ، فالحروف الروحانية بمنع من مقام المشاهدة ، والحروف الظلمانية بمنع من مقام

من القريب ، والحروف الروحانية تمنع شهود الحبيب ، فالحروف الظلمانية هي الشهوات
المسبة ، والحروف الروحانية هي الشهوات المعنوية ، كطلب الخصوصية والكرامة والمعرفة
فلا تدرك المقامات إلا بالزهد فيها .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : «ولن يصل الولي إلى الله ومعه شهوة من شهواته
إلا بغير من تديراته ، أو اختيار من اختياراته .

وتخدم قول الشيخ أبي العباس رضى الله عنه : لن يصل الولي إلى الله حتى تنقطع عنه
شهوة الوصول ، أى حتى يزهد فيه أدبا واكتفاء بعلم الله .

واعلم أن هذه المخطوط للقائمة عن الله هي التي يسميها شعراء الصوفية في تنزلاتهم :
«عواذل ورقباء» كما قال الششتري رضى الله عنه :

يا أخى افن تشهد كل سر عجب وتحول في المشاهد حين قرب الحبيب
حيث لائم حاسد أو عذول أو رقيب

قوله : ثم فنى عن رؤية العوالم ، أى ثم بعد تحقيق الخلع عن الكونين يفنى عن رؤية
لعوالم حين تتلطف وتصير معاني .

أو تقول حين تقلب أنواراً ملكوتية بعد أن كانت ظلمات ملكية ، فإذا غابت العوالم
بنى الخبير العالم .

أو تقول : فإذا غابت الآواني بقيت المعاني .

أو تقول : فإذا غاب الكون بقي المكون ، وفي ذلك يقول الششتري رضى الله عنه :

جميع العوالم رفعت عنى وضوء قلبى قد استفاق
ترانى غائبا عن كل أين كاس المعانى حلو المذاق

وقوله : «ثم انتهى لفلك الحقيقة» هو مرتب على ما قبله ، فهما غاب عن العوالم انتهى
لفلك الحقيقة ، والحقيقة هي شهود العظمة بالعظمة ، أو شهود حق بحق ، وتقدم قريباً
تفسيرها أيضاً بتفسير آخر ، وفلكها أنوارها المحيطة بالأكوان الغيبة لها .

قال في الحكم : «محقت الآثار بالآثار» ومحوت الأغيار بمحيطات أفلاك الأنوار .

وفلك الحقيقة هو عالم الجبروت الأصل ، فإذا انتهى المرید إلى ذلك وتمكن فيه ، فقد

انتهى سيره ، وذلك غاية الطريق إلى عين التحقيق ، قال تعالى - وأن إلى ربك المنتهى (١) - وباقه للتوفيق .

ثم ذكر مقام الشهود ، فقال :

ثم امتحى في غيبة الشهود فأطلق القول : أنا معبودى
حتى إذا رد عليه منه أثبت فرقا حيث لم يكن

قلت : العبد في حال غفلته يكون مبتلى برؤية نفسه ، واقفا مع شهود حبه ، مسجونا بمحيطاته ، محصوراً في ميكل ذاته ، فإذا أراد الله تعالى أن يرفع عنه الحجاب ، ويدخله في حضرة الاحباب ، ألقاه إلى ولي من أوليائه ، وعرفه سر خصوصيته واصطفائه ، فلا يزال يسير به ويحاذيه ، ويخرق عليه عوائد نفسه ويغييه عنها ، ويذهده في فلسه وجننه فإذا رآه الشيخ قد رقد في حقه الحجاب ، واستحق الانخراط في سلك الاحباب ، فتح له الباب . وقال له : ها أنت وربك ، فإذا زج في حضرة النور ، ورفعت عنه الستور ، أنكر الوجود بأسره ، وأنكر وجود نفسه ، فاستحق وجوده في وجود محبوبه ، وانطوى شهوده في شهود معبوده ، فألشأ يقول : . أنا من أهوى ومن أهوى أما . أنا المحب والحبيب ، ليس ثم ثانى . فإذا تمكن في الشهود ، وتحقق برؤية نور الملك المعبود رد عليه صحوه ورجع إليه سلوكه ، فأثبت فرقا في عين الجمع قياما بوظائف الحركة في عين شهود القدرة ، فيكون الجمع في باطنه مشهوداً ، والفرق على ظاهره موجوداً ، فرقا لفظيا لا حقيقياً ، أدباً مع الربوبية ، وقياماً بوظائف العبودية ، فلا تبتهج رياض الملوك إلا بزهر جمال الشريعة الحميدة .

وقد قلت : في قصيدة سارت بها تصليبة ابن مشيش رضى الله عنه في مدح النبي صلى الله عليه وسلم :

رياض بساتين المعارف بهجت بزهر جمال من شريعة أحمد
كذاك بحار الجبروت تدفقت بأنواره في كل غيت ومشهد

قوله : ثم امتحى في غيبة الشهود ، أى امتحى وجوده في وجود الحق .

قال في الحكم : الاكوان ثابتة باثباته بمحوه بأحدية ذاته .

وقال أيضاً - في الكلام على الإشارة - بل العارف من لا إشارة له ، انما هو في وجوده وانطوائه في شهوده .

وقوله : « فأطلق القول أنا مبدى ، إطلاق هذا القول لا يعلم له ، إلا في حالة القوة والمجذب ، وإلا فقد علمت ما وقع للحلاج ، وهو ولي الله حقاً ، وفي معنى ذلك قيل :

ومن شهد الحقيقة فليصننا وإلا سوف يقتل بالسنان
كحلاج المحبة إذ تبدت له شمس الحقيقة بالتدان
وقال آخر :

بالسر إن باحوا تباح دماؤهم وكذا دماء البائمين تباح

قال ابن خلدون : قتل الحلاج بفتوى أهل الظاهر ، وأهل الباطن : أهل الشريعة وأهل الحقيقة . لأنه باح بالسر ، فوجبت عقوبته اه (١) .

ومن أفتى بقتله : الجنيد ، والفيل : غيرة على السر أن يفشى أخير أهله ، فالواجب كتم الأسرار ، وإظهار شريعة النبي المختار ، والله در الشترى حيث يقول :

شق ثوب الوهم شقه ترتفع عنك المشقة
إن منك اليوم شوق فافن عن ذانك وترقى

فاذا حقت ذانك ، وانتهى بادی صفاتك ، قف على طور سينائك ، واجعل الوجه حياك . وافن به حتى تكن ، إياك أن تقول : أنا . واحذر أن تكون سواه .

وقوله : « حتى إذا رد عليه منه ، هو على حذف مضاف ، أى حتى إذا رد عليه من شهود نفسه ، أى بره ، حينئذ أثبت فرقاً لتظهر اليهودية في مظاهر الربوبية ، سبحانه من سر الخصوصية بظهور وصف البشرية ، وظهور بمظلة الربوبية في مظاهر العبودية ، فربوبية بلا عبودية نقص ، وعبودية بلا ربوبية محال ، وهذا الفرق ثبت التكليف .

قال شيخ شوخنا سيدى على العمراقى رضى الله عنه في كتابه : أعلم أن الكاف صفة من

(١) وقد روى عنه أنه قال رضى الله عنه : « إذا قتلتموني فأنتم مجاهدون وأنا شهيد » .

أوصاف الفرق ، وعدم الكلف صفة من أوصاف الجمع ، والفرق عبودية ، وهو حق ، والجمع ربوبية وهو حق أيضاً ، صار الحق هو القائل وهو المستمع لما قال ، لأجل هذا المعنى تحمد هؤلاء المتوجهين إلى الله تعالى : من غلب عليه شهود الجمع ، تجمده في غاية البسط والراحة من الكلف ، ومن غلب عليه شهود الفرق ، تجمده في غاية القبض والتعب والكلف ويرحم الله القائل :

الرب حق ، والعبد حق ياليت شعري : من المكلف ؟
لن قيل : عبد ، فالعبد ميت أو قيل رب : أنى يكلف ؟

وقد أجابه سيدى عبد الرحمن الفاسى ، نفعا الله بالجميع بقوله :

نعم يحق إثبات عبد بنعت فرق به يكلف
والعبد ميت بغير رب لسرعون منه يكلف

وقوله : « أدرك فرقاً حيث لم يكن ، ومعناه أى أدرك فرقاً حيث لم يكن فرق ، وإنما أثبتته الحكمة ، فوجب إثباته بالله ، فالشريعة أدب منه إليه ، والطريقة سير منه إليه ، والحقبة : وصول منه إليه ، وإليه يرجع الأمر كله ، فاعبده وتوكل عليه .

سمع بعض العارفين هاتف الحق يقول : أنا الله سبحانه ما أعظم شأنى ، ظهرت لحنائى صفاتى ، وخفيت لظهورها ذاتى ، فشهدت صفاتى بوحداية ذاتى ، وأحاطت ذاتى بجميع صفاتى ، فاضمحلت الصفات فى الذات ، وغابت الذات فى الصفات ، فنى إلى قربى تنزهاً وتقديساً عن مثلى ، لا إله إلا أنا الملك الحق المبين ، كل شئ هالك إلا وجهى (ألم كهيعص طسم حسم عسق) لمن الملك اليوم ، لله الواحد القهار ، والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى مقام البقاء فقال :

فرد نحو عالم للتحويل وعبروا عن ذاك بالنزل
ورده بالحق نحو الخلق كي ما يؤدى واجبات الرق

قلت : إذا تمكن المريد فى الجذب ، وتحقق من شهود الرب ، وأتمنى صناعة البقاء

ن البحر ، رد إلى شهود جزيرة البر ، ليكون ماشيا بين بر وبحر ، وهو مقام الكمال ، كما قال
ابن عطاء الله بعد الكلام على مقام الجذب والخبرة : « وأكل منه عبد شرب فازداد
محوراً ، وغاب فازداد حضوراً ، فلا جمعه يحجبه عن فرقه ، ولا فرقه يحجبه عن جمعه ،
بطل كل ذي حق حقه ، ويوفى كل ذي قسط قسطه ، انتهى .

ويسمى هذا مقام البقاء ، لأنه أبقي ما كان نفاه أول مرة في حال جذبه ، فلما صحا من
سكرته وجد ما كان نفاه باقياً على حاله ، وإنما تبي الوم فقط ، وفي ذلك يقول الجليل
ن هينته :

فأفنتها حتى فنت ، وهو لم تكن ولـمكتى بالوم كنت أطالع

وقال الشنرى :

أفن من لم يكن يبق من لم يزل

فمقام البقاء مقام شريف ، وحال منيف ، وهو مقام الرسل عليهم الصلاة والسلام ،
وهو معنى قول الشيخ أبي يزيد : « نحننا بحرأ » وقفت الانبياء بساحله (١) لأن الانبياء
عليهم السلام لما غاضوا البحر من تقدم الأول ، رجعوا إلى ساحل البحر ليسيروا الناس
في البر والبحر ، ولو بقوا في البحر ما أمكنهم أن يسيروا أحداً في البر ، فتبطل حكمة الإله في
إرساله لهم ، ولعل الشيخ أبا يزيد قال هذه المقالة قبل رجوعه لبقاء والسكر غالب عليه .

قوله : « فرد ، أى رده الشيخ ، نحو عالم التحويل ، بالحاء المهملة ، أى التصديق ، وهو
عمل ظهور تهرقات الأسماء والصفات ، وهو عالم الحاق ، وقد كان في حالة الجذب في
عالم الامر .

وفي بعض النسخ بالمعجمة (٢) أى محل ظهور إتمام الله على خلقه ، وما خولهم به من
كرمه وجوده .

وقوله : « وعبروا عن ذاك بالنزول ، لأن الحرية ارتفاع ، والعبودية نزول .

(١) وهناك معنى آخر هو : أن الانبياء عليهم الصلاة والسلام ، وقفوا على ساحل البحر
يدعون الناس إليهم ، فالتأخض هنا ذاهب إلى مكان الداعي ، وهم الانبياء يدعون للخلق
إلى الله . وهو المعنى القريب إلى فهم العامة في مثل هذا المقام ، وأول الحاق وأولاهم بإجابة
السعة هم الأولياء ، والله تعالى أعلم .

(٢) أى بالحاء المعجمة : أى المنقوطة ~~فكون~~ الكلمة ، نحو عالم التحويل ، بدل
التحويل ، من خوله الشيء إذا كلفه به .

وقال في الحكم - بعد ما تكلم على الحضرة - فإن نزلوا إلى سماء الحقوق ، أراض
المحظوظ ، فبالإذن والتسكين ، والرسوخ في اليقين .

وقوله : «ورده بالحق نحو الخلق ، أى رده بالله نحو عالم الخلق ، لأجل أن يؤدى
ما وجب عليه من حقوق الرق ، وهى العبودية ، وهى عند الله أشرف المقامات وأسمى
الكرامات ، وما خاطب الله أنبياءه ورسله إلا بالعبودية ، قال تعالى - سبحانه الذى
أسرى بعبده ليلاً(١) - وقال تعالى - واذكر عبادنا إبراهيم وإسحاق ويعقوب(٢)
واذكر عبدنا أيوب(٣) - إلى غير ذلك .

وقد قلت في قصيدتي العينية في هذا المعنى :

تمك بمنهاج الشريعة لأنها أمان من كل هول للظهر قاطع
فشد لها يد الضنين فتش كمال الكمال منك هو للشرائع

وقال سيدى على رضى الله عنه في كتابه : اعلم أن مقام البقاء هو مقام الملك بالله ، وهو
مقام خاصة الخاصة ، وهو مقام الراحة بعد الشقاء ، والربح بعد الخسران ، وهو مقام
للعبودية لله بلا علة ، والنظر إليه بلا واسطة ، وهو مقام التفريق بعد الاجتماع ، والنواضع
بعد الارتفاع ، والعجز بعد القدرة ، والآداب لله بالله بعد التمكن من الحضرة الإلهية ،
صاحب هذا المقام راسخ في العلم والعمل ، راتع في شهود الحق في الجلال والجمال ، لتحقيق
المقامات والأحوال .

قال أبو المواهب التونسى في قوانينه : من وصل البقاء أمن الشقاء .

ثم أشار إلى ما يفعل بعد ترشيده وإطلاق يده من التحجير ، فقال :

فكلم الناس بكل رمز وألفز التعبير أى لفر
وعندما أسلك المسالك أقامه شيخاً لكل سالك

(١) أول سورة الإسراء .

(٢) سورة ص ، الآية : ٤٥ .

(٣) سورة ص ، الآية : ٤١ .

قلت : للفقيه إذا كان في مقام الاستشراف ، ولم يتمكن من علم التحقيق ، فمجهده يسير من الحقيقة بعبارة واضحة عارية من الكسوة ، وذلك لضيق عطيه^(١) وعدم فروسيته ، فإذا تمكن في العرفان ، ورسخ في الشهود والعيان ، استحق حينئذ دخول الميدان ، وجلال مع الفرسان ، فإذا جال بفرسه بين الناس لا يسبق ولا يضر أحداً من الخلق .

أو نقول : كل من لم يتحقق بالوصول لا يقدر أن يرقق الغزول^(٢) وقته در الغز إلى حيث قال :

غزلت لهم غزلا رقيقاً فلم أجد لغزلي نسا جاف كسرت مغزلي

فإذا رد المرید إلى مقام البقاء وسلك تلك المسالك المتقدمة من جذب وفناء وتخليّة وتخليّة أمره الشيخ بتذكير الناس وإرشادهم إلى ربهم ، فاستحق أن يكون شيخاً مرياً ، وهذا حاصل البيتين ، والرمز أدق وأخفى من اللفز ، لأن الرمز إشارات وتلوّجات ، واللفز كلام يراد به غير ظاهره ، يفهمه من عرف اصطلاحه أو قرينته .

وكان حق للناظم أن يقدم البيت الثاني على الأول ، لأن تعبير المرید ناشيء عن تذكيره ، وتذكيره ناشيء عن تقديمه لذلك ، وتقديمه هو إقامته للشيخوخة ، فإذا أقامه لذلك أمكن أن يأتي بالرمز أو باللفز ، والأمر في ذلك قريب ، والله تعالى أعلم .

ثم أشار إلى أن هذا العلم ليس هو أقوالاً باللسان ، وإنما هو أذواق بالجنان ، فقال :

فهذه أحوال ذى الأحوال تدرك بالأفعال لا الأقوال

قلت : الإشارة تعود إلى ما قدمه من أول الباب إلى هنا ، وأن تدريج السالك في هذه الأحوال والمقامات هي أحوال أهل الأذواق والوجدان من أرباب الأحوال ، وهي إنما تدرك بالأعمال : بمجاهدة ومكابدة ، ثم مشاهدة .

قال الجنيد رضى الله عنه : ما أخذنا للتصوف عن القيل والقال ، والمرء والجدال ، وإنما أخذناه عن الجوع والسهر ، وكثرة الأعمال .

(١) العطن : مبارك الإبل عند الماء .

(٢) أى الغزل ، لأنه ترقيق يحتاج إلى دقة وعناية .

وأنشدوا في معنى ذلك :

يا من يريد منازل الأبدال من غير قصد منه للأعمال
لا تظمن فيها قلت من أهلها ما لم تراحمهم على الأعمال
بيت الولاية قسمت أركانه ساداتنا فيه من الأبدال
ما بين صمت واعتزال دائم والجوع والسهر التزيه للعالي

ثم بين أن ما ذكره هو طريق للسلف المتقدمين من الجهابذة المتمكنين ، وأنه لا يزال
الخصام في وجودها أبداً ، فقال :

فكذا كان طريق القوم ولم يزل يخضم كل خصم

قلت : الإنكار على الأولياء سنة ماضية (١) ، ولن تجد لسنة الله تبديلاً ، قال تعالى :
وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً من المجرمين (٢) وما قيل في النبي يقال في الولي ، لأنه
على قدمه ، لكن حجة الأنبياء غالبية واضحة ، وحجة المنكرين عليهم واهية داحضة ،
وكذلك حجة الأولياء على الأغوياء ، لا تزال قائمة غالبية ، لأنها هي الطائفة الظاهرة إلى
يوم القيامة ، وهذا معنى قوله « ولم يزل يخضم كل خصم » أي يغلب كل من يخاضه ، والله
متم نوره ولو كره الكافرون .

(تنبيه : قوله « فكذا » الإشارة تعود إلى تدريج المرید وتربيته بالكيفية التي تقدمت ،
وهل هذه التربية تجري في كل زمان ؟ أو لكل زمان تربية مخصوصة ؟ الظاهر أن كل زمان
تحدث له تربية مخصوصة ، لأن الأولياء على قدم الرسل ، فكما أن الحق تعالى لم يكتف
برسول واحد لجميع بني آدم لاختلاف المصالح والموائد ، فكل زمان بعث الله فيه رسولا
يخرج أهله من عوائدهم التي حجبته عن الله ، وكذلك الأولياء يعيشهم الله في كل زمان
بخرق عوائده .

وقد قال عمر بن عبد العزيز : تحدث للناس أقضية بقدر ما أحدثوا من الفجور .

ويقال في قياسه : تحدث للناس تربية بقدر ما تعودوا من الأمور ، والله تعالى أعلم .

(١) أي هذا مفروغ من وجوده ، ولا بد منه ، ولكن :

لولا اشتعال النار في ما حولها ما كان يعرف طيب عرف العود .

(٢) سورة الفرقان ، الآية : ٣١ .

ثم إن هذه الطريق ميرات نبوى ، أخذته وارث عن وارث إلى خير وارث ، وهي مستمرة حتى يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين ، وإلى ذلك أشار بقوله .

وهي إذا ما حقت هوارث عن خير مبعوث وخير وارث

قلت : هذه الطريقة موروثة ، أخذها عارف عن عارف إلى سيد العارفين عليه السلام ولذا كرر سلسلتنا تبركا واقتداء بمن ذكر ذلك ، فنقول :

أخذنا الطريق وعلم التحقيق عن شيخنا الواصل الحق الكامل مربى السالكين ومرشد الطالبين سيدى : محمد اليزيدى الحنفى ، عن شيخه القطاب العارف شيخ المشايخ هولاى العربى الهرقاوى الحنفى ، عن شيخه : سيدى على ، عن شيخه سيدى : العربى ، عن شيخه سيدى : أحمد بن عبد الله ، عن شيخه سيدى : قاسم الخصاصى ، عن شيخه سيدى : محمد بن عبد الله الكبير ، عن شيخه سيدى : عبد الرحمن القامى ، عن شيخه سيدى : يوسف افلى ، عن شيخه سيدى : عبد الرحمن المجذوب ، عن شيخه سيدى : على الصنهاجى المشهور بالدوار ، عن شيخه سيدى : إبراهيم الحام ، عن شيخه سيدى : أحمد زروق ، عن شيخه سيدى : أحمد بن حقة الحضرمى ، عن شيخه سيدى : يحيى القادري ، عن شيخه سيدى : على بن وفا ، عن أبيه سيدى : محمد بحر الهفا ، عن شيخه سيدى : داوود الباخل ، عن شيخه سيدى : أحمد ابن عطاء الله ، عن شيخه سيدى : أبى العباس الرضى ، عن شيخه سيدى : أبى الحسن الشاذلى ، عن شيخه القطب سيدى : عبد السلام بن مشيش ، عن شيخه سيدى : عبد الرحمن المدنى ، عن شيخه القطب : تقي الدين الفقير (بالتهذيب فيها) ، عن شيخه القطب : غفر الدين ، عن شيخه القطب : نور الدين عن شيخه القطب : تاج الدين ، عن شيخه القطب : شمس الدين ، عن شيخه القطب زين الدين القزوينى ، عن شيخه القطب سيدى : إبراهيم البصرى ، عن شيخه القطب سيدى : أحمد لاروانى ، عن شيخه القطب سيدى : سعيد ، عن شيخه القطب سيدى : سعد ، عن شيخه القطب : فتح السعد ، عن شيخه القطب سيدى : سعيد الغزوانى ، عن شيخه القطب أبى محمد : جابر ، عن أول الأقطاب سيدنا : الحسن سبط رسول الله عليه السلام ، عن والده أمير المؤمنين سيدنا : على كرم الله وجهه الذى هو باب مدينة العلم (1) ، (عن نخبة

(1) الحديث الصحيح الذى رواه الحاكم فى المناقب ، من مستدرکه ، والطبرانى فى معجمه الكبير ، وأبو الشيخ ابن حبان فى السنة ، (له) ورواه أيضاً القليل وابن عدى ولفظه =

(الوجرد) ومادة عين الرحمة والجود ، سيد المرسلين وخاتم النبيين سيدنا ومولانا : محمد رسول الله ﷺ عن سيدنا جبريل ، عن الرب الجليل جل جلاله وتقدست صماته وأسمائه .

قال الشيخ أبو الحسن الشاذلي : طريقتنا هذه مروية سلسلة ، قطب عن قطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم .

فمن لم يكن له سلسلة أشياخه فهو مقطوع ، لا يصحح الاقتداء به ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر أن ما سلكه التليذ المتقدم من المقامات والأحوال هكذا يمكن سلكها .
شيخه ، فقال :

وهكذا الشيخ على التحقيق إذ كان مثل سالك الطريق

قلت : الإشارة تعود إلى التربية المتقدمة ، يعني أن الشيخ المحقق كان سالك الطريق مثل ما سلكها المرشد ، وهذا إخبار بمعلوم ، إذ لو لم يسلكها شيخه قبله ما سلكها هو ، وقد تقدم في شروط الشيخ ذلك كله ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

فمن يمكن بهذه الأوصاف شيخاً وتليذاً فمن الناص

قلت : يريد أن من اتصف بهذه الأوصاف المتقدمة ، بأن كان جامعاً بين حقبة وشرعية ، بين جذب وسلوك ، زاهداً في الدنيا ، رافداً همته عن الأكوان بأسرها فهو مستحق بأن

== و أنا مدينة العلم وعلى بابها ، فمن أراد العلم فليأت الباب ، ورواه أيضاً الترمذي في جامعه ، وأبو نعيم في الحلية ، وقد خرجته تخرجاً جيداً السيد / أبو الفيض الغماري في كتابه وفتح الملك العلي بصحة حديث باب مدينة العلم على ، وقال الحافظ المنار في كتابه : المقاصد الحسنة ، بعد إبراده الأفاضل التي وردت فيه : وأورد قول الحافظ العلاني : فمن حكم على الحديث مع ذلك بالكذب فقد أخطأ ، قال : وليس هو من الألفاظ المذكورة التي تأباه العقول ، اهـ . بتصرف . وعلى هذا فخر آفة بعض الناس على تكذيب هذا الحديث جريمة كبرى ، خصوصاً ممن لا علم عنده ، ولا دراية له بفن الحديث .

يكون شيخاً ، ومن كان على قدمه من أتباعه ، استحق أن يكون وليداً على نعم الحق والإصاف ، وإلا فلا .

ثم ختم الفصل بفذلكه ليس تحتها حكم يتعلق بالفن ، فقال :

فهذه لوازم الأحكام جئنا بها ترى على نظام
وما ذكرنا فهو كالقليل إذ اختصرنا خفية التطويل

قلت : يعني أن هذه الأحكام التي ذكرها في هذا الفصل من تدريب المريد إلى أن يصير شيخاً ، هي الأحكام التي تلزم المريد الذي يطلب الوصول ، ولوازم الأحكام ، من إضافة الصفة إلى المصريف ، أي فهذه الأحكام اللوازم ، أي اللازمة للمريد الصديق جئنا بها ترى ، أي يتبع بعضها بعضاً ، وإنما ذكر القليل دون الكثير ، لأن كثرة التطويل موجب للبلل ، ومقلل للتحصيل .

وقد قالوا : التحير مفتاح التحير .

وكان ازهرى يقول : إذا طال الجملح غمره الشيطان ، لأنه مرجب لسكرة الكلام خبوة في التحير ، والله تعالى أعلم .

خاتمة : قال الشيخ زروق رضى الله عنه : فإن قلت : هل يصح دخول الخلوة والساوك على هذا الأسلوب بغير شيخ ؟ قلنا : نعم ، ولكن بتعذر الجاح لقوة اموارض وكثرتها ، فذلك قيل : إن الشيخ واجب في هذه الجماعة دون جماعة التقوى والاستقامة ، وقد تقوى همه مريد في ذلك ولا يجد شيخاً ، فيجزم على ذلك وينوب في لثبات وللازك على رأى أخ صالح ذي بصيرة سليمة ، ثم يقوم مستمياً بالله ، فإن الله سبحانه يمنحه على قدر همه بمغضله ، وأما الرياضات والخلوات الاصطلاحية التي يذكرها أبو العباس البوني وغيره ، فأصلها ما يتعلق بالذكر المجرد ، وقد قربته في كتابه والنفس ، وذكره من غير تنبيذ بأكل ولا صوم ولا كيفية ولا سبب ، فاعمل به إن شئت بعد تحقيق علم ، وبالله التوفيق ، انتهى .

قلت : طريقة الأسماء لا تخلو من حروف وحفظ ، الفتح فيها بعيد ، والإخلاص فيها معدوم ، وطريق الذكر المجرد إن كان بالشيخ نهض من ساعته ، وإن كان بغير شيخ ، فإن كان مراده الأجور أخذه وافراً ، وإن كان مراده الوصول فغاية ما يصل إليه الفناء

في الصفات ، وأما الفناء في الذات فلا ، - لكن بغير شيخ ، هذا ما جرت به العادة ، وإن خرقت العادة في فرد فلا يقاس عليه ، والله تعالى أعلم ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ثم شرع في الفصل الرابع ، فقال :

الفصل الرابع في الرد على من رده وليس يدري شأنه وقصده

قلت : مضمّن هذا الفصل : تقييح من أنكر هذا الطريق ، وتوبيخ من رد على أهلها ، وتوبيخ رأيه وتحتير شأنه ، حيث أنكر ما لم يحيط به علماً ، ولم يدرك له شأنًا ولا قصدًا إذ لو عرف شأنه لعظمه ، ولو أدرك المقصود منه سارح إليه ، ولكن كما قال القائل :
« من جهل شيئاً عاداه ، وقال تعالى - وإذ لم يتدوا به فسبقوا هذا إفاك قديم (١) -
وقال الشاعر :

وكم عائب ليل ولم ير وجهها فقال له الحرمان : حسبك ما فات

وقد تقدم أول الكتاب فصل الاجتماع ، على ترجيح مذهب الصوفية على غيرهم ، وذكر هنا الاحتجاج على ترجيح علومهم على علوم غيرهم ، ومن أين نشأ الإنكار عليهم وذن المنكر عليهم ، فأشار إلى الأول بقوله :

هذا الطريق من أجل الطرق فافهم هديت واقتده بنطاق

قلت : إنما كان من أجل الطرق ، لأنه يدل على الله من أول قدم ، وخصوصاً طريق الشاذلية ، بخلاف غيره من الطرق ، فإن منها ما يدل على العمل ، ومنها ما يدل على العلم بالأحكام .

وقد قال الشيخ القطب ابن مشيش : « من ذلك على العمل فقد أتبعك ، ومن ذلك على الدنيا فقد غشك ، ومن ذلك على الله فقد نصحك » .
والدلالة على الله هي الفناء فيه بالغية عما سواه .

ولقد سمعت شيخنا رضي الله عنه يقول : صاحبنا أول قدم ندخله في الفناء في الذات ، ولا يحتاج إلى مجاهدة عمل ، إذا صدق في محبته .

وإن شئت قلت : إنما كان من أجل الطرق لأن شرف العلم على قدر شرف متعلقه ، ومتعلق هذا العلم أشرف المتعلقات ، لأن مبدأه صدق التوجه إلى الله . ومنتهاه أفراد القلب والغالب إلى الله على وجه تحقيق اليقين ، حتى يصير في معد الشهود والعيان .

أو تقول : أوله داع إلى محبة الله ، وأوسطه داع إلى السير إلى الله ، ونهايته الوصول إلى معرفة الله .

وقالوا في شأن المحبة : أولها جنون ، وأوسطها فنون ، وآخرها سكون .

وقال الجنيـد رضى الله عنه : لو أعلم أن نحت أديم السماء أشرف من هذا العلم الذى تتكلم فيه مع أصحابنا لسبت إليه .

وقال الشيخ السقلى رضى الله عنه : كل من صدق بهذا العلم فهو من الخاصة ، وكل من فهمه فهو من خاصة الخاصة ، وكل من عبر عنه وتكلم فيه فهو النجم الذى لا يدرك والبحر الذى لا يترقى (١) .

وقوله : « فافهم هديت ، الخ : الجملة دعائية معترضة بين المعطوفين ، أى فافهم واقتد بما نقول لك ، هداك الله لطريق الحق ، وأبان لك معالم التحقيق . وأثبت هاء السكت فى الوصل على حد قوله تعالى - فبهдам اقتده (٢) - فيمن قرأ بها . ثم ذكر وجه ترجيحها على سائر الطرق ، فقال :

إن العلوم كلها المعلومه فنونها فى هذه منهومه

قلت : إنما كانت العلوم المعلومه عند الناس « فنونها » أى فروعها فى جانب هذه الطريقة « منهومه » أى مشكوكه ، لأن غايتها لا يحصل إلا غالب الظن الراجح ، وقد يحصل الجزم المطابق عن دليل ، لكن لا يسلم من اختلاج الوم لعدم الجزم بصحة الدليل .

(١) هكذا بالأصل الذى راجعنا عليه ، ولعله الذى لا يترقى ويحذف الياء للسكت ، والمعنى أنه لا يرتقى منه لتلاطم أمواجه وشدها ، والله أعلم .

(٢) الآية : ٩٠ من سورة الأنعام .

فقد قال بعضهم : إيمان أهل علم الكلام كالخيط المعاق في الهوى ، يميل مع كل ريح ، أو كريشة تتقلب مع كل ريح (١) ، بخلاف علم التصوف ، فإن غايته الطمأنينة والتعميق ذوقاً وكشفاً وشهوداً ، فالعلوم كلها تحصل علم اليقين ، والتصوف يحصل عين اليقين وحق اليقين .

للعلوم كلها : استدلالية وبرهانية ، وعلوم القوم : ذوقية وعبانية .

قال الشيخ أبو الحسن رضى الله عنه : أهل الدليل والبرهان عموم عند أهل الشهود والعيان .

وقال الشبل رضى الله عنه : ما ظنك بعلم : علم العلماء فيه تهمة ، بنى أنه فى مسد العيان ، وغيره فى عمل التهمة ، إذ لا يخلو صاحبه من خاطر ريب وتهمة ، إذ لا تنقطع الخواطر عن القلب ، إلا إذا حصلت فيه الطمأنينة بالله ، ولا تحصل الطمأنينة إلا بصحبة أهل الطمأنينة . وفى بعض الأحاديث : تعلموا اليقين بجلالة أهل اليقين ، والله ما أفلح من أفلح إلا بصحبة من أفلح (٢) .

قلت : وبما يرجع أيضاً ما قاله الناظم : أن طاب العالم الظاهر لا تجد قصده إلا معلولاً ، إذ غالب طلبة العلم فساد قصدهم فيه بطاب المظاوظ والحروف ، بخلاف طالب علم الباطن ، فلا تجد نيته إلا صحيحة ، لأنه مبنى على قتل النفوس وطرح المظاوظ ، فلا ينال منه شيئاً إلا من ترك حظوظه وشهواته .

ثم بين الشيخ وجه دخول التهمة فى العلوم الرسمية فقال :

إذ العلوم فى مقام البحث وإن هذا فى مقام الإثبات

قلت : العلوم الرسمية كلها كسبية ، تدرك بالبحث عليها بالدلائل والبراهين ، فتهايتها الظن القوى ، وهذا شأن الفروع الفقهية ، لأن سبلها ظنية وأما أصول الدين فتهايتها الجزم المطابق عن دليل ، فتهايتها الإيمان بالغيب ، بخلاف علوم القوم ، فانها مواهب وأسرار وكشوفات وأذواق نورث عن أربابها بالصحبة والمحبة والخدمة ، حتى يبرى ما فى باطن

(١) وقد روى أن بعض أهل علم الكلام (التوحيد) روى عند النزاع يبكى ، فقيل له

فى ذلك ؟ فقال : خرج الناس بأصالحهم وخرجنا نحن بقبيل وقالوا .

(٢) رواه أبو نعيم مرسلًا ، وهو حديث معضل .

الشيخ إلى باطن التليذ فيتنبأ الباطن بنور اليقين ، ثم يغيب في شهود رب العالمين ، حتى
يظهر ما كان غيباً شهادة ، وما كان علماً ذوقاً وحالاً ، وما كان دليلاً مدلولاً ، وما كان نظرياً
بحر ضرورياً ، كما قال شيخ شيوخنا المجذوب رضى الله عنه :

طلع النهار على قلبى حتى نظرت بعينى
أنت دليل يارب أنت أولى منى بيا
غيبت نظر فى نظرى وأقفيت عن كل فانى
حققت ما وجدت غير وأمسيت فى الحال هانى

و فرق كبير بين من يكون مع الاحجاب داخل الحجاب ، وبين من يكون يأخذ أجرته
من وراء الباب - هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون - قوم أقامهم لخدمته ،
وقوم اختصهم بمحبته - كلا نعمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء
ربك محظوراً .

وفى نوازل المعيار: سئل ابن رشد رحمه الله عن قول الإمام أبى حامد الغزالي الإحياء فى
لما ذكر معرفة الله تعالى والعلم به قال: والرتبة العليا فى ذلك الأنبياء ، ثم الأولياء العارفين ،
ثم العلماء الراستخين ، ثم الصالحين ، فقدم الأولياء على العلماء ، وفضلهم عليهم .

وقال الاستاذ القشيري فى أول رسالته : فقد جعل الله هذه الطائفة صفوة أوليائه ،
وفضلهم على الكوفة من عباده ببد رسله وأنبيائه ، فهل هذا نحو قول أبى حامد ، وهل هذا
المذهب صحيح أم لا ، فقد نال بعض الناس : لا ينظر إلى الولي على العالم ، لأن تفضل
الشخص على الآخر إنما هو برفع درجاته عليه لكثرة ثوابه المرتب على عمله ، ولا فضل إلا
بتفوق الأعمال ، وقد ثبت أن العلم أفضل من العمل ، لأنه متعدد والعمل قاصر (١) ،
والمتعدد خير من القاصر ، فتوابه أكثر ، وصاحبه أفضل

فأجاب : أما تفضيل العارفين بالله على الدارين بأحكام الله ، فقول الاستاذ أبى
حامد به متفق ، ولا يشك تناقل أن الدارين بما يجب لله من أوصاف الجلال ونعوت
الكامل . وبما يستجبل عليه من العجب والانتصان أفضل من العارفين بالأحكام ، بلى
لدارفين بالله أصل من أهل الأصول والفروع ، لأن العلم يشرف بشرف العلوم وثمراته ،

(١) أى أن العلم يتفوق به الناس ، والعمل قاصر على صاحبه ، فالعلم من هذه الناحية أفضل .

مما تعلم باقه وصفاته أشرف من العلم بكل معلوم ، من جهة أن متعلقة أشرف المعلومات وأكملها ، لأن ثماره أفضل الثمرات ، ثم قال بعد ذكر ثمرات المعرفة بالله من الانصاف بالاخلاق السنية بعد التطهير من الارصاف الدنية : ولا شك أن معرفة الاحكام لا تورث شيئاً من هذه الاحوال ويدل على ذلك الوقوع ، فان الفسق فاش في كثير من علماء الاحكام ، بل أكثرهم مجانبون للطاعة والاستقامة ، بل قد اشتغل بعضهم بأقوال الفلاسفة في النبوت والإلهيات ، ومنهم من خرج عن الدين ، ومنهم من شك فتارة يترجح عنده الشك وتارة يترجح عنده البطلان ، ثم قال : فكيف يسارى بين العارفين وبين الفقهاء ، والعارفون أفضل الخلق وأنقاهم لله سبحانه وتعالى ، والله سبحانه يقول — إن أكرمكم عند الله أتقاكم (١) — .

وأما قوله تعالى — إنما يخشى الله من عباده العلماء (٢) — فإنما أراد العارفين به وبصفاته وأفعاله ، دون العارفين بأحكامه ، ولا يجوز حمله على علماء الاحكام ، لأن الغالب عليهم عدم الخشية ، وكلام الله صدق ، فلا يحمل إلا على من عرفه وخشيه .

وقد روى هذا عن ابن عباس رضى الله عنه ، وهو ترجمان القرآن ، فإن كان عالماً بالله تعالى وبأحكامه ، فهذا من السعداء ، وإن كان من أهل الاحوال العارفين بالله ، فهذا من أفضل العارفين ، اذ قد حاز ما حازوا وفضل عليهم بمعرفة الاحكام .

وأما قول من قال : إن للعمل المتعدى خير من القاصر ، فانه جامل بأحكام الله تعالى بل للعمل القاصر أحوال : احداها أن يكون أفضل من المتعدى ، كالنوحيد ، والإسلام والإيمان ، وكذلك التسبيح عتب الصلوات فان رسول الله صلى الله عليه وسلم فضله على التصديق (٣) ، ثم قال : فان كانت مصلحة القاصر أفضل من مصلحة المتعدى قدمت على المتعدى

(١) الآية : ١٣ من سورة الحجرات .

(٢) الآية : ٢٨ من سورة فاطر .

(٣) وردت في هذا الباب جملة أحاديث ، منها قوله عليه الصلاة والسلام :

« ألا أحدثكم بأمر إن أخذتم به أدركتم من قبلكم ولم يدرككم من بعدكم ، وكنتم خير من أنتم بين ظهرائه ، إلا من عمل مثله : تسبحون وتحمدون وتكبرون خلف كل صلاة ثلاثاً وثلاثين ، رواه البخار ومسلم . »

وإن كانت مصلحة المتعدى أرجح قدمت على القاصر ، فتارة تقف على الرحبان فتقدم
الراجح ، وتارة ينص الشارع على تفضيل أحد العالين فتقدمه وإن لم تقف على رحبانه ،
وتارة لا تقف على الرحبان ولا نجد نصاً يدل على التفضيل ، فليس لنا أن نجعل القاصر
أفضل من المتعدى ، ولا المتعدى أفضل من القاصر ، لأن ذلك موقوف على الأدلة الشرعية
فإذا لم يظهر شيء من الأدلة الشرعية لم يجوز أن نقول على الله ما لا نعلمه ، أو نظنه بلا أدلة
شرعية ، ثم ذكر قوله ﷺ في أبي بكر — ما سبقكم أبو بكر بكثرة صوم ولا صلاة ،
ولكن بشيء وقر في صدره (١) ، انظر بقية كلامه ذكره في الجناز ، والتفضيل عند المحققين
إنما هو بقوة اليقين ، فن قوى يقينه أكثر كان عند الله أكبر ، وهو الذي وقر في صدر أبي
بكر ، فسبى به ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر المنكر لهذا العلم ومنشأ إنكاره ، فأشار إلى الأول بقوله :

وأنكروه ملأ عوام لم يفهموا مقصوده فهاوما

قلت : الملأ في أصل اللغة هم أشراف القوم وعظماؤهم ، لأنهم تملأ العين بالنظر لاهم ثم
صار يطلق على مطلق الجماعة ، والعوام ضد الخواص ، فالعوام هم أهل اليمين ، والخواص
هم السابقون من المقربين ، فكل من سجد بسحب الآثار عن رؤية الأعمال فهو من العوام ،
وكل من نفذ إلى شهود الأنوار قبل الكون أو معه أو بعده فهو من خواص المقربين ،
وكل علم وفن له عوام وخواص فيه ، يعني أن جماعة من العوام أنكروا علم الباطن ،
وقالوا ليس إلا علم الشريعة الذي هو العلم الظاهر ، وأما علم الباطن فلم ينزل به كتاب
ولا سنة .

قلنا : يرد عليهم بقوله تعالى في قضية سيدنا موسى مع الخضر عليهما السلام — آتيناه
رحمة من عندنا وعليناه من لدنا علماً (٢) — فالعلم الدني هو العلم الموهوب ، وهو على
نسمين : قسم يكشف عن سر الوجود ومعرفة الملك المعبود ، وقسم يكشف عن سر التقدير
وما يقع من الحوادث ، والمعتبر عند المحققين هو القسم الأول .

(١) قال السخاوي في المقاصد الحسنة ، ذكره للقرابي ، وقال العراقي : لم أجده مرفوعاً ،
وهو عند الحكيم الترمذي في نوادر الأصول من قول أبي بكر بن عبد الله المزني .
(٢) الآية : ٦٢ من سورة الكهف .

وقد فسر النبي صلى الله عليه وسلم مقام الإحسان بقوله — أن تعبد الله كأنك تراه^(١)، ولا يمكن أن يعبد الله كأنه يراه، وهو محجوب بظله الآثار.

وقال أمير المؤمنين سيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه : كنت أدخل على النبي صلى الله عليه وسلم وهو وأبو بكر يتكلمان في علم التوحيد، فأجلس بينهما كأزهرى لا أعلم ما يقولان^(٢)، فهذا التوحيد الذى كان يتكلم فيه النبي صلى الله عليه وسلم مع الصديق وهو التوحيد الخاص، وهو غوامضه وأسراره التى لا تنفى إلا لأهله، وهو المسمى عندنا بعدم الباطن، ويسمى أيضاً بعلم الحقيقة، وسيأتى زيادة بيان لهذا الأمر عند قوله : هل ظاهر الشرع مع الحقيقة : إلا كأصل الفرع في الحقيقة.

قوله : « وأنكروه ملاء » هو على حد قوله تعالى — وأسروا النجوى الذين ظلوا^(٣). وقوله : فهموا، أى تحيروا أو تلفوا وصلوا عن سلوك طريق التحقيق، وبالله التوفيق. ثم بين منشأ الإنكار وسببه فقال :

وكل من أنكر منه شيئاً	فإنما ذاك لسبع أشياء
لجهله لنفسه الشريفه	وكونها في أرضها خليفه
وجهلها بالعلم المعقول	وشغله بظاهر المنقول
وسهوه عن حمل القلوب	والخوض في المكروه والمندوب
والجهل بالحلال والحرام	والميل عن مواهب الإلهام

قلت : ذكر سبعة أشياء هي الموجبة لإنكار العوام على الخواص، وهم أهل الباطن، الأول : جهلهم بحقيقة أنفسهم وشرفها، وهو الروح في أصل نشأتها، فلما حجب وتظلم سميت نفساً، ولأشك أن الروح التى قامت بهذا البدن : أصلها لطيفة نورانية مذكوبة جبروتية، عالمة بما كان وما يكون^(٤)، وما حجبها عن هذا العلم إلا شغلها بتدبير البدن

(١) رواه البخارى ومسلم، وأغلب كتب الحديث، وهو حديث جبريل المشهور.

(٢) خرجه الملا في سيرته (انظر الرياض النضرة) للطبرى.

(٣) سورة الانبياء الآية : ٢ . والمقصود أنه قدم للفعل على الفاعل.

(٤) أى اعلمها الله بما كان وما يكون من أمرها خاصة، وأما على العموم، فلا :

وتحصيل أغراضه وشهواته ، فنكلم جاهدتها وخرق عوائدها رجعت إلى أصلها ، فأدركت العلوم الدنية والأسرار الربانية ، وهو علم الباطن ، فلو علم الإنسان أصل نفسه وشرفها ، وعرف السبب الذي حببها عن أصلها لاحتال عليها حتى يردّها لأصلها ، لكن جهله بأصله تركه محجوباً بها حتى أنكر خصوصيتها ، ولذلك قال يحيى بن معاذ الرازى : « من عرف نفسه عرف ربه ، قيل من عرف نفسه كيف كانت فاحتال عليها حتى ردها لأصلها فقد عرف ربه ، وقيل : معناه من عرف حقيقة نفسه ، فقد عرف ربه ، لأنه حصل مقام الجمع وحجب به عن الفرق ، والله تعالى أعلم .

الامر الثاني : جهل كون نفسه خليفة عن الله في أرضه ، قال تعالى في شأن آدم - إني جاهل في الأرض خليفة (١) - ولا شك أن الحق سبحانه ركب هذا الروح اللطيف في هذا للظهر الإنسان الكثيف ، وجعله يتصرف في الكون كيف شاء ، قال تعالى - هو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعاً (٢) - وقال تعالى - ونحرق لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه (٣) - وقال في الحكم « جعلك في العالم للتوسط بين ملكه وملكوته ليعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته ، وأنت جوهره تطوى عليك أصداف مكونات ، وسعك الكون من حيث جشائينك ، ولم يسعك من حيث ثبوت روحانيتك ، فالإنسان في أصل نشأته خليفة الله في وجوده من عرشه إلى فرشه ، لكن الإنسان لما جهل نفسه أشغلتها بخدمة الأكوان ، فسقطت عن رتبة الخلافة حين صارت « لوكه في أيدي الممالك ، ولا يصلح للخلافة إلا من كان حراً عن الملوك والممالك .

قال الشيخ أبو العباس رضي الله عنه : الأكوان كلها عبيد مسخرة ، وأنت عبد الحضرة .

وفي بعض الأخبار المروية عن الله عز وجل :

« يا ابن آدم خلقت الأشياء من أجلك ، وخلقتك من أجل ، فلا تشغل بما هو لك مما أنت له . »

(٢) سورة البقرة ، الآية : ٣٠ .

(٣) سورة البقرة الآية : ٢٩ .

(٤) سورة الجاثية الآية : ١٢ .

فكل من تحرر من رق الاكران ورفع حمة عنها ملكها بأسرها واستولت روحه على الوجود بأسره ، فصار خليفة الله في كونه ، وأما من بقي مملوكا في يدهما فلا خلافة له .

الامر الثالث : جهل النفس بالعالم المعقول ، والمراد به العالم الروحاني ، وهو عالم المعاني لانه لا يدرك بالنقل ، وإنما يدرك بتصفية العقل وجوهريته ، حتى يصير سرأ من أسرار الله حينئذ يدرك عالم المعاني ، وينيب عن عالم الاواني ، وهو عالم الحس .

فتحصل أن من اشتغل بعالم الاشباح ، وهو عالم الحس ، وعالم الحكمة لا يدرك علم الأرواح ، وهو عالم المعاني ، وعالم القدرة ، وأنكر على من ادعى إدراك شيء من ذلك فهو معذور كمن أنكر طلوع الشمس وهو أرمد ، كما قال البوصيري .

قد تنكر العين ضوء الشمس من رمد وينكر الفم طعم الماء من سقم

وسبب حجابهم عن عالم المعاني ، وهو عالم القدرة : اشتغالهم بعلم عالم الحس ، وهو عالم الحكمة ، فاشتغلوا بعلم المنقول والاطلاع على الأقوال الغريبة وتحرير المسائل المروعة والتغلغل فيها ، وهو سبب حجاب علماء الظاهر : تجمدوا على ظاهر الشريعة وادعوا الإحاطة بها ، وأنكروا على أهل علم الحقيقة ، فضلوا وأضلوا عن طريق الخصوص ، وقد قال تعالى — وما أوتيتم من العلم إلا قليلا (١) — ولو تأملوا في سر الشريعة لوجدوها تدل على الطريقة والطريقة توصل إلى الحقيقة ، ولكن سنة الله لا تنخرم ، فلا بد من قوم يتجردون لعم الشريعة ويحملون لواءه ، وإلا ضاعت الطريقة والحقيقة ، إذ لو ذاقوا هذا العلم زهدوا في سائر العلوم ، ولن تجد لسنة الله تبديلا .

الامر الرابع : الاشتغال بعمل الجوارح الظاهرة ، والتحقق فيه ، والغفلة عن عمل قلوب وتصفيتها ، وهو سبب حجاب العباد والزهاد ، وحبستهم حلاوة عبادتهم عن شهود معبودهم وحلاوة زهدهم عن معرفة خالقهم ، فاستوحشوا من كل شيء لغيبهم عن الله في كل شيء ، فهم ينكرون الخصوصية لغيرهم ، ويلبثونها لنفوسهم ، وهو الجهل المركب . وهذا مع ما قبله أشد الحجاب عن الله ، ولذلك قال بعضهم : أشد حجابا عن الله العلماء ثم الزهاد .

الأمر الخامس : الخوض فيما يحسنه العقل ويقبحه ، فما استحسنه العقل أحبوه واعتقدوه وما قبحه العقل كرهوه وأنكروه ، فوقفوا مع عقولهم فأنمقلوا عن مراتب الكمال ، وحجبوا عن مدارك الرجال ، فاعقل معقول ، لا يدرك من أمر التوحيد إلا افتقار الصنعة إلى صانعها ، وأما أسرار التوحيد وغوامضه ، فهو خارج عن دائرته كما قال ابن الفارض رضى الله عنه :

فتم وراء الثقل علم يلقى عن مدارك غايات العقول السليمة

وهذا سبب حجاب أهل علم الكلام وقفوا مع الدليل ، وحجبوا عن المدلول ، ارتبطوا مع الدليل والبرهان ، وأنكروا الشهود والعيان ، هذا معنى قوله : والخوض في المكروه والمحجوب ، ويحتمل أن يريد الخوض في الدنيا بالاشتغال في تحصيل محبوبها ، كالزواج والمال ، والبعد عن مكروهاها كالذل والفقر وغير ذلك بما تنكره النفوس ، فإن الاشتغال بذلك حجاب عظيم عن سر التوحيد ، والله تعالى أعلم .

الأمر السادس : جهل الإنسان بما يحمل له الخوض فيه وما يحرم عليه ، إذ لو تحقق ذلك وعلم ما فيه من العقوبة لا تزجر وأنكف عن الخوض فيما لا علم له به ، وأشغله عيبه عن عيوب غيره ، لكن لما جهل ما يضره وما ينفعه أطلق أسانه في الإنكار على أولياء الله من غير احترام ولا احتشام ، فلا جرم أنه إن لم يتداركه اللطف يخاف عليه سوء الخاتمة .

وفي الحديث القدسي : « من عادى لي ولياً فقد آذنى بالحرب (١) » ، أو كما قال .

وفي حديث آخر : « من حزن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه (٢) » ، ولا تغتر بمن يدعى مرتبة العلم ثم يطلق أسانه في أولياء الله فإنه جاهل على الحقيقة لأن ذلك سببه الرضى عن نفسه ، وأى علم لعالم يرضى عن نفسه ، وأى جهل لجاهل لا يرضى عن نفسه ، عصفاً الله من ذلك بمنه وكرمه .

(١) رواه أحمد ، والحكيم ، وأبو يعلى ، والطبراني ، وأبو نعيم ، وابن عساكر ، وهو حديث فيه طول .

(٢) رواه الترمذى ، وابن ماجه عن أبي هريرة ، وأحمد والطبراني عن سيدنا الإمام الحسين بن علي ، والحاكم في المستدرج ، وفي التارخ ، وفي الأوسط ، وابن عساكر .

الأمر السابع : الميل عن المواهب الإلهامية والعلوم الدنية ، وعدم التعرّيج عليها والتصدّق بها ، ولا شك من لم يعرج عليها ولا يصدق بوجودها لا يتشوف إليها ولا يطلبها وعلم الباطن كله مواهب وكشوفات ، فمن لم يصدق به لا يناله أبداً ما دام منكراً له ، وقد قالوا : أول الطريق تصديق ، ووسطه توفيق ، وآخره تحقيق ، فمن لا تصديق له لا توفيق له ، ومن لا توفيق له لا وصول له لعين التحقيق ، ولذلك قالوا : التصديق بطريقنا ولاية إلهي لأنها سبب الولاية ، والله تعالى أعلم .

هذا آخر الأسباب الموجبة للإنكار على طريق المحصرين ، فمن سلم من هذه الأسباب فتح له الباب ورفع عنه الحجاب ومنح مشاهدة الاحباب بمنة الكريم الوهاب ، ولا يبقى مع عصبية الجهال في الحيرة والضلال ، كما أبان ذلك بقوله :

واعلم بأن عصبية الجهال بهائم في صورة الرجال

قلت : إنما كان الجهال بهائم في صورة الرجال ، لأن المزية التي شرف بها الإنسان على البهائم هو للعقل ، والعقل نور يميز به صاحبه ما يضره وما ينفعه ، فإذا صار الإنسان يتعاطى أموراً تضره في دينه ، وتنجبه عن ربه ، ويترك أموراً تقر به إلى ربه ، وتوصله إلى حضرة قدسه ، فقد انطمس نور عقله وصار كالبهيمة أو أضل ، قال تعالى في شأن الكفار - إن هم إلا كالأنعام بل هم أضل سبيلاً (١) - .

وقال بعض الحكماء : من ظلم عقله على شهوته كان كاللائكة أو أفضل ، ومن غلبت شهوته على عقله كان كالبهائم أو أضل ، والمراد بالجهل في كلام الناظم الجهل بالنفس وشرفها ومن جهل نفسه جهل ربه ، ومن جهل ربه كان كالبهيمة ، فهو راجع إلى السبب الأول من الأسباب السبعة .

ثم أشار إلى تقرير السبب الثاني ، وهو جهله بكونها خليفة ، ولا تكون خليفة حتى تتحرر من رق الهوى فقال :

ومن أباح النفس ما تهواه فإنما معبوده هواه

قلت : أصل الروح في أول نشأتها الطهارة والنزاهة ، لأنها من عالم القدس ، فتبليها

إنما هو ذكر ربها وشهوده ، والقرب من حضرة قدسه ، فلما ركبت في هذا القالب إظهاراً
تقدمه وحكمته مال بها إلى أصله الطين ، فانقلب نعيمها إلى النعيم الجسماني وهو الشهوات
الجسمانية الحسية ، فانحجبت بذلك عن أصلها ، فمن أراد الله سعادته وفقه لخالفها وبجاهدتها
في قطع مألوفاتها وهواها ، حتى ترجع إلى أصلها فيصير نعيمها في ذكر مولاه وشهوده ،
بعظم قدرها ويشرف علمها ، حينئذ تستحق الخلافة وتحقق بالنيابة ، فتحكم بمنها على
الكون ، وتصرف في الوجود بأسره : أنت مع الأكوان ما لم تشهد المكون ، فإذا شهدت
تكون كانت الأكوان معك .

ومن أراد الله خذلانه وهوانه بعدله ، أشغله بشهواته الفانية ومألوفاته الجسمانية ، فاتخذ
إله هواه ، وحجب بذلك عن مشاهدة مولاه ، فسقط في أسفل سافلين ، وطرده عن ساحة
رب العالمين ، فمن أباح نفسه وأعطاه كل ما تهواه فإنما محبوبه ومعبوده هواه ، وحل بذلك
عن طريق الوصول إلى مولاه ، قال تعالى — أفرأيت من اتخذ إلهه هواه وأضلله الله على علم
ودغم على سمعه وقلبه وجعل على بصره غشاوة ، فمن يهديه من بعد الله (١) — فاتباع الهوى
يعد من سبيل الهدى قال تعالى — ولا تتبع الهوى فيضلك عن سبيل الله (٢) — ويحمد
نور السريرة ، ويطمس شعاع البصيرة .

قال الشاعر :

إنارة للعقل مكسوف بطوح هوى وعقل عاصي الهوى يزداد تويرا
وهو أيضاً سبب الذل والهوان والالتحاق بحزب الشيطان .

قال الشاعر :

لا تتبع النفس في هواها إن اتباع الهوى هوان
وقال بعضهم : « الهوى شرك الردي ، أى شبكته ومصيدته ، وبالله التوفيق .
ثم أشار إلى تقرير السبب الثالث ، وهو الجهل بالعالم المعقول فقال :
فانه ما يجهل باليب جهل البعيد منه والقريب

(١) الآية : : ٢٣ من سورة الجاثية .

(٢) سورة ص ، الآية : ٢٦ .

قلت : البيب هو السكامل العقل ، والبعيد منه هو ظلة الحس ؛ والقريب منه هو نور المعاني ، الذي هو أصله وفصله .

أو تقول : البعيد من الإنسان هو ظلة الألوان . والقريب منه هو نور المعاني المنبثقة للأواني .

أو تقول : البعيد منه التجليات المنفصلة عنه في الحس ، كالمسوات والأرضين ، وما بينهما ، والقريب منه جسمه المتصل به ، والكل متصل في المعنى ، كما قال الشنترى فيه .

• متحد المعنى في كل حي •

فينبغي أن يعرف في الجميع فلا يحمل .

أي يحسن بالبيب أن يجهل ما هو بعيد منه من ظلة الحس ؛ وما هو قريب منه من نور المعاني ، فنور روحك أقرب إليك من ظلة حسك ، لكن لما انطمست البصيرة اشتتت الروح بتدبير هذا الجسم وتحصيل شهواته وأغراضه . فسقطت في أسفل سافلين ، وبعدت من حضرة رب العالمين ، فتركت ما هو قريب من نور حضرة الحبيب ، واشتتتت بما هو بعيد من ظلة الجسم : في تحصيل أغراضه وتوفير شهواته ، فارتبطت في عالم الأشباح ولم ترجع إلى عالم الأرواح ، وهو عالم المعاني ، بل أنكرته بالكلية ؛ ولو انفتحت البصيرة لشاهدت الأنوار الحاجبة الماحية للأغيار أقرب إليها من كل قريب ، قال في الحكم :

« شعاع البصيرة يشهدك قرب الحق منك ، وعين البصيرة يشهدك عدمك لوجوده ، وحسن البصيرة يشهدك وجوده : لا عدمك ولا وجودك . كان الله ولا شيء معه ، وهو الآن على ما عليه كان (١) » .

وراجع الشرح ففيه تفسير هذه المعاني ، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر تقرير السبب الرابع ، وهو الغفلة عن عمل القلوب ، فقال :

كيف يرى في جملة السابق من جظه مع المخطوط باق

قلت : السابق جمع سابق ، والمخطوط هي الشئون والشواغل : جمع حظ .

أعلم أن الناس على قسمين : أهل اليمين ، والسابقون ، فأهل اليمين هم المشتغلون بإصلاح الظواهر وتدبير شئونها ، وما يصلح بها جلباً ودفعاً عاجلاً وآجلاً ، والسابقون هم

(١) هذا حديث شريف لفظه - كما في ابن كثير ج ٢ ص ٢٧ : « كان الله ولا شيء قبله »

وفي لفظ « ولا شيء » غيره ، وفي لفظ « ولا شيء » معه ، وذكر أنه مخرج في الصحيحين .

المشتغلون بإصلاح القلوب والسرائر ، وهم المقربون الغائبون عن رؤية أنفسهم ، الباقون بشهود ربهم ، فكل من اعتنى بإصلاح ظاهره فإنه لإصلاح باطنه ، وكان من أهل اليمين ، وكل من اعتنى بإصلاح باطنه كان من السابق ، وحشر في زمرة المقربين .

قال الشيخ أبو الحسن : غيب عن إصلاح ظاهره إن أردت فتح باطنك ، فكيف يرى الإنسان ويظهر في جملة السابق ، ويلتحق بأهل الجدة والاستباق ، وحظه منحرف لتحصيل حظوظه وشئون ظاهره الحسية ، وهمته واقفة مع عوائده وشهواته الوهمية ، وكيف تخرق لك العوائد وأنت لم تخرق من نفسك العوائد .

ولا بد من صحبة شيخ عارف ، ينقلك من العمل الظاهر إلى عمل الباطن . وإلا بقيت مع عوام المسلمين من أصحاب اليمين تنكروا مقامات المقربين .

وبين عمل القلوب وعمل الجوارح ما بين عمل السر والعلانية .

وقال بعضهم : الذرة من أعمال القلوب ، أفضل من أمثال الجبال من عمل الجوارح ، والله تعالى أعلم .

ثم قرر السبب الخامس ، وهو الخوض في المكروه والمحبوب ، فقال :

مَنْ يَجِدُ جَوَاهِرَ الْمَعَانِي مِنْ قَلْبِهِ عَلَى الدَّوَامِ عَانِي

قلت المعاني هو : الأسير ، وفي الحديث : فكوا الداني وأطعموا (١) الجائع ، وجواهر المعاني هي أسرار الذات في أنوار الصفات .

أو تقول : هي أسرار الجبروت وأنوار الملكوت .

أو تقول : هي : المعاني الطيبة القائمة بالألوان والكثيفة ، فإذا ظهرت المعاني تلطفت الألوان ، وفي ذلك يقول ابن الفارض رضي الله عنه :

وَلَطَفَ الْأَوَانِي فِي الْحَقِيقَةِ تَابِعَ لَطْفِ الْمَعَانِي ، وَالْمَعَانِي بِهَا تَسْمَوُا

وقال : في الحكم : لولا ظهوره في المكونات ما وقع عليها وجود أبصار ، لو ظهرت صفاته أصبحت مكوناته .

(١) الحديث بنحوه : فكوا المعاني ، وأجيبوا الداعي ، وأطعموا الجائع ، وعودوا المريض ، رواه أحمد والنسائي .

فالمصنات معاني والاكوان أواني : لا تنظر إلى الأواني . وخضع بحر المعاني لعلك تراقى .

وقال أيضاً : أباح لك أن تنظر في المكنونات ، وما أذن لك أن تتف مع ذات المكنونات — قل انظروا ماذا في السموات (١) — فتح لك باب الأفهام ولم يقل انظروا السموات ، لتلايدك على وجود الأجرام ، فالأجرام كالصدف لبواقيت المعاني ، فن وقف مع لاصدق الظاهر حجب عن جمال البواقيت الباطنة ، فن كان قلبه مصروفاً إلى ظواهر الأجرام مشغولاً بهما أسيراً في يدها معموراً بصور خيالها ، لا يطمع أن يذوق حلاوة المعاني ، ولا تشرق عليه أنوارها :

• كيف يشرق قلب صرر الاكوان منطبحة في مرآته .

• أم كيف يدخل إلى الله وهو مكبل بشهواته .

• أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته .

• أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته .

فنى يحد في قلبه بهجة جواهر المعاني من قلبه على الدوام عانى (أى أسير) في قيد هواه الجسماني ، متعوب في خدمة الأواني ، يقرب هذا ويبعد هذا ، يحب هذا ويبغض هذا ، يقبح هذا ويحسن هذا ، يصغر هذا ويكبر هذا ، فإدام هذا شأنه لا يطمع أن يطلع على بهجة المعاني ، ولا يترقى إلى العالم الروحاني ، وإنما وطنه العالم الجسماني منكراً على أهل المعاني إلا أن يتداركه الله بلطم رباني ، فينهض بخوف مزعج أو شوق مقلق ، وما ذلك على الله بعزیز .

ثم قرر السبب السادس من أسباب الإنكار ، وعنه ينشأ تضييع العمر والاشتغال بالفضول ، فقال :

لم يتصل بالعالم الروحاني من عمره على الفضول حاق

قلت : الحاق على الشيء هو المنكب عليه والتهديك في محبته بكليته ، والعالم الروحاني هو ضد العالم الجسماني ، فالعالم الروحاني هو عالم الملكوت ، والعالم الجسماني هو عالم الملك

أو تقول العالم الروحاني هو عالم التلطيف ، والعالم الجسماني هو عالم التكتيف ، فالتلطيف على التعريف ، والتكتيف محل التكتيب ، أو تقول العالم الروحاني هو عالم الأرواح ، والعالم الجسماني هو عالم الأشباح ، أو تقول : العالم الروحاني هو عالم القدرة ، والعالم الجسماني هو عالم الحكمة ، أو تقول : العالم الروحاني هو عالم الجمع ، والعالم الجسماني هو عالم الفرق ، أو تقول : العالم الروحاني هو عالم شهيد البرية ، والعالم الجسماني هو محل ظهور العبودية ، وهذه تفاصيل معناها واحد ، وإنما ذكرتها للإيضاح ، واعلم أن محل عالم الأرواح وعالم الأشباح واحد عند أهل التحقيق إذ الأرواح لا تظهر بغير أشباح ، والأشباح لا تقوم بغير أرواح لكن قوم غلبت بشريتهم على روحانيتهم ، وظلّتهم على نورهم ، وملكوتهم على ملكوتهم ، فلم يروا إلا الأشباح تظهر وتعدم ، وهم أهل الحجاب من أهل الحلول .

وقوم غلبت روحانيتهم على بشريتهم ، ونورهم على ظلمتهم ، وملكوتهم على ملكهم ، فلم يروا إلا الأرواح تظهر وتبطن .

وإن شئت قلت : لم يروا إلا الأنوار تكثفت وتدفقت من بحار الجبروت إلى رباض للسكرات ، وهم أهل العرفان من أهل الشهود والعيان .

أو تقول : هم أهل الجذب والفناء ، فهم خرقوا في بحار الأنوار ، مطموس عليهم الآثار ، فإن قافوا من سكرتهم وصحوا ميزوا بين الأشباح والأرواح ، وبين القدرة والحكمة ، فأعطوا كل ذي حق حقه ، ووفوا كل ذي فضل فضله ، ولم يحببوا بجمعهم عن فرقهم ، ولا بفرقهم عن جمعهم ، وهم السكك رضى الله عنهم ، وإنما سمى عالم المعاني بالعالم الروحاني لأن من عرفه وكوشف به لا يرى إلا الأرواح تكثفت بالقدرة وانحجبت بالحكمة كما قال ابن الفارض :

وقامت بها الأشياء ثم لحكمة بها احتجبت عن كل من لاله فهم
والضمير على الخيرة الأزلية ، ثم قال :
وهامت بها روحى بحيث تمازج اتهم ادا ، ولا جرم تخله جرم (١)

(١) وفي هذا رد منه على عمى البصيرة الذين اتهموا الرجل بالاتحاد والحلول ، وهو برى عما قالوا ، لأن قوله ولا جرم تخله جرم ، يفيد أن الاتحاد هنا أمر معنوي ، كما تقول : هذا الرجلان رأسان في عمامة ، لهما متطاولان في كل شيء فالامر إذن واضح ، ولكن عمى البصائر هو مصيبة هذا الزمن ، ونسأل العافية والسلامة من تكفير المسلمين ، فبالق بالاولياء والعارفين .

فأهل عالم الأرواح لا يرون الأجرام ولا الأشباح ، وإنما يرون الأرواح تسكثفت في
في تماثيل الأشباح ، وإذا ردوا إلى رؤيتها رأوها قائمة بآله . ومن آله ، وإلى آله ، ولا شيء
سواه ، رأوها أواني حاملة للمعاني .

أو تقول : رأوها مغارف يسقى منها شارب المعارف ، ولا يسقى من هذه الأواني
نخمرة المعاني إلا من هو عن حظوظه فاني ، لا يتصل بالعالم الروحاني : من هو مع العالم
الجسماني ، لا يترقى إلى العالم الروحاني ، من كان في أيام عمره على الفضول حاني ، وأنشدوا :

بقدر الكد تكتسب المعالي ينال العز من سهر الليالي
تريد العز ثم تمام ليلا يفوص البحر من طلب اللآلي

وكل ما يشغل العبد عن الترقى إلى الحضرة فهو فضول ، سواء كان عملاً حسيّاً أو عملاً
روحياً أو غير ذلك مما لا يحصى ، والله تعالى أعلم .

ثم قرر السبب السابع ، وهو الميل عن مواهب الإلهام ، فقال :

ليس يرى مع المعاني دان من قلبه في عالم الأبدان

قلت : الداني هو القريب ، والمراد بالمعاني أسرار عظيمة الربوبية وأنوار الألوهية ،
وهي لطيفة شريفة رفيعة منيفة ، رفيعة المدارك دقيقة المسالك ، لا ينالها إلا قلب سماوي ،
أو روح عرشي ، أو سر جبروتي ، قد ارتفعت همته عن سائر الأكوان ورحلت روحه
عن عالم الأبدان ، إلى طلب الشهود والعيان ، فني عن وجوده في شهود عبوده ، فرغ قلبك
من الأغيار : بلأه بالمعارف والأسرار ، فليس يقرب من ساحة المعاني من كان قلبه في العالم
الجسماني ، من اشتغل بخدمة الأشباح لا يترقى أبداً إلى عالم الأرواح ، من اعتنى بخدمة
جسمه مات في سجن غمه وهمه .

سأل سهل رضي الله عنه عن القوت ، فقال : هو الحى الذى لا يموت ، فقال : إنما
سألتك عن القوام ، فقال : القوام هو العلم ، قيل : سألتك عن الغذاء ، فقال : الغذاء هو
الذكر ، قيل : إنما سألتك عن طعم الجسد ، فقال : مالك والجسد ، دع من تولاه
أو لا يتولاه آخرأ ، إذا دخلت عليه علة رده إلى صانعه ، أما رأيت الصنعة إذا عيبت
ردوها إلى صانعها حتى يصلحها ، وأنشدوا :

كل حقيقة التي لم تكمل والجسم دعه في الحضيض الأسفل
أنكمل الماني وترك باوياً هملاً ، وأنت بأمره لم تحفل
فالجسم للنفس النفيسة آلة ما لم تحصل به لم يحصل
يفنى ، وتبقى دائماً في غبطة أو شقوة وندامة لا تنجل
أعطيت جسمك خادماً لخدمته أنملك المفضول رق الأفضل
شرك كثيف أنت في حبلاه ما دام يمكنك الخلاص فعبجل
من يستطيع بلوغ أعلى منزل ما باله يرضى بأدنى منزل

وقال آخر :

يا خادم الجسم كم تشقى بخدمته أطلب الربح مما فيه خسران ؟
عليك بالنفس فاستكمل فضيلتها فأنت بالنفس لا بالجسم إنسان

قلت : وتكمل فضيلة النفس هو تطهيرها وتهذيبها وتقريبها من حضرة ربها ، فن
يطهرها ولم يهذبها فقد نجسها ونقصها ، قال تعالى : قد أفلاح من زكاتها . وقد خاب
من دساها (١) .

وفي الحكم ، أخرج من أوصاف بشرية عن كل وصف مناقض لعبوديتك لتكون
لنداء الحق مجيباً ومن حضرته قريباً .

فإذا خرج العبد من أوصاف بشرية ترقى إلى مقام الروحانيين ، فيشاهد حينئذ أنوار
ربه ، ويحظى بمؤالسته وقربه ، ولذلك زاد في الحكم بعد هذه الحكمة متصلاً به ، الحق
ليس بمحجوب عنك ، وإنما المحجوب أنت عن النظر إليه ، إلخ .

كأنه يقول : ما حجبك عنه إلا أوصاف البشرية التي أنت محجوب بها ، فإذا زالت
عنك زال حجابك واتصلت بمرتبة الشهود وعرفت الملك المعبود ، وبالله التوفيق وهو الهادي
إلى سواء الطريق .

والى هذا في الجمله أشار بقوله :

وهما ترقى مادة الموضوع يأخذ نجم الدرك في الطلوع

قلت : الموضوع هنا هو الجسم الموضوع لظهور الروح وقيامها به ، فهو كالتقلب لمن
أو كالمصدف ، ومادته ما يقوم به في العادة كالأكل والشرب واللباس ، ويدخل فيه ما يقوم
به معناه كالعز والجاه والمال وغير ذلك من مكملاته ، فما دامت النفس مشغولة بتحصيل هذه
المادة جلباً ودفعاً ، تحصيلاً وتكميلاً ، فهي مرتبنة به ، محبوسة معه ، كيف يرسل القلب
إلى الله وهو مكبل بشهواته .

والشترى رضى الله عنه :

فرفض الخلق وارقا ترتق عن ظلالك
واسبق الخلق سبقا ثم صب عن فمالك
وافن في الحب عشقاً فالمراد في زوالك

فما دام العبد مقبلاً على دنياه ، مثلاً بتحصيل حظوظه وهواه ، لا يطعم في الرحيل
إلى حضرة مولاه ، فإذا غاب عن مادة حسه ، وزهد في نفسه وفلسه وجنسه ، يأخذ نجم
إدراكه في الترقى إلى حضرة قدسه ، فلا يزال يمشى في نور نجم توحيد الأفعال ، إلى أن
يطلع عليه فر توحيد الصفات ، ثم تشرق عليه شمس توحيد الذات ، فيقول بلسان حاله :

طلعت شمس من أحب بلبل فاستضاءت ، فأنلها غروب
إن شمس النهار تغرب بلبل وشمس القلوب ليست تغيب

وقال آخر :

لبلى بوجهك مشرق وظلامه في الناس سارى
الناس في سدف الظلا م ونحن في ضوء النهار
وقال سيدى عبد الرحمن المجذوب :

طلع النهار على الأقار ولا ابني إلا ربي
الناس زارت عمداً وأنا أسكن لى في قلبي

وقلت في عيني :

نبت لنا شمس النهار وأشرقت فلم يبق ضوء النجم والشمس طالع
تنحى رداء الصون عن كون ربنا فسرنا إلى نور الحبيب نزارع

ثم تأسف للتأظم على قلة من يساعده في وقته على حاله ، فقال :

يا حشرق إذلا مجد راكب يصحبنا في هذه المراكب

قلت : المراكب هو : الجماعة و كياناً و هشاشة و الجموع مراكب ، و كأنه رضى الله عنه لم يجد في زمانه من يساعده على هذا العلم لأنه عزيز و أهله أعز من كل عزيز ، و غالب الناس إما مشغول بدنيا ، أو مفنون بدعوى ، أو مبتلى بهوى ، وإن كان الزمان لا يخلو منهم فهم أهل من الليل ، و أعز من العزيز ، و أغرب من عنقاء مغرب ، ليكن لا ينسحب ذلك على كل زمان . فإن النور النبوي تارة ينبع و يظهر فيظهر أهله لصالح ذلك الزمان ، و تارة يخفى مع وجوده ، و حتى أهله لساد ذلك الزمان ، فاحدد لا يقطع ، لكن تارة يريد الله تعالى إظهار أوليائه كزماننا هذا ، و الحمد لله ، و تارة يريد الحق تعالى إخفاءهم لحكمة أرادها الله تعالى ، والله يحكم لا معقب لحكمه ، والله تعالى أعلم .

ثم تأسف ثانياً على قلة من يبحث معه في هذا العلم فقال :

يا معشر الإخوان هل من سائل أخبره عن هذه المسائل

قلت : المذاكرة في هذا الفن من الأمور المؤكدة ، فلا بد من صحبة إخوان يخوض معهم في هذا الفن ، وقد قالوا : فهم سطر بن أفضل من حفظ سفرين ، و مذاكرة اثنين أفضل من مدين . و كما أن الذكر القاسي الجماعة فيه أفضل ، كذلك الذكر القلي ، و هي المذاكرة الجماعية أفضل من الانفراد ، و الجماعة في المذاكرة هي المذاكرة مع أرباب الفن ، فإذا راك فكرات متعددة أحسن من إدراك فكرة واحدة ، و هذا كله مع من دخل بلاد المعارف ، و لا فاستعمل فكرة واحدة أفضل من الاجتهاد مع غيره . و قال سيدي دلي العمراني : الخلوص مع الدرف أفضل من الدزلة و التمرق أفضل من الجلود مع العامة ، و فضل الصحبة أمر شهير لما فيه من التعاون ، قال تعالى - و تعاونوا على البر و التقوى (١) .

و أوحى الله إلى داود عليه السلام : يا داود كن يظنانا و اوتد لنفسك إخواناً ، و كل أخ أو صاحب لا يوافق على مفسدة و يارفضه ، فإنه لك عدو ، أو كما قال .

و قال ابن عباد رضى الله عنه في نظم الحكم :

إن للتواخي فضله لا ينكر	وإن خلا شرطه لا يشكر
والشرط فيه أن تواخي العارفا	عن المخطوط والمخطوط صارفا
مقاله وحاله سيات	ما دعوا إلا إلى الرحمن
أنواره دائمة للرايه	فيك ، وقد حفت بك الرايه
وقاصد لفاقد هذا الشرطا	بصحبة يعقدها قد أخطا
لأنه يرى بها محاسنه	ففسه ذات اغترار آمنه

وهو نظم اقوله : لا تصحب من لا ينهضك حاله ولا يدلك على الله مقاله ، ربما كنت -حسباً فأراك الإحسان منك صحبتك إلى من هو أسوء حالاً منك ، وهذه النصيحة تصدق بصحبة الشيخ والإخوان ، وإن كان ابن عطاء الله إنما قصد بها الشيخ ، والله تعالى أعلم .

ثم تأسف على ذهابهم وانقراضهم في زمانه ، فقال :

وا أسفاً يا فتية الوصول على انصرام حبلها الموصول

قلت : الأسف هو التحسر ، والفتية جمع فتى ، والفتى هو من كسر صم نفسه ، قال تعالى في شأن الخليل - قالوا سمعنا فتى يذكرهم يقال له إبراهيم (١) .

وفتية الوصول : هم العارفون بالله ، لأنهم أهل الوصول والتمكين ، والانصرام هو الانقطاع وكأن طريق العارفين كانت فيما سلف موصولة بحياة أربابها ، مرتبطة بتحصين ، ثم انصرفت وانقطعت بموت أربابها وانقطاع موادها وأسبابها ، وهذا كما قال القائل :

أهل النصف قد مضوا صار التصوف مخروقة

صار النصف ركوة وسجادة مزوقه

صار النصف سبحة وتواجداً ومنطقه

كذبك نفسك ليس ذى سنن الطريق الملحقه (٢)

فنأسف الشيخ ونحصر على انقطاع هذا الطريق بانقطاع أهلها وناداهم وإن كانوا غائبين زيادة في التحسر ، فكأنه يقول يا أسنى يا أولياء الله على انقطاع طريقكم بعد وصلها .

(١) الآية : ٦٠ من سورة الأنبياء .

(٢) هذا في زمانه ، فكيف بزماننا الذي استباحوا فيه المساجد ودور العبادة بشرب

الدخان وتفتيك والمزمار والطبل والرقص والفجور بدون حياء ولا أدب .

بتدريسها بعد ظهورها ، وقد تقدم له (١) هذا المعنى في أول الكتاب .

ثم شوق إلى الحقوق بهم ومشاركتهم في مقاماتهم ، فقال :

لو أبصر الشخص السيب العاقل لم يعتقل عن هذه المعامل

قلت : الاعتقال هو : الربط والحبس ، ومنه يقال البعير ، والمعاقل هي الممرات التي

يقل فيها الخيل لترتع ، ولا يكون إلا خصباً ، كالروض ونحوه .

يقول رضى الله عنه : لو أبصر العاقل بنور بصيرته ونظر ما خص الله أوليائه من

كرامته ، وما منحهم به من النزهة في معرفته ، لم يعتقل ويجلس عن هذه الرياضات ، والمراتب

تترتع فيها الذاكرون وتنزه في رياضها العارفون ، ولم يقنع بخیالات الدنيا التي لا حقيقة

لها ، وشهواتها الفانية التي لا بقاء لها ، قال تعالى :

أفرايت إن متعناهم سنين . ثم جاءهم ما كانوا يوعدون . ما أغنى عنهم ما كانوا

يعنون . (١) .

قال في التنبية : وحاصل الدنيا أمور وهمية انقادت لطباع الناس إليها ، وهي لا تفي

بجميع مطالبهم لضيقها وقلة وسرعة تهضيها ، فتجاذبها بينهم ، فتكدر عيشتهم ، ولم

يحلوا على كلية أغراضهم ، كما قيل :

أرى أشقياء للناس لا يشعرونها على أنهم فيها عراة وجوع

أراها وإن كانت قليلاً كأنها سحابة صيف عن قريب تفتت

وقال سهل رضى الله عنه للعقل ألف اسم ، ولكل اسم منه ألف اسم ، وأول اسم منه

ذلك الدنيا .

قال الحسن رضى الله عنه : كيف يسمى عاقلاً وهو يصبح ويمسى في الدنيا ومباهاة

أهلها في المطاعم والمشارب والملابس والمراكب ، أولئك هم الخاسرون ، أولئك هم

الفاشلون ، أولئك هم الجاهلون

قلت : ويؤيد هذا قوله عليه الصلاة والسلام في بعض مواضعه : إن من علامات العقل التجافى

(١) قوله له ، أى الشيخ رحمه الله .

(٢) الآيات من ٢٠٥ - ٢٠٧ من سورة الشعراء .

من دار الفرور، والإتابة إلى دار الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب لبسوم النشور (١).

وقال أبو علي الثقفى رضى الله عنه أف من أشغال الدنيا إذا أقبلت رأى من حصراتها إذا أدبرت، والعامل من لا يركن إلى شيء إذا أقبل كان شغلا وإذا أدبر كان حسرة، وقد قيل فى معناه :

ومن يحمد الدنيا لشيء يسره فسوف لعمرى عن قريب يلومها
إذا أدبرت كانت على المرء حسرة وإن أقبلت كانت كثير أهمومها

وقيل لأبي القاسم الجنيد رضى الله عنه : متى يكون الرجل موصوفاً بالعقل ؟ فقال : إذا كان للأمر ميزاً ولها متصفحاً ، وهما يوجبانه عليه العقل باحثاً ، يلتمس بذلك طلب الذى هو أولى ليعمل به ، ويؤثره على سواه ، فإذا كان كذلك فن صفة العقلاء ركوب الفضل فى كل أحواله بعد إحكام العلم بما فرض عليه ، وإيس من صفة العقلاء إغفال النظر لما هو أحق وأولى ، ولا من صفتهم الرضى بالنقص والتقصير ، فن كانت هذه صفته بعد إحكامه لما يجب عليه من عمله ترك التشاغل بما يزول ، وترك العمل بما ينفى وينقض ، وذلك وظيفة كل ما سورت عليه الدنيا ، وكذلك لا يرضى أن يشغل نفسه بقليل زائل ويسير حائل ، يصده التشاغل به والعمل به عن أمور الآخرة التى يدوم نعيمها ونفعها ويتأبد سرورها ، ويتصل بقاؤها ، وذلك أن الدين يدوم نفعه ، ويبقى على العامل حظه ، وما سوى ذلك زائل مردود ، مفارق مودود ، يخاف مع تركه سوء العاقبة فيه ، وعاجبه الله عليه ، وكذلك من صفة العاقل تصفحه للأمور بعقله ، والأخذ منها بأوفره ، قال الله تعالى — الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه أولئك الذين هداهم الله وأولئك هم أولو الألباب (٢) —

(١) وفى لفظ آخر رواء مسلم وابن أبي الدنيا فى وقصر الأمل ، قال ابن مسعود : لا رسول الله صلى الله عليه وسلم — فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام — فقال : إن النور إذا دخل الصدر انفسح فقليل : يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف ؟ قال : نعم : التجافى عن دار الفرور ، والإتابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله ،

بذلك وصفهم الله تعالى ، وذوو الالباب هم ذوو العقول ، وإنما وقع الثناء عليهم بما وصفهم الله به للأخذ بأحسن الأمور عند استماعها ، وأحسن الأمور هو أفضلها وأبقاها على أهلها نفعاً في العاجل والآجل ، وإلى ذلك نذب الله من عقل في كتابه .

أنهى كلام الجنيد رضى الله عنه ، وهو في غاية الحسن لتفسير العاقل ، من الله علينا باستعماله آيين :

وإلى هذا العاقل وجه الناظم الخطاب بقوله :

يا صاحب العقل الحصيف الوافر إياك أن تصدمك الخوافر

قلت : الحصيف بالمهمله والفاء المروسة هو : المحكم المتقن ، وثوب حصيف أى محكم تصح ، وهو ضد الخفيف ، والصدم هو الزطم بلغتنا .

يقول رضى الله عنه : يا صاحب العقل الكامل لا ترض لنفسك بالفلة والتواني والتقاعد عن مراتب الرجال أهل المعاني ، فتقعد في طريق السير حتى تططم فيك الرجال ، يسبقوك إلى رتبة الكمال ونيل كرامة الوصال ودخول جنة الكمال ، فتندم حيث لا ينفع قدم ، وقد زلت بك القدم ، وأنشدوا :

للباق السباق قولاً وفعلًا حذر النفس حسرة المسبوق

وقال ابن الفارض رضى الله عنه :

وجد بسيف العزم سوف فإن تجدد تجد نفساً فالنفس إن جدت جدت

والتنافس في الطاعات ونيل المراتب محمود قال تعالى - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون (١) - إلا أنه لا ينبغي أن يجعل الإنسان مجاهدته في مقابلة هذا الحرف ، بل يجاهد نفسه في تحقيق لعبودية والقيام بوظائف الربوبية ، ولا يلتبس بذلك حظاً ولا حرفاً ، فبذلك يتحقق الإخلاص ويلحق بدرجة الخواصر ، والله تعالى أعلم .

(ثم) نهيك على ارتحال الدنيا هنك إن لم ترحل عنها بقلبك فقال :

لقد غدا الكون لديك سافر إن لم تكن فيه كما المسافر

قلت : غدا بمعنى : صار ، والسافر الخالي من الشيء ، وقد يراد به المسافر ، يقال سفر فلان فهو سافر ، ويجمع على سافر كراكب وركب .

يقول رضى الله عنه : لقد صار الكون مسافراً عنك ، موتك إن لم تسافر عنه بهتك . قال صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر : كن في الدنيا كأنك غريب أو عابر سبيل (١) ، وكان عبد الله بن عمر رضى الله عنه يقول : « إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح » (٢) .

يقول لقد صار الكون خالياً عندك من الخير إن لم تزهد فيه وتسافر عنه بهتك وتشتغل فيه بطاعة ربك .

والحاصل أن الإنسان والكون يتسابقان ويتصارعان ، فمن سبق الكون وغلبه برفع همته عنه والفتية عما فيه ، والزهد فيما اشتمل عليه خدومه الكون بأسره ، وصار عوناً له على السير إلى ربه ، بل يصير عبداً له ، يتصرف فيه بهمته كيف شاء ، قال الشاعر :

لك الدهر طوع والأتام عبيد فمش : كل يوم من أيامك عبد
وقال ابن الفارض رضى الله عنه :

وفي سكرة منها ولو عمر ساعة ترى الدهر عبداً طامعاً ، ولك الحكم

وقال في الحكم (أنت مع ألاكوان مالم تشهد للكون ، فإذا شهدته كانت ألاكوان ملك) .

وفي الحديث عنه صلى الله عليه وسلم يقول الله تعالى : يا دنيا اخدي من خدمتي وانجي من خدمك (٣) .

(١) رواه البخارى عن عبد الله بن عمر ، وزاد أحمد والترمذى وابن ماجه . « وعد نفسك من أهل القبور ، وراه بنامه أيضاً البيهقى في شعب الإيمان ، والعسكرى .

(٢) هذا حديث رواه عبد الله بن عمر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ولفظه : « إذا أصبحت فلا تنتظر المساء ، وإذا أمسيت فلا تنتظر الصباح ، وخذ من حياتك لموتك ومن صحبتك لسقمك ، فإنك يا عبد الله لا تدري ما اسمك غدا ، » (رواه البخارى وابن جابر عن عبد الله بن عمر رضى الله عنهما) .

وقال أيضاً صلى الله عليه وسلم : « الدنيا طالبة ومطلوبة ، فمن طلب الآخرة طلبته الدنيا حتى يستكمل رزقه (١) ، ومن طلب الدنيا طلبته الآخرة حتى يأخذ الموت بعنقه (٢) . »

ومن سبقه للكون وغلبه بالرغبة فيه والحرص على ما اشتمل عليه ، بقى في يده أسيراً ، وفي سجنه رهيناً ، وعن ربه بعيداً ، فإذا مات صار في قبره فريداً ، وبسبب ذلك عدم العلم بالقهم وانقياده للحدس والوهم ، كما قال للشعري رضى الله عنه :

تقيدت بالأوهام لما تداخلت عليك ونور العقل أورتك السجنا

ولا يتخلص الإنسان من سجن الأكوان حتى يخلع نعله عن الكونين ، ويتخطى همته حظوظ الدارين ، كما قال القائل :

وعن الكونين كن منخلعاً وأزل ما بيننا من بيننا

وقال بعضهم : « طالب الدنيا أسير ، وطالب الآخرة أجير ، وطالب الحق أمير ، فإذا نحر العبد من رق الحظوظ ، فقد تحقق سفره إلى ربه وظفر بوصله وقربه حققنا الله بذلك بمنه وكرمه وإلا بقى موثقاً بجبل هواه ، مكبلاً في قيد حظوظه ومناه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

باموثقاً في موثق الممالك تزهو أدراك اليوم زهو المالك

قلت الموثق : المحبوس ، والوثائق ما يحبس به ، والزهو الترفع والتكبر .

يقول رضى الله عنه : يا محبوباً في وثاق شهواته وحظوظ نفسه ، لقد كنت حراً وهي ملوكك لك ، لو غبت عنها في عجة خالقها لخدمتك ، فلما شغفت بحبها وخدمة نفسك في طلبها مرت ملوكاً لها أسيراً في يدها ، فأبك على نفسك بكاء الشكلى ، واضرع في فكك نفسك للذلوى ، ففسى أن يفك أسرك ويصلح أمرك ويردك إلى أصلك ، فتصير مالهوكا والهوى ملوكاً ، وتصير مخدوماً والهوى خادماً ، كما قال الشاعر :

كنت عبداً والهوى مالكي فصرت حراً والهوى غادى

وقال آخر :

العبد حر ما عصى طمعاً والحر مهمل طاعة عبداً

(١) لأن من كان في خدمة الله سخر الله له الدنيا وكل شيء فيها .

(٢) لأنه صار عبداً للدنيا ، فهو خادماً لها إلى أن يخنقه الموت ، لا هو عمل لله ، ولا الدنيا نجيت له ، ونسأل الله العلامة .

وفي الحكم :

أنت سر بما أنت عنه آيس وعبد لما أنت له طامع .

وقال أيضاً : ما أحببت شيئاً إلا كنت له عبداً ، وهو لا يحب أن تكون لغيره عبداً .

وقال بعض الملوك لبعض الأرياء : اطلب مني شيئاً نعطيك ؟ فقال له وكيف اطلب منك وأنت عبد لعمدي ، فقال له : وكيف ذلك ؟ فقال له : أنا زهدت في الأشياء فخدمني وأنت أحببت الأشياء فلكتك ، أو كلاماً هذا معناه لطول العهد به .

وإذا كنت أبها الراغب في الدنيا أسيراً في يدهما ، كيف يمكنك أن تزهر وترفع على غيرك زهو المالك ، وإنما أنت مملوك ، فتنبه لمصيبتك واعرف قدرك ، ولا تعد بطورك ، واسأل الله تعالى أن يفك أسرك ، وبالله التوفيق .

ثم وبنح المخاطب على قلة الاستماع ، فقال :

يا من أعابه على الدوام حتى م أجفان الدوا دوام

قلت : المعاتبة : اللوم والتقريع و د حتى ، بمعنى د إلى ، الغائية د وما ، نافية حذف ألفها للوزن ، وأجفان الدوا مبتدأ ، ودوام : خبره محووس مقدر رفعه ، ودوام جمع دامية : أي سائلة بالدم ، والمجروح بحق محذوف ، والتقدير إلى أي زمان تسمر مرضاً ، وليس أجفان عينك التي في بكائها شفاؤك سائلة بالدم .

يقول رضى الله عنه : د يا من نعابه على الدوام ، وهو يسمع عتابي ويفهم خطائي ، ومع ذلك لم ينسكف عن العناد ولم يرجع عن الانتقاد ، إلى دى تبقى عليلاً ، وقد أمكنك الدواء ، فكيف لا تبسكى على نفسك وقد تنشب في باطنك داء الهوى ، فإذا كان الدواء في سكب دمك ، فكيف لا تبسكى الدم في طلب شفاء نفسك ، وفي الحكم (تمكن حلاوة الهوى من القلب هو الداء العضال ، لا يخرج الشهوة من القلب إلا خوف مزيج أو شوق مطلق) اه .

فلا يخرج الداء من القلب إلا وارد قوى يأتي من حضرة قهار لا يصادم شيئاً إلا دمه إما بنفحة إلهية أو بسبب واسطة شيخ كامل عارف محقق .

والغالب أن من صدق في الطلب يبلغه الله ما طالب ، كن طالبا تجد مرشدا ، فن طلب
وجهه وأنجز بالوفاء وعده ، فإذا تضرع وبكى على نفسه كمال قائلناظم ، أخذ الله بيده
يأخذه على ولي من أوليائه حتى يوصله إلى ربه ، والله أكرم من أن يلتجئ العبد إليه
إلا بحسنه إليه ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله .

وفي بعض النسخ :

يا من أعاتبه على الهوام حتى متى جفئك في منام
وهو يشير إلى قوله عليه الصلاة والسلام : الناس نيام فإذا ماتوا انتبظوا (١) .
وقال بعض الشعراء :

إلى كم تمادى في غرور وغفلة	وكم هكذا نوم إلى غير يقظة
لقد ضاع عمر ساعة منه تشتري	بملاء السما والأرض أية ضيعة
اتفق هذا في هوى هذه التي	أبى الله أن تسوى جناح بعوضة (٢) ؟
وترضى من للعيش السعيد بعيشة	مع الملأ الأعلى بعيش البهيمة
ثم ذكر سبب إعراض المعانين وعدم انزجاره ، وهو البلادة والجهل ، فقال :	
كم أنت ذو وسائل عراض	لاه عن الجوهر بالأعراض ؟

قلت : د كم ، اسم استفهام ، يستفهم بها عن العدد ، وهي هنا الأزمدة والأوقات ،
ورسائد جمع وساده ، وصرفا للوزن ، والمراد به هنا : الكناية عن علم الفهم ، يقال : فلان
مرض الوسادة ، وعريض القفا ، إذا لم يفهم ولم يفطن ، وقد قال عليه الصلاة والسلام
لدى بن حاتم حيث لم يفهم قوله تعالى - وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض
من الخيط الأسود من الفجر - لحمله على ظاهره فجعل خيطين تحت وسادته وجعل ينظر
إليهما ويأكل حتى تبين أحدهما من الآخر ، فلما قال ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم قال :
إنك لعريض القفا ، وفي رواية : إن وسادك إذن لعريض ، على بعض التأويلات ، والجوهر

(١) في المقاصد الحسنة : أنه من قول الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه .
(٢) إشارة إلى قول رسول الله صلى الله عليه وسلم : لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح
بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء ، رواه الترمذي والضياء عن سهل بن سعد .

هنا كناية عما يبقى، والأعراض كناية عما يفتى، لأن للمرض لا يبقى زمانين، يقول رضى الله عنه : كم تمكث أيها المعاند من السنين والأوقات، وأنت فى سكرة الغفلات غبى جاهل، لا تسمع الخطاب ولا ينفع فيك العتاب، مشتغل بالمرض الفانى عن النعيم المقيم أما تسمع قوله تعالى - يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم^(١) - إلى كم تبقى غليظ الطبع عريض القفا معتنياً بإصلاح جسمك الذى هو مرض الفناء، لاهياً عن إصلاح جوهر روحك وقلبك الذى هو سبب النعيم على الدوام والبقاء، فبادر أيها الجاهل إلى دواء قلبك قبل أن يهجم عليك الحسام، وأنت على حالك من الأمراض والسقام، فانفض أيها الغافل إلى خلاص نفسك بالتوبة والندم قبل أن تندم ولا ينفعك الندم، وقد زلت بك القدم، وأنشدوا :

أما أن للنفس أن تخشعا	أما أن للقلب أن يقلعا
تقضى الزمان ولا مطمع	لما قد مضى منه أن يرجعا
تقضى الزمان فيما حسرتا	لما فات منه وما ضيعا

وقال آخر :

وما هى إلا ليلة ثم يومها	ويوم الى يوم، وشهر الى شهر
مطايا يقربن الجديد الى للبلا	ويدنين أشلاء الصبح الى القبر
ويتركن أزواج للغيور لغيره	ويقسمن ما يحوى الشحيح من الوفر

وقال فى الحكيم (المعجب كل المعجب بمن يهرب بما لا انفكاك له عنه، ويطلب ما لا بقاء له معه، فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور) .

والذى لا بقاء له معه هو شهواته وحظوظه الفانية، والذى لا انفكاك له عنه هو قدر الله وقضاؤه، والله تعالى أعلم .

ثم ذكر سبب حجاب الناس عن الله، فقال :

مهما تعدت عن الأجسام أبصرت نور الحق ذا ابتسام

قلت : قد تقدم قريباً عند قوله ، ولم يتصل بالعالم الروحاني ، الخ .

للفرق بين العالم الروحاني والعالم الجسماني ، فالعالم الجسماني هو محل ظهور حكمته تعالى ، لأن من أسمائه تعالى الحكيم ، وهو أيضاً محل لظهور آثار تصرفات الاسماء والصفات ، من إعزاز وإذلال ، وقبض وبسط ، وإحياء وامادة ، وغير ذلك من اختلاف الآثار ، وهو أيضاً محل لظهور للعبودية التي بها كمال سر الربوبية ، ومن مقتضى العبودية : الفقه والذل ، والعجز ، والضعف ، والجهل ، وهو أيضاً محل ارتباط الاسباب بمسبباتها واقتتران الملل بمعلولاتها ، وبهذا وقع الحجاب عن شهود مسبب الاسباب ، فوقف الناس مع الاسباب والعوائد ، ومنعوا عن تحصيل المواهب والفوائد ، وانهمكوا في طلب تحصيل هذه الاسباب لتحصيل مسبباتها ، وارتبطوا معها حتى ظن أهل الجهل أنه لا بد منها ، قد خلم بذلك هم الرزق وخوف الخلق لضعف إيمانهم وحجابهم عن ربهم فمن أراد الله عنايته ورفع الحجاب عن قلبه ، فأعرض عن هذا للعالم بأسره . ورفض همه إلى ربه ، فلاحته له الأسرار ، وضحكت في وجهه الأنوار ، فهما تعديت أيها الإنسان همتك عن عالم الأجسام ، وحصلت لك الغيبة عنه على لثام ، أبصرت نور الحق في وجهه سرك ذا ابتسام ، وهي أنوار الملكوت وأسرار الجبروت ، وما حجبك عنها إلا شغل قلبك بأمر نفسك ، فلو بهتها لربك يعوضك منها شهود أنوار قدسه ، وما حجبك أيضاً عن شهود تلك الأنوار إلا وقوفك مع خيال الحس ورؤية الأغيار ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

مهما ارتقيت عن قبيل الحس أدركت في نفسك معنى النفس

قلت : من اصطلاحات الصوفية أنهم يعبرون بالحس عما يدركه البصر من الأجسام الكثيفة ، وبالمعنى عما يدرك بالبصيرة من المعاني اللطيفة القائمة : بالأجسام ، وهي أسرار الثبات ومعاني الصفات ، فالوجود كله دائر بين حس ومعنى : الحس ظاهر ، والمعنى باطن ، فالحس كأنه ظرف والمعنى مظروف ، والحس لا ينفك عن المعنى ، ومثال ذلك الثلجة : ظاهرها ثلجة وباطنها ماء ، فالظاهر الجامد حس ، والباطن المائي معنى ، فالكون كله كالثلجة ظاهره كثيف ويسمى حساً ، وباطنه لطيف ويسمى معنى ، وفيه قال الجيلي رضي الله عنه :

وما الكون في التمثال إلا كثلجة وأنت لها الماء الذي هو تابع

فما الثلج في تحقيقنا غير مائه وغير أن في حكم دمه الشرائع

ثم إن الحق سبحانه جعل أحكام الحس مضادة لأحكام المعنى مع تلازمهما ، فأحكام

الحس أحكام العبودية ، وهى القائص ، وأحكام المعنى أحكام الربوبية وهى الكمالات ، فن أراد أن يظهر بالمعنى بتمامها فليغيب عن الحس وأحكامه ، وهذا معنى قوله : «مهما ارتقيت عن قبيل الحس أدركت فى نفسك معنى النفس» أى أدركت فى ذالك معنى الروح ، والروح لطيفة نورانية قائمة بالبدن ، وهى من قبيل المعانى فومن عرف نفسه عرف ربه (١) ، ولا يفرق بين روحانيته وبشريته الا من ترقى من عالم الحس الى عالم المعانى .

والحاصل : أن الحس ما أظهره الله تعالى إلا لتقبض منه المعنى ، وهى معرفة الحق سبحانه وتعالى ، فلو لا ظهور الحس ما قبضت المعنى ، ولولا وجود المعنى ما قام الحس ، وهو معنى قول الشيخ أبى مدين رضى الله عنه : الحق مستبد ، والوجود مستمد ، والمادة من غير الجود ، فإذا انقطعت المادة انهد الوجود .

فالحق تعالى مستبد (١) ، أى قائم بنفسه ، والوجود ، وهو الحس الظاهر ، مستمد ، من المعنى الباطنية ، فلو انقطعت مادة المعانى التى تمد الحس ، انهد ، الوجود أى اضمحل وتلاشى ، لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته - إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا - وهنا معانى تضيق عنها العبارة ، وعلينا كلة إشارة ، وفيما ذكرته كفاية ، والله تعالى أعلم .

ثم عاتب من وقف مع الحس ولم ينفذ إلى المعنى ، فقال :

يا من على القشر غدا يحوم حتى عن اللب متى تصوم ؟

قلت : القشر هو ظاهر الشئ ، ويسمى الصوان بكسر الصاد ، لأنه يصون ما فى داخله ، واللب هو باطن الشئ وقلبه ، فالحس قشر والمعنى لب .

يقول رضى الله عنه : يامن وقف مع قشره الظاهر فاعتنى بإصلاح ظاهره وتدبير أمر بدنه أكلا وشربا وملبسا ومنكحا ومسكنا أو اعتنى برفقته وعزه وطالب رياسته وجاهه ، أراعتنى بإصلاح جوارحه الظاهرة ولم ينفذ إلى إصلاح باطنه ، وغدا ، أى صار يحوم ويدور حول القشر الظاهر متى ، تستمر دائما عن حلاوة المعانى الباطنية ، وهى

(١) الآية : ٤١ من سورة فاطر .

(٢) فى المختار : استبد بكذا : تفرد به قال أبوالمظفر السمعاني فى الكلام على التحسين والتقييح من القواطع ، إنه لا يعرف مرفوعاً ، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ من قوله : ومعناه من عرف نفسه بالحدوث عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه بالفناء عرف ربه بالبقاء (انظر المقاصد الحسنة) .

حلاوة الشهود ولذة معرفة الملك المعبود ، ولم تذوق منها ما ذاقته الرجال ، ولم تذاقهم على مراتب الكمال .

قال إبراهيم بن أدهم أو مالك بن دينار : خرج الناس من الدنيا ولم يذوقوا شيئاً ، قال : وما فاتهم ؟ قال : حلاوة المعرفة ، فكل من وقف مع الرسوم الظاهرة لا يطعم أن يذوق حلاوة المعاني الباطنية ، وكل من اشتغل بحلاوة الرسوم لا يذوق حلاوة شهود الحى فهم ، وكل من اشتغل بحلاوة العبادة الحسية لا يذوق حلاوة المعاني القدسية ، وقد در للشرى حيث يقول :

جميع العوالم رفعت عنى وضوء قلبى قد استفاق
ترانى غائبا عن كل أين كاس المعانى حلوا المذاق
وقال ابن الفارض رضى الله عنه :

ولو خطرت يوماً على خاطر امرئ . أقامت به الأفراح وارتحل الهم

والحاصل أن كل من اشتغل بالحس علماً أو صملاً لا يذوق حلاوة الشهود المعنى أبداً ، ولا يطعم أن ينقل من شغل الحس إلى شهود المعنى إلا بصحبة أهل المعنى . وإلا بقي شعوباً في عبادة الحس على الدوام ، منكرأ على أهل المعانى على الدوام ، إلا من عصم الله ، والله تعالى أعلم .

والى هذا المعنى (أى دوام الإنكار بمن لم يصحب أهل المعانى) أشار بقوله :

يا من إذا قيل له تعال لمنهج التحقيق قال : لا لا

قلت : تعال فعل أمر بمعنى أقبل ، ومنهاج التحقيق هو طريق الوصول الى معرفه الحق معرفة حقيقية عيانة لا برهانية .

يقول : رضى الله عنه لهذا المنكر لطريق الخصوص : هلم إلى طريق التحقيق : طريق أهل العناية والتوفيق ، طريق أهل الجمع بين التشريع والتحقيق .

قال بعضهم فى تفسير قوله تعالى : - اهدنا الصراط المستقيم (١) - وهو الجمع بين الشريعة والحقيقة المفهومة ، من قوله تعالى - إياك نعبد وإياك نستعين (٢) - فلما دعا هذا المنكر إلى

منهاج التحقيق أجلب بأنه ليس من أهل هذه الطريق ، لأنها طريق الأبطال ، لا يسلكها إلا فحول الرجال ، فقال مستمراً على إنكاره لا ، لا أجيبك إلى ما دعوتني ، إذ لا طريق أفضل مما أنا عليه ، قال تعالى - كل حزب بما لديهم فرحون (١) .

وسبب إنكار هذه الطريق مع أنها مؤسسة على التحقيق ، أمران : أحدهما أنها مبنية على قتل النفوس وخرق العوائد ، وهذا الأمر ثقيل على النفوس ، لا يقبله إلا من أراد الله وصوله إليه ، وأهلها ثقبولون على النفوس الحية ، لأن الميت لا يأوى إليه إلا مثله .

الثاني : أن عمل أهلها خفي ، جله باطني ، بين فكرة ونظرة ، فكل من ينظر إلى أعمالهم الظاهرة استحقها في عينه ، فلا يفتح بطريقهم .

قال ابن ليون التجيبي رضي الله عنه : المنكرون على الفقراء ثلاثة أصناف : أرباب الدنيا وأتباعهم ، والجامدون من الفروعية وأتباعهم ، والمتعمقون في الأعمال المتنسون وأتباعهم (٢) . فأما أرباب الدنيا فلأن الفقراء أصدقاء لهم ، لرثة ثيابهم وقلة جاههم ، والخذ ينفذ ضده ، والدنيا تورث اتساوة وطول الأمل ، وأتباعهم يشون في مرضاتهم .

وأما الجامدون من الفروعية (وهم علماء الظاهر) فإنهم يعتقدون الإحاطة بالشريعة ، وينكرون على من ترك طريقهم ، وتبجهم العوام على ذلك ، والإحاطة بالشريعة متعذر ، ثم قال : وحقيقة الفقه ما أدى إلى ترك الدنيا وطالب الآخرة .

وأما المتعمقون في الأعمال المتنسون (٣) فقتنهم الشيطان برؤية الأعمال ، وجعلهم يزيدون أعمالاً قد نهوا عنها ، فمظنهم الناس ، فهم ينقصون الفقراء ، لأن الفقراء لا يتصنعون ، والفقير إذا رأى أعماله أشرك ، وإذا رأى أنه قد أخلص احتاج إلى إخلاص بخلصه من شرك نفسه ، ثم قال : وقد ذهب الفقراء والصوفية مذهب أهل القرآن والحديث ، وعلومهم مكارم الأخلاق التي بعت بها النبي صلى الله عليه وسلم ليكملها ويتمها ، وعامة الخلق مطلوبون بها ، انتهى المراد منه .

ثم ضرب مثلاً لمن جهل قدر نفسه وهي بين جنبيه ، فقال :
يا جاملاً من داره سكنها وهو يؤدي أبداً كراها

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٥٣ .

(٢) في المختار : الناموس : ما ينمس به الرجل من الاحتيال ، والمقصود هنا - والله

أعلم - هم أصحاب الحيل والمراوغة والمكر .

قلت : قد تقدم قوله :

ولم تزل كل نفوس الاحياء علامة دراكة للأشياء

فأصل الروح قطعة نور جبروتي ، انظر قوله تعالى - ونفخت فيه من روحي (١) -
فلما ركب في هذا الهيكل نسيت أصلها وجهلت أمرها بحكمة الحكيم العليم ، فجعلت التعشق
إل أصلها وتجتهد في معرفة خالقها ومظهرها ، وتتعب نفسها في الخدمة الحسية طلبا للوصول ،
فيقال لها إلى كم تتعبين نفسك والشئ أقرب إليك منك ، أعرني أصلك تعرفي ربك .

قال يحيى بن معاذ الرازي : د من عرف نفسه عرف ربه (٢) ، فلما انكشف عنها
حجاب الوهم وجدت نفسها في الحضرة ، وهي الدار التي جهلت سكنها ، فاستراحت من
تعبها ، ووجدت الدار التي كانت تسكن فيها ، كانت لها وهي لا تشعر ، فهي كانت مولاة
الدار ، ولكن لم تشعر ، فهي بمثابة من كان يسكن داراً يظنها لغيره وهو يؤدي كراها ،
فلما علم بحقيقة الأمر ترك الكراء ، كذلك الإنسان كان قبل الوصول : يظن أن المطلوب
بعد عنه ، فلما زال حجاب الوهم وجد نفسه في الحضرة وهو لا يشعر .

وفي ذلك يقول بعض المشارقة :

قبل اليوم كنت مقيد بقيود البين

محجوب بالوهم نحسب مفردى اثنين

لما تبدى جمالك زال عني الفين

شاهدت عيني بعيني وصرت عين العين

وقال : بعض التلامذة لشيخه : أين الله ؟ فقال له : أسحقك الله وأبعدك ، هل
تطلب مع العين أين ؟ اه .

وقال للشعري : في هذا المعنى .

أنا شيء عجيب لمن رآني

أنا المحب والحبيب ليس ثم ثاني

(١) سورة ص ، الآية ٧٢ .

(٢) سورة فتح ، الآية ٣٠ .

وقال غيره :

يا قاصداً عين الخبر غطاه ابنك
الخبر الخمر منك والخبر والسر عندك
أرجع لذلك واعتبر ما ثم خبرك

وقال غيره :

كم ذاتموه بالشعبيين والعلم
أراك تسئل عن نجدوانت بها
والأمر أوضح من نار على علم
وعن تهامة ، هذا فعل منهم

وقال في الحكم (وصولك إلى الله ، وصولك إلى العلم به ، وإلا لجل ربنا أن يتصل به شيء ، أو يتصل به بشيء) .

وقال أيضاً (لا مسافة بينك وبينه حتى تطويها رحلتك ، ولا قطعة بينك وبينه حتى تمحوها وصلتك) .

فن من قوله « من داره » ابتدائية ، وسكنها مفعول بجاهل ، والمراد بالدار ذاته الحسية ، والسكنى الخرة الأزلية التي قامت بها ، فهو ساكن في الحضرة وهو لا يشعر ، أي يا جاهلاً بسكنى الحضرة من ذاتها وهو يطلبها ويؤدي كراهها ، والله تعالى أعلم .

ثم وبخه على جهله بنفسه الذي كان سبباً في جهله بربه ، فقال :

أتدري من أنت ؟ وكيف تدري وأنت قد عزلت وإلى الفـكر

قلت : « وإلى الفكر » هو العقل ، لأنه هو الذي يلي الفكر ويستعمله ، عزله عن ذلك ، هو اشتغاله بمحظوظه وهواه ، حتى بعد عن حضرة مولاه ، وهذا منه رحمه الله تنبيه وإيقاظ للغافل ، وتقرير وتوبيخ للجاهل ، يقول له : أتدري من أنت أيها الإنسان ؟ ولماذا خلقت ؟ وما المراد منك ؟ أنت نخبه الآكوان ، وأنت في الأصل قطب الزمان ، أنت المقصود الأعظم من هذا الكون ، فلو تفكرت في أمر نفسك لعلمت عظمة ربك فارتدت إليه بجسمك وقلبك ، لكن عزلت عقلك عن الفكر والاعتبار ، وشغلت نفسك بالفضول والاغترار ، فلا جرم أنك هوت نفسك في دار البوار ، فلو تفكرت في عجائب نفسك لتحققت بمعرفة ربك ، قال تعالى - وفي أنفسكم أفلا تبصرون (١) - فأمل في أول

بأنك، وفي تركيب صورتك : فانظر رحمك الله إلى أصلك حين كنت لطفة مهيئة فقلب الحق تعالى عرق دم الحيض مدداً لك في رحم أمك، ثم صرت عاققة، ثم مضغة، ثم فصل سبحانه تلك للمضغة إلى العظم واللحم والعصب والعروق والدم والجسد والظفر والشعر، ووضع كل واحد منها لحكمة لولاها لاختل الجسد، بحسب العادة، فالعظام منها هي عمود الجسد، فضم بعضها إلى بعض بمفاصل وأقفال من العضلات والعصب، ربطت بها، ولم تكن عظماً واحداً لأنه إذ ذاك يكون مثل الحجر أو الخشبة، لا يتحرك ولا يقوم ولا يجلس ولا يركع ولا يسجد لحالقه الحي القيوم، وجعل سبحانه العصب على مقدار مخصوص، ولو كان أقوى بما هو، لم تصح في العادة حركة الجسم ولا تصرفه في منفعه، ثم خلق تعالى الخ.

في العظام لين في غاية الرطوبة ليرطب يبس العظام وشدها، وتقوى العظام برطوبته، ولولا ذلك لضعفت قوتها وانخرم نظام الجسد بحسب جرى العادة، ثم خلق سبحانه اللحم وأعفاء وعلاء على العظام، وسد به خلل الجسد كله، فصار مستوياً لئلا واحدة. واعتدلت هيئة الجسد واستوت، ثم خلق سبحانه للعروق في جميع الجسد جداول لجريان الغذاء فيها إلى أركان الجسد، لكل موضع من الجسد عدد معلوم من العروق صفاراً وكباراً، ليأخذ الصغير من الغذاء حاجته، والكبير حاجته، ولو كانت أكثر مما هي عليه أو أنقص أو على غير ما هي عليه من الترتيب ما صح شيء من الجسد عادة، ثم أجرى الدم في العروق سيالاً خائراً (١) ولو كان يابساً أو أكثف مما هو عليه لم يجر في العروق، ولو كان ألطف مما هو عليه لم تغذ به الأعضاء، ثم كسى سبحانه اللحم بالجلد : سقره كله كالوعاء، ولولا ذلك لكان قسراً أحمر، وفي ذلك هلاكه عادة، ثم كساء الشعر وقاية للجلد، وزينة في بعض المواضع وما لم يكن فيه شعر جعل له اللباس عوضاً منه، وجعل أصوله مفروزة في اللحم ليتم الانتفاع به، ولين أصوله ولم يجعلها يابسة مثل رؤوس الإبر، إذ لو كانت كذلك لم يهنا عيش، وجعل الحواجب والاشفار وقاية للعينين ولولا ذلك لاهلكهما الغبار والسقيط (٢)، وجعلها سبحانه على وجه يتمكن بسهولة من رفعها على الناظر عند قصد النظر، ومن إرخائها على جميع العين عند إرادة إمساك النظر إلى ما تؤذى رؤيته ديناً أو دنياً، وجعل شعرها صفراً واحداً لينظر من خلالها، ثم خلق سبحانه شفتين ينطبقان على الفم يصونان الحلق والفم من

(١) الخشورة : ضد الرقة، يقال لبن خائر، يعني غير مائع، والله أعلم.

(٢) السقيط : الثلج والجلبد، اهـ. مختار، وفي الأصل والسقط، فأصلحناء إلى ما ترى.

الرياح والفبار ، وينفتحان بسهولة عند الحاجة إلى الانفتاح ، ولما فتهما أيضاً من كمال الزينة وغيرها ، ثم خلق سبحانه بعدهما الأسنان ليتمكن بها من قطع ما كوله وطاحنه ، ولم يخلق له الأسنان من أول الخلقة لئلا يضر بأمه في حال رضاعه ، ولأنه لا يحتاج لها حينئذ لضعفه مما كثف من الأغذية ، فعوضه الله منها برأفته ابن أمه دافئاً في الشتاء بارداً في الصيف ، فلما قوى وصلاح للغذاء الخشن خلق له الأسنان ، لأن الطعام لو جعل في الفم وهو قطعة واحدة لم يتيسر ابتلاعه ، فيحتاج إلى طاحونة يطحن بها الطعام ، تخلق اللحيين من عظمين وركب منهما الأسنان وطبق الأضراس من العليا على السفلى ، لتطحن بهما الطعام طاحناً ، ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر ، وتارة يحتاج إلى القطع ، ثم يحتاج إلى الطحن بعد ذلك ، لجعل سبحانه الأسنان على ثلاثة أصناف : بعضها عريضة طواحن كالأضراس ، وبعضها حادة قواطع تصلح القطع كالرباعية ، وبعضها صلبة تصلح للكسر كالانياب .

ثم جعل سبحانه مفصل اللحيين متخللاً بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر ، حتى يكون على الفك الأعلى على ، دوران الرجا ، ولولاها لم يتم اضطراب أحدهما على الآخر ، مثل تصفيق اليدين ، ثم جعل الفك الأسفل يتحرك حركة دورية ، واللحي الأعلى ثابت لا يتحرك ، فانظر إلى عجب صنع الله تعالى ، فإن رحي الخلق الأعلى يدور ، والأسفل ثابت ، ورحى الله تعالى معكوسة الأسفل يتحرك والأعلى ثابت ، ثم هب أنك وضعت الطعام في الفم فكيف يتحرك الطعام إلى ماتحت الأسنان ؟ وكيف تستجره الأسنان إلى نفسها ؟ وكيف يتصرف باليد في داخل الفم ؟ فانظر كيف أنعم الله عليك تخلق اللسان يطوف في جوانب الفم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة ؟ كالجرقة ترد الطعام إلى الرجا ، هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وعجائب قوة النطق ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحته وهو يابس فلا تقدر على ابتلاعه ، إلا بأن يزلق إلى الخلق بنوع رطوبة أنبع الله تعالى في الفم عينا نباعة على اللوام ، أحلى من كل حلوى ، وأعذب من كل عذب ، فيحرك اللسان الغذاء ويمزجه بذلك الماء فيعود زلقاً فينحدر في الخلق بلا مؤنة ، ولهذا إذا أعدم الله تلك العين من خلق المريض لم يمض على الخلق شيء ، وإن مضى فبمشقة عظيمة .

ومن عجب هذه العين أنها مع عدم انقطاعها لم يكن ماؤها يملأ الفم في كل وقت ، حتى يتكاف الإنسان طرحها ، بل جرت على وجه ألجمت فيه أن تتعدى وجه منفعتها ، فبارك الله أحسن الخالقين .

ثم لما كنت تحتاج إلى مناوله الطعام ، وجعله في النعم خلق الله لك اليدين ، ولم يجعلك كالجمجمة تأكل على فك^(١) ، فأنعم عليك باليدين ، وهما طويلتان فتمتدان إلى الأشياء مشتملتين على مفاصل كثيرة ، لتتحرك في الجهات فتمتد وتنتش إلىك ، فلم تكن كالخشب المنصوبة ، ثم جعل رأس اليدين عريضاً نفق الكف ، ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام ، هي : الأصابع ، وجعلها في صفتين بحيث يكون الإبهام في جانب يدور على الأربعة الباقية ، ولو كانت مجتمعة لم يحصل بها تمام غرضك ، ووضعها وضعاً إن بسطتها كانت بحرفة ، وإن ضممتها ونظمتها كانت لك مفرفة ، وإن جمعتها كانت آلة للغرب ، وإن نشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة للقبض ، ثم خلق الله سبحانه أطياراً وأسماكاً وإبهاماً من الأصابع لتشتد بها أطرافها لكثرة حركتها والتصرف بها في الأمور حتى لا تنفست ، وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تأخذها الأصابع ، ولتحك بها جسدك ، ولما كان الذئب والظفر بما يطول ، لما في طولهما من انصلحة لبعض الناس ، وفي بعض الأوقات . وكان جزهما بما يحتاج إليه في بعض الأوقات ، لم يجملا كسائر الأعضاء في تألم الإنسان بقطعهما ، فانظر إلى دقائق هذه النعم ، من نعم بديرة .

ثم إذا نظرت إلى الطعام كيف تجذبه الخجرة وتبلعه : ثم إلى المدسدة كيف تطبخ بالحرارة التي فيها ؟ ثم إذا طبخ كيف يأخذ القلب اللسان الذي صعد على وجه المعدة ؟ ثم كيف يجري في العروق المتصلة به من قردك إلى قدمك ، ثم إلى نعمة الرجلين ، كيف تمشي بها إلى حاجتك ؟ وجدت نفسك مغموراً بالنعم ، قال تعالى — وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها^(٢) — هذه كلها نعم حسية ، فكيف بالنعم الباطنية ، كنعمة الإسلام والإيمان والعفة ، والعلم ، وغير ذلك مما لا يحصره العقل ولا يعده لقل — فاذكروا آلاء الله لعلكم تفلحون^(٣) — ولذلك كانت عبادة التفكير قدرها عند الله عظيماً ، إذ لا يتوصل إلى هذه العجائب إلا بالتفكير .

(١) : عني ، هنا بمعنى الباء ، إذ في كثير من الأحيان يوب حرف عن حرف .

(٢) سورة إبراهيم ، الآية : ٣٤ .

(٣) سورة الاعراف ، الآية : ١٠٠ .

ففي الحديث : « تفكر ساعة خير من عبادة سبعين سنة » (١) .

وقال كعب : « من أراد شرف الدنيا والآخرة فليكثر من التفكير » .

وقال الجنيد : أفضل المجالس مجلس الفكرة في ميدان التوحيد .

وقال في المحكم « الفكرة سراج القلب ، فإذا ذهبت فلا إضاءة له » .

وفضائل التفكير كثيرة وقد شفى الغزالي في « الإحياء » ، فيها الغليل ، والله تعالى أعلم ،
ثم بين شرف الإنسان وعظيم قدره إن استقام مع ربه ، فقال :

ياسابقا في موكب الإبداع ولاحقا في جيش الاختراع

قلت : « الموكب » ، « والجمع العظيم » ، « والاختراع » ، هو الإيجاد ، أشار رحمه الله إلى
أن الإنسان له وجودان : أحدهما سابق في الازل ، والآخر لاحق فيما لا يزال ، فيحتمل
أن يشير بالسابق إلى الوجود الأصلي ، وباللاحق إلى التجلي الفرعي ، أو إلى أصل ظهور
القبضة أولا ، ثم ظهور الفروقات ثانيا ، وهذا يناسب قوله « موكب الإبداع » ، وحديث
القبضة مروي عن جابر رضي الله عنه (٢) قال : « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن
أول شيء خلقه الله ؟ فقال : نور نبيك يا جابر ، خلقه ثم خلق منه كل خير ، وخلق بعده كل
شئ » ، « وحين خلقه أقامه قدامه » (٣) في مقام القرب اثنى عشر ألف سنة ، ثم جعله أربعة أقسام
خلق العرش من قسم ، والكروسي من قسم ، وحلة العرش وخزنة الكرسي من قسم .

وأقام القسم الرابع في مقام الحب اثنى عشرة ألف سنة ، ثم جعله أربعة أجزاء ، خلق
القلم من قسم ، واللوح من قسم ، والجنة من قسم .
وأقام القسم الرابع في مقام الخوف اثنى عشر ألف سنة . ثم جعله أربعة أجزاء خلق
الملائكة من جزء ، والشمس من جزء ، والقمر والكواكب من جزء .

(١) لم أجد فيما عندي من الكتب إلا ما روى ابن حبان في كتاب العظمة أن رسول الله
صلى الله عليه وسلم قال : « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » .

(٢) رواه عبد الرزاق في مسنده .

(٣) أي في مكانة التقديم والإعزاز ، وقوله « في مكان القرب » تفسير له ، لا في المكان
والله تعالى أعلم .

وأقام القسم الرابع في مقام الرجاء اثنتى عشرة ألف سنة ، ثم جعله أربعة أجزاء ، خلق
الحل من جزء ، والعلم من جزء ، والحلم والمعصمة والتوبة من جزء .

وأقام الجزء الرابع في مقام الحياء اثنتى عشرة ألف سنة ، ثم نظر الله تعالى إليه فرشح
له عرقاً فقطر منه مائة ألف وأربع وعشرون ألف قطرة ، خلق الله من كل قطرة روح
بى أو رسول ، ثم تنفست أرواح الأنبياء ، خلق الله من أنفاسهم نور الأولياء ، والسعداء
والشهداء والمطهين من المؤمنين إلى يوم القيامة ، في حديث طويل .

وهذا الحديث وإن كان ضعيفاً ، فله شواهد متعددة .

منها حديث عمر رضى الله عنه ، قال : قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم : يا هو
أتدرى من أنا ؟ أنا الذى خلق الله تعالى أول كل شيء نورى فسجد له (١) ، فبقى في سجوده
سبع مائة عام ، وقال : سجد له نورى ، ولا تخر ، يا عمر أتدرى من أنا ؟ أنا الذى خلق
الله العرش من نورى ، والكرسى من نورى ، واللوح والقلم من نورى ، والشمس والقمر
من نورى ، ونور الأبصار من نورى ، ونور العقل الذى في رؤوس الخلق من نورى ،
ونور المعرفة في قلوب المؤمنين من نورى ولا تخر .

وذكر الورعجي في تفسير قوله تعالى - قل إن كان الرحمن ولده فأنا أول العابدين (٢) -
عن جعفر الصادق : قال : أول ما خلق الله نور محمد صلى الله عليه وسلم قبل كل شيء ،
وأول من وحد الله في خلقه عز وجل ذرة محمد صلى الله عليه وسلم ، وأول ما جرى به القلم
(لا إله إلا الله محمد رسول الله) صلى الله عليه وسلم .

وقال في تفسير الآية : فيها إشارة إلى أوليته عليه الصلاة والسلام في عبودية الله ، وإشارة
للبدء وجوده في إتيانه من المدم بنور القدم ، وانقياده في أول تجلي جلاله .

قلت : وعلى هذا المحررون من الصوفية ، والطارقون للعارف القطب الكبير الشيخ ابن مشيش
رضي الله عنه في تصنيفه المشهورة اللهم صلى على من منه انشقت الأسرار وانفلق الأنوار .

ثم قال : ولا شيء إلا وهو به منط ، إذ لولا الواسطة لذهب كما قيل المتوسط .
وقال في بردة المديح .

وكيف تدعوا إلى الدنيا في ضرورة من لولاه لم تخرج الدنيا من المدم (٣)

(١) فسجد هذا النور لله رب العالمين . (٢) الآية : ٨١ من سورة الزخرف .

(٣) لما اقترف آدم الخطيئة ، وكان قد رأى على قوائم العرش مكتوباً : لا إله إلا الله =

وقال أيضاً :

فإن من جودك الدنيا وضرتها ومن علومك علم اللوح والقلم
ولا يعترض مثل هذا إلا جاحد محجوب ، تعوذ بالله من غم الحجاب وسوء الحساب
وشدة العذاب ، وبالله التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ثم حض على التفكير والاعتبار ليعرف ما عليه من النعم الغزار ، فقال :
اعقل فأنت نسخة الوجود لله ما أعلاك من موجود

قلت : ذكر أهل التاريخ أن الوجود كله خلقه الله على صورة الآدمي ، من عرش
إلى فرش ، ولعل تلك القصة النورانية النبوية كانت على صورة الإنسان ، ثم تفرعت منها
الأكوان كلها ، فاختصر الله الوجود بأسره من هذا الآدمي ، فهذا دليل على شرفه على
الكون ، هذا معنى قوله : فأنت نسخة الوجود ، أي مختصر منه ، ويقال : الولد نسخة أبيه .

وقال الجليل رحمه الله :

وتمامك تحوى بالحقيقة كلها أشرت بجد القول ما أنا خادع

وقال المشتري ورضي الله عنه :

و أنت مرآة النظر قطب الزمان وفيك يطوى ما اتشر ،

من الآواني

وقوله : لله ما أعلاك من موجود ، تعجب من شرفه ، كقولك : لله دره ، أي أمره
لا يفهمه غيره ، ما أعلاك قدرك عند الله ، إن عرفت أصلك وفصلك ، وقت بواجب ذلك ،
وإلا فأنت في أسفل سافلين .

قال الشيخ أبو عباس المرسي رضي الله عنه : قرأت مرة . والتين والزيتون ، إلى أن
انتهيت إلى قوله تعالى - لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين -
ففكرت في معنى الآية فكشف عن الأوح المفوظ ، فإذا فيه مكتوب - لقد خلقنا الإنسان
في أحسن تقويم - روحاً وعقلاً ، - ثم رددناه أسفل سافلين - نفساً وهوى .

= محمد رسول الله ، فسأل ربه : بحق محمد أن يغفر له : فقال الله تعالى : إذ سألتني بحقه قد
غفرت لك ، وله لا محمد ما خلقتك ، رواه الحاكم والبيهقي .

(انهم من المنجات الشاذلية ج ٣ ص ٥٦٥ للشيخ العلامة سيدي حسن العدوي) .

(١) الآية : ٥٠ ، ٥١ .

ثم بين وجه كونه نسخة الوجود ، فقال :

أليس عليك العرش والكرسى والعالم العلوى والسفلى

قلت : اشتغال الإنسان على العالم للعلوى والسفلى ، بمحتمل أن يكون ذلك من جهة معناه
أومن جهة حسه ، أما من جهة المعنى فلا شك أن الروح أصلها ملكوتية ، لا يحصرها
كون ، كما قال في الحكم :

(وسمك الكون من حيث جثمانيتك ، ولم يسمك من حيث ثبوت روحانيتك) .

سكن الإنسان لما جهل نفسه وتركها محجوبة بهواها ، انحجبت روحه ، وانحصرت في
هذا الكون ، فإذا عرفها وخرق عوائدها انخرقت له للعوائد وخرجت روحه عن الكون
بأسره ، فلم يحجبها عن الله أرض ولا سماء ، ولا عرش ولا كرسى ، لحيث أنه تستوى روحه
على الوجود بأسره من عرشه إلى فرشه ، فيطوى في جوفه العرش والكرسى والأفلاك
بغير ذلك ، وهو الذي قصد الششترى رضى الله عنه بقوله :

أغمض طرفك ترى وتلوح أسرارك
وافن عن الورد تبدو لك أخبارك
وبصقل المرآ به يزول أغبارك

قال :

الفلك فيك يدور ويضوء ويلسع
والشموس والبدور فيك تنيب وتطلع

فاقرأ معنى السطور التي فيك اجمع
لا تخادر سطر واحد من سطورك وادر
آش هو القمر الذي فيك يسرى

وقوله : فاقرأ معنى السطور ، ألع أعلم أن الصوفية رضى الله عنهم يطلقون على هذه
الأجرام الحسية رسوما وأشكالا وسطورا ، ووجه الإطلاق التلصق على المعاني ، فكأن
الحروف تدل على المعاني ، كذلك هذه الأجرام الحسية ، المقصود منها هو قبض المعاني
الطيفة ، وكأن للقارئ إذا حفظ المعنى من الرسوم ، كذلك العارف إذا قبض المعنى
غاب عن الرسوم ، ولا محتاج إليها . بل تمتحنى من نظره ، قال ابن العريف رضى الله عنه
في بعض كلامه : وإنما يتبين الحق عند اخذ حلال الرسم واندراس الرسم ، والإنسان لوح ،

ومختيق صورته وتشكيلها وتسويتها وتحسينها سطور ، مكتوب فيها بقلم القدرة . سبحانه
البدیع الصانع ، سبحانه ما أعظم شأنی ، أنا وحدي لمن عرفنی . .

فهذا معنى السطور التي في الإنسان ، فإذا حفظ هذا المعنى محي رسمه واسمه ، وبني
معناه ، والله تعالى أعلم .

وأما من جهة حسه فقد قال بعضهم : إن جسد بني آدم مشتمل على ما اشتمل عليه العالم
[بأسره ، جعله الحق تعالى نسخة الوجود ، يحاكي بصورته كل موجود ، ففيه جسم كثيف
ونور لطيف ، نصفه ما كن ، ونصفه متحرك ، نصفه نور ونصفه ظلمة ، وجعل فيه العناصر
الأربعة ، واستودع فيه قوة الجلب والدفع ، والضرر والنفع ، وجعل قلبه خزانة لسره ،
ولسانه ترجمان ذلك ، وحياه حارستان وأذناه مخبرتان ، ورجلاه مطيتان ، ويداه غادمتان ،
وجعل رأسه عرشه ، وصدره كرسيه ، وجانبيه شرقه وغربه ، وجعل حركته كحركة
الشمس والقمر والنجوم ، وتركيبه على تركيب العالم العلوي ، فجعل في ظهره أربعة وعشرين
فقارة ، على عدد الساعات ، وفي جسده ثمانية وعشرين مفصلاً ، على عدد المنازل ، وفي جوفه
اثني عشر معنى ، على عدد البروج والشهور ، وفيه ثلاثمائة وستة وستون عرقاً نافضة ،
ومثلها ساكنة على عدد أيام العام ، وجعل معدته بيت ماله ، وكبدته قسامه ، وجعل لخمه
كالتراب ، وعظامه كالجبال ، وشعره كالنبات ، وعروقه كالأنهار ، وجواهره معادن ،
وهي تسعة : لحم ، ودم ، وعظم ، وعصب ، ومنخ ، وشحم . فهذه ستة خفية . وثلاثة
ظاهرة ، وهي : الجلد ، والشعر ، والظفر ، وفيه اثنا عشر عنصراً ، سبعة في الرأس : العيان ،
والأذنان ، والمنخران ، واللقم ، والباقي في الجسد : الثديان والمخرجان والسررة ، إلى غير ذلك مما
لا يدرك ، كما ذكره الشطبي . في الفصل الأول ، فانظروه .

قال الشيخ عبد الوارث : فأت لباب هذه العوالم كلها فإذا أطلعت الله أطلعت بها
كلها ، وإذا عصيته فكذلك ، فلأجل ذلك عظمت المعاصي منا ، فتواعدنا عليها بالعذاب
الآليم ، وعظمت الطاعة فواعدنا الله عليها بالثواب الجسيم .

قلت : وفي هذا المعنى أنشدوا :

إذا كنت كرسياً وعرشاً وجنة	ونافوا ، وأفلاكا تدور وأملاكا
وكنت من السر المصون حقيقة	وأدركت هذا بالحقيقة إدراكا
فقيم الثاني في الحضيض تشبهاً	مقيماً مع الأسرى ، أما أن اسراكا

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه : الخلق كلهم عبيد مسخرة ، وأنت عبد
بمخضرة ، ثم جمع ما تقدم ، فقال :

ما الكون إلا رجل كبير وأنت كون مثله صغير

قلت قد تقدم أن الإنسان نسخة من العالم حسا ومعنى ، ولا يستغرب هذا ، فقد
قالوا : إن الناموسة فيها ما فى القيل ، وزادت عليه بالجنح ، فانظر كيف اجتمع فى البموضة
ما افرق فى القيل ، مع صغر جرمها ، فكذلك الإنسان : اجتمع فيه ما افرق فى الكون ،
وزاد عليه بسر الروح ، وهو العقل الاكبر ، وكون الإنسان رجلا صغيرا هو فى حق
من غلبت عليه البشرية ، وأما من غلبت روحانيته فقد صار هو للعالم الاكبر ، والكون
لعالم الأصغر ، لأن الروح تستولى عليه ، ويصير فى جوفها كشيء نافع ، بل ينمى
بالكلية ، وإلى هذا أشار ابن الفارض بقوله :

وإني وإن كنت ابن آدم صورة فلى فيه معنى شاهد بأبوتى (١)

والمعنى الذى فيه هو اللطيفة الروحانية السابقة فى موكب الإبداع على جيش الاختراع ،
والله تعالى أعلم .

وبما عظم به أمر الإنسان : جمعه بين الضدين ، وإلى ذلك أشار بقوله :

فأنت لست من قبيل الأرض حتى إذا رميت فيها تمضى

قلت : قد خص هذا الإنسان بعجائب لم توجد فى غيره ، فهو سماوى أرضى ، روحانى
جسمانى ، نورانى ظلمانى ، لطيف كثيف .

واعلم أن الله سبحانه لما أراد أن يتعرف إلى هذا الإنسان ، وضع هذا الروح فى هذه
الجلّة الجثمانية : لطيفة لا هوية مودعة فى كثيفة ناسوتية ، فن غلبت لطافته على كثافته
كان روحانياً والتحق بالروحانيين ، ومن غلبت كثافته على لطافته كان جسمانياً والتحق
بالبهايم ، ومن توسط نال شيئاً من طبع البهايم وشيئاً من طبع الروحانيين ، وكان من أهل
اليمين ، فأنت أيها الإنسان لست من قبيل الأرض كالبهايم ، حتى إنك إذا مت صرت
تراباً وتمضى هباء ، لكنك مركب من روح وشبح ، فإذا مات الشبح بقيت الروح ، إما
فى غبطة أو حسرة ، فالموت ليس عدما محضاً ، وإنما هو انتقال من دار إلى دار ، ومن حال
لحال . قال تعالى : فأما إن كان من المقربين . فروح وربحان وجنة نعيم - الآية (٢) .

(١) ولعل فى هذا إشارة إلى الدور المحمدى الذى سرى فى ظهور الانبياء من عهد آدم ،
وابن الفارض من سلافة النبي صلى الله عليه وسلم ، والله أعلم .

(٢) سورة الواقعة ، الآيتان : ٨٨ و ٨٩ .

وبما ينسب للغزالي رضى الله عنه بعد موته وجدت عند رأسه ، وقيل لغيره :-

قل لإخواني وأولي ميثا	فبكروني ورثوني حزنا
أظنون بأنى ميثكم	ليس ذاك الميت والله أنا
أنا في الصور ، وهذا جسدى	كان أباسى وقيمى زمنا
أنا كنز وحجاب طلسم	من تراب ، قد تها لقنا
أنا در قد حوائى صدف	حرت (١) عنه . فتغلى وهنا
أنا عصفور وهذا قفصى	كان سجنى ، نألفت السجنا
أشكر الله الذى خلصنى	وبنا لى فى المعالى وحنا
كنت قبل اليوم ميثاً بينكم	أبيت ، وخلصت الكفنا
فأنا اليوم أناجى ملكا	وأرى الحق جهاراً علنا
ماكفا فى اللوح أقرأ وأرى	كل ما كان ويأتى أو دنا
وطعامى وشرابى واحد	وهو رمز ، فافهموه حسناً
ليس خيراً سائناً أو عملاً	لا ، ولا ماء ، ولكن : لبناً
هو مشروب رسول الله إذ	كان لسر من فطره فطرتنا
لحي ذى الدار نوم مفرق	فاذا ما مات طار الوسنا
لا تظنوا الموت موتاً إنه	لحياة وهو غاية لنا
لا ترءكم هجمة الموت فنا	هو إلا انتقال من هنا
واخلعوا الأجساد من أنفسكم	نبصروا الحق عياناً بينا
وخلدوا فى الزاد جهداً لا تنوا	ليس بالعاقل هنا من ونا
أحسنوا الظن برب راحم	تشكروا قللى ونأتوا أمانا
ما أرى نفسى إلا أنتم	واعتقادى أنكم أنتم أنا

(١) حرت : رجعت ، وفى الأصل الذى راجعاً عليه ، حرت ، ولا أدرى ما معنى

عنصر الانفاس منا واحد وكذا الاجسام جسم عنا
فنى ما كان خيراً فلنا ومضى ما كان شراً فنا
فارحموني زحموا أنفسكم واعدلوا أنكم فى إثرنا
أشئل الله لى نفسى رحمة رحم الله صديقاً أماناً (١)
وعليكم منى سلام طيب وسلام الله بر وثناً (٢)

ثم قال :

فاحتل على النفس قرب حيله أنفع فى لاهرة من قبيله

قلت : يقول رضى الله عنه : احتل أيا الإنسان على نفسك وسابسها جمدك ، حتى تردها إلى مولاه ، فإذا رجعت إلى مولاه أنتك بطرائف العلوم ، وفتحت لك مخازن الفهوم ، ولا حيلة أنفع فيها من أن تأخذ بزمامها وتدفعها إلى شيخ التربية يفعل بها ما يشاء ، وتمثل ما يأمر بك به ، وأما غير هذا فتمت وعنت لا يجدى ولا يفيد ، وجرب فنى التجريب علم الحقائق ، والتوفيق بيد الله ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فائدة : قال شيخ شيوخنا سيدى على رضى الله عنه : اعلم أن البيان ، أى الأبواب كلها منلوقة بين الله وععبده إلا باب نفسه ، من لم يدخل على الله من باب نفسه لا يدخل أبداً ، من عادى نفسه فاز بإقبال الخلقى عليه ، ومن صادق نفسه فاز بإقبال مولاه عليه ، لكن مصادفة النفس هذه التى ذكرنا لا تكون إلا بصحبة عارف بالله إن وجدته ، وأما قبل وجوده فلا . فإذا عادى الإنسان نفسه فلا بأس به ، لأن هذه النفس خيرها ما له حصر ، لا يعلم قدره إلا الله ، وشرها ما له حصر ، لا يعلم قدره إلا الله ، ومن استشرف على خيرها هام فيه وفاته شرها ، ومن استشرف على شرها هام فيه وفاته خيرها ، وبرحم الله القائل :

وسمعت الخطاب : ما ذاتى من مكاف قريب
يا حيان وأنت فى ذاتى حاضر لا تغيب

(١) أى قال : آمين .

(٢) ثنا : أى ثناء ، قصرها للوزن .

هذا واقع من دخل على مولاه من باب نفسه ، ويكفيك في النفس شرفاً قوله عليه السلام :
« من عرف نفسه عرف ربه (١) » .

ومن كلام شيخ شيوخنا سيدي عبد الرحمن المنجدوب فعنا الله بالجميع .

من أين جيتي يا ذى الروح الهايما روحانيا
الساكنة في أبساط أحوالها ربانيا

وقال أيضا :

راعى من النفس جهدك ومضى وصبح عليها
لعلها تدخل بيدك تعود تصاد بينها

صار الأمر كما قلنا : عداوة النفس تمكنك من نواحي الخلق ، أنت تزيد عداوة لنفسك
والخلق يزيد إقبالا عليك ، وأنت تزيد بعداً من مولاك ومصاحبة انفسك تجمع بينك وبين
هواك ، أنت تزيد عداوة من نفسك وأنت تزيد قرباً من ربك وإقبالا منه عليك ، وأنت
تزيد قرباً من مولاك ، وأنت تزيد بعداً من الخلق ، وذلك لأنك إذا قربت من مولاك
يشم الخلق فيك رائحة لا يعرفونها ، فيحصل الإنكار منهم عليك ، لأن من جهل
شيئاً عاداه (٢) .

(١) قال في المقاصد الحسنة : « قال أبو المظفر السمعاني في الكلام على التحسين والتفيع
المقل من القواطع : إنه لا يعرف مرفوعاً ، وإنما يحكى عن يحيى بن معاذ الرازي .
(يعنى من قوله) »

وكذا قال النووي : إنه ليس بثابت .

وقيل في تأويله : من عرف نفسه بالحدوث : عرف ربه بالقدم ، ومن عرف نفسه
بالفناء : عرف ربه بالبقاء ، اهـ .

وهقد له الجلال السيوطي فصلاً كبيراً في كتابه « الحاوى » فراجعه فإنه جيد جداً .

(٢) وقد قال الإمام الشافعي رضي الله عنه : « العلم جهل عند أهل الجهل ، كما أن الجهل
جهل عند أهل العلم » .

جرت عادة الله تعالى أن الداخل إلى الله منكور ، والخارج إلى الخلق مبرور .

قال الشاعر :

من يخطب الحناء يصبر على البذل^(١)

ثم رجع إلى توبيخ من ينكر عالم المعاني ، وهو العالم الروحاني ، فقال :

يا منكر المعقول والمعاني ما الصنع في أمثلة القرآن

قلت : مضمن كلامه في الرد على من ينكر المعاني ويقر المحسوسات أن يقال له : لو كان الأمر محصوراً في المحسوسات ما احتاج الله تعالى أن يضرب لنا الأمثال للأمور المعنوية بالأمور الحسية ، لفهم بسرعة ، كضربه مثلاً للعلم النافع بالماء النازل من السماء الذي يظهر الأرض وتمتلئ منه الأودية في قوله تعالى - أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها^(٢) - الآية ، فإن العلم يظهر النفوس من ظلمات الجهل والشك والشرك ، ويظهر القلوب من كدر الأغبار ، والأرواح من لوث الأنوار ، وتمتلئ منه القلوب : كل على قدر وسعه ، كما أن الماء يظهر الأرض من الأدناس والانجاس ، وتمتلئ منه الأودية ، كل على قدر وسعه ، وكقوله تعالى - مثل نوره كمشكاة^(٣) - الآية ، وكقوله تعالى - ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركه^(٤) - الآية ، إلى غير ذلك ، فدل ذلك على أن الأمر على قسمين ، منه ما هو حسي يدرك بالحوس ، ومنه ما هو معنوي يدرك بالعقل والروح ، أو السر ، ولما كان قد يخفى على بعض الناس ضرب الله له الأمثال بالأمور المحسوسة ، تقريباً للفهم ، والله تعالى أعلم .

فما تقول أيها المنكر لعالم المعاني في هذه الأمثلة التي ضربها الله في كتابه تقريباً لفهم المعاني .

(١) وقال آخر :

من يطلب الحناء لا يقبله المهر

(٢) سورة الرعد ، الآية : ١٧ .

(٣) سورة النور ، الآية : ٣٥ .

(٤) سورة يونس ، الآية : ١٠١ .

قلت : وهذا الذى قاله الناظم لا ينهض فى الرد على المنكر ، لأن المعانى التى يشبها الصوفية إنما هى معانى الصفات وأسرار الذات التى قامت بها الأشياء ، لا هذه المعانى التى ضرب الله لها الأمثال ، فإنما هى أمور عقلية يدركها العقل وبقرها أهل الظاهر ، ولا ينكرها أحد .

نعم عندنا آيات تشهد بظواهرها لمعالم المعانى ، كقوله تعالى - الله نور السموات والأرض (١) - إن الذين يبايعونك (٢) - الآية - قل انظروا ماذا فى السموات (٣) - الآية - هو الأول والآخر والظاهر والباطن (٤) - إلى غير ذلك من الآيات الدالة على غوامض التوحيد وأسرار التفريد ، ومن لم يبلغ فهمه هذا فثباته التسليم ، ولا رقع فى الإنكار على أولياء الله ، فيصبح من الصم البكم الذين لا يدقلون .

والحاصل : أن عالم المعانى لا يدرك إلا بصحة أهل المعانى ، ولا يودى بالعبارة ، وإنما يرمز إليه بالإشارة ، فمن لم يفهم الإشارة فلا سهم له فيه ، كما أشار إلى ذلك بقوله :
بعداً أرى فيك عن الإشارة هل تتكرن رواية العبارة

قلت : يقول رضى الله عنه لهذا المستقد : أرى فيك بعداً عن فهم الإشارة ، فكيف تفهم المعانى وهى لا تودى إلا بالإشارة ؟ وإذا بعدت عن فهم الإشارة فقد وردت رواية العبارة بإثبات ما تتكر من المعانى ، هل تتكر رواية العبارة بعد أن بعدت عن فهم الإشارة ، فما تقول فى آيات وأحاديث تدل على ثبوت المعانى والعالم الروحاني ، وكأنه يشير إلى الآيات التى قدمنا آتفاً من قوله - الله نور السموات والأرض - إلخ .

والحديث القدسي : يقول الله تعالى : عبيد مرضت فلم تعدنى (٥) ، الحديث فقيه ثبوت عالم المعانى ، والله تعالى أعلم .

(١) سورة النور ، الآية : ٣٥ .

(٢) سورة الفتح ، الآية : ١٠ .

(٣) سورة سبأ يونس عليه الصلاة والسلام ، الآية : ١٠١ .

(٤) سورة الحديد ، الآية : ٣ .

(٥) رواه مسلم فى آخر صحيحه (باب عيادة المريض من كتاب البر والصلة) .

ثم وبخه على وقوفه مع عقله فقال :

يا جاهلا أقصى الكمال وقفا على عقول وهمها لا يخفى

قلت : عقول بني آدم ضعيفة محصورة ، لا تدرك من التوحيد والمعرفة إلا افتقار
الصنعة إلى صانعها ، ثم تستدل على صفات هذا الصانع بما تدرك من المصنوعات ، كوحدايته
وقدسه وبقائه وقدرته وحياته ، إلى سائر صفاته المعلومه ، وهي لا تأمن الخطأ ولا تسلم
من الوهم والخراطر ، لأنها في محل البعد ، وما لها إلا الإيمان بالغيب ، فن وقف مع عقله
وجعل ما أدركه به هو أقصى غاية الكمال ، فهو مغبون وبالجهد المركب مفتون ، قال تعالى
- وخلق الإنسان ضعيفاً ^(١) - وهو عام يصدق بضعف العقل وغيره ، أى ضعيفاً من كل
شيء ، وقال ابن الفارض :

فشم وراء النقل علم يصدق عن مدارك غايات العقول السليمة

بخلاف ما أدركته الروح أو السر من المعاني اللطيفة والأسرار القديمة ، فإن ذلك أذواق
وكشوفات ومشاهدات ، لا يبنى منها وهم ولا علم ولا خاطر ، وقال المجدوب :

طلع النهار على قلبى حتى نظرت بهيائى
أنت دليل ياربى أنت أولى منى بيئى

واعلم أن النفس والعقل والقلب والروح والسر : تطورات للروح اللطيفة النورانية كما
تخدم ، وكل واحد من هذه التطورات له حد من العلم والإدراك لا يتجاوزه

أما النفس لحد إدراكها : زينة ظاهر للكون اغتراراً بمتعة ظاهره ، وغفلة عن عبرة
باطنه ، لاشتغالها بمخطوطها وهواها ، فهي لا تلتفت إلى خالقها ومولاه ، فإذا نهت أقرت
حيثئذ ، ثم رجعت إلى نومها ، كمن طرش قائماً فأفاق ، ثم رجع إلى نومه .

وأما العقل لحد إدراكه وعله : افتقار الصنعة إلى صانعها على ما تقدم : معقول عن
غير ذلك .

وأما للقلب لحد إدراكه تعشقه وتوجهه إلى خالقه بترك الاغيار وطلب الانوار، انطلق من العقال في طلب الكمال، ولكنه من وراء الحجاب، لم يفتح له الباب.

وأما الروح لحد علمها وإدراكها مواجهة أنوار الملكوت، طالبة أسرار الجبروت، قد استراحت من تعب السير، لكنها لم تتمكن من السر:

وأما السر فنتهى إدراكه أسرار الجبروت، قد نفذت البصيرة من الوقوف مع أنوار الملكوت، وهذا انتهى السير، قال تعالى - وأن إلى ربك المنتهى (١) - .

ثم يبقى الترقى في المكاشفات والمشاهدات والعلوم والأسرار، إذ لا نهاية لها - وقل رب زدني علماً - .

قال في العوارف: واعلم أن الاتصال والمواصلة أشار إليه الشيوخ، وكل من وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو في رتبة من الوصول، ثم يتفاوتون:

فهم من يمد الله بطريق الأفعال، فيغنى عن فعله وفعل غيره، لوقوفه مع فعل الله ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار، وهذه رتبة في الوصول.

ومنهم من يترقى إلى مقام الفناء، مشتملاً على باطنه أنوار اليقين والمشاهدة، مضيئاً في شهوده عن وجوده، وهذا ضرب من تجلى الذات لخواص المقربين، وهذه رتبة في الوصول وفوق هذا مقام حق اليقين، ويكون من ذلك في الدنيا لخواص لمح وهو: سريان نور المشاهدة في كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه، حتى قاله، وهذا من أعلى رتب الوصول، وإذا تحققت الحقائق يعلم العبد من هذه الأحوال الشريفة أنه بعد في أول المنزل فأين الوصول، هيات، منازل طريق الوصول لا تنقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبسى فكيف في العمر القصير الدنيوى؟ انتهى.

وذكر الناظم للإلسان تطوراً آخر، فقال:

أول أطوارك منذ أول	الحس والتمييز والتخييل
والمقل والذكر معاً والفكر	هيات، بل وراء ذلك طور

قلت : الأطوار هي الأحوال التي ينتقل إليها الإنسان من أول نشأته ، كطور
اجتاته وطور طفولته ، ثم شبوبته ، ثم كهولته ثم شيخوخته ، قال تعالى - وقد خلقكم
أطواراً (١) - هذا باعتبار الذات الحسية ، وأما باعتبار المعاني الباطنية فأول ما يدرك الإنسان
الحس ، فيحس بألم الجوع وأضراره والبرودة وغير ذلك من الأمور الضرورية ، ثم
التمييز بين أمه وغيرها ، وبين القريب والبعيد ، ثم الخيال ، وهو أول منشأ الخوف والوهم ،
فيخاف من أمور يعتقد أنها تضر ، ويحب أموراً يعتقد أنها تنفع .

ثم عقل التمييز بين الخار والنافع الحقيقي ، والمراد بالعقل : نهايته ، لأن هذه
الأمور كلها أطوار للعقل ، لكن لما كان ضعيفاً جعل يتطور هكذا ، وأول خلق العقل
عند اجتنان الولد في بطن أمه ، ثم لا يزال ينمو حتى يكمل ، وهو نور خص به هذا الأدي
من دون الحيوانات شرقاً له ، وهو يتفاوت في الثور بحسب القسمة الأزلية .

ثم بعد العقل : القلب ، وهو محل الذكر .

ثم بعد القلب : الروح ، وهي محل الفكر ، وهو التفكير في عجائب المصنوعات .

هذا غاية ما أدركه العامة ، وبني مرتبة السر ، وهي محل الشهود ، والنظرة ، وهو الذي
حجب عن العوام ، وهو الذي أشار إليه بقوله « هيات ، بل وراء ذلك طور ، وهو مقام
السر ، وهو خارج عن مدارك العقول ، لا يناله إلا أفراد القحول ، وإلى ذلك أشار بقوله :

ما ناله الجمهور والوراد وإنما يناله الأفراد

قلت الورداد : جمع وارد ، وهو الذي يقصد الماء للشرب ، يعني أن هذا السر الذي هو
وراء العقول والأفكار تسمية ما ناله جمهور الناس ، ولا كل من قصده وأراده ، وإنما
ناله الأفراد من الرجال ، دلم الحق تعالى أولاً على أوليائه من أهل هذا السر ، وأطلعهم
على ما أودعهم من خصوصية اصطفاؤه ، فأسلموا إليهم أنفسهم ، وانقادوا إليهم بكلبتهم ،
حتى قالوا لهم : ها أنتم وربكم ، فهؤلاء هم الذين أطلعهم على مكتون سره ، وأمرار هيبه ،
فإن بأسوا بها أبيضت دماؤهم غيرة عليه من مولايم ، كما تقدم ، وهو الذي أشار إليه الشيخ
أبو مدين بقوله :

وفي السر أسرار ديه في لطيفه زاق دمانا جهره لوها نحا

ثم قسم العقل على ثلاث مراتب على اصطلاح القدماء ، فقال :

منفلا يدعى ومستفاد وعقل تخصيص لمن أراد

قلت : هذا اصطلاح القدماء ، جعلوا العقول ثلاثة : عقلا يسمى منفلا ، هو العقل
الفرى المجهول فيه من غيرا كنساب ، وعقلا يسمى مستفاداً ، وهو المكتسب بالإنجازات
والرياضات والتجريات ، ولذلك يقول العامة : كل حنة تزيد عقلا ، وعقلا يسمى عقل
التخصيص ، وهو : الذى خص الله به أنبياءه ورسله ، وقد ينتهى إلى بدايته العقل المستفاد
بالرياضة ، وهو عقل أكابر الأولياء ، فهاية كمال عقل الأولياء بداية عقل الانبياء ،
ولذلك كانت نهاية الولي بداية النبى ، كما أشار إلى ذلك بقوله :

وحيث فيه ينتهى الولي فن هناك يبتدى النبى

قلت : فهاية الولي بداية النبى ، ونهاية النبى بداية الرسول ، ونهاية الرسول بداية
نبينا (محمد) صلى الله عليه وسلم .

وكلام من رسول الله ملتقى غرقا من البحر أو رشفا من امهم

وواقفون لديه عند حدهم من نقطة العلم أو من مشكلة الحكم

فأول قدم النبى : الجمع بين الحقيقة والزريعة ، لأنه لا سير له ، لأن السير فى مبادى
النفوس ، وهم مطهرون منها ، فقد خاضوا بحر التحقيق ، ثم رجعوا إلى التشريع ، وأما
قول أبى يزيد : خضنا بحراً وفتت الانبياء بساحله (١) ، فإرادته أنه دخل البحر ولم يخرج

(١) والله فى القريب الذى يفهمه أكابر الناس وأصاغرهم من أهل العلم أن ما بين
الانبياء والمخلوق جميعاً بحر التوحيد ، الانبياء واقفون على ساحل منه يدعون الناس إلى
دين الله .

قالوا لىاء خاضوا هذا البحر أول الناس ، استجابة لدعوة الانبياء إياهم .
وهذا معنى من المعانى ، والله أعلم .

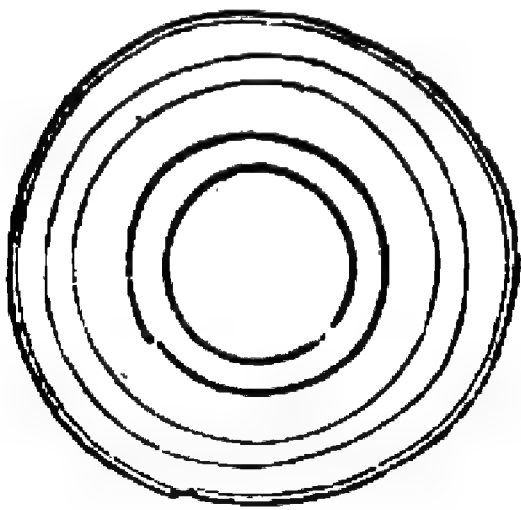
والذين خاضوا فى أعراض الأولياء ، وأولوا هذا الكلام تأويلاً فاسداً لم يتطهروا من
آداب الدين شيئاً ، ولم فالكفوا عن تكفير أفكار المسلمين وأولياتهم واستباحة أعراض
المؤمنين كأنهم يبتغون لله ركناً وسجوداً وما طعموا الجنة للنوم مدة حياتهم : إرضاء لله .

إلى ساحل بر الشريعة ، فهو إقرار منه بالتقصير ، لأنه قال هذا في حال الجذب ، والمجذوب
تصحنى يصحو من سكره ويرجع إلى البقاء ، بخلاف الأنبياء عليهم السلام ، فقد عرفوا
بحر وغاصوه ، وخرجوا إلى البر ليسلكوا الناس .

وقال الشيخ أبو العباس رضى الله عنه في تأويله : فمضى وقت الأنبياء بساحله من
الجاب الآخر ، على ساحل الفرق ، يدعون الخلق إلى الخوض فيه ، أى فلو كنت كاملا
وقفت حيث وقفوا .

قال في لطائف المائن : وهذا الذى فسر به الشيخ هو اللائق بمقام أبى يزيد ، وقد قدمنا
عنه أنه قال : جميع ما أخذ الأولياء كزق مملوء عسلا ، ثم رشحت منه رشاحة ، ففى باطن
لرق للأنبياء ، وتلك الرشاحة هى للأولياء ، والمشهور عن أبى يزيد هو التعظيم لمراسم الشريعة
والقيام بكامل الأدب . انتهى .

وأما قول من قال : إن دائرة الولى أوسع من دائرة النبي ، فراده بذلك أن الأنبياء
عليهم السلام لشدة قربهم من الحضرة مشدد عليهم فى الأدب والحضور والهيبة والتعظيم
والإجلال ، فأقل شىء يصدر منهم يعاتبون عليه ، بخلاف الأولياء فدائرهم أوسع من جهة
طلب الأدب والحضور ، فهم موسع عليهم من جهة الأدب ، وكذلك دائرة الشهداء ، وهم
المجاهدون نفوسهم فى طلب الحق ، دائرهم أوسع ، وبعدهم دائرة الصالحين ، وبعدهم العوام .



وهذه صورة النوار فى الحسن ، فالنقطة هى
الحضرة مشلا ، والدائرة الأولى للنبيين ،
وثانية للصدّيقين ، وهم الأولياء ، والثالثة
لشهداء . وهم السائرون ، والرابعة للصالحين ،
ومن ودائعهم عموم المسلمين :

وكما كثر التقرب وقع التضيق فى الطلب للقيام بحسن الأدب . وبقدر التضيق فى الطلب
يتم التوسع فى العلوم ، لأن المدد على قدر التقرب ، واعلم أن ترقى الأنبياء محجوب عن
الأولياء ، كما أن ترقى الأولياء محجوب عن العوام .

قال الغزالي رضي الله عنه : اعلم أن منازل السلوك لا غاية لها ، ولا يعرف السالك منها إلا ما رقى عنه ، ولا يعرف ما بين يديه إلا بطريق الإيمان بالغيب ، كما أخبر الله به ، فكما أن الأجنة لا تعرف أحوال الطفولية ، والطفولية لا تعرف أحوال العفلاء ، والعفلاء لا يعرفون أحوال القضايا الربانية - ما يفتح الله للناس من رحمة فلا ممسك لها - والله تعالى أعلم .
ثم كمل الكلام على عقل للتخصيص الذي اختص به الخواص ، فقال :

وفيه تجلى جل المعارف فمن رآها قيل له عارف

قلت : الضمير لعقل التخصيص ، أى وفى عقل التخصيص ظهر وتجلي جل المعارف الربانية والعلوم الدنية ، لأنه ما سمى عقل التخصيص حتى تظهر من الأغيار وتهذب من الرعونات والأكدار ، إما بالأصالة أو بالمجاهدة ، فإذا تظهر من الأغيار على المعارف والأسرار ، فالمعارف هي العلوم ، والأسرار هي الأفواق ، فمن رآها وذاقها يقال له : عارف ، ومن لم يصل لهذا المقام وكان من أهل الدليل يقال له : عالم .

والفرق بين للعالم والعارف : أن العالم دون ما يقول ، والعارف فوق ما يقول .
العالم يصف الطريق بالنعث ، والعارف يصفها بالعين ، لأنه سار معها وعرفها ، والعالم إنما نعت له فقط .

العالم محجوب ، والعارف محبوب .

العالم من أهل اليمين ، والعارف من المقربين .

العالم من أهل البرهان ، والعارف من أهل البيان .

العالم من أهل الفرق ، والعارف من أهل الجمع .

العالم من أهل قوله تعالى - إياك نعبد - والعارف من أهل قوله تعالى - وإياك نستعين - .

العالم يدلك على العمل ، والعارف يخرجك عن شهود العمل .

العالم يحملك حمل التكليف ، والعارف يروحك بشهود التعريف .

العالم يدلك على محافظة الصلوات ، والعارف يدلك على ذكر الله مع الانفاس والاحظات .

العالم يدلك على الأسباب ، والعارف يدلك على مسبب الأسباب .

للعالم يدلك على شهود الوسائط ، والعارف يدلك على محرك الوسائط .

العالم يحذرك من الوقوف مع الأغيار ، والعارف يحذرك من الوقوف مع الأنوار
فبزع بك في حضرة الجبار .

العالم يحذرك من الشرك الجلي ، والعارف يخلصك من الشرك الخفي .
العالم يعرفك بأحكام الله ، والعارف يعرفك بذات الله .
العالم يدلك على العمل لله ، والعارف يدلك على العمل بالله .
العالم يدلك على العمل خوفاً وطمعاً ، والعارف يدلك على العمل محبة وشكراً .
والحاصل : أن من لم يسعده الله بملاقاة العارف ، فلا شك أنه في هو نفسه تالف ،
والله در صاحب بداية السلوك ، حيث يقول :
إن لم تلاق عارفاً في مدتك لا عاش عمر عيشه كعيشتك

وحقيقة العارف هو : الذي فنى عن نفسه وبقي بربه وكل غناه في قلبه ، لا يحجبه جمعه
من فرقه ، ولا فرقه عن جمعه ، يعطى كل ذي حق حقه ، ويوفى كل ذي قسط قسطه ،
والله تعالى أعلم بغيه .

وهذا المقام الكريم لا يناله إلا من له حظ عظيم ، كما أبان ذلك بقوله :
فهذه ميادين الأبطال ليست لكل جبان بطل

قلت : الميادين جمع ميدان بالفتح والكسر ، وهو مجال الخيل ، استعير هنا للخروج من
من ضيق الأشباح . إلى عالم الأرواح ، وهو فضاء الشهود والتزده في حضرة الملك
المعبود ، لأن فيه تنسع دائرة العلوم ، وتجرى نتائج الفهم ، فيه تجول الأفكار في عظمة
الواحد القهار .

والأبطال : جمع بطل ، وهو الشجاع ، والجبان ، هو : الخواف .

يقول رضى الله عنه : هذه العلوم والمعارف التي تتجلى في قلوب العارفين ، وتجول في سعة
رياضها أفسكار المقربين ، هي ميادين الأبطال ، ومجاري أسرار الرجال ، لا ينالها البطالون
ولا يدخل في هيجاتها الخوافون ، بل ما نالها إلا أهل الحزم ، وما طلب جهادها إلا الو
لحزم . وفي ذلك يقول الجليلي رضى الله عنه :

ولياك جزعا لا يهولك أمرها فناناها إلا الشجاع المقارع
وقال آخر :

أيها العاشق معنى حفتاً مهترنا قال لمن يخطبنا

جسد مضى وروح في العا وجفون لا تذوق الوسا
وفؤاد ليس فيه غيرنا فإذا ما شئت أد الشنا

وفي التحقيق : ما ثم إلا سابقة التوفيق ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم .

ثم قرر ما تقدم ، وهو أن دخول الميدان لا يصلح للجبان ، فقال :

هل يصلح الميدان للجبان أو يكمل الزرع بلا إبان

قلت : الإبان هو : الوقت ، يعني أن ميادين القتال لا يدخلها إلا أبطال الرجال ، فالجبان لا يتركه الفزع أن يدخل الميدان .

قال شيخ شيخنا رضى الله عنه : ثلاثة أصناف من الناس لا ينالون من هذا الطريق شيئاً : الخواف ، والمستحى ، والمتكبر ، وإذا شجع نفسه ودخل في طريق الخصوص فلا يستجمل الفتح قبل إباته ، لئلا يعاقب بحرمانه ، فن غرس شجراً أو زرع زرعاً فلا يطمع أن يشر قبل وقته ، كذلك شجرة المعرفة تنبت في قلب المريد حين ملاقاته بالشيخ ، فلا تزال تنمو شيئاً فشيئاً حتى تثمر في وقتها المعلوم ، لكن إن كان يحرسها ويخدم عليها ويسقيها ، طلعت متناهية في الخضورة والبهجة ، وأطعمت سريعة ، وإن فرط فيها أبطأت ، وربما ماتت ، وحرسها هو : العزلة وعدم خلطة العوام ، وخدمتها هو : الذكر والفكر ، وسقيها هو الجلوس بين يدي الأشياخ واستعمال الأحوال والواردات ، ونهاية إطعامها هو الطمأنينة بالله والتسكين في المعرفة بالله ، والغنى بالله عن كل شيء ، فحينئذ يكون من الأبطال ، ويصلح لدخول الميدان ، فترية الشيوخ إنما هي لهذه للشجرة التي هي شجرة المعرفة ، فإدام صاحبها يفتقر إلى من يسقيها له ، فلا بد من مدد الشيخ ، فإذا أثمرت واشتدت عروقها استغنت عن ماء غيرها ، وباقه للتوفيق .

ثم تعجب من إنكار الناس ما لم يحيطوا به علماً ، فقال :

ما أنكر الناس لما لم يعرفوا ما أهجر الولاف لما لم يأنفوا

قلت : ما تعجبية مبتدأ بمعنى شيء ، والجملة بعدها خبر ، والولاف جمع والاف ، من ألف الشيء إذا أروع به ، أى شيء عظيم صير الناس منكبين لما لم يعرفوا ، وهاجرين لما لم يأنفوا ، تعجب رضى الله عنه من إسراع إنكار الناس على أهل هذه الطريق ، مع أنهم

لا مفرقة لهم بها ، ومن أسرارهم في هجران أهلها لتعاطيهم أموراً لم بالقوها ، ولا غرابة ذلك ، إذ الإنكار على الخصوص سنة ماضية ، فإن ثلث القرآن كله في الإخبار عن تكذيب الصادقين ، وكذلك إنكار ما لم يؤلف فإنه هو السبب في تكذيب الرسل ، قالوا : ما سمعنا بهذا في آباءنا الأولين^(١) - إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون^(٢) - قالوا بل تتبع ما وجدنا عليه آباءنا^(٣) - فكل من أتى بحرق العوائد التي اعتادها أهل زمانه تلا بد من الإنكار عليه : سنة ماضية ، ولن نجد لسنة الله تبديلاً .

قال في لطائف المنن : وأعلم أن الله تعالى ابتلى هذه الطائفة بالخلق ، ليرفع بالصبر على من آذاهم مقدارهم ، وليكمل بذلك أنوارهم ، ولتحقيق الميراث فيهم ليؤذا كما أودى من نيلهم فيصبروا كما صبر من قبلهم ، ولو كان من أتى بهدى أطبق للخلق على تصديقهم هو لكال في حقهم ، لكان الأولى بذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد صدقه قوم هدام له بفضلهم ، وحرم من ذلك آخرون حجبتهم الحق عن ذلك بعدله ، فانقسم العباد في هذه الطائفة إلى معتقد ومتنقد ، ومصدق ومكذب ، وإنما يصدق بعلومهم وأسرارهم من أراد الحق سبحانه أن يبايحه بهم ، والمعتزف بتخصيص الله وعنايته فيهم قليل ، لغلبة الجهل واستيلاء الغفلة على العباد ، وكراهة الخلق أن يكون لأحد منهم شغوف في منزلة واختصاص بمنه ، ألم تسمع قوله تعالى - ولكن أكثر الناس لا يعلمون^(٤) - ومن أين لعموم العباد أن يعلموا أسرار الحق في أوليائه ، وشروق نوره في قلوب أصفياه ، انتهى المراد منه .

قلت : واحتجاب الأولياء عن العامة لطف كبير من الله بأوليائه ، واعتناء عظيم منه بأسرار أحيائه ، فإن إقبال الناس على الولي قبل التمكين فتنة كبيرة ، وانظر ما قال الشيخ ابن مشيش : أسألك اعوجاج للخلق على حتى لا يكون لي ملجأ إلا إليك ، والله در القائل :

استنار الرجال في كل أرض نحت سوء الظنون قدر جليل
ما يضر الهلال في حديد اليه بل سواد السحاب ، وهو جميل

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٢٤ . والتقصص ، الآية : ٣٦ .

(٢) سورة الزخرف ، الآية : ٢٣ :

(٣) سورة لقمان ، الآية : ٢١ .

(٤) سورة الاعراف . الآية : ١٨٧ . وهي كثيرة في القرآن الكريم .

وفيه أيضاً لطف كبير بعامة عباده ، إذ لو أظهر سرهم لعامة الناس لكان كل من آذاهم حارب الله ورسوله ، لقوله عليه الصلاة والسلام في الحديث القدسي : يقول الله عز وجل من آذى لي ولياً فقد آذنتي بالحرب (١) ، فقد قيد الحديث بعد معرفتهم ، فأخافهم الله لطفاً بخلقهم .

وقد ضرب بعضهم مثلاً لهذا ، فقال : مثل إذاية العامة لأخفاء أولياء الله كشمل الأعمى إذا رمى بمكازته على رجل صاحب بصر فأوجعه ، فإنه يقوم إليه حتى إذا وجده أعمى كف عنه وعذره ، ولم يبق في قلبه حرج عليه ، وربما أخذ بيده ودله على الطريق .

وقد سأل رجل إبراهيم بن أدهم على العمران ، فدله على المقبرة ، فضربه حتى شجه ، فلما قيل له هذا إبراهيم بن أدهم ، لجمل الرجل يقبل يده ورجله ، ويقول له : اعذرني فأني لا أعرفك ، فقال له إبراهيم : والله ما رفعت يدك من ضربي إلا وأنا أسأل لك المغفرة . ثم دعاهم إلى كتاب الله ليحكم بينهم ، فقال :

أليس قد جبلت العقول على الذي جاء به التنزيل

قلت : جبل على الشيء : طبع عليه وألفه ، ولا شك أن العقول مجبولة على تصديق ما جاء به القرآن ، وهو قد جاء بالحقيقة والشريعة ، إلا أن التشريع فيه كثير ، وذكر الحقيقة قليل ، لأن أهلها قليلون ، وإذا تأملت في القرآن وجدته بشرح ، ثم يحقق ، يقول سبحانه أفعلوا كذا ولا تفعلوا كذا ، حتى يظن الجاهل أن الأمر بيد الخلق ، ثم يقول — ولو شاء ربك ما فعلوه (٢) — ولو شاء الله ما اقتتلوا ولكن الله يفعل ما يريد (٣) — ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين (٤) . وما تشاءون إلا أن يشاء الله (٥) .

فقوم وقفوا مع ظاهر الشريعة ، فحجبوا عن الحقيقة ، وهم أهل الحجاب ، وقوم نفذوا إلى شهود الحقيقة وأنكروا الحكمة ، وهم أهل الجذب ، وقوم جمعوا بينهما ، وهم أهل الكمال .

(١) رواه أحمد ، والحكيم ، وأبو يعلى ، والطبراني ، وأبو نعيم ، وابن عساكر .

(٢) الآية : ١١٢ من سورة الأنعام .

(٣) الآية : ٢٥٣ من سورة البقرة .

(٤) الآية : ١١٨ من سورة هود .

(٥) الآية : ٣٠ من سورة الدھر .

فعلم الحقيقة هو علم الباطن ، وهو علم العالم الروحاني ، وعلم عالم المعاني الذي ينكره
تلك ، وليس ثم شيء غير هذا .

ثبت أن القرآن ورد بما أنكروا ، فقامت الحجة ، وتبينت المحجة ، وبالله التوفيق .

ثم ضرب مثلاً للحقيقة والشريعة في الحسن ، فقال :

هل ظاهر الشرع مع الحقيقة إلا كأصل الفرع في الحقيقة

قلت : الشريعة عمل الجوارح ، والحقيقة معرفة البواطن ، فالشريعة أن تعبده ،
والحقيقة أن تشهده ، فالشريعة من وظائف البشرية ، والحقيقة من وظائف الروحانية ،
الشريعة قوت البشرية ، والحقيقة قوت الروحانية ، وما نقص من أحدهما يزداد في الآخر ،
فافهم ، وما مثل الشريعة الظاهرة مع الحقيقة الباطنية ، إلا كأصل شجرة في بستان ، وهو
الحقيقة ، فأصل الشجرة المغروز في الأرض مثل الحقيقة ، والفرع الظاهر على وجه الأرض ،
مثل الشريعة ، فلا قيام للشريعة إلا بالحقيقة الباطنة ، ولا ظهور للحقيقة إلا بالشريعة ،
فمن نظر إلى الباطن ووجد الله وجد كل شيء قائماً بالله ، ولا فاعل سواه ، ومن نظر إلى
ظاهر العبد وجد له اختياراً في الجملة ، يقوم إذا شاء ويجلس إذا شاء ، ويفعل ويترك
بإختياره في الظاهر ، وعلى هذا وقع التكليف ، وهو للشريعة ، ويسمى للكسب
عند المتكلمين .

فالتحقيق أن العبد مجبور ، لكن في قالب الاختيار ، فمن نظر للجبر الباطني سماه
حقيقة ، ومن نظر لقالب الاختيار سماه شريعة .

أو تقول : من نظر لعالم القدرة وجد الحقيقة محضة ، ومن نظر لعالم الحكمة وجد
للشريعة محضة ، فالواجب على الإنسان أن تكون له عيان : لإحداهما تنظر لعالم القدرة
فيوجد الله ، والآخرى تنظر لعالم الحكمة فيتأدب مع الله ، وليس اسمه القادر بأولى من
اسم الحكيم ، فمن أهمل إحداهما سقط من عين الله ، فمن تحقق ولم يتشرع فقد تزندق
لإبطاله الحكمة ، ومن تشرع ولم يتحقق فقد تفسق لقصور نظره عن شهود القدرة ، فلا
يخلو من شرك خفي ، وإنما لم يكفر ، لأنه يقر بوجود القدرة ، لكنه لم يعمل بما علم ،
فهو كعالم غير عامل . والله تعالى أعلم .

تنبه : قد يبلغ الوالى إلى مقام فى الوصول يقال له ، افعل ما شئت فقد غفرت لك (١) ،

ومعنى ذلك : أن الله تعالى يتولاه ويأخذه عن نفسه ، وينطى وصفه بوصفه ، ونعته بنعته ، فيكون محظوظاً من شهود نفسه ، فيكون فعله كله بالله .

وفى القوت فى كتاب المحبة ، - إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب (٢) - .

وفى البخارى : ، وما يدريك لعل الله اطلع على أهل بدر فقال اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم (٣) ، .

وفى كتاب القصد ، للشاذلى : يبلغ الوالى مبلغاً يقال له أصبحناك السلامة ، وأسقطنا منك الملامة ، افعل ما شئت اه .

وليس هذا قولاً بإسقاط التكليف ، فما دامت البشرية موجودة فلا بد من التكليف ، فإذا انهدمت البشرية ، وتخلصت الرء حانية إلى مولاهما ، سقط حينئذ التكليف ، فافهم .

قال فى نوادر الاصول ، من حظه من أهل التقريب والجلال والجمال ، وقد أقيم فى الهبة والالاس ، قد غاب عن العقوبة ، ولكنه يخاف التحويل والهوى والسقوط لما ركب فى نفوس بنى آدم من الشهوات ، فهى أبدأ تهوى بصاحبها إلى الإخلاد والبطء ، وإنما يسكن خوف التحويل إذا خلاص إلى الفردانية ، وتحقق بالوحدانية ، لتلاشى الهوى منه والشهوة بكشف الغطا ولا يذهب خوف ذلك وإن سكن ، لبقاء خيال ذلك فى حق غير الانبياء ، أما الانبياء فلم يبق لهم ظل الهوى فبشروا بالنجاة ، فلم تضرهم البشرية لأنهم لم يبق لهم نفوس فتستند وتحزر إذ أمنت السقوط ، ومن بعدهم بقى لهم فى نفوسهم شيء ، فنحوا للبشرى وأنهم عليهم الأمر صنعاً لهم ، لتكون نفوسهم منقعة بخوف الزوال ، هذا هو

(١) كما قيل لأهل بدر . فى الحديث الصحيح : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : وما يدريك لعل الله قد اطلع على أهل بدر فقال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم ، رواه البخارى ، ومسلم ، والإمام أحمد ، وأبو داود ، والترمذى عن على ، وأبو داود عن أبي هريرة ، وأحمد عن ابن عباس ، وعن جابر رضى الله عنهم .

(٢) هذا لفظ حديث شريف لعه : عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا أحب الله عبداً لم يضره ذنب ، والثائب من الذنب كمن لا ذنب له ، ذكره الديلمى ولم يخرج له ولده فى مسنده .

الأصل فافهمه ، ماذا بعد أن قرر أن الشوق وخوف القلق من حبه لا يذهب على المجدوب [المحدث ، وأن كان بينه وبين مولاه من الأسرار ما يسكن عنه خوف التحويل ، وإنما يتوهم ذلك من وقف في الجلال والجمال ، فسكن شوقه بلذة ما نال من القربة ، فانظره اهـ .

ثم ضرب مثلاً آخر ، فقال :

والشرع جارٍ وصحيح للعقل كحذوك النعل معاً بالنعل

قلت : حاصل كلامه أن ظاهر الشريعة وباطن الحقيقة كتطبيق النعل على النعل ، بحيث لا يفوت أحدهما على الآخر ، كذلك الحقيقة الباطنية مع الشريعة الظاهرة ، متلازمان ، لا تفوت إحداهما الأخرى ، فما ظهر على العبد من عمل الشريعة ، فإنما هو من مدد الحقيقة قال تعالى — وربك يخلق ما يشاء ويختار ، ما كان لهم الخيرة (١) — وقال تعالى — وما تشاءون إلا أن يشاء الله (٢) .

أو نقول : ما ظهر على العبد من عمل الحكمة ، فإنما هو من فعل القدرة ، فالقدرة باطنة والحكمة ظاهرة .

وسأذكر لك شيئاً من بحر القدرة وشيئاً من بحر الحكمة ، ليظهر لك الفرق بينهما مع اتحادهما محلاً ، فنقول والله التوفيق :

بحر القدرة بحر زاهر وأمره قاهر ، ليس له أول ولا آخر ، يظهر ويعطن ، ويحرك ويسكن ، ويتقبض ويدفع ، ويعطى ويمنع ، وينخفض ويرفع ، بيده مقادير الأمور ، وعلى قطب دائرة الأفلاك تدور ، وتطير إليه قلوب المشتاقين ، وتعم في طرف لجنه أرواح السائرين ، ونحوض في وسط لججه أسرار الواصلين ، ولا تعرف كنه عظمته قلوب العارفين ، غاية متهاها الدهش والخيرة ، ثم المكوف في الحضرة .

وأما بحر الحكمة فهو أيضاً بحر زاهر ، وأمره ظاهر ، يظهر الأسباب ، ويسدل الحجاب ، يربط الأحكام بالعلل ، ويقرر الشرائع والمثل ، ينفط ما يبرز من عنصر القدرة بدائه ، ويستتر ما يبرز من أسرار الربوبية بعز كبرياته ، ينور الطريقة ، ويصون الحقيقة ،

(١) الآية : ٦٨ من سورة القصص .

(٢) الآية : ٢٩ من سورة النكوير .

يظهر العبودية ، ويبطن الحرية ، من وقف معه كان محبوباً ، ومن نفذ منه إلى بحر القدرة كان واصلاً مجذوباً . ومن نظر إليهما معاً كان كاملاً محبوباً ، وبالعناية مصحوباً .

واعلم أن القدرة والحكمة : كل واحدة تنادى على صاحبتها بلسان حالها ، أما القدرة فتقول للحكمة : أنت تحت قهرى ومشيئى ، لا تفعلنى إلا ما نشاء ، ولا يصدر منك إلا ما أريد ، فإن أردت خلافى رددتك ، وإن سبقتنى أدركتك .

وتقول الحكمة للقدرة : أنت تحت حكمتى وعند أمرى ونهى ، فإن عصيتنى أدبتك ، وربما قتلتك ، ثم إن اتفق فعلهما كان ذلك للفعل طاعة وحقيقة نورانية ، وإن اختلف فعلهما ، بأن أظهرت القدرة خلاف ما تريد الحكمة ، كان معصية ، وهى حقيقة ظلمانية ، فتبين أن الحقيقة لا تفارق الشريعة ، إذ لا قيام لها إلا بها ، والشريعة لا تخرج عن الحقيقة ، لأنها ستر لها ورداء يصونها .

فإن قلت : ظهور المعاصى والذنوب حقيقة بلا شريعة ، فأين التلازم الذى ذكرت ؟

قلت : النهى عن فعلها وتسميتها معاصى هو من جهة الشريعة ، فلولاً الشريعة ، ما سميت معاصى ، وانظر ما قاله صاحب العينية :

فإن كنت فى حكم الشريعة عاصياً فإننى فى حكم الحقيقة طائع

فلولا الشريعة لم تميز الطاعة من المعصية ، فالشريعة صادقة بالواجبات والمباحات والمحرمات ، فمهما صدر شيء من هذه الثلاثة فهو شريعة ، فثبت التلازم ، وهو معنى قول الناظم ، والشرع جار ، وهو صحيح العقل ، لمخ وهو على حذف مضاف ، أى : ومدرك صحيح العقل ، والمراد بالعقل : عقل التخصيص المتقدم ، الذى اختص به الأولياء ، وينتهى إليه عقل الأولياء ، لأنه هو الذى يدرك علم التحقيق ، لا مطلق العقل كما تقدم ، ويحتمل أن يريد الناظم : أن ما أتى به الشرع كله موافق لإدراك العقول ، كما قال البوصيرى رضى الله عنه :

لم يمتحن بما تعيا العقول به حرصاً علينا ، فلم نرتب ولم نهم

فمائل الشريعة كلها موافقة لما يقتضيه العقل ، فما حرم الله تعالى شيئاً إلا لحكمة ، وهى ما فيها من البعد عن الله ، وما أوجب شيئاً إلا لحكمة ، وهى كونه يقرب إلى الله ، ومما تامل الفقه كلها لحكمة ، فمنها ما أدركه الناس ، ومنها ما لم يدركوه ، ويقولون فيه :

إنه تعبدى ، لكن هذا الاحتمال وإن كان ظاهر الناظم ليس فيه رد على المنكر لإثبات علم الحقيقة ، لأن هذا الأمر يشبهه أهل الظاهر ويقررونه ، وسياق الكلام إنما هو فى الرد على أهل الحقائق فتأمله ، والله أعلم .

ثم ضرب أيضا مثلا للشريعة الظاهرة مع الحقيقة الباطنة باليوافيت التى تكون فى البحر ، فقال :

ما مثل المعقول والمنقول إلا كدر زاهر مجهول
حتى إذا أخرجته الفواص لم يكن للدر إذن خلاص
ولأنما خلاصه فى الكشف عن الغطاء حيث لا يستخف
فالصدف الظاهر ثم الدر معقولة والجهل ذاك البحر

قلت : المراد بالمعقول هنا هو علوم الحقائق العرفانية والأسرار الربانية ، وتسميتها معقولا مجاز ، لكنه قد قدم أن عقل للتخصيص الذى هو للخواص يدرك علم الحقيقة ، فيسمى حينئذ ما أدركه معقولا بهذه النسبة ، وحاصل هذا المثال أن الروحانية التى هى محل علوم الحقائق مثلها كالليرة ، وهى الياقوتة الكبيرة ، والبشرية التى هى محل العلوم النغلية كالصدف لتلك الياقوتة ، والجهل الذى عم الناس وأحاط بهم كالبحر ، فمن دونه بحر الجهالة لم يلتفت إلى در ولا صدف ، بل غرق فى بحر الجهالة وأتلف ، ومن أيقظه الله من دونه ، ونبهه من غفلته ، غاص بفكره بينا وشمالا فاستخرج ياقوتة سوداء مستورة فى صدفها ، لا يظهر منها إلا الصدف وهى نفسه ، فإذا قنع بالاغتناء بظواهرها ولم يذهب إلى من يخلصها ويكشف له عن باطنها ، بقى فقيرا على الدوام ، وإن أراد أن يخلصها بنفسه بقى متعوبا معها على الدوام ، وربما أفسدها ، وكذلك إن ذهب بها إلى غير عارف ماهر بتصقيل اليواقيت أفسدها له أيضا ، وإن ذهب بها إلى عارف ماهر غواص فى البحر عارف بتصقيل اليواقيت كشف له عنها فى أقرب ساعة ، فصار غنيا موسعا عليه ينفق منها كيف يشاء ، قال تعالى - لينفق ذو سعة من سعته (١) .

قال فى الحكم فى تفسيرها ، لينفق ذو سعة من سعته ، الواصلون إليه ، ومن قدر عليه رزقه ، السائرون .

هذا حاصل كلام الناظم مع ما في حمله عليه من التعسف ، لكن بهذا الحمل يجرى على نسق : ما قبله ، ويمكن حمله على ظاهره ، فتكون الالفاظ كالصدف ، والمعاني كالدر ، والجهل بذلك كالبحر ، لكن هذا الامر لا نزاع فيه بين أهل الظاهر وأهل الباطن ، والكلام إنما هو في المعاني التي هي ضد المحسوسات ، وهو الذي شرحنا به .

فقوله : « ما مثل المعقول والمنقول » ، هو على حذف مضاف : أي محل المعقول ومحل المنقول .

وقوله : « إلا كدر زاهر » يقرأ بالإضافة لزاخر على حذف مضاف ، أي كدر بحر زاهر وقوله « مجهول » : نعت لدر ، لا لزاخر ، وقوله : « لم يكن للدر إلخ » ، معناه أن الدر حين يخرج من الغواص لم يكن مستخلصاً من صدفه ، وإنما خلاصه بالكشف عنه من عارف به كما تقدم ، بحيث يصير ظاهراً لا يستخفى ، وباقي الكلام ظاهر .

ثم قال رحمه الله :

ولأننا المعقول في شكل الحروف كما يكون الدر في جوف الصدوف

قلت : هذا البيت من تمة ما قبله ، والمراد بالحروف رسوم البشرية الظاهرة . وقد تقدم أن اصطلاح الصوفية يطلقون الحروف والرسوم والأشكال على صور الأكوان الحسية ، والمعنى : وإنما المعقول الذي هو المعاني اللطيفة في شكل الرسوم الحسية كالدر في الصدف .

أو تقول : وإنما المعاني في رسوم الألوان كالإواقف في أصدافها ، فالأواني أصداف ، والمعاني إواقف ، فن وقف مع الحروف والأشكال ، وقنع بتحسين خطوطها وتزيين أشكالها ، فاته الإطلاع على جواهر العلوم وإواقف الفهم ، وبقي جاهلاً مضيقاً عليه في أرزاق العلوم ، ومقتراً عليه في نتائج الفهم ، ومن نفذ إلى ما في باطنها من الدر والجواهر الحسان كان من الأغنياء : أهل الشكر والإحسان .

ويحتمل أن يريد بالحروف معناها الأصلية ، وهي الالفاظ الدالة على المعاني . والمراد بالمعقول علم الباطن ، فإنه موجود في القرآن ، لكنه باطنى خارج عن ظاهر ما تؤديه الحروف .

قال سيدنا على كرم الله وجهه : « إن للقرآن ظاهراً وباطناً ، وحداً ومطلعاً ، قالوا : فالظاهر للنحاة والقراء ، والباطن المفسرين وأصحاب المعاني ، والحد للفقهاء والعلماء ، والمطلع لأرباب الكشف والتحقيق » . والمطلع بفتح اللام هو محل الإطلاع ، كأن القرآن

هكاه يطلع منها على أسرار خفيه تعالى ، وبالله للتوفيق .

ثم ضرب مثلاً آخر للعلم الظاهر والباطن ، فقال :

هل ظاهر الشرع وعلم الباطن إلا كجسم فيه روح ساكن

قلت : ظاهر الشرع هو العلم للظاهر ، وهو العلم المنقول ، والعلم الباطن هو

العلم الموهوب .

أو تقول : العلم الظاهر هو علم الحكمة ، والعلم الباطن هو علم القدرة .

أو تقول : العلم الظاهر هو علم البشرية ، والعلم الباطن هو علم الروحانية .

أو تقول : العلم الظاهر هو علم العبودية ، والعلم الباطن هو علم الربوبية ، فالأول : علم

الأوراق ، والثاني : علم الأذواق ، وعلم الربوبية هو : علم الفناء والبقاء والسكر والصحو

والجمع وجمع الجمع ، وغير ذلك ، وهذا العلم لا يؤدي بالعبارة ، وإنما يرمز إليه بالإشارة ،

لأنه ذوق لا على .

فإن قلت : علم الطريقة متعلق بالقلوب ، وهي باطنية ، فكيف لا يكون من

علم الباطن ؟

قلنا : لما كان يؤدي بالعبارة ، والعبارة تظهره وتوضحه ، صار من قبيل علم الظاهر ،

وهو تصوف أهل الظاهر ، وأما تصوف أهل الباطن فلا يدرك بالعبارة ، وقد تقدم

قول الشيخ :

لربك أن تطمع أن تحسوه من دقة أو شعر أو أرجوزة

وهذا هو علم الباطن عند المحققين .

وقال الشيخ عبد الوادئ : العلوم ثلاثة : ظاهر ، وباطن ، وباطن الباطن ، كما أن الإنسان

له ظاهر ، وباطن ، وباطن الباطن . اهـ .

لجعل علم الشريعة ظاهراً ، وعلم الطريقة باطناً ، وعلم الحقيقة باطن الباطن ، وهو

حسن ، إلا أن الجمهور حصروا العلم في القسمين ، والامر قريب .

فقال : العلم الظاهر مع العلم الباطن ، كجسم فيه روح كامن ، فالجسد لا يقوم بغير روح ،

والروح لا تظهر من غير جسد ، وإذا خلى الجسد من الروح كان ميتاً ، ولا عبرة به ،

ولذلك كان من تشرع ولم يتصوف فقد نفق ، لأن أعماله أشباح بلا أرواح ، وإذا خلت

الروح من الجسد بطلت ولم يظهر لها وجود ، ولذلك كان من تحقق ولم يتشرع فقد تزندق

لأنه تصير حقيقته عريانة بلا كسوة ، فيقتل عليها ، فإن كان محقاً وغلبه السكر كان شهيداً وإن كان مدعياً كان بعيداً ، ومن الحضرة طريداً ، والله يعصمنا من الزلل ويوفقنا لصالح القول والعمل ، بحجاء الحبيب مولانا محمد صلى الله عليه وسلم وعظم وبجل .

ثم ذكر أصل النزاع الذي بين أهل الظاهر والباطن ، فقال :
لو عمل الناس على الإنصاف لم تر بين الناس من خلاف

قلت : الإنصاف هو : الرجوع لقول الغير بعد وضوح دليله ، أو الإقرار بالحق بلا مكابرة ، فلو اتفق الناس على الإنصاف ، وأقروا بالحق أينما ظهر من غير مراء ولا جدال ، لم يبق خلاف بين الناس ، إذ الطريق واضح ، والحق لائح ، والداعي قد أسمع ، ما التحير بعد هذا إلا من العمى كما قال البلخي ، لكن طباع النفوس لا ترضى بحط الرموس ، ومن كان رئيساً لا يرضى أن يصير مرءوساً ، وهذا سبب الخلاف والاختلاف بين الأمم : فريق في الجنة وفريق في السعير ، واتفاق الناس كلهم على الحق خلاف الحكمة قال تعالى - ولو شاء ربك لجعل الناس أمة واحدة ولا يزالون مختلفين إلا من رحم ربك ولذلك خلقهم (١) - قيل : للاختلاف وقيل : للرحمة ، فآله يرحمنا وأحباءنا برحمته الخاصة والعامة آمين .

ثم إن الحق غريب وأهله غرباء في كل زمان ، قال عليه الصلاة والسلام «طوبى للغرباء» (٢) ، وإلى هذا أشار بقوله :

واعلم رعاك الله من صديق	أن الوري حادوا عن التحقيق
إذ جهلوا النفس والقلوبا	وطلبوا ما لم يكن مطلوباً
واشتغلوا بعالم الأبدان	فالكل ناء منهم ودان
وأنكروا ما جهلوا وزعموا	أن ليس بعد الجسم شيء يفهم

قلت : ذكر رحمه الله أن الخلق حادوا ، أي أعرضوا عن طريق التحقيق التي هي علم الحقيقة في عين الشريعة ، أو علم الربوبية في عين العبودية ، وذكر أن سبب إعراضهم عن ذلك أربعة أمور :

(١) ١١٨ من سورة هود .

(٢) ولفظ الحديث كاملاً : «طوبى للغرباء : أناس صالحون في أناس سوء كثير من يعصيهم أكثر منطيعهم ، رواه الإمام أحمد عن عبدالله بن عمرو .

الأول : جهلهم بحال نفوسهم وقلوبهم ، فلم يدروا هل هي مريضة أو صحيحة ، وهل هي باقية على أصلها أو تغيرت ، ومن شر بشيء أنكر وجود الطبيب ، ومن ردّها إلى أصلها يبقى مريضاً على الدوام والتحق بمرتبة العوام .

الثاني : انطماس بصيرتهم حتى اشتغلوا بطلب ما لم يطلب منهم ، وفرطوا فيما طلب منهم فاشتغلوا بطلب الرزق المقسوم والحرص على الدنيا وجمعها واحتكارها ، وتركوا ما طلب منهم من حقوق مولاهم والتفكر فيما أولاهم ، لحادوا عن الطريق ، وأنكروا معالم التحقيق . وفي الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ما بال أقوام يشرفون المترفين ويستخفون بالعابدين ، ويعملون بالقرآن ما وافق أهواءهم ، وما خالف أهواءهم تركوه فصد ذلك يؤمنون ببعض ويكفرون ببعض ، يسمعون فيما يدرك بغير سعى من القدر المقدر والاجل المكتوب والرزق المقسوم ، ولا يسمعون فيما لا يدرك إلا بالاسعى من الجراء للمفور والسعى المشكور ، والتجارة التي لا تبور ،

قال إبراهيم الخواص : العلم كله في كلمتين « لا تتكلف ما كفت ، ولا تضع ما استكفيت » . الثالث اشتغالهم بعالم الأشباح دون التعرّيج إلى عالم الأرواح ، فاشتغلوا بخدمة الحس وعلم الحس وعمل الحس ، وغفلوا عن علم القلوب وعمله ، وأنكروا ما يدل عليه ، فصارت خدمتهم حسية وعلومهم حسية رصحية ، وأعمالهم بدنية حرفية ، والحق من وراء ذلك كله ، وهذا كله بعد عن الوصول إلى التحقيق إلا بسابقة التوفيق ، فكل من اشتغل بخدمة الحس فهو بعيد في حال قرب ، منقطع في حال وصول ، وهذا معنى قوله : « فالكل ناء منهم ودان ، أي فالكل منهم ناء أي بعيد ، وهو دان أي قريب .

وفي مناجاة الحكم : « إلهي ما أقربك مني ، وما أبعدني عنك ، إلخ .

الرابع : إنكارهم لهذا المقام الذي جهلوا ، وهو علم التحقيق ، الذي هو الزوال ، ويسمى العالم الروحاني ، وزعموا أنه ليس شيء زائد على الأجسام الحسية ، وهم معذورون في الإنكار ، إذ لا يعرف البلد إلا من وصلها :

لا يعرف للشوق إلا من يكابده ولا للصباة إلا من يعانيها
وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق .

ثم هؤلاء الجهال لم يقنعوا بالإنكار حتى كفروا من قال بشيء من ذلك ، كما قال :
وكفروا وزندقوا وبدعوا إذا دعاهم اللبيب الأورع

قلت : هذا من الحرمان ، وعلامة الخذلان، إذا دعاهم أحد إلى التحقيق قالوا: إنه زنديق، وإذا خرق عوائد نفسه في دواء قلبه قالوا : إنه صاحب بدعة ، وهذا كله حجاب وستر لأوليائه ، فإذا سمع المرید شيئاً من ذلك فليطلب نفسه ، فذلك عناية به ، نعم ينبغي أن يحزم نفسه في ستر السر الذي عنده ، فإن أفشى شيئاً من ذلك فسيف العلاج فوق رأسه ، ثم المنكر على الصوفية في أقوالهم وأحوالهم إن كان ذلك من عدم فهمه فقد يندرج بهله ، لضعف مدركه وضيق عطشه (١) كما قال الحضرمي رضى الله عنه في كتابه « صدور المراتب ونيل المراتب » ونصه بعد كلام : والجاحد لمن يوحى إليه شيء من هذا الكلام وما يفهم فهو معذور مسلم له حاله من باب الضعف والتقصير ، وهو مؤمن بإيمان الخائفين ، ومن يفهم شيئاً من ذلك فهو لقوة إيمان واتساع دائرة ، ومشهده مشهد واسع ، سواء كان مورد نور أو ظلمة بحسب ما في القوايل من الودائع الموضوعات على أى صفة كانت ، انتهى .

وإن كان تعصباً وتزكية لنفسه ، وإرادة الترفع على غيره فهو هالك مشهور ، وعلامة الأول الوقوف على حد ما يقع به التعبير من غير زيادة ولا تشنيع ، وعلامة الثاني التشنيع واتساع الدعوى والهروب من مواطن التحقيق ، ومن رزقه الله التسليم فهو أولى .

وقد سئل النووي رحمه الله عن ابن العربي الحاتمي فقال : الكلام كلام صوفي ، — و — تلك أمة قد خلت لها ما كسبت (٢) — الآية ، وكذلك قال ابن أبي زرعة في شأنه أيضاً، وفي ابن الفارض ، وذكر فيه كلام الناس من المنكرين وغيرهم ، وقال : إن يعترض على الكلام ويتركه القائل لاحتمال توبته اه .

قلت : وإنكار أهل الظاهر على أهل الباطن لعدم فهم مقصودهم ، ولعدم الوصول إلى مقامهم ، ولذلك كان التسليم أولى ، بل هو نصف الولاية ، والله أعلم .

ثم ذكر سبب إعراضهم عن دعاهم إلى الله فقال :

كل يرى أن ليس فوق فهمه	فهم ولا علم وراءه عليه
محتجاً عن رؤية المراتب	هل يسمى عالماً وطالب

(١) جمعه : أعطان ، وهي : مبارك الإبل .

(٢) سورة البقرة ، الآية : ١٤١ .

قلت : هذه سنة الله في خلقه ، قال تعالى - كل حزب بما لديهم فرحون (١) - كل من كان في مقام يرى أنه لا مقام فوق مقامه ، فإن شوق إلى ما وراء ذلك أنكره ، وحكمة ذلك تمام الحكمة الحكمة التي سبقت له في الأزل ، فإن كان ممن سبق له شيء من هذه الخصوصية إذا شوقته تشوق وطلب ، فيوصله الله إلى ما سبق له ، بخلاف ما إذا لم يسبق له شيء من ذلك ، إذا ذكرت له مراتب الرجال أنف وقال : كان ذلك فيما مضى ، خوفاً أن يسقط له جاهه ومرتبته من عين الناس ، فباء بالخيبة والإفلاس ، واحتجب عن مراتب الكمال ، وتختلف عن مقامات الرجال ، والعباذ بالله من مثل ذلك ، ودعواه أن لا فهم فوق فهمه ، ولا علم فوق علمه ، جهل عظيم ، فإن فوق كل ذي علم عليم ، ومنتهى للعلم إلى الله العظيم ، كما أخبر تعالى في كتابه للحكيم وقال تعالى - وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً (٢) - واتساع دائرة العلوم ، وفتح مخازن الفهم إنما هي منح إلهية ، ومواهب اختصاصية ، لا نال بكسب ولا احتيال ، وإنما تنال بفضل الكبير المتعال مع حكمة محبة الرجال ، والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم .

وقوله : عل ، ألخ لغة في : لعل ، أي إنما أنكر لعله يسمى عالماً وطالبا للعلم ، وهذه علامة الرياء أعادنا الله منها بمنه وكرمه ، ثم استبعد الناظم أن يصدر مثل هذا عن له عقل كامل ، فقال :

مهمات هذا كله تقصير يأنفه الحاذق والتحرير

قلت : التحرير ، هو : الذي يحقق الأمور ويحررها ، يعني أن القناعة بعز الناس ومدحهم مع قنوت الحظ من الله بمعرفته الحقيقية لا يرضاها من كان صادقاً تحريراً ، بل لا يرضاها الجاهل فضلاً عن العالم .

قال في الحكم : استشرافك أن يعلم الناس بخصوصيتك ، دليل على عدم صدقك في عبوديتك ، اهـ

ثم حرض على التهوؤ إلى الله تعالى ، فقال :

فكيف يرضى هذه الغياهب	فمن يرد موارد المواهب
بل ظاهر يخفى ، وخاف يبدو	فالعلم ما يلنى إليه حد
يوقف عند حدما أو ضايه	والعلم لو كانت له نهاية

(١) سورة المؤمنون ، الآية : ٥٣ ، والروم ، الآية : ٣٢ .

(٢) سورة الإسراء ، الآية : ٨٥ .

ما كان اذكى مرسل واسمى قيل له : قل رب زدني علما
فمش بما لديك ما حيت وجنب للتعنيف والتعنت
والكل قد يعجبه الكلام فالزم هدى نفسك والسلام

قلت : حاصل كلامه أن من أراد أن ينهل من موارد المواهب والأسرار ، وتشرق عليه شمس الأنوار ، فلا يرضى لنفسه الإنكار على أولياء الله ، فيحارب بذلك مولاه ، ولا يحصر العلم فيما عنده ، وينكر أن يكون فوق علمه علم ، أو فوق حاله حال ، أو فوق مقامه مقام ، فلا يرضى بهذه المذاهب السخيفة إلا ذور الهمم الضعيفة ، فالعلم لا يوجد إليه حد ينتهي إليه ، بل هو كالشمس والآقار والنجوم ، لا يزال غارباً وطارماً ومتوسطاً ما دام الدهر ، فعلوم العارفين كالشمس ، وعلوم الساترين كالأقار ، وعلوم عامة أهل اليمين كالنجوم ، وهي في الجميع ، تارة تظهر وتشرق بقوة الواردات ، وتارة تختفي بضعف الواردات ، ولا حد للعلوم والمعارف والأسرار ، فلو كان لها حد لتنتهي إليه ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول الله تبارك وتعالى له - وقل رب زدني علماً (١) - وهو سيد العارفين ، فدل على أن العلم لا نهاية له ، قال تعالى - وفوق كل ذي علم عليم (٢) ، واعلم أن جميع العلوم الرسمية كلها يبقى معها الافتقار إلى غيرها ، أو إلى الزيادة منها ، إلا علم الشهود إذا تحقق وأطمأن العبد بالله ، فإنه يحصل له الغنى الأكبر ، ولا يلتفت إلى علم آخر أبداً ، كمن عنده للفلس أو الدراهم أو الذهب ، ثم وجد الإكسير ، فلا شك أنه يزهد فيما كان عنده ، ولا يلتفت إليه ، كذلك العارف لم تبق له حاجة إلى شيء إلا إلى مولاه .

قال سيدي عبد الرحمن الفاسي رضي الله عنه : كنت أعرف أربعة عشر علماً ، فلما أدركت الحقيقة سرطت (٣) ذلك كله ، ولم يبق لي إلا التفسير والحديث والمنطق اه فإذا حصل لك أيها المرشد علم المعرفة ، فمش بما لديك منها ما حيت ، فهذه هي الحياة الطيبة التي لا يعقبها موت أبداً ، وجنب التعنيف والتعنت ، فالتعنيف التغليظ في الكلام ، والتعنت

(١) سورة طه ، الآية : ١١٤ .

(٢) الآية : ٧٦ من سورة يوسف عليه الصلاة والسلام .

(٣) أي بلغت ، ومنه قولهم : الأخذ سريطى ، والافضاء ضريطى ، قوله « سريطى »

بضم السين وتشديد الراء مع الفصح وإسكان الياء ، وكذلك « ضريطى » بمعنى إذا أخذ ابتلع وعند الرد ينصب .

النازعة والمغالبة ، لأن هذه الحال من شأن الجاهل ، فلا تبدى ما يفتح به عليك ، ولا تتكر ما لا ينتهى إليه عليك ، ولا تنازع من نازحك ، فللمحققة رب يحمىها ، والطريقة نفس تصطفها والتنازع لا يجلب إلا الشر فى الدنيا والنقص فى الدين ، وكلام القوم يعجب كل سامع إليه ، فلا يفرئك من الناس استحسانهم له ، حتى تطالبهم بحقائقه وتطمع فى سلوكهم عليه ، فإن ذلك يتعبك ويفتح لك باب الدعوى والرعونة والشهوة ، فالزم إصلاح نفسك وهداها ، ولا تلتفت إلى ما سواها ، قال تعالى — يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم (١) — الآية .

وقال الفضيل رضى الله عنه : هذا زمان احفظ فيه لسانك ، وأخف مكانك ، وخذ ما تعرف ، ودع ما تسكر ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : إذا رأيت شحا مطاعا ، رهوى متبعاً ، وإعجاب كل ذى رأى برأيه فعليك بخويصة نفسك (٢) اهـ .

رزقنا الله العمل به إلى الممات فى عافية دائمة وستر جميل ، آمين .

هذا آخر الفصل الرابع بحول الله وقوته .

بتلوه الفصل الخامس ، وبه الختام ، ختم الله لنا بالحسن والمعرفة على التمام .

وحاصل هذا الفصل الإنكار على بعض الفقراء ، تشبها بالفقر ولبسوا على الناس ، فأشار إلى الرد عليهم فى هذا الفصل ، فقال .

الفصل الخامس فى فقراء المصر ، ومتشبهى الوقت .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : هذا الفصل فى مقابلة الذى قبله إذ ذاك فى الرد على أهل النقص من المتفقه ، وهذا فى ذم المخلطين من المتفجرة ، وهو من أم ما يعرفه الصادق فى هذا الزمان ليحكم به على نفسه لا غير ذلك ، وذلك لما فى الوقت من الفساد والتخبط ، لاسيما وقد ورد أن فى صحف إبراهيم عليه السلام : وعلى العاقل أن يكون عارفاً بزمانه (٣) ، ومعرفة الزمان وأهله أمر مهم ، فلا بد من العلم به جملة وتفصيلاً ، لأن من تعلم العلم لنفسه

(١) الآية : ١٠٥ من سورة المائدة .

(٢) وفى حديث آخر : . إذا رأيت الناس قد مرجت عهودهم ، وخفت أماناتهم وكانوا هكذا — وشبك بين أنامله — فالزم بيتك ، واملك عليك لسانك ، وخذ ما تعرف ودع ما تسكر ، وعليك بخيانة نفسك ، ودع عنك أمر العامة ، رواه الحاكم عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضى الله عنهما .

(٣) رواه أبو نعيم فى حديث طويل فى ترجمة أبي ذر الغفارى رضى الله عنه بلفظ أصح ، بدل : عارفاً .

تور ، ومن تعلم للعلم للناس تحير ، ومن لاقى الناس بالنية أفلح ، ومن لا قامم بالاعتراض
خسر ، ولكل قوم حشالة ، وهؤلاء الذين يذكروا أوصافهم بعدهم : حشالة المشبهين
فأرحمهم وعظمهم ، ولبيهم وذكرهم ، وحذر الصادقين من فعلهم ، ثم إن نادوا فلا
تشغل بهم ولا تغير إلا حيث يجب عليك التغير ، بحكم الشرع ، فهو في كل أمر بين متفق
عليه تقدر على تغييره من غير أن يؤدي لمسكر آخر أعظم منه ، أو مثله . وبالله التوفيق . انتهى .

ثم افتح بتغيير الطريق الذي كان عليها السلف الصالح ، فقال :

إذا علمت كيف كان الحال	في الشيع والتلبيذ ثم حالوا
فاعلم بأن أهل هذا العصر	قد شغلوا بمحدثات الأمر
إذا أحدثوا بينهم اصطلاحا	لم أر للدين به صلاحا
وصنفوا بينهم أحكاما	أكثرها كانت لهم حراما
والتجروا مناهج منكوسة	وارتكبوا طريقة معكوسة

قلت : لما أخرج في كتابه ما كان حال الصوفية المحققين ، وما كان حال شيوخ التربية ،
أخبرك هنا أن ذلك قد حال ، أي تغير ، ولم يبق على حاله ، فلا تغتر بمن يدعى حالة مع الله
حتى تختبره في حب الدنيا والميل إليها إن أردت أن تصحبه ، وإلا فلا عليك فيه ، الحسن
الظن بعباد الله ليس فوقه شيء من الخير ، وسوء الظن بعباد الله ليس فوقه شيء من الشر ،
وماذا علينا إذا اعتقدنا أن الناس كلهم صالحين وأولياء ، لا والله لا يزيدنا ذلك إلا قربا
من الحق ، مع المحافظة على رسوم الشريعة .

وقد قال الصحابي الجليل سيدي عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنهما : من
خدعنا في الله اتخذنا له (١) ، اه (وفي) الحديث «المؤمن هو كريم ، والمنافق خبث» (٢) ،

(١) وذلك أنه كان يكثر من تحرير الرقاب ، فإنه كان إذا رأى عبداً من عبده يعل
أعتقه ، فقالوا له : إنهم يخذعونك ، فقال : «من خدعنا في الله اتخذنا له ، رضي الله عنه
وأرضاه .

(٢) الحديث رواه أبو داود ، والترمذي ، والحاكم .

والفر بكسر الفين هو الذي يغتر لحسن ظنه ونيتته ، والحب بفتح الحاء وكسر هاء هو : الخداع قاله المذري ، والمؤمن يلتصق بالمعاذير : يلتصق سبعين هذراً لأخيه المؤمن ، سيما أهل النسب ، فالواجب تعظيم الجانب بحرمة لمن انتسب إليه ، فإن كان كاذباً فعليه كذبه ، وإدخاله في الولاية أفضل عند الله من إخراج ولي واحد منها ، والخلق عيال الله فمن مدح عياله أحبه ومن تنقص عياله أبغضه .

قال في : النصيحة الكافية ، : وأما الفقراء فيسلم لهم في كل شيء لا يقتضي العلم إنكاره ، قال الشارح : ما لا يقتضي العلم إنكاره على ضربين .

أحدهما ما يعرفه الناس ويعتقدونه كذلك ، فهذا لا ينكره أحد على أحد .

الثاني ما يعتقدون قبحه ونقص المتعفف به لعارض غلب عليه ، وهو الذي يحتاج إلى تنبه به والتوصية بترك إنكاره ، كترك الخوف وبجانية الأسباب ، فإن الناس يتقصون صاحب ذلك ويحملونه على العجز والكسل ويتهمون به بالطمع والتشوف إلى ما في أيدي الناس ، وكلبس المرقعات ، فإنهم يرون أن صاحبه اتخذ شبكة يصطاد به ، وجعله باباً لسؤال ومسلماً للاغترار ، مع أنه قد يكون كذلك وقد لا ، فالسلامة في التسليم ، فمن اتقى لطريق القوم وانتسب إليهم يسلم له حاله في مثل ذلك .

ثم قال في : النصيحة ، وما وجب إنكاره أنكر عليهم مع اعتقاد كلهم .

قال الشارح : لأن انتسابهم لجناب الحق مقتض لذلك ، يعظم المنتسب له ، ولو كان في نقص الأمر كاذباً ، قال في : العدة (١) ، لأن وجود انتسابه شاهد بتعظيمه للجناب الذي انتسب إليه في نظره ، ولذلك ما تعرض أحد قط لمنتسب بأذى إلا أصابه منه ضرر ، لأن الحق سبحانه ينفار لهتك جنابه إلا بأمر منه ، فإذا وقع المنتسب في أمر فيه حق من حقوق الله : أقبح عليه الحق ، وحفظت حرمة في نسبته ، لحديث : لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله (٢) الحديث أ هـ .

(١) أي : عدة المرید الصادق ، لسیدی أحمد بن زروق .

(٢) وفي صحيح البخاري عن أبي هريرة : لا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك ، وفيه المقاصد الحسنة ، ما لفظه : لا تكن عوناً للشيطان على أخيك ، رواه البخاري في حديث الذي أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو سكران ، وقال رجل من القوم : اللهم العنه ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم : لا تلعنه فإنه يحب الله ورسوله ، من حديث محمد بن إبراهيم

قال : وبالجمله فالنسيه لها حق عظيم :

رأى المجنون في البداء كلبا فجر له من الإحسان ذبلا
فلاموه على ما كان منه وقالوا : لم أنك الكلب نبلا
فقال : دعوا الملامه إن هني رآته مرة في حي ليل

ثم قال في النصيحة : إذ لا يبعد أن تكون الولي الهفوة والنفوات ، وإزالة
وإذلات ، قال الشارح : ويفهم من تعبيره بالمفرد المختوم بتاء الوحدة وبجمع التمه : أن
وقوع ذلك منهم نادر ، وذلك لأن الشيطان لا تسلط له على قلوبهم ، وإنما يطوف بها
كالسارق .

وقال في كتاب الانتباه ، لاسيما للشيطان إلى دخول قلوب الأولياء التي هي معدن
الأسرار ومظهر الأنوار ، فلا يحوم حولها إلا سارقا ، والسارق إنما يقضى غرضه من المعافل
والنائم ، وهم في مقام الانتباه واليقظة ، فإذا استشعروا شيئا من همزاته رموه بشبه أدلة
التوحيد ، فانقلب خائبا لما نفع حماية الرحمن ، كما قال تعالى - إن عبادي ليس لك عليهم
سلطان (١) - والتعبير بالسلطان يدل على الغلبة . والله أعلم ، أي لا غلبة لك عليهم ، فبان بهذا
أنه وإن رام القرب منهم فلا ينال غرضه ، وإن توصل إلى بعض الوسوسة ، فحلها ظاهر
القلب لا باطنه الذي هو محل المعرفة بالله ، ولا يستقر لها أي للوسوسة قرار ، لتثبت
يقظتهم بقوة نور بصائرهم ، فإذا استشعرها القلب كان كما أخبر الله عنهم ، بقوله - إنه
الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون (٢) - فانظر لم ينف
عنهم حكم الوسوسة ، ولكن أثبت لهم اليقظة المتضمنة نفي الإغواء الذي هو الإصرار ، كما
وصف من ذكر أهل الغفلة في الآية الثالثة اهـ .

ثم قال في النصيحة : الأولياء محفوظون ، والجفظة يجوز معه الوقوع في المعصية ،
أي بخلاف العصمة ، إلا أنه لا يجوز معه الإصرار ولا يقتدى به في مثلها ، وقد سئل الجنيد
رضي الله عنه : أين العارف ؟ فقال : وكان أمر الله قدراً مقدوراً ، وقال ابن عطاء الله

(١) من سورة الحجر .

(٢) سورة الأحزاب ، الآية : ٢٨ .

رحمه الله : ليت شعري ، لو قيل له : أتتعلق همه المادف بغير الله ؟ فقال : ولا ينكر على الفقراء إلا محرم مجمع على تحريمه ، ولا يسلم لهم إلا فيما له صورة ، ليباح لها من الأفعال . انتهى كلام النصيحة .

ولأنما نقلته مع غيره لينزل عليه ما يذكره الذاظم من التشجيع على متفكرة وقته ، فقوله : إذا علت أحوال الصوفية والشيوخ والتلامذة كيف كانت أحوالهم على ما وصفت لك في كتابي ، علت أن أهل العصر خرجوا عن طريقهم ، واشتغلوا ببدع عذبات في أمور الدين ، فلا تقتديهم ، ونبيهم يأتي هي أحسن — إن قدرت — وإلا فشانك بنفسك ولا تنتقد ، فإن البواطن لا يعلم ما فيها إلا الله ، وليست كل بدعة محرمة ، فإن فيها ما هو واجب ، وما هو مكروه ، وما هو مباح ، فالبدعة المحرمة هي التي تنقض قاعدة من قواعد الشرع ، كتجليل حرام ، أو تحريم حلال ، وجل أحوال الصوفية إنما هي بدع مستحسنة ، أو مباحة ، كتعليق السبحة والقيام للذكر جماعة ، وغير ذلك .

وقوله : « إذا أحدثوا بينهم اصطلاحا ، الخ ينظر في هذه الاصطلاحات ، فإن كانت لا تغير شيئا من قواعد الدين فلا اعتراض ، وإلا فليرشدهم برفق ، وقوله « وصنفوا ، الخ أي صنفوا تصانيف فيما أحدثوا من البدع ، وأكثرها كانت حراما عند الصوفية ، وينظر فيها اليوم بميزان الشريعة كما تقدم .

وقوله « وانتهجوا ، أي سلكوا مناهج وطرقا منكوسة ، أي غير مستقيمة ، وارتكبوا طريقة منكوسة مع طرق الصوفية ، فطريق للصوفية ترك الدنيا وأهلها ، وإيثار الزهد والخلو ، فكل من مال للدنيا وأهلها ، أو مال لحب الشهوة ، فقد عكس طريقهم وسلك طريقة منكوسة .

وفي بعض الأحاديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : « ليجاء يوم القيامة بأقوام معهم من الحسنات أمثال جبال تامة ، حتى إذا جرى بهم جعل الله أعمالهم مياء ثم قذفهم في النار ، قيل : يا رسول الله بين لنا هؤلاء حتى نعرفهم ، قال : إنهم كانوا يصومون ويصلون ويأخذون وهنا من الليل ، ولكنهم كانوا إذا عرض لهم شيء من الحرام ، وفي رواية « من الدنيا ، وثبوا عليه وثبة الأسد على فريسته ، أه أما ذنا الله من النفاق ، ثم قال :

تالله قد كان طريقا قاصدا والآن ما نلقى إليه واردا

قلت : يريد أن طريق التصوف كان طريقاً قاصداً ، أى مقصوداً ملوكاً ، والآن لا نجد عليه ، وارداً ، أى سالكاً ، أو كان قاصداً أى متوسطاً معتدلاً ليس فيه إفراط ولا تفريط ثم جاء قوم أفرطوا ، وقوم فرطوا ، وخير الأمور أوسطها ، ثم قال :

فهذه طريقة قد درست وشجر أغصانها قد يبست

قلت : معنى درست : ذهبت واضمحلت ، ودروسها باندراس أهلها ، وشبهها بالشجر لأنها أصل وفروع ومادة ، ويبس أغصانها يؤدي إلى عدم ثمرتها ، ولا يكون إلا لما دخل على أصلها من الاختلال ، إما من جهة المريء ، لعدم صدقه ، أو من جهة الشيخ لعدم كماله . ثم قال :

كانت إذن موارد شريفه فاستبدلت مذهباً سخيغه

قلت : كانت طريق التصوف مشارب ومناهل شريفة ، من شرب منها شربة المحبة لا يظلم بعدها أبداً ، كانت إذا شرب للمريد من خمرة شيخه سكر ، وصحاً ، وفقى عن أوصافه للذمومة ، وبقى بأوصاف محمودة ، فاستبدلت تلك الطريقة بمذاهب سخيغة ، أى قبيحة خسية ، يسلكها كل سخييف خسيس ، والخير لا ينقطع إلى أن يأتي أمر الله ، وقال الله تعالى - ما نفع من آية أو نفسا نأت بخير منها أو مثلها (١) - فقال :

قد أسست على صحيح العقل وأساها الآن بمحض الجهل

قلت : كانت طريق التصوف مؤسسة على الكتاب والسنة وإلهامات العارفين الذين تنورت عقولهم ، وانصقلت مرآة قلوبهم ، فتجلى فيها ما كان حقاً ، وزهق منها ما كان باطلاً ، فكانت طرقهم مبنية على التحقيق ، ثم صارت مؤسسة على التحديس والتخمين وبجرد التقليد ، بلا ذرق ولا وجدان ، فادعاهما كل جاهل ولهان بحب الدنيا سكران ، نزل الله للصحة من مواطن الخذلان ، فقال :

يحيى الذى يمشى عليها سالك وسالكوها اليوم حرب هالك

قلت : السالك هو الذى يرى الخلق ويستدل بهم على الحق ، والمجذوب هو الذى يرى الحق ويستدل به على الخلق ، والسالك المجذوب هو الذى يرى الخلق بين الجمع ، لا يحجبه خلق من حق ، ولا حق عن خلق ، وقد تقدم فى محله ، فكانت طريق القوم يسمى الذى دخل فيها سالكا ، أى سائرا إلى الله ، قال الناظم فى زمانه :

وسالكوها اليوم حزب هالك
لما رأى فيهم من الخلل ، ثم قال :

بها عاش القوم بخير عيشه فصيرت بعدهم معيشه

قلت : كانت طريق الصوف من دخل فيها حيث روجه بمعرفة الله ، وطابت حياته بذكر الله ، فعاش عيشة طيبة ، قال تعالى - من عمل صالحا من ذكرا أو أنثى وهو مؤمن فلنجزيه حياة طيبة (١) - فالحياة الطيبة هى الغنى بالله .

وقال السرى السقطى : من عرف عاش ، ومن مال إلى الدنيا طاش ، واللاحق يغدو وبروح بلاش (٢) هـ .

ثم صارت هند قوم حرفة ومعيشة ، يتمشون بها ، ويتخذونها شبكة يصطادون بها الدنيا والجاه (٣) ، والعباد بالله ، ثم قال :

وكانت تضاهى الكوكب المنيرا والآن أضحت حائطا قصيرا

قلت : كانت طريق القوم رفيعة للقدر ، عالية الشأن ، تضاهى ، أى تشابه ونحاكى الكوكب المضى فى الرفعة والإشراق ، لما يظهر على أهلها من شروق الأنوار ، وابتهاج الأسرار ، فكان لا يدخلها ولا ينتسب إليها إلا الأخيار من الزهاد والعباد ، الذين علت عنهم ، وصلاح قصدهم ونيتهم ، والآن صار ينتسب إليها الأشرار والفججار ، فتجد فيها هذا قائدا وهذا باشا ، وهذا حرصى ، وغير ذلك ، فمنهم من يتخذها حصنا يتحصن بها من عواقب ظله ، يظن ذلك ينفعه بزمه ، ومنهم من يتخذها حرفة ، فصارت كالحائط القصير (٤)

(١) ٩٧ : من - سورة النحل .

(٢) أى بلاش . ، ولفظ « من عرف عاش » : هكذا هو بالأصل الذى بين أيدينا .

وله : « من عرف الله طاش » .

(٣) هذا فى وقته وزمانه ، أما الآن فنعمذ باقه من الفجور واستحلال الحرام .

(٤) فإن الحائط القصير يشب عليه كل من هب ودب .

يتخطاه القوي والضعيف ، وسبب ذلك عدم سقوطهم على شيخ التوبة ، إذ لو وجسدهم
لأمرهم بحرق عوائد أنفسهم ، فيفرون منه ، لكنهم انتسبوا للأموات ، ووجدوا راحة
نفسهم ، فبقوا مع عوائدهم ، فازداد حجابهم والعياذ بالله ، ثم قال :

إذ صار لا يعلم منها إلا أكلا ورقصا وفقى وسؤلا

قلت : الحصر في قوله ، لا يعلم منها ، الخ يقتضى أن الطريق الموجودة في زمانه ، ليس فيها
علم ولا حال ، ولا ذوق ، ولا معرفة ، ولا شهود ، وإنما يعرف منها الأكل والرقص
والغناء والسؤال .

وقال الشيخ عبد الوارث : لم يبق منها إلا الأكل بلا صيام ، والرقص دون أحوال .
والتواجد بلا وجد ، والتعلق لأنفسهم وهواهم وسلاطينهم اهـ

وإنما كانت طريق القوم مقصودة لتهديب القلوب ورياضة النفوس ، والله خلص من
أوصاف البشرية ، والتخلق بأخلاق الروحانية ، ومعرفة الشهود والآداب مع الملك المعبود ،
وقد يوجد فيها ما ذكره الناظم ، لكنه لم يكن مقصوداً ، وإنما كان دواء ولعل الناظم تحقق
ذلك من فقراء زمانه بأماره ، وإلا فالتسليم لأهل النسبة أولى كما تقدم ، ثم قال :

رَكَاتٌ عَلَى الْإِنصَافِ وَالنَّصِيحَةِ (١) فَبِى عَلَى الْإِسْرَافِ وَالْفَضِيحَةِ (٢)

قلت : كانت طريق القوم مبنية على الإنصاف ، فكان أربابها ينصفون من أنفسهم ،
ويرجعون إلى الحق ، ويقبلونه من قائله كائناً من كان ، وكانوا يتناصحون : ينصح بعضهم
بعضاً ، وينصح جميع المسلمين ، كل من يلقاهاهم أرشده ، وعلى الله دلو ، ثم صارت مبنية
على الإسراف في الكلام ، وفي كل شيء ، ترى أحدهم يتكلم ألف كلمة يقضى فائدة واحدة ،
وصارت فضيحة ، إذا نصح أحدهم عنف وغضب وجهه ، وأغلظ في القول ، حتى يفضح

(١) قديماً .

(٢) الآن ، وذلك كما قلنا في زمانه ، فكيف يكون وصفه لتصوفة زماننا لو رآهم :
الذين لا هم لهم إلا الأكل والرقص كرقص اليهود حول عجلهم . ونسوا أن التصوف علم
وسلوك وأدب .

من ينصحك ، وقد قالوا : من نصحك وحدك فقد نصحك ، ومن نصحك مع الناس فقد نصحك ، والله تعالى أعلم ، ثم قال :

تعرف بالخلق والإيثار والآن بالحق ، وبالإقتار

قلت : كانت طريق القوم يعرف أهلها بالآخلاق الحسنة ، كالعلم والسخاء والإيثار ، وهو الإعطاء من الإقتار (١) كما قال الشاعر :

ليس إعطاء من الفضول سماحة حتى تجود وما لديك قليل

وكان من أخلاقهم أيضاً التواضع ، وسلامة الصدور ، وحسن الخلق مع كل مخلوق ، ثم بدلت هذه الأخلاق بالحق ، والحد ، والكبر ، والبغض ، والغضب ، والقلق ، والشح ، والبخل ، والترف ، وهو الإشار (٢) ، فصار للتنسبون يبخس بعضهم بعضاً ، ويحسد بعضهم بعضاً لتمكن حب الجاه والدنيا من قلوبهم ، نسأل الله السلامة من الجميع ، ثم قال :

وكانت أجل غبطة وخطه والآن فهي بدعة وخطه

قلت : كانت طريق القوم أجل ما يشتبط ، أى يفرح بها وينافس فيها ، لأنها كانت طريق الوصول إلى الغناء الأكبر ، قال تعالى - وفى ذلك فليتنافس المتنافسون (٣) - وكانت أجل خطه ، أى حرفة وأرفع رتبة ، إذ لا طريق أرفع منها ، فصارت بعد ذلك بدعة وتخليطاً يلقاها أهل الصفا ، وبالله التوفيق ، ثم قال :

كانت على مجرد الصيام والآن فى مجرد الطعام

قلت : كانت طريق التصوف مبنية على تصفية القلوب ورياضة الفوس بخرق عوائدها وتمكيس مألوفاتها ، فمن كان طبعه نهمة الطعام أسروه بالصيام ، ومن كان مولعاً بالكلام أسروه بالصمت ، ومن كان مواعاً بجمع الدنيا أسروه بالزهد ، ومن كان مبتلى بالجاه أسروه بالثول ، وهكذا ، وليست طريقهم محصورة فى الصيام ولا فى غيره ، بل الشيخ كالطبيب عامل كل واحد بما فيه دواء نفسه والسلام ، ثم قال :

(١) أى مع القلة ، لقول رسول الله صلى الله عليه وسلم : أفضل الصدقة جهد المقل ، وأبدأ بمن تمول ، رواه أبو دارد والحاكم .

(٢) الإشار : صاحب الإشارة ، وهو : البطر .

(٣) سورة المطففين ، الآية : ٢٦ .

في السماع كان غلق الباب والآن عند جفن جواب (١)

الجفنة هي : القصعة الكبيرة ، والجواب جمع جوبة ، وهي حفرة كاصهرج ، شبيه بها القصعة الكبيرة .

قلت : قد تقدم أن السماع إنما هو رخصة ، ويشترط فيه الإخوان والزمان وللسمكان ، فإذا كان وقت السماع أغلقوا الباب لئلا يدخل معهم من لبس بأهله ، وتقدم أيضاً أن الأكل ، يذمى فيه فتح الباب ليدخل من يحتاج إلى الأكل ، وفي ذلك الدلالة على الكرم وسحاحة النفس وغنى القلب وعدم الشح والحرص .

وقال الناظم في فقراء وقته : إنهم عكسوا الأمر ، ففتحوا الباب عند السماع ليجتمعوا عليهم الناس ، وأغلقوها عند الطعام حرصاً وشحاً ، ليعوذ بالله من ذلك ، ثم قال :

وقولنا الشيوخ والإخوان هم الذين سلفوا وبأنوا
ماتوا ولما يتركوا من وارث إذ هؤلاء القوم كالبواعث

قلت : قد تقدم أن الأرض لا تخلو ممن يقوم الله بحجته ، وراجع ما تقدم لنا عند قوله إلى الذي سألت عنه مات

قال الشيخ زروق رضى الله عنه . وشبه هؤلاء بالبراغيث من وجوه .

أحدها : ما هم عليه من الرقص والتطار كالبراغيث .

الثاني : ما هم فيه من الإذابة والتنقيص لمن جاروه ، تارة بالغبية وتارة بغيرها .

الثالث : خسارة مهمتهم باعتبار سكنى للواضع للزيلة (٢) والاشتغال بالأكل دون غيره

مع ظهورهم بالضعف والمسكنة (٣) . انتهى .

(١) ومنه قوله تعالى - يعملون له ما يشاء من محاريب ، وتماثيل وجفان كالجواب وقدور

راسيات ، الآية : ١٣ من سورة سبأ ، والجفنة ، هي ما يوضع فيه الطعام ، والمقصود أنهم الآن لا يتبعون الدين ، وإنما يتبعون الجفان المليئة بالطعام ، ونسأل الله السلامة .

(٢) الزيلة : المتفرقة والبعيدة والمقصود : أنهم ليسوا مجتمعين ، إنما هم متفرقون في كل شيء .

وإن كانت بالباء ، الزيلة ، فالمقصود أنهم يسكنون الأماكن القذرة ، وذلك لإظهار انهماكهم وشكايه الخالق للخلق ، والعباد بالله تعالى .

قلت : وقد تقدم ما في الرقص في باب السماع محرراً وتعظيم أهل النسبة مطلوب ،
 ورحمن الظن واجب أو مندوب ، والتسليم وقاية ، والانتقاد جناية ، وتأمل ما وقع
 لابن هارون من التراد حيث قصه في باطنه ، فسلبه من ساعته ، وفقد ما كان عنده من
 العلوم والأنوار حتى تاب إلى الله وذهب إليه وتحلل منه ، والقصة المذكورة في طبقات
 الشيرازي ، وكذلك قصة الفقيه البلقيني مع بائع الحشيش ، حيث اعترض عليه بقلبه : فقد
 حله وحاله حتى تاب وأمره أن يجلس معه ويأني بخبز ولحم ، حتى كل من اشترى
 الحشيش أطعمه الفقيه اللحم والخبز ، وهذا كله وبال الإنكار على أهل النسبة ، والله تعالى
 أعلم ، ثم قال :

فكل ما اليوم عليه الناس من مدعين الفقر فيه بأس

قلت : هذه الكلفة لا تسلم له ، لصحة تقيضها ، وهي الجزئية السالبة ، وهو بعض ما عليه
 الناس من الفقر لا بأس به ، قال صلى الله عليه وسلم : لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على
 الحق حتى يأتي أمر الله (١) .

قال المحققون من العلماء : إن هذه الطائفة مؤلفة من ثلاث فرق : أولياء ، وعلماء ،
 ومجاهدين ، فهؤلاء للفرق لا تنقطع حتى يأتي أمر الله ، وكأن الناظم لما رأى كثرة التخليط
 هم الأمر .

وقال الشيخ عبد الوارث : كل ما هم عليه من محدثات الأمور ففيه بأس ، أي عيب ،
 فالباس من غير همز ، هو : العيب ، وبالحمز هو الحديد انتهى .

لكن : ما قاله في تفسير الباس غير صحيح ، إذ الباس هو الحزم والشدة ، بهمز وبنيهمز ،
 ثم ذكر العلة ، فقال :

إذ نقضوا الأصول والأركاناً وصيروه في الورى مهاناً
 وهدموا بنيانه المشيداً وصيروه مخلاً ومخدأ

== صوفية اليوم فيهم من الأبرغيث قرب
 فيهم صفات ثلاث أكل ورقص ودب

هذا الذي قصده الشيخ زروق رحمه الله ورضي عنه .

(١) رواه البخاري ، والحديث عدة طرق وروايات ، وهو موجود في أغلب كتب
 الحديث .

قلت : نقص الأصول والأركان هو : إهمالها والعمل بأضدادها .

وأصول التصوف خمسة :

تقوى الله في السر والعلانية .

وإتباع السنة في الأقوال والأفعال .

والإعراض عن الخلق في الإقبال والإدبار .

والرضى من الله في القليل والكثير .

والرجوع إلى الله في السراء والضراء .

هكذا قال الشيخ زروق في بعض تآليفه ، وقال في شرحه لهذا المحل : « وأما نقصهم الأصول في إثبات ما ليس منها في محلها ، كاستبدالهم الزهد بالحرص ، والورع بالطمع ، والتقوى بوقعة الربائية ، (أى ما فيه ربا) ، والأركان كالأصول ، مثل الجوع ، والسهر ، والصمت ، وكثرة الأعمال فتقصوا ذلك بوجود : البطالة ، والاكسل ، وجعلهم لكل ما اثبتوه تأويلا ووجها ، يرويه عين الهدى والصراط المستقيم ، نأل الله العافية ، وإنما صبروه مهانا ، أى الطريق ، بما أظهروا فيه من خلاف الحق الذى لا يعرف به أحد إلا استخف بطريقه ، وهذا أمر واضح من هذه الأزمئة ، حتى لا يكاد أحد من المترضين في هذه الأزمئة يعنف أحد ، بل ولا طريقة صحيحة ، ويحتج لذلك بأن فلانا المستظهر بكذا ظهر منه كذا ، وفلانا وقع منه كذا ، وهذا من أولئك ، فاقه حبيب المغيرين والفتاحين الباب بأعمالهم ، وإلا فالتذكر يستحق الإنكار معذور ، بل مأجور ، فاعرف ذلك . انتهى كلامه .

وقوله : « وصبروه مخلا ومخدأ ، أى لما هدموا أصوله وضيعوا حقوقه ، صار عند الناس مخولا لا يعرف ، ومخدأ لا يظهر لما أدخلوا فيه من التخليط ، والله تعالى أعلم . ثم تم أوصافه ، فقال :

ونثروا الفروع والأصولا وجعلوا معلوما مجهولا

قلت : النثر هو الطرح ، يعنى أنهم لم يأخذوا بأصل ولا فرع ، لم يتمسكوا من الطريقة بشئ . إلا مجرد النية ، فصبروا ما كان معلوما منها عند أهلها مجهولا عندهم ، حيث لم يعرفوه .

وقال الشيخ زروق : معناه أنهم لم يأتوا بالطريقة بأصل ولا فرع ، بل هملوا منها بعض وتركوا بعضاً ، فاشتبهت أمورهم على من ينظر إليهم ، لأنه يجد من الطريقة شيئاً يدعو للاعتقاد ، ويجد من مخالفتها أشياء يدعو للاعتقاد ، وهو من أعظم المصائب ، ثم قال :

واحتسبوا فيها بغير حجة صيروها ضحكة واجبة

قلت : الاحتساب الأول من الحساب ، يعنى أنهم حسبوا من الصوفية من غير حجة ، أى نية صادقة .

وقال الشيخ زروق : معناه أنهم عدوا منها ما ليس بقربة ، واعتقدوا أنه قربة ، كالرقص ونحوه من توابع السماع والاجتماع ، وهو عين الضلال . انتهى .

وفيه مقال عند أهل الذوق .

وقال الشيخ عبد الوارث : أى نسبوا إليها من غير أن يظهر عليهم شيء من آثارها الدالة على صدق لسبتهم ، فصيروها بذلك ضحكة واجبة ، وأما الطريقة فملو شرفها وعلو مرتبتها باقية ، ثم قال :

وجعلوها لغنى مغرماً والفقير نية ومغنياً

قلت : لما لم تكن لهم نية صادقة في طلب مولاهم ، صيروا طريقهم مغرماً للغنى منهم ، يفرمونه وينصفونه (١) أحب أم كره . يتسبون له بأدنى شيء ويأخذون منه كرها وحباً ما لا يحل له طوعاً وسخاءً ، وصيروها للفقير منهم نية ومغنياً ، أى ينتهب الفقير من الغنى ، ويقتسم ما يأخذ منه وليس قصده شيئاً آخر ، وهذه في غاية خسة الهمة ، ثم قال :

واقترضوا واصطلحوا لديها فصار ما كان لها عليها

قلت : لما لم يتحقق لهم من الطريقة إلا مجرد النسبة من غير عمل ولا صحة ، لم تظهر عليهم نتيجة الطريقة ، فاقترضوا .

من ادعى بما ليس فيه فضحه شواهد الامتحان

(١) أى يشاركونه ماله .

وقوله : « وافترضوا واصطلحوا ، أى على سكوت بعضهم عن بعض ، فلا يغير أحد على أحد ، وهذا سبب الهلاك » قال تعالى - كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه (١) - وقال بعضهم : ما زالت الصوفية بخير ما اختلفوا ، فإذا اختلفوا فلا خير فيهم ، وقد تقدم تأويله والكلام عليه عند قوله :

« مذاهب الناس على اختلاف . . . ومذهب القوم على ائتناف ،

وقال الشيخ عبد الوارث في تفسيره : قوله اصطلحوا أى : اسكت عنى أسكت هناك ، لما روى عن بعض أمثالهم أنه أتى إلى قوم جاهلين ، فقال لهم : أنا جبريل ، فأتاه ذوو المعاصات والمرضى فسح عليهم ، ويجدون لذلك راحة ، فقبلوا عليه بأنفسهم وأموالهم ، فسمع به بعض أهل العقول ، فأتى إياه ، فقال : إني أريد أن أخلو بك ، فخلا به ، فقال له : يا هذا ما وجدت على من تكذب إلا على جبريل ، فقال : ما ضرك بكذبي ، اذهب أنت إلى قوم آخرين ، وقل : أنا ميكائيل ، واركض والقوم الجاهلين .

هذا جزاء الجهلة ، ولو أنكر بعضهم على بعض لفر الناس عنهم ، وتنصت عليهم .

ثم قال :

الولائم :

وكان الشيخ أبو مدين رضى الله عنه إذا عرض أحد على أصحابه في حضور وليمة بعضهم حر من طعامه قبل أن يحضروا الوليمة ، لئلا يظهر عليهم الشره والحرص ، فننتقض النية فهذا منه غيرة على النسبة أن تمتن ، جزاء الله عن طريق القوم خيراً ، إلا إذا كانت حال غالبية ، فلا كلام على صاحبها ، والله تعالى أعلم ، ثم قال :

حق لمن كان عليهم منكر إذ كل ما يبصر منهم منكر

قوله « حق » ، يحتمل أن يكون خبراً عن مبتدأ مضمر ، أى الإنكار حق ، وأن يكون مبتدأ حذف خبره ، أى حق لمن أنكر على الفقراء ثابت ، والأحسن أنه خبر عن مصدر

من أن يفعل ، أى حق لمن كان منكراً على الفقراء أن يفعل ذلك كقولك : حق لك أن تفعل
كذا وكذا ، أى فعلك كذا وكذا حق .

قلت : قد تقدم أنه لا ينكر على الفقير إلا ما كان محرماً بجماعاً على تحريمه ، ولا تأويل فيه
وعلى تقدير التخيير يكون برقى ولين ، وإذا كان فيه حد أو أدب يكون المؤدب له كالعبد
يؤدب ابن سيده ، ولا تسقط حرمة النسبة عنه بسبب ما صدر منه ، وهذا التخيير
إنما هو لمن هو مكلف به كفضاة العدل وأهل الحسبة الذين يتقون الله ، وإلا فالسلامة
في التسليم .

وقد قال شيخ شيوخوا سيدى على رضى الله عنه : والمعترض على الفقراء كمن يدخل يده
في الغيران : النار الأول لا يحد فيه شيئاً ، والثاني كذلك ، وقد يصادف لقمة تلدغه فهلك
من ساعته ، اه . بالمعنى .

وهذا من الناظم تحامل ، وفيه تسليط على الجانب ، فالصواب حذفه ، ولا سيما العارف
لا يرى إلا الكمال . والعارف وجوه من التأويلات والمحامل ، بل لا يقع بصره إلا على الكمال
يكمل نقصان القبيح كاله فأنم نقصان وما ثم باشع
وكل قبيح إن نسبت لحسنه أترك معاني الحن فيه تسارع

لو علموا ما جهلوا ما صاروا حيث انتهوا ترمقهم أبصار

يعنى أنهم لو علموا من طريق الصوفية ما جهلوا منها ما رمتهم الأبصار ، حيث
ما انتهوا وأبنا ظهورا .

قلت : وفيما قاله نظر ، لأن من خرق عوائد نفسه وخرج عن أبناء جنسه قطعاً ترشقه
الأبصار ، ويكثر عليه الصياح والإضرار ، سنة ماضية في حق الصادقين ، نعم من بقى من
الفقراء أو المنتسبين منهم في زيمهم لم ينظر إليه أحد ، وهو دليل برودته

فقد قالوا : الداخلة على الله منكور ، والخارج إلى الناس مبرور . وقالوا أيضاً : مدح
العوام للنواص هجنة : أى نقص فيهم ، وتسليط الناس على الأولياء في بدايتهم سنة جارئة
وما ذلك إلا لخروجهم عن عوائدهم وارتحالهم عن عالم حسهم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

لو لم يكن بعض لبعض عاكس ما لقبوا بعصبة الكساكس

قلت : مذهب الصوفية الالفة والمواقة قلباً وقالباً ، فقلوبهم قلب واحد ، يحب بعضهم بعضاً ، ويخدم بعضهم بعضاً ، وقد تقدم شروط عقد الأخوة عن الغزالي فيما تقدم ، فالصوفية على قدم الصجاجة ، قال تعالى في حقهم - أذلة على المؤمنين (١) - أى متعاطفين أذلاء على المؤمنين - أعزة على الكافرين (٢) - أى غالبين عليهم شدة وغلظة ، وقال في الآية الأخرى - أشداء على الكفار رحماء بينهم (٣) - فكل من لم يكن على هذا المذهب فلا نصيب له في طريق القوم ، وقال الناظم في فقراء عصره : لأنهم متعاكسون بعضهم لبعض ، أى متنافرون ، كل واحد بعكس رأى صاحبه ، لشدة نفرة قلوبهم ، وذلك لبقاء حب الدنيا في القلوب ، فلو خرج منها حب الدنيا لتطهرت وصفت وتعاطف بعضها على بعض ، فلو لم يكونوا متعاكسين لا يجتمعون إلا على حظ بطونهم ، ما سماهم الناس بعصبة الكساكس ، وصاروا يقال لهم الكساكية .

قلت : ولأجل هذه العلة كان بعض الشيوخ يمنع أصحابه من حضور (٤) .

رزقنا الله من حسن الظن به وبأوليائه وبسائر عباد الله الحظ الأوفر ، بمنه وكرمه آمين .
ثم هذه السكينة التي ذكرها لا تسلم له ، والله تعالى أعلم .

ثم قال رحمه الله :

عار لمن لم يرض العلوما	ويعلم الموجود والمعدوما
ولم يكن في بدءه فقيها	وسائر الأحكام ما يدرها
والحد والأصول واللسانا	والذكر والحديث والبرهانا
ولم يكن أحكم علم الحال	ولا درى مقاصد الرجال

(٢١) ٥٤ من سورة المائدة .

(٣) ٢٩ من سورة الفتح .

(٤) هكذا بالأصل الذي راجعنا عليه ولعلها من حضور هؤلاء ، والله أعلم .

ولم ينزهه صفة المعبود ولا درى مراتب الوجود
والنفس والمقل مما والروحا ويدرى منه صدره المشروحا
وعلم سر النسخ والمنسوخ أن يتعاطى رتبة الشيوخ

قلت : قوله « عار » خبر مقدم ، وأن يتعاطى ، مبتدأ مؤخر ، أى تعاطى رتبة الشيوخ والتندم للشبهة . عار ، أى عيب على من « لم يرخص العلوم ، بضم الراء ، أى يتمهر فيها حتى تصير طوع بده ليكون فى أموره على بينة من ربه ، ويعلم الموجود الحقيقى ، وهو الحق الواجب الوجود ، والمعدوم حقيقة ، وهو ما سوى الله ، ولم يكن فى ابتداء أمره فقيها ، إذ لا يحل لامرىء أن يقدم على أمر حتى يعلم حكم الله فيه ، وهو أيضاً لا يدري سائر الأحكام ، فلا يفرق بين ما يحل له ويحرم عليه ، فقد يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف ، وهو أيضاً لم يدرك حدود الأشياء ورسومها ، وكأنه يشير إلى فن المنطق ، ولم يدرك أيضاً فى الأصول ، والمراد أصول الفقه ، كعرفة الواجب والمندوب والمكروه والحرام ، والخاص والعام ، والمطلق والمقيد ، والقياس والإجماع ، وغير ذلك مما هو مقرر فى فن علم الأصول ، ولم يدرك أيضاً علم اللسان ، وهو العربية والتصريف واللغة ، وفن البيان ، ولم يدرك أيضاً معانى الذكر أى القرآن العظيم ليتمكن من التدبر فيه ، ولم يدرك أيضاً حديث للنبي صلى الله عليه وسلم ، إذ تصوف مبنى على الكتاب والسنة وإلهامات العارفين (١) .

قال الجنيد رضى الله عنه : « علينا هذا مؤيد بالكتاب والسنة ، فمن لم يكتب الحديث وبجاس العلماء لا يقتدى به فى هذا الشأن اهـ » .

ولم يعرف أيضاً البرهان ، أى علم البرهان ، وهو علم العقائد التوحيدية ، وهو علم الكلام ، فتكون عنده العقائد برهانية ، ثم تصير بعد ذلك عيانية ، ولم يكن أيضاً أحكم ، أى أتقن علم الحال والمقام ، بحيث يكون سلك طريق الأحوال ، ثم سكن فى المقامات ، وهذا هو المسمى بالسير . فقامات اليقين ينزل فيها للفقيه أولاً بالحال ، ثم تصير مقاما .

قال فى الحكم : « حسن الأحوال نتائج حسن الأحوال ، وحسن الأحوال من التحقق

(١) وإلهامات العارفين نفسها ما لم تكن مقيمة على الكتاب والسنة ، فإن العارف لا يعمل بها ، وهذا أمر مشهور بين الصوفية المتسكين بالدين رضى الله عنهم .

في مقامات الإنزال ، فلا بد أن يكون سلك مقام الزهر حلالاً ، ثم مقاماً ، وكذلك : الورع والرضى ، والتسليم ، والمراقبة ، والمجاهدة ، وغير ذلك ، وهذا هو الذرق الصريح ، وأما من كان يأخذها من الكتب ويقلد فيها فلا تصح مشيخته ، وضرره أكثر من نفعه ، ولم يكن أيضاً درى مقاصد الرجال في عبارتها وإشارتها ورموزها وألغازها ومقاصدهم ، هل لإصلاح الظواهر أو البواطن ، أو هما معاً ، ولم ينزه أيضاً صفة المعبود عن الحدوث أو الحلول أو الاتحاد أو غير ذلك من النقائص ، ولا درى أيضاً مراتب الوجود من : الملك ، والملسكوت ، والجبروت ، إذ الترقى إنما يكون في هذه العوالم ، فيترقى من شهود الملك إلى الملسكوت ، إلى الجبروت ، وقد تقدم تفسير هذه العوالم عند قوله :
• • • وعلموا مراتب الوجود ، اهـ

ولم يدر أيضاً معنى : النفس ، والعقل ، والقلب ، والروح ، والسر ، وقد تقدم لنا أن المحل واحد ، وهو الروح ، وهي التي تتطور إلى العقل وما بعده باعتبار المجاهدة والرياضة ، وقد تقدم بيان ذلك مراراً .

ولم يدر أيضاً معنى الصدر المشروح ، وما علامة شرحه ، وعلامة شرحه ما قاله عليه الصلاة والسلام : . . . التجاني عن دار الغرور ، والإنيابة إلى دار الخلود ، والنزود لسكنى القبور والتأهب ليوم النشور ، اهـ

ويرجع إلى اليقظة من الغفلة ورفع الهمة عن الدنيا وما فيها ، وإنما اشترطت معرفة الصدر المشروح ، لأن الشيخ يشترط فيه أن تكون له فراسة يطالع بها على أحوال البواطن فيعرف المشروح من المقبوض ، وفي بعض النسخ ولم يدر منه ، أى من نفسه ، وفي بعضها معنى ، وهي أحسن ، ولم يدر أيضاً سر للناسخ من المنسوخ في الكتاب والسنة ، وهذا من شأن أهل التفسير ، وهو مقرر في محله .

ثم هذا الذي ذكره الناظم لا يشترط منه شئ إلا علم الأحوال أو ما يلزمه في نفسه من العلم الضروري ، وقد تقدم هذا المعنى مستوفياً عند قوله :

• • • وعند ما قال بهذا الخطب قالوا جميعاً : أنت شيخ الركب •

فراجعته ثم إن شئت ، وبالله التوفيق ، وهو الهادي إلى سواء الطريق •

ثم قال :

يا عجباً من جاهل مبداء في رتبة الكون ومنتهاه

قلت : مبدأ الإنسان في رتبة الكون ومنتهاه التقدم له والتأخر عنه ، لجيش الأرواح سابق على الكون ، وبقاى بعد طيه فهو أول الكون ومنتهاه ، فالإنسان شبه بالصمدانية الازلية ، لأن فيه الأولية والآخرية ، والظاهرية ، والباطنية ، فروحه أول الكون وتبقى بعد فتنائه . وهى ظاهرة بالإنسان إذ لا ظهور لها إلا به ، باطنة فيه ، وفيه سبع من صفات المعاني : القدرة ، والإرادة ، والعلم ، والحياة ، والسمع ، والبصر ، والكلام ، ولهذا قال عليه الصلاة والسلام كما فى البخارى : « إن الله خلق آدم على صورته (١) » ، وفى رواية غيره : « إن الله خلق آدم على صورة الرحمن ، أى على صفته فى الجملة ، وإن كانت أوصاف البارى عظيمة لا تشبه أوصاف العبد ، لكن لها شبه ونموذج فى الجملة .

وقال صاحب الرموز فى فتح الكنوز ، على قوله صلى الله عليه وسلم : « من عرف نفسه عرف ربه » ، قد ظهر لى من سر هذا الحديث ما يجب كشفه ويستحسن وصفه ، وهو : أن الله سبحانه وضع هذه الروح فى هذه الجنة الجثمانية لطيفة لاهوتية مودعة فى كيفية ناسوتية دالة على وحدانيته تعالى وربوبيته ، ووجه الاستدلال من عشرة أوجه :

الأول : أن هذا الهيكل الإنسانى لما كان مفتقراً إلى محرك ومدبر ، وهذا الروح بدبره ويحركه ، علمنا أن هذا العالم لا بد له من محرك ومدبر .

الثانى : لما كان مدبر الجسد واحداً ، علمنا أن مدبر هذا العالم واحد ، لا شريك له . فى تديره وتقديره ، قال تعالى - لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا (٢) - .

الثالث : لما كان لا يتحرك هذا الجسد إلا بتحرك الروح وإرادته ، علمنا أنه لا يتحرك كائن بخير أو شر إلا بتحرك الله وقدرته وإرادته .

(١) سبب هذا الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم رأى رجلاً يضرب عبده على وجهه فقال له : « إن الله خلق آدم على صورته ، أى على صورة هذا الإنسان ، فالضارب له كأنما ضرب وجه أبيه آدم ، وما ورد من كلام الصوفية فى معنى هذا الحديث - فى اعتقادى - أنه على سبيل الإشارة والرمز لا الحقيقة ، والله أعلم .

(٢) سورة الأنبياء .

الرابع : لما كان لا يتحرك في الجسد شيء إلا بعلم الروح وشعورها ، لا يخفى على الروح من حركات الجسد شيء ، علنا أنه تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء .

الخامس : لما كان هذا الجسد لم يكن فيه شيء أقرب إلى الروح من شيء ، علنا أنه تعالى قريب إلى كل شيء ، ليس شيء أقرب إليه من شيء ، ولا شيء أبعد إليه من شيء ، لا بمعنى قرب المسافة ، لأنه منزّه عن ذلك .

السادس : أنه لما كان الروح موجوداً قبل الجسد ، ويكون موجوداً بعد عدمه ، علنا أنه تعالى موجود قبل خلقه ، ويكون موجوداً بعد عدمهم ، ما زال ولا يزال ، وتقدس عن الزوال .

السابع : لما كان الروح في الجسد لا تعرف له كيفية ، علنا أنه تعالى مقدس عن الكيفية .

الثامن : لما كان الروح في الجسد لا تعرف له كيفية ، ولا أينية ، بل الروح موجود في سائر الجسد ما خلا منه شيء في الجسد ، كذلك الحق سبحانه موجود في كل مكان (١) وتنزه عن المكان والزمان .

التاسع : لما كان الروح في الجسد لا يحس ولا يحس ولا يحس ، علنا أنه تعالى منزّه عن الحس والجنس والمس .

العاشر : لما كان الروح في الجسد لا يدرك بالبصر ، ولا يمثل بالصور ، علنا أنه لا تدركه الأبصار ، ولا يمثل بالصور والآثار ، ولا يشبه بالشموس والآثار ، ليس كشيء شيء وهو السميع البصير .

تنبيه : قد اشتهر على السنة كثير من الصوفية أن د من عرف نفسه عرف ربه ، حديث ، وليس كذلك ، وإنما هو من كلام يحيى بن معاذ الرازي ، حسبما نص عليه الحافظ البدر الزركشي ، والحافظ السيوطي في الدور المنتثرة في الأحاديث المشتهرة ، ونصه : حديث

(١) قوله د في كل مكان ، نوع من التقريب العقلي ، إذ لو قلنا د في كل مكان ، لكان له مكان ، وهو سبحانه وتعالى كما قال الشيخ نفسه منزّه عن المكان والزمان ، فافهم ترشد .

من عرف نفسه عرف ربه ، قال النووي غير ثابت ، وقال السهماني : هو من كلام يحيى ابن معاذ الرازي اه .

وكل فن يرجع فيه لأربابه ، والصوفية رضى الله عنهم لحسن ظنهم : كثيراً ما يتساهلون في الأحاديث ، هكذا كما قال الشيخ سيدى مسلم في كتابه .

ولما تعجب الشيخ من الجهل بهذين الأمرين ، لأن هذين الموقفين هما أصل التوجه والمعاملة ، ومظهر التحقيق والمواصلة ، وبالله التوفيق .

ثم قال فتعالما تعجب منه :

وكيف يهدى وهو لم يهدى لقد عدى ظلماً وقد تعدى

قلت : من لم يأخذ أدبه من المتأدبين أفسد من اتبعه ، من لم يرب لا يربى ، من لم يهد بغيره لا يهدى غيره ، من لم يسلك الطريق لا يسلكها لغيره ، بل يتلف نفسه ومن تبعه ، ولقد عداً أى جاوز الحد ظلماً ، أى من جهة الظلم لقد تعدى طوره ، ولم يعرف قدره .

ثم قال :

من لم ينل مراتب الإرادة كيف يوطى الهدى سجاده

قلت : من لم يحصل مراتب الإرادة ويسلكها جذباً وسلوكاً ، كيف يوطى ، أى يبسط سجادة ويقعد عليها لهداية الناس ، فن فعل ذلك فقد غر الناس ، من لم يصحب العارفين من أهل الكمال لا يفر بأولاد الرجال .

ثم قال :

كيف يدل طرق الأسفار من لم يزل في جحره كالفار

قلت : الجحر بتقديم الجيم هو النار ، وقد تقدم أن الشيخ بمنزلة شيخ الركب ، فلا بد أن يكون عارفاً بالمنازل والمناهل ، قد سلك الطريق وعرفها ، وعلم وعرفها وسهلها ، وأما من كان لازماً بيته قاعداً في جحره كالفار ، فلا يمكن أن يدل على الطريق ، لأنه يتلف من تبعه قطعاً .

قال في بداية السلوك :

أتكتفى بالوصف في المسير فالوصف لا ينفي عن الخبير

قال الشارح بعد كلام العلماء : إنما نبهت على ما تصح به الوجهة إلى الله ، لا عن السر الذي تمتد منه الوجهة ، الذي لا يتصور الكشف عنه إلا لمن انفقاً الحجاب عن عين قلبه ، وكان له نصيب ميراث من فراسة نبيه صلى الله عليه وسلم في أحوال صحابته ، فهذا العام هو الذي لا يمكن التعبير عنه بالمقال ، ولا يصح الأمر حتى يؤمر وينهى ، ويهمل ويمنع ، ثم قال : أرايت لو أن رجلاً أو رجلاً وصفوا لك الطريق من دارك إلى مكة ، وكتبوا لك كتاباً فيه جميع المنازل والمناهل ، والمواضع المخوفة والمأمونة ، ثم تهت ، أينفعك ذلك الكتاب ، وقد أحاط بك بحر السراب ، وانقطعت عن حى الأعراب ؟ بل تدقن بالهلاك وكتابك في يدك ، هذا في الطريق الحسى ، فما بالك في الطريق الباطنى المعنوى الذى هو قليل خطارها ، كثير قطاعها ، اه . بالمعنى .

ومن هذا المعنى قالوا : « إن الميت لا يرى ، لأن من مات لا يدل على الطريق بالفعل ، وقالوا : أيضاً التدى الميت لا يرضع الولد ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

أليس هذا كله محال لم يستقم لشخص منه حال

قلت : الإشارة تعود إلى التقدم إلى الشيخوخة^(١) من غير استحقاق ، وذلك عند أهل الحق

محال ، لم يستقم لمن تبعه حال ، بل ضرره أقرب من نفعه ، لبئس المولى ولبئس العشير .

ثم قال :

يا قاصدا علم طريق السالف لا تقتدى بهذه الطوائف

ما منهم من علم المقصود منه ولا الوارد والمورد

لم يعرفوا حقيقة الطريقه فالقوم جهال على الحقيقة

فاحذرهم خشية يفتنوك واترك سيلا لم يزل متروكا

(١) أى إلى التقدم إلى أن تكون شيخ تربية .

قلت : هذا تحذير من منفرة رفته ، يقول : يا قاصداً علم طريقين الصوفية المتقدمين المحققين لا يقتدى بهذه الطوائف : الجهة المبتدعين ، فليس منهم من علم المقصود من الدخول في طريق القوم ، ولا كيفية الورود ، أى المرور عليها ، ولا مورودها أى مشروبها ما هو ، إذ لا ذرق عندهم ، ولا حال ، وإنما الناس من عوام الجهال ، لم يعرفوا طريقة ولا حقيقة والجاهل لا يقتدى به ، ولا يكون إماماً أبداً ، قال تعالى - قل هذه سبيلي أدعو إلى الله : على بصيرة أنا ومن اتبعني (١) - والجاهل لا بصيرة له .

فإن قلت : قد وجد كثير من الأولياء أميين ، وكانوا أئمة يقتدى بهم في الباطن .

قلت : مثل هؤلاء كانوا منطشين إلى الله ، جادين في طلب الحق ، فلما علم الله صدقهم دلهم على ولي من أوليائه ، فلما كشف الحجاب عنهم ، علمهم الله ما جهلوا ، فكانوا أعلم الناس بالله ، وقد قال بعضهم : ما اتخذ الله ولياً جاهلاً إلا عليه (٢) وغيرهم من فقراء الوقت لم يكن لهم ذلك فبقوا جاهلين ، ثم هذا الذى قاله الناظم ليس على التعميم ، إذ لا تخلو الأرض من قائم لله بحجته ، وشيخ التريية لا يخلو الزمان منه أبداً ، إذ لا يمكن أن يكون القطب إلا بعد التريية ، وهو لا تخلو الأرض منه ، كما هو مقرر عند أهل الفن ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

فإن غدا الأمر عليك مشكلاً وشئت أن تعلمه مفصلاً
فسوف ألقى لك قول الحاذق يفصل بين المدعى والصادق

بنى إذا صار الأمر مشكلاً عندك ، ولم تعلم الصادق من الكاذب ، والجاهل من العالم والمحق من المدعى ، والسنى من المبتدع ، واغتررت بظهور الكرامات ، وكثرة الانباع ،

(١) سورة سيدنا يوسف عليه الصلاة والسلام ، الآية : ١٠٨ .

(٢) وقصة السيد / أحمد الفرغل مع ابن حجر مشهورة ، وذلك أن ابن حجر رأى الفرغل ماراً مع بعض تلاميذه ، فقال - فى سره - : ما اتخذ الله من ولي جاهل ، فكشف الله حاله للفرغل ، فلما رجع لقيه فرد عليه بقوله : اتخذنى وعلنى يا ابن حجر ، بالتصغير ، فرجع عن إنكاره عليه . وفضل الله واسع . والله تعالى أعلم .

وكثرة الطعام ، ولم تدر بمن تقتدى ، فما أنا أخبرك وأنتى إليك قول اللبيب الخاذق يحكم بين المدعى والصادق ، ثم ذكر ذلك القول الفاضل ، فقال :

قول الفقير : لاني فقير فللظهور أبداً يشير

قلت : كون قول الفقير : « أنا فقير يشير للظهور ، ليس على إطلاقه ، بل فيه تفصيل . قال الشيخ زروق رضى الله عنه : أما قول الفقير : أنا فقير فهو إشارة للظهور كما قال ، وذلك محمود ومذموم بحسب قصده ، وهو على ثلاثة أوجه :

أحدها : أن يقصد به التبرى عما كان عليه من الجهالة والنقص ، ليكون له عونا على عدم العود لما كان عليه ، وهذا أمر لا بأس به إن وقف على حده .

الثاني : أن يقوله يستنجد به من عسى أن يرجو فيه خيراً أو طامياً متمرداً ، أو متذكراً يقظان ، أو مريداً متوجهاً ليكون له عونا على البر والتقوى ، فهذا أيضاً لا بأس به إن لم يتعد به محله ، وعلامة صاحب هذين الوجهين : أن يقول ذلك مع انكسار وتبر واستغفار وحده واستبشار .

الثالث : أن يقول ذلك بقصد التبعج والاستتباع ، وإظهار المزيد ، والتعزز بالنسبة والانتساب ، وطلب الرياسة وإشاعة الأمر في العموم ، والتعرض لكل أحد ، والتعريض به ، وشاهد الحال لا يخفى لمخ .

قلت : وذم من هذا وصفه لا يخفى ، وهو الذي يفسر به الناظم ، والله تعالى أعلم . ثم قال :

وبسطه وليس غير عارف مخافة ليست من المعارف
وقبضه وليس ذا إرادة فهو على غير طريق السادة

قلت : للغالب على العارفين البسط فرحاً بالله وبالوصول إليه ، والغالب على المريدين القبض ، لأنهم في محل المجاهدة والمكابدة ، فإذا رأيت الفقير انبسط وانشرح من غير وادد قبل تحصيل المعرفة بالله فبسطه وانشراحه مخافة وحق ، ليست من المعارف ، إذ لا يليق بحاله إلا القبض ، إذ لاحظ للنفس فيه ، وإذا رأيت مقبوضاً ولم تظهر عليه أحوال الإرادة فاحذره ، فهو على غير طريق السادة المتقدمين ، ولا يلزم من الحذر الاستحقار ، فتعظيم النسبة مطلوب .

ثم قال :

وأخذه عما بأيدي الناس دون اضطرار فهو ذو إفلاس

قلت : أخذ المرید من أيدي الناس ، وسؤاله لهم من غير ضرورة ، تدل على إفلاسه .
وأنه فقير بطنه ، يريد جمع الدنيا ، اللهم إن كان قصده إعانة شيخه أو فقير مثله ، فلا بأس
به ، والحاصل أن الفقير لا يقبض لنفسه إلا ما كان مضطراً إليه وإن قبض شيئاً بلا ضرورة
أخرجته عنه سريعاً ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

ولبسه ما كان ذا اشتهاً فسرّه عار عن الأسرار

قلت : لبس الفقير ما فيه الشهرة عند الناس ، إن كان يأخذ من شيخه فلا عليه ، فإن
الشيخ طيب ، وإن كان بغير إذن فلا يخلو من حظ ، فإن النفس تحب أن تعرف ، وقد قالوا :
خالفوا تعرفوا ، فلعلمها تريد ميل القلوب ، فمن فعل ذلك فاحذره ، فإن سره خال من
الأسرار والعياذ بالله ، لأن الصادق لا يحب أن يذكر ولا يظهر ، والسر لا يكون
إلا مدفوناً ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وأكله من سائر المآكل دون انتهاء فهو غير واصل

قلت : الناس على ثلاثة أقسام :

قسم عوام ، لا توجه لهم ، فهم يأكلون كل ما تبيحه الشريعة .

وقسم طارفون واصلون ، تحقق فنازهم وبقاؤهم ، فهم يأخذون من يد القدرة ، فهؤلاء
أيضاً لا كلام عليهم .

وقسم يريدون متوجهون ، فهؤلاء ينبغي لهم ألا يتعاطوا كل ما تشتهى نفوسهم ، بل
ينبغي لهم مخالفتها في ذلك ، إذ لو لم يبادين النفوس ما تحقق سير السائرين ، فإذا رأيت
الفقير يأكل من سائر المآكل ، شهوات وشبهات ، ولا يتحاشى من شيء ، وهو دون انتهاء
في المعرفة ، فهو غير واصل ، لا يأتي منه شيء ، ولا يحصل على طائل ، إلا أن يتوب ،
والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وسمعه موافق الألمان بغير موت النفس فهو عان

قلت : قد تقدم الكلام على السماع ، وحاصله : أن الفقير إذا حصل له الفناء في الذات ، وعرف كيف يسمع ، فالسماع في حقه مطلوب ، لما فيه من زيادة الخيرة ، فإن النفس لما مانت لا تميل إلا إلى الحضرة ، ولا تسمع إلا منها .

قال : بعض من صبح سماعه : أنا لا أسمع من النغم إلا أنا ، أو أنت أنت .
وقال الشنري : أما بالله أنطق ، ومن الله أسمع ، فمثل هذا يزيد بالسماع ما لا يزيد بغيره ، ومن لم يبلغ هذا المقام فالسماع عليه مكروه أو حرام ، فمن رأته يسمع الألفاظ ولم تمت نفسه فهو عان (١) أي في عناء وتعب ، لا يزيده ذلك إلا بعدا ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وحبه السماع لا محاله بقية فيه من البطالة

قلت : السماع إنما هو دواء ورخصة للضعفاء تقوية لحالهم ، فإذا حصل الشفاء استغنى عن الدواء ، فإذا رأيت الفقير يحب السماع ، ويميل إليه على الدوام ، فأعلم أن فيه بقية من البطالة ، والبطالة ضد المجاهدة ، ومن لا مجاهدة له لا مشاهدة له ، ومن لا سير له لا وصول له ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

ورقصه فيه بغير وارد يلبه عنه فقير وارد

قلت : قد تقدم الكلام على الرقص والتحرير فيه ، عند قوله في السماع ، والرقص فيه دين هجم الحال ، إلخ ما يبقى من إعادته .

فرقص الفقير بغير وارد يلبه عن الشعور بنفسه ، فهو غير وارد ، أي غير شارب من شراب القوم ، إلا أن يكون تواجدا أو مساعفة لتواجد ، فلا بأس به ، ولا يترخص على صاحبه .

أو تقول : رقص الفقير أو زحفه أو صراخه من غير وارد ، فهو بدعة غير وارد في الشرع ، والله تعالى أعلم :

(١) العاني هو : الأسير ، والفصد هنا أنه أسير شهواته والشنطان ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وأخذه الخلع بنير الخلع بعد عن الحق بعين الجمع

قلت : قد تقدم الكلام على الخلع ، فإذا رأيت الفقير يأخذ ما خلع عنه من الثياب عند ورود الأحوال بعد أن طرحها عنه ، فهو عائد إلى صدقته ، كالكلب يعود في قبته (١) ، فهو بعيد عن الحق بعين الجمع ، أي حيث يظن الجمع ، يعني أنه بعيد من حيث يظن القرب ، فقيه جهل مركب ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وحطه الرأس بنير جرم على أخيه غير فعل القوم

قلت : قد تقدم أن حط الرأس عند فعل ما لا ينبغي : ليس من شأن الصوفية ، ولا عمل عليه ، فإذا فعله الفقير فقد أخطأ ، إذ ليس نص من الشارع ، فهو قريب من البدعة .

ثم قال :

وقد ذكرنا حكم الاستغفار أعنى القيام ليس عرفاً جارياً

قلت : قد تقدم أيضاً حكم الاستغفار ، وأنه لم يجر به عرف .

قال الشيخ زروق رضى الله عنه : هذه الثلاثة ، يعني أخذ الخلع ، وحط الرأس ، والقيام للاستغفار ، ليس من مطلب الطريقة ، ولا من موجبات الحقيقة ، ولا من أحكام الشريعة ، وإن كان لها وجه من التأويل ، فتركها أولى ، والتسليم للعامل بها لازم لمحل الاشتباه ، والله تعالى أعلم ، اهـ .

ثم قال :

وميله للعرب والأعاجم علة نفس ، وهو فيه آثم

قلت : من شأن الفقير في بدايته الفرار من الناس والاستيحاش منهم ، حتى يتمكن المحصور فيه على التمام ، وحينئذ لا بأس أن يخاطبهم بحسبه ، ويفارقهم بقلبه ، وأما ميله للناس وحب مخاطبتهم فهو دليل على إفلاسه ، إذ الاستئناس بالناس من علامة الإفلاس .

(١) أخذها من حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم : « العائد في هبته كالعائد في قبته » .

وقال بعضهم : من خالط الناس داراهم ، ومن داراهم راداهم . ومن راداهم وقع
فيما وقعوا ، فهلك كما هلكوا ، وقد در الشيخ الحضرمي حيث قال :

عش حامل الذكر بين الناس وارض به فهو أسلم للدينا ولدين
من عاشر الناس لم تسلم دياته ولم يزل بين تحريك وتسكين

وقال بعضهم : من خالط الناس وظن السلامة من الإثم ، فقد رام المحال . كن خالط
النار بالحطب وظن سلامته من الاحتراق .

ثم قال :

سفره إن لم يكن إليه منه فلا حقيقة لديه

قلت : سفر المرید إن كان بالله لله ، قائما عن نفسه ، خاليا من حظوظه ، فهو في غاية
الكمال ، وإن كان بالنفس للنفس ، فهو في غاية النقصان ، وجلس هذا أفضل من سفره ،
وإن كان بنفسه لله ، فهو متوسط ، وسفره أفضل من جلوسه ، ليتحقق كماله ، فنحصل أن
السفر على ثلاثة أقسام : سفر بالله إلى الله ، وسفر بالنفس للنفس ، وسفر بالنفس لله .

فالأول محمود قطعا ، والثالث ملحق به ، والثاني مذموم قطعاً

ومنتزق الناظم هو : الثاني والثالث ، ومفهومه هو : القسم الأول ، لكن الثالث ملحق
بالأول ، كما تقدم ، خلافا لظاهر كلام الناظم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وإن أشار للرام الأول وجهل العقل فعنه فاعدل

قلت : لعله أراد بالمرام الأول : عالم القدرة ، وأراد بالعقل : عالم الحكمة ، فإنها من
مدرجات العقل ، فإذا أشار المرید إلى الحقيقة الأولية ، وجهل ما أدركه العقل من الأكوان
التي وقع بها التجلي فاعدل عنه ، لأنه إن كان مجذوبا فهو ناقص ، وإن كان مدعياً فهو ساقط
فالأكوان ثابتة بإثباته محوأة بأحدية ذاته ، فلا بد من إثبات الواسطة والوسوط ، ونفي
عالم الحكمة يؤدي للزندقة ، لإبطال الأحكام ، والله تعالى أعلم .

وقال : الشيخ زروق رضي الله عنه : إشارته للرام الأول تنبيه على من قال بقول

الفلاسفة من اعتبار العقل الاول ويسمونه : الفعال ، وهو مذهب قاسد خارج عن حدود العقول ، لما تضمنه من قدم العالم ، والقول بمحوادث لا أول لها ، وإليه أشار بقوله : جهل للعقل ، أعنى جهل حقيقته ، حتى سماه بغير اسمه ، وحكم له حكمه اه .

ثم قال :

أوقال بالظهور والحلول فبدعة يقدح في الأصول

قلت : مراده بالظهور : ظهور الذات العالية لبصر الحس ، حتى تدرك بالبصر الحسى ، وقد قال تعالى - لا تدركه الابصار (١) - وإنما تدركه البصيرة ، فإذا انفتحت وقوى نورها استولت على البصر ، فصار الحكم لها ، فالبصر لا يرى إلا الحس ، والبصيرة لا ترى إلا المعنى ، وقد يتلطف الحس فيصير كأنه معنى ، فيكون ما تراه البصيرة في معد العيان ، وهو محل الشهود ، إذ الحس لا يفارق المعنى ، وأما الحلول فمعناه إثبات السوى ، وحلول الألوهية فيه ، وهو كفر صراح ، فن ادعى شيئاً من الظهور أو الحلول فادفعه ، فقد أنى بدعة يقدح في أصول إيمانه ، والعياذ بالله من الزلل .

ثم قال :

وقوله : أنا الذى أهواه قبل للفناء عنه فإقصاه

قلت : إذا قال الفقير : أنا من أهوى ومن أهوى أنا ، قبل تحقق فناءه ، فما أبده عن الصواب ، وإذا تحقق فناءه فلا يقول ذلك إلا مع من يصدقه في حاله ، وإلا تعرض لقنله .

ثم قال :

أو يدعى فى عليه الدنى بلا تنى ، فذاك غير سنى

قلت : متى ادعى الفقير أن له علماً لدنيا ، ولم تظهر عليه تهوى ولا مجاهدة ولا رياضة ، وإنما ذاك خرافات لا طائل تحتها ، ومن ادعى ذلك فهو غير سنى قال تعالى :

- واتقوا الله ويعلمكم الله (١) - فمن لا تقوى له لا يعلمه الله شيئاً ، وقته در القائل (٢) :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأوفاً لي إلى ترك المعاصي
وقال اعلم بأن المسلم فضل وفضل الله لا يؤتاها عاصي

والمراد بوكيع الفقيه المحدث الضابط من أشياخ الإمام الشافعي (٣) .

وفي الحكم ، أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الأسرار وهو لم يتب من هفواته ، اهـ .

ثم قال :

وحكمه إن كان فوق الحال فذاك مقطوع عن الرجال

قلت : ينبغي للفقهاء أن يكون حاله فوق مقاله ، وقدمه أكبر من صيته ، فإذا كان يدعى
مراتب الرجال ويحكم على نفسه بها قبل وصوله إليها بشهادة أهل الفن ، فهو مقطوع عنهم
والعياذ بالله من الدعوى .

ثم قال :

أو قال أنا الشيخ فاتبعوني بغير علم فهو ذو جنون

قلت : للفقير لا يدعى الشيخوخة حتى يأذن له شيخه ، فإذا أذن له فلا بأس أن يعرف
بنفسه لقصد الانباع به ، وأما إذا لم يؤذن له ، أو لم يكن له شيخ ، وقال أنا الشيخ فاتبعوني
فهو أحق بجنون ، سواء كان له علم أم لا ، إذ من لا شيخ له : لا علم له بطريق السير أصلاً ،

(١) سورة البقرة ، الآية : ٢٨٢ .

(٢) هو للإمام الشافعي رضي الله عنه ، والنص الذي نحفظه :

شكوت إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدي لعاصي
والله تعالى أعلم .

(٣) في الأصل ، من أشياخ الإمام البخاري ، وهو خطأ ، لأن وكيعاً توفي عام ١٩٦ هـ
والبخاري ولد عام ١٩٤ هـ فالبخاري لم يره ، رحمه الله الجميع .

ومن لا علم له فهو جاهل ، والجاهل يقود الجاهل ، كالأعمى يقود الأعمى : إلى أين المصير (١) ، وإن لم يأذن له شئنه فهو ذو دعوى ، ومبتلى بهوى ، والهوى شعب من الجنون ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

أو قال صوفي أنا ، ولما يدور حدود النفس فهو أعمى

قلت : إذا قال الفقير : أنا صوفي ، ولم يفرق بين حدود النفس وحدود العقل ، والقلب والروح ، والسر ، فهو أعمى .

أو تقول : لم يفرق بين الروحانية والبشرية ، فهو أعمى عن طريق الخصوصية .
أو تقول : لم يعرف ما فيه ضرر نفسه فينكف عنه ، وما فيه نفعها فيبادر إليه ، ولا شك أن من كان هكذا فهو أعمى عن طريق السير ، إذ السير إنما هو في فعل ما يقتل للنفس ، وترك ما تنهى به ، ومن لم يعرف ما ينفعه وما يضره فلا بصيرة له . فهو أعمى ، وهذا أقرب لشرح النظم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وحبه القوم بلا اتباع ليس له فيه من انتفاع

قلت : محبة القوم فيها خير كثير ، من أحب قوما حشر معهم (٢) ، لكن لا ينتفع بها في طريق التصفية والتهديب إلا باتباع ما أشاروا إليه به ، وأما الجرمة والبركة فتحصل بحول الله : عمل بعملهم أو لم يعمل للحديث (٣) ، والله تعالى أعلم .

(١) إلى حفرة من حفر جهنم يترديان فيها سويًا : القائد الجاهل بالطريق والمقود ، نسال الله تعالى السلامة .

(٢) هذا لفظ حديث شريف رواه الحاكم ، والمروزي في الزوائد على كتاب الزهد ، لابن المبارك ، وبعضه قوله عليه الصلاة والسلام :
« من أحب قوما حشره الله في زمرة » رواه الطبراني ، والفضلاء المقدسي عن أبي فرصاة .

(٣) قال رجل لنبى ﷺ : المرء يحب القوم ولما يلحق بهم ؟ فقال له النبى ﷺ : المرء مع من أحب ، رواه البخارى ، ومسلم ، والإمام أحمد ، والثلاثة عن بن مسعود .

ثم قال :

وفعله ما في عموم الشرع يمنع النص ففعل بدع

قلت : فعل ما يمنع النص في عموم الشريعة حرام ، إلا لضرورة ، فإن الضرورات تبيح المحظورات (١) ، فإن فعل الفقير شيئاً من ذلك فهو بدعي . وأما ما لم يرد نص في تحريمه ولا تحليله ، فإن فعله بنية التقربة فهو بدعة أيضاً لتغييره أحكام الشريعة (٢) ، وإن فعله استراحة للنفس ، أو جلباً لحال ، أو لدواء مرض أصابه فهو مطلوب ، فقد سئل الجنيد عن السماع ، فقال : كل ما يجمع العبد بالله فهو مباح له .

وبيت الناظم فيه تقديم وتأخير ، أي وفعل الفقير ما يمنع النص في عموم الشرع ، ففعل بدعي ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وإن تشيخ بنهر إذن من شيخه باء بكل غبن

قلت : الفقير إذا تشيخ ، أي صير نفسه شيخاً ، وتقدم لمرتبة الشيخوخة من غير إذن من شيخه فقد باء ، أي رجع بكل غبن وخسارة ، إذ لو رآه شيخه أهلاً لها لقدمه لها ، وأما انتقاله منه إلى غيره فهو أقبح (٣) وهو إفساد لبذرة الإرادة ، وهذا في حق شيخ التريّة ، وأما غيره فلا يضره الانتقال عنه ، إذ المريض إذا لم يشف على يد طبيب انتقل إلى غيره وهذا ، أي انتقال المريد لم يذكره للناظم ، وتقدم في محله ، والله تعالى أعلم .

(١) قاعدة فقهية ، ولسكنها ليست على إطلاقها ، وإلما هي مقيدة بقيود ، ونستعمل في أضيق الحدود ، وإذا لم تصادم نصاً شرعياً ، فليرجع في شروطها وقيودها إلى كتب الفقه .

(٢) كل ما لم يرد فيه نص بالتحريم ولا بالتحليل فهو مباح ، والغناء والرقص وما إلى ذلك من أفعال الجبان ، محرم بنص الحديث الشريف : الغناء ينبت النفاق في القلب كما ينبت الماء الزرع ، رواه البيهقي في شعب الإيمان عن جابر ، وخصوصاً في هذا الزمن الذي اتخذوا فيه التصوف تجارة وطبلاً ومزماراً ، وتركوا العمل بالكتاب والسنة ، كفانا الله شرهم .

(٣) لأنها طعن في شيخه الذي أخذ عنه الطريق ، وانشفاق بدون مبرر .

ثم قال :

فهذه وشبهها موانع وهي على الطريق كالتقاطع
هل هي إلا علل في الفقر جالدها كل جليد صقر

قلت : الإشارة تعود إلى كل ما قدمه من الفصل إلى هنا من مساوي. منفقرة الوقت :
يعني أن هذه الأمور التي قدمنا وشبهها هي في طريق القوم : موانع تمنع للتريد من الوصول
إلى مقصوده ، وهي على طريق التصوف ، كاللصوص والقطع ، وما هي أيضاً إلا علل في
طريق الفقر ، فمن جامدها وجاهدها فهو كالصقر ، أي البازي في الشجاعة والزحامة ، والمجاهلة
هي المضاربة بالسيوف ، والرجل الجليد هو الصبار ، أي جالده هذه العلل وصرفها عن نفسه ،
صبار شجاع زعيم ، يفوز بالخير الجسم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

حتى إذا جد لها (١) صريعة لم يتوقع بعدها وقيعة

قلت : التجديل هو الصرع والإسقاط ، يعني أن الفقير إذا غلب نفسه وجاهدها حتى
غلبها وصرعها وقتلها ، أمن حينئذ من غوائلها ، ولم يتوقع منها بعد ذلك وقيعة ، ولا فتنة
أبنة ، وبالله التوفيق .

ثم قال :

يا صاح لا يفتنك الزمان فما لديك الشرح والبيان

قلت : لما لصحك وحذرك قال لك : يا صاحبي لا يفتنك الزمان وأهله ، فقد شرحت
لك أحوال الناس وبينتها حتى تركتك على يينة تعرف منها الصادق والكاذب ، فلا تنتر حتى
يأكلك من والاك ، ولا تسيء الظن حتى آسد باب رحمة مولاك ، وابتغ بين ذلك سبيلا ،
والله تعالى أعلم .

ثم قال :

فالخلق لا يعرف بالرجال واللعين لا تصلح بالمحال

(١) جدله : ألقاه على الجدالة : أي الأرض .

قلت : هذا مثل مشهور ، وهو أن الحق لا يعرف بالرجال ، بل الرجال يعرفون بالحق ، أى باتباعه ، فمن عرف الحق بالرجال أصبح في غاية الضلال ، اعرف الحق تعرف أهله .

وقد قال على كرم الله وجهه : « لو عرفت الله بمحمد ﷺ لما جدته ، ولكن الله عرفه بنفسه فعرفته . ثم عرفت محمداً بآله . »

فانظر هذا المقام الذى لم يحجبه عن الله ولا عن رسوله ﷺ .

وقوله : « والعين لا تصلح بالمحال ، أى ما شاهدته العين وتحققته لم يتطرق إليه محال ولا ريب ، فليس الخبر كالبيان ، فلا تغتر بالسامع حتى ترى بعينك وتحقق ، وحينئذ تقدم أو تأخر ، وفي بعض النسخ : « والعين لا تصلح بالكحال ، بالكاف ، ولعل معناه أن العين للكحلاء غنية عن الكحل . فهى جميلة لا تحتاج إلى أنه يصلحها الكحل (١) ، فكذلك الحق معروف لا يتوقف على معرفة الرجال ، بل معرفة الرجال متوقفة على معرفة الحق ، والله تعالى أعلم . »

ثم قال :

والحق في كل الأمور أولى لو رآه الباطل لاضمحلا

قلت : لا شك أن متابعة الحق والاختصاص به في كل الأمور أولى ، ومتى جاء الحق زهق الباطل واضمحل ، قال تعالى - بل نقذف بالحق على الباطل فيدمنه فإذا هو زاهق (٢) - إذ الباطل لا يقوم للحق أصلاً .

قيل لسهل رضى الله عنه : من أين تأكل ؟ قال : من عند الله ؟ قال : أينزل عليك من السماء ؟ قال : لو لم تكن الأرض له لأنزله من السماء .

قال : أنتم لا تقوم أحد لكم بحجة ، فقال : الحق لا يقوم له شيء . اهـ .

(١) ولم لا يكون . بالكحال ، بتشديد الحاء بعدها أنف . فربما استفهام المعنى ووضح أكثر ، فإن العين لا تصلح بالكحال (أى الذى يحارل لإصلاحها) ، وإنما تكون جميلة تخلقها هكذا ، والله تعالى أعلم .

وقبل المستول حاتم ، والله تعالى أعلم .

ثم قال :

وإذا حلت سنن الأقسام إذن فهك القوس والمراى

قلت : السنن بالفتح الطريق ، وبالأضم جمع سنة ، يقول لما أخبرتك بسنن الصوفية فقد أعطيتك أقواسهم ، وكشفت لك عن مبلغ مرامهم ، وحيث تنتهى سهامهم فلا تغتر بحبال سحرة فرعون وأعصيتهم الباطلة ، وتدع الميل إلى عصي موسى التي هو - تلقف ما يفسدون ، فوقع الحق وبطل ما كانوا يعملون . فقلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين - (١) وكذلك المتشبهة مع سادات الصوفية ، قاله الشيخ عبد الوارث .

ثم قال :

هذا هو الطريق فاقصد جملة فقد جمعنا لك منه جملة

يعنى أن ما ذكرته في كتابي هذا هو أساس الطريقة ، فابن عليه يستقم بنيانك ، وارفض ما سواه تفلح ، فاقصد العمل بما فيه أوجه ، فقد جمعت لك من سنن القوم جملة صالحة ، وبالله التوفيق .

ثم قال :

وقد ذكرنا كل ما اشترطنا وما على آخره أتينا

قلت : أخبر رحمه الله أنه أتى على ما شرطه في أول كتابه من بيان سنن الفقير ، وقد أتى على آخره ، وذكر جميع فصوله الخمسة ، فجاءه الله عن المسلمين خيراً .

وفي أمثاله قال القائل :

جزى الله الرجال جزاء خير في كل ما أظهرنا لنا وأبدرا

لقد عظمت فضائلهم علينا لا للؤمنين هدوا وأهدوا

ثم ختم كتابه بالسعاء ، فقال :

وفقنا الله إلى التوفيق وفادنا لقادة التحقيق

قلت : التوفيق هو خلق القوة على الطاعة ، وقادة التحقيق هم العارفين بالله ، سأل من
الله التوفيق ، وأن يسوقه إلى شيوخ التحقيق ، إذ بذلك يكمل التوفيق ، وبالله التوفيق .

ثم ختم بالصلاة على رسول الله ﷺ ليقبل دعاؤه ، ويقبل على كتابه ، فقال :

وبعد هذا صلاة الله
تتري على الهادي العظيم الجاه
ما فردت ورقاء في الأغصان وحن مشتاق إلى الأوطان

قلت : تتري أى يتبع بعضها بعضاً ، والتغريد الصباح بصوت حين ، والورقاء بالمد
الحمامة ذات النقط في ريشها .

وقوله : العظيم الجاه ، أشار به إلى حديث عنه صلى الله عليه وسلم : « توسلوا بجاهي فإن
جاهي عند الله عظيم » .

وفي حديث آخر مكتوب تحت ساق العرش : من اشتاق إلى رحنى رحته ، ومن
سألنى أعطيته ، ومن توسل إلى محمد ﷺ لم أخيه .

الهم إنا توسلنا إليك بجاه حبيبك مولانا محمد ﷺ أن تمنح أسرارنا بمعرفتك ، وتنزه
أفكارنا في رياض قدسك ، وأن تحفظ قلوبنا من الميل إلى غيرك ، نحن وأحبائنا ومن
تعلق بنا آمين .

ثم أيد هذه الصلاة بشيئين أحدهما فان ، والآخر باق .

فالاول : تغريد الحمام في الأغصان ، والثاني حين المشتاق إلى الأوطان ، فإن الأرواح
تحن إلى أوطانها على السوام ، ولو بعد الحمام ، ولو اتصلت بالنعم الروحاني المقيم ، فلا بد أن
يبقى معها الاشتياق إلى الترقى ، والنظر أبداً ، والفرق بين الشوق والاشتياق ، أن الشوق
يزول بالملاقاة ، بخلاف الاشتياق ، فلا يزول بالوصول ، وإلى ذلك أشار ابن الفارض بقوله :

وما بين شوق واشتياق فئت في تول بخطوة أو نهمل بحضرة

ثم ختم بالحمد كما بدأ ، ليكون الكتاب مكتئفاً بالحمد ، فيعظم خطره ، ويرفع
قدره ، فقال :

والحمد لله الذي ختمنا بحمده كما به بدأنا

قلت : حمد الله على توفيقه الحمد لله في البداية والنهاية ، وذلك من علامة بلوغ الامل والمرام ، وقد تقدم الكلام عليه في أول الكتاب فلا نعيد .

والحمد لله الذي هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله .

وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم تسليما ، والحمد لله رب العالمين .

هذا آخر التعليق المبارك، نسال الله سبحانه أن يتقبله بأحسن قبول ، وأن يبلغ به من طالعه أو سمعه كل مقصد ومأمول ، بجاء الحبيب الاعظم والرسول الاكثم سيدنا ومولانا محمد سيد العرب والعجم ﷺ وعلى آله وأصحابه أولى النزاهة والفضل والكرم .

ووافق الفراغ من تبييضه عشية يوم الخميس ، أوسط شهر رمضان سنة إحدى عشرة ومائتين وألف .

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين ، وصلّى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وإمام المرسلين ، والحمد لله رب العالمين .

وصلى الله على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلم تسليما

٩	لو كان التصوف فى أربعة أركان	قديم	
١٠	صحة العارفين ومكانتها فى الطريقة	٧	مقدمة المؤلف
١١	كيف يقبض الله العلم ؟	٨	الكلام على بسم الله الرحمن الرحيم
١٢	هل بقى أحد من محققى هذه الطائفة	٩	كيف كان يقرؤها المازرى خروجاً من
١٣	طريق القوم ، وهل هى باقية الآن ؟		للخلاف
١٦	معنى الرسوم والحدود	٣	الكلام على حديث «كل امرئ ذى بال»
١٦	هل يؤخذ التصوف من الكتب أم من	٣	من أراد أن يحيا سعيداً
	أهل الأذواق ؟	٣	من لم يستعن بالله ، كيف هو ؟
١٧	معنى « مسألة معتصة »	٣	من تبرك باسم الله لا يلحقه خلل
١٧	معنى قوله صلى الله عليه وسلم « ان	٤	الكلام على الحمد لله
	من العلم كهيئة المكنون »	٤	الحمد لغة
٢٠	معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من	٤	الحمد عرفاً
	سئل عن علم نافع فكتبه »	٤	الفرق بين الحمد والشكر
٢٠	من سلك مسلك الجنيد رضى الله عنه	٥	أحسن ما قيل فى الشكر
٢١	برنامج الكتاب وأنه محصور فى	٥	النهج ، ما هو ؟
	خمسة فصول :	٥	الكلام على الصلاة على النبى ﷺ .
	أصله - فضله - أحكامه - الرد على من	٦	أقسام المصلين على النبى ﷺ .
	رده - كيف صار .	٦	معنى قوله صلى الله عليه وسلم « كل
٢١	الكلام على أصله ، موضوعه -		الصيد فى جوف الفرا »
	ثمرته - نسبته - اسمه - استعداده -	٢٠	الكلام على قول سيدى أبى العباس
	حكم الشارع - مسأله - فضله - حده		المرسى : لو غاب عنى رسول الله ﷺ
	الفصل الأول : فى أصله من ٢٤ - ٥٦		طرفة عين ما عددت نفسى من
٢٤	طريقة الصوفية ، ما هى ؟		المسلمين .
٢٦	معنى إن الله خلق آدم على صورته .	٧	معنى السنن (بضم السين) والسنن
٢٩	قدر الإنسان من المر		(بفتحها)
٣٥	تطورات الروح	٧	معنى الصوفى ، والفقير .
٣٦	عوائق عن الله سبحانه وتعالى	٧	سنن الفقير
٤١	البطالون ويساتين العارفين	٧	شروطه
٤٢	المدعون وأهل الطريق الحق	٨	آدابه
٤٣	المدعى : سارق	٨	القصد الصحيح
٤٥	جنة الزخارف وجنة المعارف	٨	الأحوال الزكية
٤٦	الأنس بالله هل يحويه البطالون ؟		

٤٧	أهل التصوف من جهة دليل الشرع	٨٢ - ٤٦٨	الفصل الثالث : احكامه من ص ٨٢ - ٤٦٨
٤٩	أهل الصفة والتخلق باخلاق النبي صلى الله عليه وسلم	٨٣	ما المراد بالاحكام ؟
٥١	أهل الصفة تركوا أموالهم وديارهم وخرجوا عنها لمرضاة الله	٨٣	مذهب الصوفية الأخذ بالاحسن
٥٢	شأن الصوفية ليس محدثا ، إنما هو الاقتداء بالصحابة رضي الله عنهم	٨٤	مذهب المحدثين أحسن المذاهب في فضائل الأعمال
	الفصل الثاني : فضله من ٥٧ - ٨٢	٦٨	السفر المعنوي
٥٨	شرف التصوف وفضله وفضيلته	٧٨	من لا شيخ له في الطريق
٥٨	حجة من يرجح الصوفية	٩٠	المريد على قسمين
٥٩	من خصائص رسول الله ﷺ التي لا يشاركه فيها أحد	٩٠	مريد مجازي
٦٠	طريق القوم واحدة	٩٠	مريد حقيقي
٦١	اختلاف الأمة رحمة	٩٠	المجذوب
٦٣	المنازل الثلاثة : الاسلام ، والايمان ، والاحسان	٩٢	يشترط في الشيخ أن يكون ماهرا بالطريق
٦٥	عالم الأشباح وعالم الأرواح	٩٣	المواضع المأمونة في طريق القوم
٦٨	قواطع الطريق	٩٥	علامات الشيخ
٧٠	قوة اليقين أصل كل عمل صالح	٩٥	من الذي يقتدى به والذي لا يقتدى به ؟
٧١	اختلاف الفرق في المجاهدة	٩٦	ما شرطه الشيخ الشريفي في شيخ التربية
٧٢	الذكر مصقلة القلوب	٩٧	من شروط الشيخ أن يعرف ما لا به منه من الكتاب والسنة
٧٤	معنى قوله ﷺ : « لا تزال طائفة من امتي ظاهرين »	٩٧	الشيخ الكامل يمد تلميذه ولو كان بعيدا عنه في الحص
٧٥	التربية المصطلح عليها بين القوم ، متى ارتفعت ؟	٩٧	من أقوال أهل الطريق في الشيخ الموصل إلى الله
٧٦	نور النبوة في الزيادة لا في النقص	١٠٠	دوام السير يوجب الملل
٧٩	الذرة من أعمال القلوب أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح	١٠٠	أريحوا القلوب : ساعة فساعة
٨٠	الصوفي اجتمعت فيه كل عناصر الخير	١٠٠	من حسن سيامة الشيخ إعانة النفوس
٨١	فضل علم التصوف لا يفكره إلا أعمى لا يرى النهار	١٠٢	السفر المطلوب هو سفر القلوب
		١٠٣	متى يبصر الطبيب إذا كان مريضا
		١٠٤	كان رسول الله ﷺ يعرف أوضاع الناس وما يصلح لها

- ١٠٥ من اوصاف الشيخ (الطبيب) العلم والعمل
- ١٠٨ علم تشريح الابدان ، والكلام على الطب عموما
- ١١٥ علم طب القلوب
- ١١٦ حكم الاجتماع
- ١٢١ الالفة في طريق القوم
- ١٢٢ صحبة الجبال اذى صرف
- ١٢٧ لبس النبي ﷺ كل الألوان
- ١٣٠ لم لبس القوم المرقعات ؟
- ١٣٤ البطون حرب الشيطان
- ١٣٩ ما كان النبي ﷺ يدخر شيئا
- ١٤٠ خبايا الصوفي خزائن الله
- ١٤٢ ما هو الورع
- ١٤٥ وجوب اجتناب طعام الظلمة جميعا
- ١٤٥ انظر كلام الشيخ العارف بالله زروق على طعام اهل الجور والظلمة
- ١٥٢ كراهة البطنة
- ١٥٤ فوائد الجوع
- ١٥٧ آداب القوم في الاكل
- ١٦٠ الزهد عند القوم : ما هو ؟
- ١٦١ للطريق ظاهر وباطن
- ١٦٢ آداب اللسان
- ١٦٢ آداب السماع
- ١٦٣ آداب القلب
- ١٦٤ الاخلاق عند القوم ، ما هي ؟
- ١٦٥ لم سمى الحال حالا
- ١٦٦ ادب الظاهر عنوان ادب الباطن
- ١٦٨ السؤدد
- ١٦٨ الادب مع الاشياخ
- ١٦٨ الادب مع المسلمين
- ١٧١ متى ينفع الوعظ
- ١٧٥ الانصات عند المذاكرة
- ١٧٧ الفقراء لا يداهن بعضهم بعضا
- ١٧٩ آداب الاخوة
- ١٨٣ الكلام على السماع عند القوم
- ١٩٠ الحال الربانى كالمطر
- ١٩٢ حكم الرقص ، وانه مردول عند
- ٢٠٤ حكم السفر للقُدوم على المشايخ وآ
- ٢٠٥ الكلام على الاستخارة
- ٢٠٨ سنة الفقراء في بدايتهم
- ٢٠٨ أول سنة الفقراء : زيارة الشيوخ
- ٢٠٩ ثانيها : زيارة الاخوان
- ٢١٠ ثالثها : اقتباس العلم النافع
- ٢١١ رابعها : اقتباس الاثر
- ٢١١ خامسها : رد المظالم
- ٢١٢ سادسها : الاعتبار
- ٢١٣ سابعها : الخمول
- ٢١٣ ثامنها : نفى الجاه
- ٢١٣ تاسعها : السفر لزيارة رسول الله
- ٢١٣ عاشرها : زيارة البيت الحرام
- ٢١٦ عقود الوالدين واقسامه
- ٢٢٠ آداب القوم فيها
- ٢٢٥ السؤال
- ٢٢٩ المسائل كدوح
- ٢٣١ السؤال عند الفاقة
- ٢٣٤ الاشتغال بالعبادة من أعظم أسباب القرب
- ٢٣٦ درجات التوكل ثلاثة
- ٢٣٦ الاولى : ان يكون في حق الله والثقة بكفالتة وعنايته كحاله بالوكيل
- ٢٣٦ الثانية : ان يكون حاله مع الله كالطفل مع امه

- الثالثة : ان يكون بين يدي الله تعالى
مثل الميت بين يدي الغاسل
من هو المرید ؟ وما معنى الارادة
فائدة الشيخ
الناس ثلاثة : طالبون ، ومریدون ،
ومرادون
اصل اخذ العهد وشروطه
الانقياد الى طلب الافادة
متى يسمى المرید مریدا
الصمت وفوائده
اعمال الباطن
ما ذكره المسلمى رضى الله عنه عن اخلاق
النفس
الرضا عن النفس اصل كل البلايا
موت النفس وكيف يكون ؟
عمل اهل الاستشراف
ثمرة الزهد
العواذل والرقباء ، من هم ؟
ما قاله ابن خلدون فى قتل الحلاج
معنى قولهم خضت بحرا وقفت الانبياء
ساحله .
عنى « مقام البقاء »
لانكار على الاولياء سنة ماضية
لمسلة هذه الطريقة
كلام على حديث « انا مدينة
علم »
فصل الرابع من ص ٢٦٨ - ٢٣٨
نبیح من انكر على الطريق
فضيل العارفين بالله على العارفين
حكام الله .
كلام على قول ان العمل المتعمد
فيل من القاصر
- ٢٧٤ أسباب انكار العوام على الخواص
٢٧٨ الجهال بهائم فى صور رجال
٢٧٨ اصل الروح
٢٨١ معنى قول الامام الشاذلى رضى الله
عنه « غب عن اصلاح ظاهرك ان اردت
فتح باطنك »
٢٨٤ كل ما يشغل عن الترقى فهو فضول
٢٨٩ الابصار بنور البصيرة
٢٨٩ حال أشقياء الناس
٢٨٩ حال من يحمد الدنيا لشيء يمره
٢٩١ من هو صاحب العقل ؟
٢٩١ التنافس فى الطاعات
٢٩٢ معية الأكوان لك ، ما هي ؟
٢٩٢ مسابقة الانسان والكون
٢٩٣ معنى حديث « الدنيا طالبة ومطلوبة »
٢٩٤ ملوك الدنيا واولياء الله تعالى
٢٩٤ من يخرج الداء من القلب
٢٩٥ معنى حديث « الناس نيام »
٢٩٥ سبب اعراض المعاتب وعدم انزجاره
٢٩٧ الفرق بين العالم الروحانى والعالم
الجسمانى
٢٩٧ من اصطلاحات الصوفية
٢٩٧ احكام الحس مضادة لاحكام المعنى
٢٩٩ من اشتغل بحلاوة الرسوم لا يذوق
حلاوة الشهود
٣٠٠ سبب الانكار على اهل الطريق
٣٠١ اصل الروح (وقد مر الكلام عليه
ص ٢٧٨) .
٣٠١ كلام المشتري فى هذا المعنى
٣٠٢ تنبيه وايقاظ للغافل
٣٠٣ تفصيل جسم الانسان وما فيه من
العجائب

- ٣٠٦ موكب الابداع - الكلام على نور النبي صلى الله عليه وسلم
- ٣٠٧ مما قيل في معنى قوله تعالى - فانا اول العابدين - مجود نور النبي ﷺ رب العالمين
- ٣٠٨ خلق الله الوجود كله على صورة الادمى
- ٣٠٨ معنى اشتغال الانسان على العالم العلوى والسفلى
- ٣١١ معنى قول ابن الفارض « وانى وان كنت ابن آدم صورة »
- ٣١٤ عداوة النفس تمكنك من نواصى الخلق
- ٣١٦ العلم يظهر النفوس من ظلمات الجهل والشرك والشك - المنتقد على الصوفية ويعدده عن فهم الاشارات
- ٣١٧ ضعف عقول بنى آدم
- ٣١٧ لا فرق بين النفس والعقل والقلب والروح والسر
- ٣١٧ النفس وحد ادراكها
- ٣١٧ العقل وحد ادراكه
- ٣١٨ القلب وحد ادراكه
- ٣١٨ الروح وحد علمها
- ٣١٨ السر وحد ادراكه
- ٣٢١ معنى قولهم : « دائرة الولى اوسع من دائرة النبى »
- ٣٢٢ الفرق بين العالم والعارف
- ٣٢٣ حقيقة العارف
- ٣٢٤ ثلاثة اصناف لا ينالون من هذا الطريق شيئا
- ٣٢٥ ابتلاء الصوفية بالخلق
- ٣٢٥ احتجاب الاولياء من الصامة لطيف كبير من الله تعالى
- ٣٢٢ التحقيق فى مسألة الجبر والاختيار
- ٣٢٩ بحر للقدرة وبحر للحكمة
- ٣٣٠ مناداة الحكمة والقدرة كل منها على الاخرى
- ٣٣١ معنى قوله تعالى - لينفق ذو سعة من سعته - فى علم الاشارات
- ٣٣٢ المعانى رسوم الاوانى
- ٣٣٣ تعلق علم الحقيقة وعلم الشريعة
- ٣٣٥ معنى قولهم : العلم كله فى كلمتين : لا تتكلف ما كفيت ، ولا تضيق ما استكفيت
- ٣٣٥ الكلام على تكفير الصوفية
- ٣٣٨ من اراد ان ينهل من موارد المواهب
- الفصل الخامس من ص ٣٣٩ - ٣٧٥
- ٣٣٩ فقراء العصر ومتشبهوا الوقت
- ٣٣٩ احوال محققى الصوفية واحوال شيوخ التربية
- ٣٤١ ما لا يقتضى انكاره على الصوفية قسما
- ٣٤٢ لا مبيت للشيطان على دخول قلوب الاولياء
- ٣٤٣ ما هو طريق الصوفية ؟
- ٣٤٤ طريق التصوف مشارب ومناهل
- ٣٤٤ طريق الصوفية مؤسسة على الكتاب والسنة
- ٣٤٥ من دخل الطريق حبيت روحه
- ٣٤٧ لم يبق من الطريق الا الاكل والرقص والزمار (الغناء) وهو حرام بلا كلام
- ٣٤٧ طريق القوم مبنية على تصفية القلوب ورياضة النفوس
- ٣٤٨ خسارة الهمة

٣٤٨	نقض الأدول والأركان	٣٦٠	معنى ان الميت لا يربى
٣٤٩	اثبتوا فيها ما ليس منها	٣٦١	الغالب على العارف البسط
٣٥٢	الكلام على الولاثم	٣٦٢	هل الفقير ما فيه الشهرة عند الناس
٣٥٤	مذهب الصوفية الالفة والموافقة قلبا	٣٦٢	عوام الصوفية
	وقالبا	٣٦٢	ما ينبغي للمريد المتوجه
٣٥٥	من لم يكتب الحديث ويجالس العلماء	٣٦٥	شان الفقير المتوجه : ما هو ؟
	لا يقتدى به	٣٦٨	الفقير لا يدعى الشيخوخة
٣٥٦	علامة شرح الصدر	٣٦٩	محبة القوم فيها خير كثير
٣٥٧	معنى قوله ﷺ من عرف نفسه		ينبغي للفقير الا يفتنه الزمان .
	عرف ربه «		ختم المؤلف بالحمد لله تعالى والعملة
٣٥٧	وجه الاستدلال على معنى هذا		على رسول الله ﷺ كما بدأ ...
	الحديث		
٣٥٨	الكلام على الحديث من حيث الثبوت		
	وعدمه		

تم بحمد الله

كتاب

(الفتوحات الإلهية)